محمد السوادي





الرجل الذى تآمرت عليه

محمد السوادى

الرجل الذى تآمرتُ عليه

قبل الثورة.. كنت – مثل كل مواطن – أهفو الى الثورة..
فلما أعلنوها .. أحسنت تلقيها ..
ثم عدت .. فتشككت فيها ..
ثم عدت .. فدنوت منها ..
ثم عدت .. فرددت عنها ..
ثم أوغلت فى الرده .. فكفرت بها ..
ثم ولغت فى الكفر .. حتى تآمرت على صانعها ..
ثم بدأت أصحو . . . . . .

المؤلف

[الطبعة الأولى]

ملتزم الطبع والنشر

المطبعة العالمية ١٦ و ١٢ شارع ضريح سعد بالقاهرة

الإهداء

- إلى كل من ضل .. صادق الضلة ..
  وهو يحسب أنه يحسن .. إلى الحق أو إلى الخير ..
- إلى كل من ضل .. صادق الضلة ..
  ثم عرف الطريق .. ولم يجد من يعبد له الطريق ..
- إلى كل الذين ودوا لو أقدموا على « إشهار إيمانهم » ولكنهم يترددون ..

إليهم جميعاً أهدى كتابى ؟

محمد السوادى



يا أخي العربي الصاعد

يا مشدود القلب والضمير . . إلى الحلم الكبير . . الذى يتحول فى عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرؤوس . ويا مشدود الساعد والتفكير .. إلى المجتمع الجديد .. الذى تراه اليوم رأى العين وهو يقوم .. **تقبل يا أخي مني هذا الكتاب**

* * *

وأعتقد يا أخى أنه كتاب « مثير » ؟

« مثير » بالصدق « الرهيب » الذى توخيته فيه ..

« ومثير » .. بالعنوان الغريب الذى وقع اختياره علىّ .. من قبل أن يقع اختيارى عليه .

* * *

ويغلب على الظن يا أخى .. أن سراً من أسرار هذا الكون لا أدريه هو الذى يدفعنى إلى إخراج هذا الكتاب .. وعلى هذا النحو .. وفى هذا الوقت .. و « الثورة الصبية » ترفل فى « ثوبها الجديد » .. الذى اختاره لها « أبوها » .. هدية منه لعيد « ميلادها العاشر » .

واعنى به « الميثاق »

* * *

و « الميثاق » لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى من « الرجل الذى

تآمرت عليه » وإنما كان ذروة هذا التحول .

لم يكن أبداً « بداية » الطريق .. وإنما جاء « نهاية » للطريق .

بل أتخيل أحياناً أن « الميثاق » كان اليد القوية التى أمسكت بيدىّ .. وظلت تضغط .. وتضغط .. فى حزم المربى .. وفى حنان الوالد .. فلما جثوت على ركبتى فى محراب الحق .. وملأ المحرابَ نور .. صاح صاحب اليد القوية فىّ : « اسجد واقترب » .

و « الميثاق » — إذن — كان له الأثر الأخير فى تحديد مكانى عند مفارق الطرق .. الطرق التى ظللت أضرب فيها على غير هدى عشر سنوات كاملة تستقيم بى حيناً .. وتلتوى علىّ أحياناً .. أهتدى مرة على أضواء من الفكر النير .. أو من العمل المثمر .. فأكاد أؤمن .. وأضل مراراً على نعيب الخصوم وهم يثيرون الشكوك .. وينشرون الأكاذيب .. فأكاد أكفر .

* * *

والكتاب — إذن — هو حصيلة التقدم والتخلف .. وحصيلة الدراسة والترصد .. وحصيلة الخصومة التى بلغت يوماً حد التآمر .

وأنا اليوم .. أجىء قومى بهذا الكتاب .. لأقول لهم فيه « بعض الحق » الذى يجب أن يقال .. ومدى علمى أن الإنسانية لا تعرف فى تاريخها الطويل طريقاً أشد إمتلاءً بالشوك .. من « طريق الحق » .

جئت أحدثكم عن « المراحل » التى مر بها هذا « التحول » .. بما فيها « المؤامرة الكبرى » التى شاركت فيها .. و « يدى » الذى قيل إنه أعد للمتآمرين على « ناصر » وتسليحهم .. وأسموه فى التحقيق والمحاكمة « البيت الكبير » فدخل البيت المسكين تاريخ المتآمرين من باب لا أريد أن أسميه ..

جئت أحدث الجماهير الكادحة .. والطلائع المقاتلة .. فى أرجاء الوطن العربى

كله .. ببعض ما اختزنته من حقائق .. وببعض ما اجتزته من تجارب .. وبكل ما خرجت به من نتائج .

***

ولقد قيل الكثير عن « **القدر** » .. وعن « **الرجل** » الذى كان على أكثر من موعد معه وأنا مؤمن بكل ما قيل ..

ويكفينى أن أدلل على دقة الحساب فى كل موعد أعطاه « **القدر** » .. لهذا «الرجل» بواقعة واحدة.. ذات ثلاث شعب : « **الأولى** » تقاس بمقياس « **السنة** ». و « **الثانية** » تقاس بمقياس « **الشهر** » و «الثالثة» تقاس بمقياس « **الأحداث** » .

***

قرأت مرة .. فى كتاب من الكتب .. أن جمال عبد الناصر .. كان طالباً فى « مدرسة النهضة الثانوية » سنة ١٩٣٥ وأن فريق التمثيل بها .. أراد أن يخرج تمثيلية « يوليوس قيصر » .. وأن المشرفين على الفريق من الأساتيذ .. لم يجدوا من بين التلاميذ .. من يصلح لأداء دور **القيصر يوليوس** .. غير **التلميذ جمال** .. وأن وزير المعارف يومئذ — **نجيب الهلالى** — شهد الحفل وهنأ الطالب .

والواقعة فى ذاتها عادية ..

ولكنى أجمع بينها وبين أرقام تعرفونها وأعرفها لأسأل :

(١) هل كان « القدر » يغط فى النوم .. عند ما أذن لجمال فى أن « يولد » فى سنة ١٩١٨ .. ثم أذن له فى أن « يمثل » دور « الحاكم » فى سنة ١٩٣٥ وأمام الهلالى الوزير .. ثم أذن له — أى لجمال — فى أن ينتزع زمام الحكم « الحقيقى » من يد « الهلالى » نفسه فى سنة ١٩٥٢ و بين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً على التحديد ؟

(٢) و إذا نحينا عن الحديث لغة السنين .. وتحـدثنا بلغة الشهور ..
فإنى أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » يغط فى النوم .. عند ما أذن لجمال فى أن « يولد » فى شهر يناير .. وفى أن « يمثل » دور « القيصر » فى شهر يناير .. وفى أن « تحرق القاهرة » فى شهر يناير .. وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً على التحديد ؟ وكلنا نعرف أن « حريق القاهرة » .. كان إيذاناً « باندلاع الثورة » فى « يوليو » من نفس « العام » .

(٣) و إذا نحينا عن الحديث لغة السنين والشهور .. وتحدثنا بلغة الأحداث
فإنى أيضاً أسأل :

— هل كان « القدر » يغط فى النوم .. عند ما أذن لجمال فى أن يولد فى سنة ١٩١٨ .. وعند ما أذن لسعد زغلول وصاحبيه أن يتجهوا إلى دار العميد البريطانى سير ونجت فى نفس العام ١٩١٨ ليطالبوه باسم الشعب باستقلال مصر الذى لم يتم إلا على يد الوليد سنة ١٩٥٢ ؟ ثم هـل كان « القدر » يغط فى النوم عند ما أذن لجمال أن يتزعم طلاب المدارس الثانوية فى ثورة سنة ١٩٣٥ ليرغموا الزعمـاء على التكتل فى جبهة وطنية تواجه المحتل والملك فؤاد يحتضر .. ثم أذن له فى أن يتزعم الطلائع الثورية فى سنة ١٩٥٢ ليجهز على الملك المنحل ابن الملك الذى كان يحتضر .. وبين كل تاريخ وأخيه سبعة عشر عاماً أيضاً ؟

أفكان هذا كله من قبيل الصدف ؟ أم كان للقدر يد فيه ؟

***

فى حدود المنطق بل فى حدود الصدف أيضاً — وللصدف قوانينها — لا يسعنى إلا أن أقرر أن « جمال » كان على موعد مع « القدر » وعلى الصعيد البطولى

فى كل حركة قام بها . . وفى كل ضربة سددها . . وفى كل معركة خاضها . . وفى كل انتصار أحرزه .. وأخيراً فى كل الفوارق التى شرع يذيبها .. وفى كل المتناقضات التى بدأ يزيلها .. ليقيم على أنقاض الماضى المعتم .. دولة قوامها الفلاح والعامل .. وليمهد لانطلاقة التجربة الجديدة والتجربة المثيرة .. من هذه القاعدة ومن هذه الطليعة — داخل إطار « **العهد الوثيق** » — إلى الرقعة الفسيحة والأمل العريض . . من الخليج إلى المحيط .

***

ومن كلمتى « العهد الوثيق » ألتقط أول الخيط .. وألف به على يدى حتى لا يفلت منى .. قبل أن أضمن « التمهيد » لفتة مستأنية إلى ثغرة فى هذا « الميثاق » .

ثغرة بل هوة ؟

نعم .. أحب أن أصارحك بأن فى « الميثاق » ثغرة كبيرة . . وأخشى أن أقول « هوة سحيقة » لم يشأ « صاحب الميثاق » أن يقيم فوقها « معبراً » فدار من حولها دورة بارعة .. ومضى إلى ما هو — فى تقديره — أولى بالرعاية .

وأنا أباشر حرية **الكلمة** التى كفلها **الميثاق** .. فأعلن — فى حمايتها أنى لا أقر « **صاحب الميثاق** » على « **حركة الالتفاف** » التى قام بها من حول هذه « الهوة » الخطيرة .. وتركها مفتوحة أو مكشوفة .

وأعنى « بالهوة » .. عناية « الميثاق » بإبعاد « صاحب الميثاق » عن « الميثاق » .. بل بإبعاد كل « **ظل** » لواضع الميثاق عن كل « **سطر** » فى الميثاق ... ورد كل « **فضل** » إلى « **الشعب** » .. وبتجريد صاحب الميثاق من أى « **فضل** » .

***

هذه « الهوة » قد تلاقى ترحيباً عاطفياً أو انفعالياً بعض الوقت ومن بعض الناس ، ولكنها تحدث مع الزمن « **فراغا موضوعيا** » يهدد البناء من الأساس .

وأدخل ما يكون فى معنى « الصدق الرهيب » الذى أتوخاه فى هذا الكتاب أن أنبه على خطورة هذا « الفراغ ».. ولا أتملق فضيلة التواضع أو نكران الذات .. لأنها تحجب « الرؤية » عن هذه « الهوة » .

☆ ☆ ☆

وواضح أن « صاحب الميثاق » يخشى إذا هو أطل برأسه على « الشعب » من خلال سطور الميثاق .. أن ينصرف الشعب عن « القاعدة » إلى « القمة » وعن « المذهب والعقيدة والبناء » إلى « الرجل » الذى نشر المذهب .. و بشر بالعقيدة .. وتولى البناء .

وقد يكون الرجل فى « تواضعه » .. منطقياً مع « واقعه » !

وقد يكون فى هذا « السلوك » متأسياً بـ « صاحب الشريعة » عند ما نهى المسلمين عن أن يسودوه .. خشية أن يرتدوا إلى « الوثنية » و يعبدوه .

ولكن القياس هنا لا محل له مطلقاً ..

محمد بن عبد الله .. كان رسول الله .. لأن الله خلقه ليكون خير خلق الله .. وليخرجهم من الظلمات إلى النور .. لا ينطق عن الهوى .. ولا يملك أن « يغير » فى « النصوص » أو « يحيد » . ولا يملك أن « يخطىء » فى « التفسير » أو فى « التطبيق » .. لأنه « من المرسلين على صراط مستقيم » .

أما « صاحب الميثاق » فمؤمن بالله و برسول الله .

ومواطنوه مؤمنون .. والحمد لله .

وهو « مواطن عربى » يحمل « رسالة عربية » يدعو فيها إلى « وحدة العرب » .

و « صاحب الميثاق » درس التاريخ ووعاه .. وكان « أستاذ تاريخ » فى « أمسه » فهيأه القدر ليكون « صانع تاريخ » فى « غده » .. فعاش معنا بكل قدراته فى

« الوحل » وعانى معنا بكل طاقاته « ظلمة الليل » .. واستكشف لنا بكل مواهبه « خصائص العروبة » .. وخاض بشخصه مع « الجيوش العربية السبعة » .. تلك الحرب « المهينة » .. فى فلسطين « الشهيدة » .. بكل ما انطوت عليه من غدر المستعمر .. وخيانة الحاكم .

« وانفعل » بهذه « التجارب » .. فملأت رحاب نفسه « عقيدة » .

« ولاح » أمام ناظريه « اتجاه » .. فكان « مذهب » .

وأمعن فى تحديد « المذهب » .. فاستقامت له « فلسفة » .

و « خطط » للمستقبل بكل آماله .. وتجاربه .. وأحلامه فكان « ميثاق »

***

هو — إذن — صاحب الفكرة وفيلسوفها .. ومحدد أبعادها وواضع إطارها
وهو — إذن — راسم « التصميم » .. ومرسى الأساس .. والمهندس والبناء ..
فهل كان يمكن أن يتم ما تم من البناء .. على يد غيره من المواطنين ؟
هذا هو السؤال ..

***

صحيح أن واضع الميثاق .. إنما استوحاه .. من شعبنا و « تاريخ نضاله » .

ولكن أكثر صحة .. أن الشعب كان موجوداً دائماً .. ولم يحدث على طريق تاريخه الطويل .. أن ضن بأى تأييد أو تجاوب .. على أى زعيم تصدى مخلصاً لقيادته فلماذا لم يتم على أيديهم — وفيهم الأكفاء ومنهم العباقرة — ما تم على يد هذا « الشاب » النابع من صميم « القرية » ؟!

ونحن — إذن — أمام « ظاهرة » تستأهل اللفت والدراسة .. أو فى القليل أمام « سر » لا ندريه « ربط » بينه و بين « المجتمع الذى يبنيه » .

ونحن — إذن — أمام « ارتباط » لا انفصام له بين « القاعدة والقمة » .

و « خطيئة » لا تعدلها خطيئة . . ألا ندرك هــذه « الحقيقة » مهما يحاول « صاحب الميثاق » أن « يتسحب » من « الميثاق » .. خشية انصراف الشعب عن « العقيدة والهدف » إلى « عبادة البطل » .

خطيئة لا تعــدلها خطيئة .. لأن « العقيدة » — هنا — إنما قامت أصلا على « المزج » بين « البطل والشعب » .

و « تجاهل » هذا « المزج » لا بد أن يجرد العقيدة من أحد عنصريها .. كما تجرد « الـكهرباء » من « السالب » فيها أو « الموجب » فلا تبقى « كهرباء » .. أو كما تفصل بين « عنصرى الماء » .. فلا يبقى ماء .

* * *

وقد يسأل سائل عن « مصير العقيدة » بعد « هذا الجيل » ؟

والجواب تولاه الميثاق . .

« الميثاق » يبنى « دولة » ولا يبنى « بطلا » ..

والبطل واضع الميثاق سيذوب فى الميثاق كلما ارتفع البناء — وكما تذوب الفوارق بين الطبقات — حتى إذا اكتمل « المبنى » وشمخ « قمةً » .. واستقر « قاعدةً » .. وعرف « ساكنوه » أنهم « مالـكوه » .. انتفى كل خوف على المصير .. ولم يعــد للبطل مكان فيه .. إلا تمثــال يقوم على مدخله الـكبير .. يذكر الأجيال بالمهندس البناء .. وإلا كرة من البللور فوق المبنى الشامخ .. تدور دائماً مع دورات التاريخ .. لترسل أنوارها كشافة وهادية .. وإشعاعها وضاء وحارساً .. فوق الرقعــة الفسيحة الموحدة .. من الخليج إلى المحيط .

وهيكل ؟

هذا هو رأيي . .

ولـكن هناك مفكراً شاباً — أجله — له رأي يخالف فيه عن هذا الرأى أو هكذا

يلوح .. والمفكر الشاب هو الزميل محمد حسنين هيكل رئيس تحرير « الأهرام » .

وهيكل « عقبة » .. وليس يكفى فى تخطيها « فك رقبة » .

أما لماذا ؟ فلأنه ملم بكل آراء الرئيس .. وكل « حصيلتى » ما يقدمه لنا الرئيس « مقروءاً » أو «مسموعاً » .

ويضاعف الصعوبة فى تخطى هذا الرأى .. عمق إيمان المفكر الشاب .. بناصر والناصرية .. إيماناً ينبض به كل حرف يرسله .

وقد يكون من الأمانة لتاريخه الذى يجهله .. أن أقرر — وأنا أقدم منه فى حرفة الكتابة أو فى عمر القلم — أن فصول هذا الكاتب الشاب كانت تسايرنى فى مراحل تحولى .. وكانت تلقى الأضواء على طريقها مرحلة بعد مرحلة .. وكانت من أقوى ألوان« العرض » التى شهدتها على « شاشة الصحف » .. والتى ملأتنى — إلى جانب دراستى التى ستجىء — اقتناعاً بسلامة الناصرية «مذهباً وفلسفة.. وعقيدة» وبالدقة فى حسابها « تصميا وتخطيطاً » .

وهيكل يذهب فى تحديد « مكان البطل » من « الميثاق » فى « اتجاه مضاد » أو هكذا يلوح .. وهو يرى أن الأساس الذى قام عليه الميثاق كله « أن جمال .. أحسن تقدير مكانه بصدق وأصالة — لم ينس نفسه لحظة ولم يغفل عن حقيقة دوره طرفة عين.. إن الثائر الحقيقى فى تاريخ أمته لا يصنع الثورة.. ولكن الثورة هى التى تصنعه.. وبتحديد أوضح فإن جمال عبد الناصر لم يخلق الثورة الشعبية فى مصر .. وإنما الثورة الشعبية فى مصر .. هى التى خلقت جمال عبد الناصر » .

وهيكل لا غبار على رأيه . . إذا اعتبرناه « ناطقاً غير رسمى » بلسان الرياسة . .

ووجه البراعة فى تأييده تسحُّب صاحب الميثاق من الميثاق ... استخدامه العبارات التى لا يختلف عليها قارئان .

ولم يقل أحد من الناس إن جمال عبد الناصر قال للناس : « ثوروا » فثاروا . .

ولكن السؤال الذى عرضناه لا يزال قائماً ..

وأوثر أن أعيده فى صياغة جديدة :

— لماذا « فجر » الشعب « طاقته الثورية » على طول ذلك الطريق الحافل بالنضال .. وعلى أيدى أولئك « الزعماء المناضلين » ... و « فجر » على يد « جمال » وحده « طاقاته الثورية » ومعها « طاقة التفيير الثورى » ؟ .

بل لعل الظروف كانت أكثر مواتاة لبعض الثائرين القدامى .. منها لعبد الناصر، وقد اعترف عبد الناصر نفسه فى مشروع الميثاق بأن الزحف الثورى بدأ من غير تشكيل سياسى يواجه مشاكل المعركة .. فى حين أن « هيئة الوفد المصرى » التى ركبت قمة الموجة الشعبية الثائرة فى سنة ١٩١٩ كانت تشكل تنظيما سياسياً من أبرز رجالات مصر المتمرسين بالحكم . . يحف من حولهم شعب كامل هادر .. من الشلال إلى البحر . . أعزل إلا من الطاقة الثورية المتفجرة . .

أما « **الطلائع الثورية** » التى ظل « **جمال الشاب** » يعدها فى إيمان وكتمان .. من قبل ساعة الصفر بسنين .. فقد خرج بها من تكناتها فى الظلام .. والناس نيام — والملك يحيى لياليه بطريقته المفضلة ! والهلالى والمراغى يلهوان فى المصيف . . وتولى « **جمال الشاب** » — من وراء حجاب — قيادة هذه الطلائع تحت اسم «مستعار» لقائد «شيخ» كان قد أعده لحمل اللافتة .. عندما رشحه الضباط الأحرار.. لرياسة «نادى الضباط» فى مواجهة « **مرشح القصر** » قبل الثورة بزمن قصير .

وبرغم هذه الفوارق .. بين الثورة الناصرية وكل الثورات التى سبقتها .. فشلت كل الثورات ونجحت ثورة الشاب .

فلماذا ؟

الجواب من شأن « **الكتاب** » لا من شأن « **التمهيد** » .

* * *

بقيت شبهة الخلاف بينى و بين المفكر الشاب فى الرأى .

وأعتقد أن الخلاف فى الصياغة والشكل لا أكثر .

لقد قال وهو يختتم مقاله إن حديثاً جرى بينه و بين الوزير المستنير محمود فوزى عن « ضرورة البطل فى حياة أمته » وحاجتها « إلى رجل غير عادى يرى بالحساب الدقيق كل الاحتمالات فى اللحظات الحاسمة من التاريخ . . ثم يتخذ قراره . . لا على أساس من الحساب الدقيق وحده .. و إنما من شىء آخر معه .. من شىء غامض مثير .. من صلة غير عادية .. تربطه بضمير أمته .. وتنقل إليه عن هذا السبيل قدرة على تحدى المستحيل .. وعلى تحمل مسئوليات . . ليست لها حدود . . وفى مواجهة أهوال ليس لها آخر » .

وهل قلت عن دور البطل شيئاً . . غير ذلك السمر المبدع الذى التقى رأيه فيه برأى الوزير ؟

التقينا .. إذن..

وليضع « جمال » نفسه حيث شاء . . وفى المكان الذى يراه من مشروع الميثاق وفى المكان الصحيح الذى يراه هيكل فيه « ابناً لأمته » و « تلميذاً لتاريخها » .

ولنضع نحن الشعب .. ابننا الكبير .. فى المكان الذى نراه .. ولنا الرأى الأول والأخير .. بحكم الميثاق .

فى قلب المعركة

وبعد :

فيحسن أن يذكر الشعب ولا ينسى **أننا نبنى ونحن فى قلب المعركة ..**

وكل من حولنا فى العالم من حاكمين — **باستثناء القليلين** — **يقض مضاجعهم** وجود **هذا « الرجل »** فى هذه « الفترة » التاريخية . . وعلى قمة الموجة العارمة التى تزحف فى ثبات وهول — وكما ترجف الراجفة — وتهدد بكل « القوى العظيمة الكامنة فيها » رواسب القرون .

كل الأعداء .. يعملون — متكتلين ومتفرقين — **ضد عبد الناصر** .

ولقد بلغ من « **خوف** » المستعمرين — **ولا أقول « خرفهم »** — أن

ظنوا أن عبد الناصر سيعبر البحر يوماً إلى أوروبا ليغزوها . . ويحتلها دولة بعد دولة . . ولا يكتفى بقيادة القوات العربية عبر غرب آسيا وشمال أفريقيا كما نقل عنهم الصحفى الهندى الكبير « كارانجيا » فى حديث له مع جمال عبد الناصر فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

وبعـــــد ؟

فأنا .. كفرد من أفراد هذا الشعب . . أدعوه إلى أن يعيش فى هذه اللحظات التاريخية الحاسمة .. مشدود الساعد إلى البناء .. ومفتوح العين على المعركة .

أنا هذا الفرد . أحب فى رفرف التمهيد أن أسأل :

— أيدخل فى احترام النفس .. أن أقف مكتوف اليدين .. والبناء يبدأ والمعركة تدور .. لا لشىء إلا لأنى معدود من الذين حكم يوماً عليهم .. بتهمة التآمر عليه ؟ .

وإذا كنت قد احترمت نفسى يوم ساء تقديرى للناصرية فاعتزلتها مختاراً عشر سنوات .. هى بين العشرات من عمرى أحلاها وأغلاها . . لأنها العشر التى نقلتنى من شباب الرجولة فى حلقتها الخامسة (التى يعيشها اليوم صاحب الميثاق) . . إلى صميم الكهولة فى حلقتها السادسة (التى يعيشها اليوم صاحب هذا الكتاب) . .

إذا كان هذا هكذا .. أليس أدخل فى احترام النفس وقد آمنت بـ « الرجل الذى تآمرت عليه » .. أن أشهر إيمانى به .. فى هذا الوقت العصيب .. رابط الجأش غير متردد ؟

☆ ☆ ☆

من هذه الحقيقة الكبيرة . . أبدأ .

من هنا . . ألتقط أول الخيط **من الكتاب** . . كما **التقطت من هناك** أول الخيط من « **الميثاق** » .. وأحييك ..

« محمد السوادى »

الفصل الأول

موقفي من الثورة

نعم ..

من هذه « الحقيقة » — الكبيرة فى ميزانى — ألتقط أول خيط من كتابى ..

من «نفسى» .. ومدى احترامى لها .. يوم ساء « تقديرى » للناصرية فاعتزلتها مختاراً عشر سنوات كاملة .. ويوم عرفت طريقى إلى الحق والخير فيها فجئتكم شجاعاً . أشهر إيمانى بناصر .

هذا « الإيمان » — إذن — ودواعيه — بعد «التآمر» ومراحله — هو اب هذا الكتاب .

* * *

وأنا أعرف —وأظنكم تعرفون — أن سماء هذا البلد — وسماء كل بلد عربى — ما تزال تظل فريقاً من خيرة بنيه .. يودون لو أقدموا على إعلان «إيمانهم» بالناصرية ولكنهم يترددون .

وأسباب التردد عند أحدهم قد لا تكون هى نفسها أسباب التردد عند الآخرين .. وإن كنت أعتقد أن « الكبرياء التقليدية » فى طليعة الأسباب التى تنتظم المترددين من المواطنين .

ويطيب لى أن أعلن — فى مستهل الفصل الأول — أن من بواعث فخارى .. أن أكون أول من يحطم هذه الكبرياء . . أقتدى بها ذلك النموذج العربى الرائع لهذه الثورة العربية البانية .. ولهذا « الاستمرار المعاصر لنضال الإنسان الحر عبر التاريخ من أجل حياة أفضل » .

كما يطيب لى أن أعلن أن من بواعث ارتياحى . . أن أشق بهذا الإقدام من جانبى .. طريقى إلى ذلك الباب الموصد..أمام كل من كان مثلى متردداً .. و يود لو أقدم . فأفتحه إذا هو « لان » .. وأحطمه إذا هو « استعصى » .

* * *

وسأرانى بالطبع مضطراً إلى الحديث — فى بعض الأحايين — عن حادثة تخصنى أو عن أمر يتصل بى .. فلا يَنْسرب إلى ظنك أنى أهتبل فرصة التفاتك إلى الحديث عن « صانع الثورة » لأتسلل إلى الحديث عن « واضع الكتاب » .

مثل هذه « الانتهازية » لا تجمل بى .. ولا تجول بخاطرى .

ولن أتحدث عن نفسى .. إلا الحديث الذى يتصل بأهداف الكتاب ويحتمه موضوعه .. وإلا « مكره أخاك لا بطل » . . لأن «البطل» أنت تعرفه . . والفصول كلها معقودة عليه .

ولكنى «طرف» فى القضية . . ولا يستطيع سير القضية . . أن ينفض يده من أحد طرفيها .. فأنا الذى كفرت بالرجل وتآمرت عليه .. وأنا الذى عدت وآمنت به .

و بين الكفر والإيمان .. مراحل ..

بل إن قبل الكفر والإيمان .. لمراحل أيضاً . .

قبل الثورة كنت — مثل كل مواطن — أهفو إلى الثورة .. فلما أعلنوها أحسنت تلقيها ..

ثم عدت فتشككت فيها ..

ثم عدت فدنوت منها ..

ثم عدت فرددت عنها . .

ثم أوغلت فى الردة ..فكفرت بها .

ثم ولغتُ فى الكفر .. حتى تآمرت على صانعها ..

ثم بدأت أصحو رويداً .. رويداً .. على مهل .. وعلى مراحل .. أصحو على صيحات الأحداث — قبل السجن — وصوت الحقائق ، ثم فى سكون السجن على دراسة القيادة والقائد ، ثم بعد السجن على فحيح المؤامرات وأصداء المعارك .. ثم فى خاتمة المطاف على جلجلة « الميثاق » .

أى أنى بدأت أتحول .. وأتحول .. حتى جاء « الميثاق » وكان كما قلت ذروة هذا التحول .

هذه المراحل كلها .. لها أحاديث لابد أن تجرى ..

وكل حديث منها .. ذو شجون لابد أن تثار ..

وأنا أولا وأخيراً .. لا أعدو أن أكون شاهد إثبات .. على سلامة الأهداف ، ولا أهداف لكتابى .. إلا أن يحمل لأبناء العروبة — فى مصر وفى كل بلد عربى — صورة صادقة .. رسمتها ريشة متآمر .. للرجل الذى تآمرت عليه .

وتاريخى إذن من ناحية التآمر — والكفر والإيمان بالقائد الثائر — موصول الأسباب بزعامة هذا الشاب .. شئت أو لم أشأ .

ومن هنا يجىء الحديث عن النفس ضربة لازب ..

ضرورة الثورة

وعلى سبيل المثال — وعلى هامش الثورة — يقول « الميثاق » فى مستهل بابه الثانى :

« لقد أثبتت التجربة وهى ما زالت تؤكد كل يوم أن الثورة هى الطريق الوحيد الذى يستطيع النضال العربى أن يعبر عليه من الماضى إلى المستقبل » .

وهذه حقيقة ...

ولكن .. أليس من حق كمواطن أن أنتهز عبارة كهذه .. لأثبت لك أنى

كنت أؤمن — ومن مطالع الشباب — بهذه الحقيقة على الرغم من كل « الأخطاء » التى تردى « جيلنا » فيها .. وأن أقدم لك الأسانيد على ذلك الإيمان .. لتصدقنى عندما أقول لك أنى فرحت لاندلاع الثورة .. ورحبت بها ترحيباً حاراً يوم إعلانها وهل يقال لى وأنا أقدم أسانيدى على سلامة هذه المرحلة .. أنى أتحدث عن نفسى ؟!

جماعة المثقفين

وأنحى النفس .. وأنصف الآخرين .. قبل أن تشغلنى مراحل كفرى وإيمانى .

نتحدث عن جماعات من المثقفين ألمع إليهم «الميثاق» فى « الباب الرابع » وهو يتناول « الفترة الحافلة بالخديعة ما بين انتكاسة سنة ١٩١٩ إلى حين تنبهت القوى الشعبية للخطر الذى يتهددها .. ومن ثم بدأ التأهب النفسى لثورة يوليو ١٩٥٢ » فيقول :

« لقد استطاع هذا الانحراف أن يجذب إلى الجو الحزبى الفاسد جماعات من المثقفين كان فى قدرتهم أن يكونوا حراساً على أمانى الثورة الحقيقية لكن الإغراء كان أقوى من مقاومتهم » .

وهذه أيضاً حقيقة ..

ولكن .. أليس من حقى كمواطن أن أنتهز عبارة كهذه .. لأعرب عن اعتقادى أن «بعض» هذه الجماعات .. إذا كانت قد انجذبت إلى هذا الجو .. فإنها لم تذب فيه قط ؟

ومن حقى — فيما أعتقد — أن أزعم أن « جماعات » من « أبناء الشعب » ممن أتيح لهم أن يحصلوا على قسط من العلم والمعرفة — وأخص منهم من احترفوا الصحافة أو اتصلوا بالفكر — ظلوا برغم الانجذاب إلى «الجو الحزبى الفاسد» يحتفظون بالطاقة الثورية كاملة بين جنوبهم .. وبالتمرد على الأوضاع كامناً فى قلوبهم .. وكانت «عيونهم» تفضح «أحقادهم» فيتطاير منها الشرر على أسنة الأقلام فى بعض المعارك .. وكان أهون العقاب أن ترحب بهم السجون .

ولقد سقط منهم عبر الطريق الطويل .. وعبر الكفاح المرير .. من سقط .

شباب ثائر .. نادر .. ذهبوا ولم يعودوا .

ويكفى أن أذكر اسم الثائر الشاب — الدكتور مصطفى الوكيل — ليغدو اسمه على الشفاه تسابيح .. أو ليغدو رسمه إكليل غار نتوج به قبر كل جندى مجهول .

بل لقد عرفت أخيراً — ومن وراء القضبان — أن فريقاً من « الضباط الأحرار » قاموا ببعض الغارات الفدائية المثيرة على بعض أماكن المحتلين فى القاهرة .. وعلى من اعتقد الأحرار أنهم أعوان الاحتلال من المصريين . . وحرص الفدائيون — بعد أن أصبحوا حاكمين — على طى هذه الصفحات المضيئة حتى يتولى التاريخ نشرها ..

ولو أن « القدر » كان قد تواعد معى فى تلك الفترة الغامضة من تاريخ كفاحنا .. فأتاح لى أن أكون على صلة بأولئك المغامرين — فى سنة ١٩٤٦ مثلا وما قبلها وما بعدها — لاستطعت أن أقرأ فى يسر أربعة حروف من نور .. كانت تضىء الطريق أمام الزعيل .

ولكنى لم أكن على صلة بأحد . . فلم يصافح أذنى .. من اسم القائد الشاب حرف واحد .

ولا أنكر أن بعض الأسماء كانت تترامى إلينا .. مقرونة بالحوادث التى شاركوا فيها .. كأنور السادات .. أو كحسين ذو الفقار فى حادثة عزيز المصرى .. أو عبد العزيز على المربى .. الذى اختير وزيراً على مطالع الثورة .

وكل ما ذهب إليه تفكيرى فى ذلك الحين .. من تعليل تلك الغارات .. هو « النزوة الفردية » عند بعض الشبان ..

ولم يجل بخاطرى قط .. أن وراء ذلك النشاط .. شاباً .. كان « القدر » يعده لما هو أخطر .. وأكبر ..

وموقفى ؟

ولست أزعم أنى كنت فى ذلك الحين معدوداً فى جماعات المثقفين ..

ولا أنا أزعم أنى كنت يوماً من الفدائيين الذين قامروا بحياتهم ..

وإنما أزعم أنى كنت أقرأ وأكتب .. وأتيح لى أن أحترف الصحافة ..

وأزعم أن الثورة كانت تعتمل فى صدرى فلم أجد متنفساً لها .. إلا الريشة احتفظت لها بكل طاقاتى .. ولكن الأوضاع .. كانت تحول بضراوة ووحشية دون تفجير هذه الطاقات ..

ولا أرانى إذن فعلت شيئاً يذكر .. برغم انطوائى على الروح الثورى .

وإذا كنت أعتزم الإلماع إلى بعض المعالم على طريقى .. فإنما لأثبت حقيقة أعتز بها .. حقيقة « الروح الثورى » الذى لم يتخل يوماً عنى .. حتى خلال « الجو الحزبى » الذى انجذبنا إليه .. والذى أنوى أن أتحدث بصراحة عنه .. ولكن فى مذكراتى عن ربع القرن الذى أمضيته فى الصحافة .. إذا قدر لهذه المذكرات أن تظهر ..

رأس مالى .. قلم

وإذا كنت لم أزعم أنى كنت معدوداً فى « جماعات المثقفين » أو « الفدائيين » فإن من حقى أن أزعم أنى كنت من أبناء الفلاحين — الطبقة الشعبية الكادحة — وهو شرف يتسابق إليه — بعد « الميثاق » — جميع المواطنين ؟!!

كنت دخيلا على القاهرة .. والحياة فيها .

كنت وافداً من صعيد مصر .. أو على التحديد من قرية فقيرة .. على ضفة النيل اليمنى تجاه مدينة « المنيا » يسمونها « سواده » .

ولم يكن جدى أميراً .. ولا كان أبى باشا .

وإنما كانت الزراعة حرفة أبى وأجدادى ..

وكان أعمامى وأخوالى .. وكل آلى .. من صميم الفلاحين .

وكان أبى يملك شيئاً « من الفدادين » .. ويستأجر « أشياء » منها .. مكنت له — هى وشىء من الكرامة .. وشىء من الاستقامة — من قلوب الأهلين .. فكان فيهم صاحب الصدارة .. والأخ المطاع .. لا عن رأس مال ولا عن إقطاع .. كما مكنت له هذه الفدادين من تعليمى لجىء بى إلى مدرسة السعيدية فى الجيزة سنة ١٩٢٣ .

ورأيت سعداً لأول مرة وهو عائد من المنفى .. رأى العين .

وبدأت أصدر المجلات .. ولم أكن أهلا لإصدارها .. وإنما هفت نفسى إلى أن أقول للناس ما يجول بخاطرى .. فأجهزت على ما كان قد تبقى عند أبى من الفدادين .. فى تلك السبيل .

هكذا كنت فى مطالع شبابى .

وعلى هذه المطالع خرجت من عالم المجلات إلى الصحف اليومية .. وكل ما أملكه من حطام الدنيا .. قلم بين الأصابع .. ظل العمر يجرى لاهثاً فوق الورق .. حتى كففته بعد الثورة الناصرية عن الجريان فكف .

وعلى الطريق .. معالم ؟

وعلى هامش الخلاصة الخاطفة لمقدمى من صميم الريف والقرية .. أتحدى « أولاد الذوات » بفقرى وإصرارى .. وأنازلهم فى عقر دارهم (وكانت السعيدية مدرسة أولاد الذوات فى ذلك الحين) يحلو لى — والسياق يشجع — أن أعبر ماضىَّ من مطالع الشباب فى سطور .. وأختار لكم منه معالم متواضعة عبر هذا الطريق

الطويل تشير على استحياء إلى ذلك الروح الثورى الذى لم يتخل قط عنى .

وهذه المعالم قد تبدو اليوم صغيرة تافهة — والكفاح يجرى على الصعيد الدولى — ولكنها لم تكن — يوم كانت — تافهة ولا صغيرة .

والمعالم التى أشير اليها .. لا تعدو صحفاً أو مجلات أصدرتها .. وكلها محفوظة فى إدارة المطبوعات ودار الكتب .. شأن كل ما يصدر من المجلات والصحف .. وأقصر الاختيار على المجلات الأسبوعية .. وأجنب الوضع تاريخاً طويلا .. يتصل بعملى فى الصحف اليومية .. لانعدام الصلة بينه و بين الثورة والروح الثورى .

والآن تسأل : ما هى المعالم ؟

* * *

١ — مَعلم منها .. مجلة « الطائف المصور » ثرت فيها وأنا ابن العشرين على سعد زغلول زعيم الزعماء .. لأنه نزل عن قيادة الثورة وزعامة الأمة إلى رياسة الحكومة.. فانطفأت الشعلة المقدسة فى أيدى الشعب الثائر فحدث انشقاق فى الصفوف نتيجة المطامع.. فسارع الاحتلال إلى إضفاء الشكل الدستورى على الخصومات بين الأشقاء .. فقامت الأحزاب وقام البرلمان .. وكان ما كان .

***

٢ — والمعلم الثانى .. مجلة « الحياة الجديدة » .. وقد اتجهت بها — فيما بين عامى ١٩٢٧ و ١٩٢٨ — وأنا الوفدى المجنون بالوفدية إلى « يسارية » أشد جنونا .. واستخدمت فى تحريرها صديقاً كان فى مقام الوالد سناً .. والأستاذ معرفة .. وكان يتزعم الشيوعيين فى ذلك الحين .. فحكم عليه فى وزارة سعد بالسجن ثلاث سنوات لدعوته عمال بعض المصانع إلى الثورة .. فغضبت للعدوان على حرية الرأى فيه .. واستعنت به فى تحرير المجلة لنثأر من المعتدين .. فحاربتنى الحكومة حرباً « مادية » رخيصة .. فصمدت لها فأوقعت الدمار بالبقية الباقية من ثروة أبى المتواضعة وكان على رأس المدعوين محمود فهمى القيسى مدير الأمن العام .. وكامل الرحمانى مدير المباحث

الجنائية . . وكان وكيل النيابة الذى حقق معنا يومئذ . . هو الأستاذ زكى سعد أطال الله حياته .

***

٣ — والمعلم الثالث .. مجلة « نور الشرق » .. وكانت معاهدة ١٩٣٦ قد أبرمت وكنت من « القلة » الغاضبة عليها . . وكان من « القلة » أيضاً . . صديقى محمد عبد الحفيظ الذى رأس تحرير « كوكب الشرق » الوفدية يوم كنت سكرتير تحرير لها . . فجمعت بين قلبينا .. وكان يملك امتياز هذه المجلة « نور الشرق » .. وكنت قد بعت فى نفس الشهر لشاعر القطرين خليل مطران بوصفه مديراً للفرقة القومية .. مسرحية « الفاكهة المحرمة » فوضعت ثمنها وقلمى تحت تصرف صديقى محمد عبد الحفيظ — طيب الله ثراه — وأصدرنا « نور الشرق » نعارض بها المعاهدة — وننشر ونحن وفديان — ولأول مرة فى تاريخنا الحديث — قوائم المحاسيب والأنصار والأصهار .. ونحذر مخلصين من الاندفاع أمام هذا التيار .. ومنينا بالخسائر وأفلست المجلة .. ولكنها قدمت للحقيقة من بابها الخلفى خدمة لا تنسى .. إذ بدأت جريدة «البلاغ» تنقل عنا تلك القوائم بحروفها .. ومن غير أن تشير إلينا .. إضفاء للجلال عليها .. وكان الناس يتلقفون « البلاغ » فى لهفة .. بعد أن انشقت على الوفد وقادت المنشقين من أعضائه (وهم من أسماهم الأستاذ التابعى السبعة ونص إشارة إلى قصر قامة أحدهم المرحوم على الشمسى) .. وأغلب الظن أن « البلاغ » لم تكن تدرى .. أن الذى كان يمدنا بملفات « المحظوظين » .. هو نجيب الهلالى « باشا » .. ومن عجب أن هذا « المخبر الهاوى » الكبير .. وثب بعدئذ إلى الوفدية .. وعين وزيراً للمعارف .. فلما استقام له العود واستوى على السوق .. وثب إلى رياسة الوزارة وخاض ضد الوفد أعنف المعارك .. حتى ألقى سلاحه واستسلم على يد القائد جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

***

٤ — والمعلم الرابع ـ مجلة السوادى .. عند ما ولى النحاس الحكم فى سنة ١٩٥٠

وأردت أن أستقبله بتحية صادقة وحرّى . . فكان « المانشيت » الذى لا ينسى :
(النحاس مدعوّ إلى الثورة ..) واندفعت أعلن أن لا خلاص لمصر .. إلا بإعلان ثورة
تماثل ثورة سعد .. وليس لمصر قائد مرجو .. إلا « خليفة سعد » .. ولم أشأ أن أسجن
قبل أن أشارك فى الثورة التى ناديت بها . . فلم يفتنى فى آخر سطور المقال المشبوب أن
أقرر أن «الثورة» التى أدعو إليها .. هى ضد المحتل .. (وفى ظل صاحب الجلالة الملك
المؤيد لشعبه) :

وهكذا حددت يومئذ مكانى من « الرأى » . . ولم يحدد أحد من الحاكمين
مكانه . .

* * *

٥ — والمعلم الخامس : مجلة السوادى أيضاً .. أثر إلغاء المعاهدة فى أكتوبر
سنة ١٩٥١ . . وفى هذه الفترة . . تفجرت الطاقة الثورية فى الشعب كله . . وخضت
المعركة بقلمى ألقى عليها — مع الملقين — وقوداً إثر وقود . . لتظل النيران تتأجج
وتزداد استعاراً . . كلما حاول الرجعيون أن يطفئوها .

ولا أنكر أن شكوكا ساورتنى يومئذ فى كثيرين من المشتركين فيها . . ولكنى
لم أتنبه عليها لأن الثورة كانت أقوى من الشكوك .. فمضينا لا نلوى على شىء . . . حتى
تردينا فى الهاوية :

وعلى سبيل المثال كنت أوفد فى كل مساء إلى وزارة الداخلية صديقاً لى اسمه
(حكم على فتوح) — هو الآن مدرس — ليشهد مندوباً عن (السوادى) — المؤتمر
الصحفى الذى كان يعقده الوزير .. لينهى إلى الصحفيين آخر أنباء المعركة التى تدور
فى القنال .. وكان الصديق يعود فى كل ليلة ليهمس فى أذنى « ما زال المكروت يواظب
على حضور المؤتمر كأنه صحفى أو ثائر » .. وكان يعنى بـ (المكروت) .. أحمد عبود —
قمة رأس المال فى ذلك العهد — وكنت أعرف أن عبود صديق شخصى للوزير . .
ولكنى فى غمرة الحوادث كنت أنسى — وليتنى ذكرت — أن عبود صديق لبريطانيا
صدوق .. وزوجته « ليدى » انجليزية . .

ومرة أخرى أقول : كانت الثورة أقوى من شكوكى فضينا لا نلوى على شىء حتى على عبود .. وحتى ترديناً فى الحريق ..

نعم فوجئنا بحريق القاهرة .. و إخماد الثورة .. و إقالة الوزارة .

وسيق الشعب على يد « على ماهر والمراغى » إلى الدور من بداية الليل وكما يساق القطيع إلى الحظيرة .. و باسم الحكم العرفى وحظر التجول .

* * *

وهكذا نجحت « الرجعية » — ممثلة فى القصر ورجاله .. وآخرين لم يتط أحد عن وجودهم اللثام حتى اليوم[1] .. كما نجح الاستعمار من ورائها مستخفياً وراء « جمعية إخوان الحرية » فى أن يبصقوا على وجه الثورة التى تولى الشعب نفسه دور القيادة فيها فدبروا « الحريق » ليطفئوها .. ولم يدر بخلد أحد — ونحن نحدق فى ألسنة النيران وهى تزغرد فى فجاج « القاهرة » .. عاقدة فى سمائها « غرابيب سود » من عمد الدخان .. تحجب عن الأعين ماتخبئه الأقدار .. لم يدر بخلدنا .. ونحن فى السادس والعشرين من يناير .. أن صوتاً من عالم المجهول سيدوى فى آذان الدنيا بعد ستة شهور — وفى السادس والعشرين من يوليو .. ليقول للملك المخلوع : « تفضل بالخروج » وليقول للشعب المعزول : « تفضل بالدخول » .

* * *

والسؤال الذى يعنينى أن أضعه الساعة فى داخل إطاره هو :

— هل كان معقولا .. وقد أخمد الرجعيون ثورة خضناها فى بسالة و إيمان ..

---

(١) للتاريخ أذكر أن جمال عبد الناصر رفع جانباً من الستار عن بعض الوجوه فقال فى خطابه ألقاه فى « هيئة التحرير » يوم ٢٢ أغسطس ١٩٥٤ « إن الشيوعيين الذين ينادون اليوم بالكفاح المسلح هم الذين انتهزوا فرصة ذهاب المواطنين الأحرار إلى القنال وأحرقوا القاهرة لبث الفوضى »

وأعتقد أن الرئيس إنما أشار إلى الشيوعيين باعتبارهم « وجهاً » من الوجوه ... وليسوا « كل الوجوه » .

وسهرنا عليها الليالى كما تسهر الأمهات على الولدان .. هل كان معقولا وقد نادينا بالثورة فتيانا وشبانا ورجالا .. ألا نحسن استقبال الطلائع الثائرة وقد أيقظنا أول بيان منها على مطالع الثالث والعشرين من يوليو .. ليقول لنا : جئنا نسلمكم زمام أموركم فتسلموه ؟

أرانى فى غنى عن الإجابة .

مرحلة شك وتردد

كنت فرحاً — إذن — كما كان كل مصرى فرحاً ..

ولكن شعوراً خفياً وقوياً .. شعوراً بالشك يورث التردد .. لم يلبث أن انسرب إلى تلك الفرحة .. فغطاها ..

نعم .. تسلل الشك فى جدية الثورة عند ما رأيتنى أسأل نفسى :

— لم جيء بعلى ماهر .. ليحكم ؟ ولماذا سمحوا له وقد أطفأ ثورة الشعب أن يركب موجة الثورة الناصرية ؟ ثم هل يجهل الثوار أن الرجل كان فى طليعة الخوارج على الوفد والمنشقين على الأمة فى سنة ١٩١٩ فانتهز الاستعمار الفرصة وضرب بهم وحدة الصف فقامت الأحزاب وكان السعدى والعدلى .. ثم كان الوفدى والحر الدستورى ؟ وهل يجهل الثوار أن على ماهر خرج على زملائه الأحرار الدستوريين أنفسهم .. وأقام للملك فؤاد .. « حزب الاتحاد » ؟ وهل .. وهل .. إلى آخر تاريخ الرجل !

وأردت أن أحسن الظن بالثوار فعدت أقول لنفسى : لعلهم أشد ذكاء وأبعد نظراً .. ولعلهم أرادوا أن يستغلوه ويستغلوا حدة المطامع فيه — وهو رجل القصر وبطل السراديب — فى التخلص من مولاه .. بدافع من هذه الأطماع .

ولكننا تخلصنا من « المولى » !!

ورحل عنا « صاحب الجلالة » .. ورحلت مع « ركابه العالى !! » حكمته

« السامية ! » .. فلماذا لم يتخلصوا من « رجل الملك » .. وكان يكفيه فى الموقف المرعب .. أن تقال له كلمة شكر .. ويرحل .

* * *

وكان هناك ما هو أعجب ..

كان على رأس الثورة رجل غريب جداً .. طيب وأشيب .. يحف من حوله شبان ملء عيونهم ثورة . . ونار . . يحيطونه بهالة من الحب والإكبار . . تثير الشكوك .. ويدقون لزعامته الطبول دقاً غير مسبوق.. وينشرون عن أمجاده الأقاصيص تلو الأقاصيص ..

ولم يكن لأحدنا اعتراض على هذا كله برغم غرابته ..

بل لعلنا شددنا إليه فى غمرة الأحداث فأحببناه حيناً ..

ولكن الظاهرة التى لفتتنى .. أن الزعيم « المثير » .. كان سطحى التفكير ..

ولم يكن يملك من أدوات التفجير الثورى — وهو محمول على الأكتاف — إلا أن يصيح فى الناس بكلمات ثلاث . . كانت الثورة قد اختارتها شعاراً لها : « الاتحاد . . النظام . . العمل » فإذا شق الركب طريقه . . ولمح أية شمطاء تحمل فى يدها ورقة بيضاء . . أوقف الرجل الركب وترجل .. ومشى إليها فأخذ يدها وقبلها .. ووضع فى اليد جنيهات خمسة .. ووقف لأخذ صورة له معها .. ثم أمر فواصل الركب سيره ..

وساءلت نفسى خجولا :

— أيمكن أن تنجح ثورة .. هذا مستوى قائدها ؟

ولذت بالصمت .

* * *

وكان هناك ما هو أدعى إلى الريبة ..

كان هناك .. على أرض القنال .. جيش بريطانى مدرب .. ينـاهز ثمانين ألفاً ..

وأعلنت الثورة .. ورحل الملك .. وهـذه القوة المخيفة لم تحرك ساكناً .. وكأن الأمر لا يعنيها .. فهل كانت تنوى أن تتحرك وأن تضرب ؟ أم أن المحتلين راضون عن هذا التغيير ؟ وإن كانوا راضين .. فماذا يعنى رضاء المحتل الغاصب .. عن ثورة .. يقودها طيب أشيب ؟

***

وأخيراً . . كان هناك عرش وأحزاب .

كان الملك الطفل فى رعاية أبيه المخلوع لا يزال يحكم مصر من قلب روما . . ويتولى إدارة الدولة فى قلب « القـاهرة » و « باسمه الـكريم ؟!! » مجلس وصاية فى عابدين . . من بين أعضائه أحد أفراد الأسرة « الـكريمة » .

فما الذى كان يعنيه هذا الوضع الغريب ؟

والسفير الأمريكى — كافرى — كان قد قام بدور الوسيط فى تأمين الملك على حياته وفى أيلولة العرش لابنه .. وقد أمن الملك على الحياة .. ونودى بابنه خلفاً له ..

فما الذى كان يعنيه هذا الوضع المريب ؟

وكانت الأحزاب قد أخذت تتسابق إلى مقر القيادة .. فيتلقاها القائد بالقبلات .

فما معنى هذه القبلات ؟

وتبدى الأمر على مستوى .. أقل بكثير من مستوى الثورة التى عشنا نحلم بها وفرحنا يوم قيامها .

ولم أجد بداً .. من أن أكف جريدتى عن الصدور .. حتى تبين الطريق .

وكان يمكن أن يجرى الأمر على غير ما جرى عليه .. لو أنى تحيت عنى الكبرياء التقليدية الزائفة واتصلت ككل الصحفيين بمركز القيادة .. وطلبت إيضاحا لما خفى على .

ولكنه « القدر » أيضاً .

كان يتجه بى إلى موقف المتفرج لحكمة عنده .. لم أتبينها إلا بعد سنين وسنين وإلا بعد أن غيبتنى فى الغياهب .. وخلف أسوار السجون .

* * *

وكل الذى بذلته من نشاط فى ذلك الحين — وأذكره لتاريخ الفترة — وكان قد قيل إن المحادثات قائمة على قدم وساق بين زعامة الوفد وقيادة الثورة .. كل الذى بذلته من نشاط فى ذلك الحين .. امتداد يدى إلى « سماعة التليفون » لأطلب تحديد موعد مع صديق لى من زعماء الوفد .

ولقيته .. وتحدثنا !

وكل ما يعنينى من ذلك الحديث الخاص — ونسيت الجانب الأكبر منه — أن الوفدى الكبير حدثنى عن شاب واحد أتعبه واسمه جمال عبد الناصر — ولم أكن قد سمعت هذا الاسم — وأنه مصر على تحديد الملكية .. « لكن .. حايلين .. همه فيهم أولاد معقولين .. وأنا أعرف كتير منهم من زمان » .

وكل ما خرجت به من هذه المقابلة .. صورة للتفكير الحزبى ثبت لى مع الأيام أنها كانت صورة مقلوبة .. ولو فطنت الأحزاب لأهداف الثورة واتجاهات الثوار .. لما جرى عليها ما جرى ..

وحتى هذه الساعة لا أجد تعليلا لهذا القصور فى الإدراك .. من رجال خبرتهم وأعرف شدة الذكاء فى الكثير منهم .. إلا أن « القدر » أراد لجمال أن يقود .. وأن ينجح فى القيادة .. فأخطأ خصومه تقدير الموقف ليصيب القدر .. فكان مثل الأحزاب مثل الطبيب الذى قال فيه ابن الرومى :

والناس يلحون الطبيب وإنما .:. غلط الطبيب إصابة الأقدار

والفارق أن الطبيب أخطأ تشخيص المرض لأن القدر يريد أن يضع حداً لحياة المريض .. وأن الأحزاب أخطأت « تشخيص » القائد .. لأن القدر كتب الحياة لهذا القائد .. وكتب البعث على يديه للمعذبين فى الأرض .

نعم . . كان السياسيون المحترفون يؤمنون . . بأن العسكريين لا بد عائدون إلى الثكنات . . لأن « فن الحكم » ليس « لعباً » .

ومرت عشر سنين . . والشبان ما يزالون « يلعبون » .

***

تلك هى الفترة التى أترعت نفسى خلالها بالشكوك والوساوس . . فرأيت أن ألتزم مكتبى .. وأظل أسمع وأرى .. حتى ينفض السامر . . أو حتى تتبين الحقائق .

***

وفى رأيى أن هذه الصورة الصادقة . . تشكل « المرحلة الأولى » فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثاني

فارع أسمر .. غامض ومثير ؟ !

وجاءت المرحلة الثانية من مراحلى المهتزة .. عبر السنين العشر ..

جاءت تحمل معها ضربات رشيدة وفعالة .. لا يسددها إلى الخصوم « طيب أشيب » .. وإنما يسددها ثائر شاب .. يصدر فيما يفعل عن سر فيه « غامض ومثير ».

ونشرت جريدة « الأخبار » أسماء .. قالت إن أصحابها هم أعضاء « مجلس قيادة الثورة » .. وراجت بين الجماهير عملة الهمس .. تتداولها الشفاه والآذان .. عن « قائد شاب » يختفى وراء « الطيب الأشيب » اسمه « جمال عبد الناصر » .

وكان اسمه قد ذكر فى مقدمة أعضاء مجلس القيادة ..

وذكرت ما كان الوفدى الكبير قد قاله عن الشاب الذى أتعبه .. و اسمه «جمال».

وزارنى بعض « أبناء السوادى » — وكان من بينهم من وثبوا إلى « مراكز قيادية » فى جريدة « المصرى » فحدثونى عن ذلك الشاب .. وقالوا إن وشائج ود أكيد تربط بينه وبين الجريدة.. وأنه يتردد عليها كثيراً.. و يرونه و يتحدثون إليه .. وأنه فارع العود .. عريض المنكبين .. نافذ النظرة .. عميق الفكرة .. تلوح وجهه سمرة .. يشترى وقل أن يبيع .. و يصغى وقل أن يتحدث .. و إذا استمع إليك .. أولاك أذنيه وصرف عنك ناظريه .. بحيث لاتستطيع أن تطالع أى خاطر فى عينيه .. وهو فى أوجز صورة له .. يلفه الغموض .

* * *

وتوالت الأيام ..

وكان « على ماهر » قد تخيل أنه جمع بين يديه .. خيوط الموقف .. وظن هو

وأنصاره « أنهم قادرون عليها » .. ونشط فى الاتصال بالأعداء والأصـــدقاء .. و بالأحزاب والزعماء .. وخيل للكثيرين أن الأمر استتب له ..

ولم أكن أحسن الظن بالرجل .. فساءنى كل هذا الذى كان يقال .

كنت أكره فى الرجل .. التواء دروبه .. وظلام سراديبه .. وكان تاريخه السياسى تاريخاً بوليسياً .. يلقى الريبة على كل تحركاته واتجاهاته .

ولم يدر بخلدى لحظة أن الشاب الغامض .. الذى يختفى وراء «الطيب الأشيب» يستطيع أن يرى و يدرك .. خطوط « الأســاليب التحتية » أو خيوط « الثعلبة الماهرية » .

ولم تعش مخاوفى طويلا ..

وفجأة .. سقط صاحب القمة .. من القمة ..

وفى السابع من سبتمبر .. أقيل على ماهر — أو طلب إليه أن يستقيل — بعد أن عقد مجلس وزرائه جلسة امتدت إلى ساعة متأخرة من الليل .

وقرأت عن هــذه « الساعة المتــأخرة من الليل » .. وقلت لصحبى : « طلع النهار » .

وعرف الناس — وعرفت مثلهم — أن مجلس القيادة كان قد طلب إليه وضع قانون للاصلاح الزراعى يحدد الملكية بمائتى فدان .. فراغ من المطلب — كما راغ زعماء الأحزاب — ثم بدأ يحاول إقناعهم بأن تحديد الملكية يفتح أبواب الشر الموصدة .. ويثير الفتنة النائمة .. و يهز الاقتصاد هزة قد تكون القاضية .. وأنه جس نبض الإنجليز والأمريكان وكل الدول ذات الشأن .. فأكدوا له أن صدور مثل هذا القانون .. فى بلد « يمينى وشرقى ومسلم » يعنى خطوة حمراء إلى اليســار .. لا يمكن السكوت عليها .. وأن الزعمــاء والأحزاب .. والهيئات والبيوتات .. لا بد أن يتكتلوا ضد الثورة .. وأن كثيرين من الضباط فى الجيش والبوليس أبناء لهؤلاء ..

وقال على ماهر — ما قاله الزعماء قبله — إن هناك طريقة «الضرائب التصاعدية» تحقق للثوار كل أهدافهم من غير أن يعرضوا مقدرات البلاد لكل هذه الأخطار ..

وكان « المنطق التقليدى » يغرى بهذا الحل ..

ولكن مجلس القيادة رفض الحل ..

وبالعقلية الرأسمالية كان « على ماهر » .. يريد أن يغرى الثوار بالمال يتدفق على الخزينة فى صورة ضرائب .. فيقتنع الثوار بمنطق رأس المال ..

ومجلس القيادة لم يكن يطلب بقانون الإصلاح الزراعى مالا .. وإنما كان يستهدف تحرير الفلاح من سيطرة الإقطاع .. وكان بهذه الخطوة — وبأخوات لها كان يضمرها — يرمى إلى تذويب الفوارق بين الطبقات .. وبناء مجتمع جديد يقوم على مفاهيم جديدة .

وصدر القانون..

وكان له دوى هائل جاوز كل حد تصورته ..

هز القانون مشاعر الجماهير المغلوبة على أمرها .. لا فى مصر وحدها .. ولا عبر سيناء فقط .. وإنما فى الشرق العربى كله ..

وكما اهتزت مشاعر الجماهير العربية إعجاباً .. اهتزت مشاعر المستعمرين غضباً ..

* * *

وتوالت الضربات فى حكمة وحزم وسرعة .. لم تسمح لدولة من دول الغرب أن تقدم على تصرف عنيف .. ولم تسمح لهيئة من الهيئات الرجعية أن تستجمع قواها وتضرب .. وإنما بوغتوا بالضربات فأسقط فى أيديهم ..

وليس يعنينى أمر هذه الضربات للأحزاب أو لغير الأحزاب وأنا أعرض للمرحلة الثانية من موقفى إزاء الثورة .. وإنما يعنينى فى هذه المرحلة (قانون الإصلاح

الزراعى) وحده .. لأنه وحده الذى قضى على الكثير من شكوكى .. وخطا بى من جديد إلى رحاب الثوار .. حتى كدت أنسى شكوكى الأخرى بشأن جيش الاحتلال ، والسفير الأمريكى ، والطفل الذى يحكم مصر من قلب روما ، ومجلس الوصاية الذى يجلس فوق قمة الهرم باسمه «الكريم» .

فما سر اهتمامى بهذا القانون ؟

ما سر اهتمامى بالإصلاح الزراعى ولم يعد لى — بعد أن مضى والدى إلى بارئه — أى اتصال بالحقل أو بالقرية .. وقد قضيت ، كما قلت لك ، على ما كان قد تبقى لى من الأرض فلم يعد لى من وراء هذا القانون مغنمُ .

السر أن لى تاريخاً فى قانون الإصلاح من قبل أن يصدر قانون الإصلاح .

والسر أن بى هوى إلى هذا القانون يعود إلى ما قبل عشر سنين .

* * *

أما كيف كان لى تاريخ معه .. أو كان لى هوى إليه .. يرجع بى و به إلى سنوات خلت فالإجابة — فى اعتقادى — يعرفها الكثيرون من (المخضرمين) و يعرفها الكثيرون من الشيوخ والنواب السابقين .. و يعرفها كل من تتبع مناقشات البرلمان المصرى قبل قيام الثورة .

يعرف أولئك جميعاً أصالة الود الذى كان قائماً بينى و بين صديقى المرحوم محمد خطاب عضو الشيوخ السعدى (اسما) .. والحبيب إلى جميع الساسة على اختلاف ألوانهم الحزبية (فعلا) .. والسكرتير العام لمجلس النواب قبل أن يحال إلى المعاش و يعين عضواً فى مجلس الشيوخ .

وكان (خطاب) بعدَ تعيينه فى الشيوخ يتهيب خشبة المنبر .. لأن المنبر خاصمه من أول يوم تم اللقاء فيه بين الإثنين .. فقد كان — طيب الله ثراه — سريع الإلقاء لا يكاد يبين .. تزدحم الخواطر فى رأسه .. وتتقاتل العبارات على شفتيه فيضج الشيوخ وتشتد المقاطعة .. فيبارح المنبر فى فشل مثير .. مثير لأعصاب

رجل «خطاب» وفىٌّ لرسالته ووفىٌّ لثقافته .. يفهم كل مايقوله ويعنيه .. وثلاثة أرباع الشيوخ من الإقطاعيين .. لا يفهمون حتى ما يقال لهم ..

و بدأنا كصديقين .. ندرس الثغرات والأخطاء .. أنا كناقد .. وهو كخطيب

وكانت هناك تجربة مثيرة .. وتماثل هذه التجربة تماماً .. حدثت مع قطب سياسى كبير فى أول عهده بالحياة البرلمانية .. واستطاع القطب — بفضل ذكائه — أن يسأل عن الثغرات والأخطاء .. وأصبح برلمانياً ذا ناب .

وعلى ضوء التجربة مع القطب .. بدأ «خطاب» يأخذ طريقه إلى المنبر من جديد.

وكنت أعمل ناقداً برلمانياً لجريدة « البلاغ » .. فبدأت أخصص حيزاً كبيراً من نقدى .. لتشجيع صديقى .. ولتسليط الأضواء عليـه .. وكنت أخلو إليه الساعات وكما يخلو المخرج إلى الممثل .. حتى أحرز (خطاب) بفضل ذكائه المتقد و بفضل إصراره .. نجاحاً مقطوع النظير .. فى حمل الشيوخ على الإصغاء إليه .. والتصفيق له .. و بدأ يلمع .

وكانت هواية (خطاب) .. إصلاح المجتمع .

كان تقدمياً .. ولم يكن ثورياً .

وكان بطبيعة تكوينه لا يكف عن المرح ولو كان فى مأتم .. فعـاونته طبيعته الضاحكة على خوض المعارك فى غير مرارة ..

وانتهت مناقشاتنا إلى أن هذا المجتمع الآسن .. الذى تعوقه المخلفات والرواسب.. و يسيطر عليه الإقطاع البشع .. ويسوى فى المعاملة بين الفلاح والماشية .. لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالقضاء على الإقطاع .. ولا سبيل إلى هذا القضاء إلا بتحديد الملـكية .

كان (خطاب) يؤمن بهذه الحقيقة .. كما يؤمن بالله .. أقطابُ العارفين بالله .

وكان يرى أن الحد الأقصى لا ينبغى أن يزيد على خمسين فداناً .. ورأيت له أن المائة تبدو أكثر اتزاناً .. وأعون على تخفيف حدة الخصومة بينه و بين الإقطاعيين .. وجامل رأيى وأخذ به

وأذكر ولا أنسى كيف روّج «خطاب» بالمشروع الذى تقدم به .. كل الوزارات وكل الأحزاب ..

وكان هو بطلا من أبطال الإعلام إذا ما تصدى لنشر أية دعوة .. أو روّج لأية فكرة ..

كان يبدىء فيها ويعيد .. كلما جد وكلما هزل .. فى البيت وفى الشارع .. فى المقهى وفى النادى . فى الكازينو وفى المسجد .. فى كل حفل يدعى إليه .. ولدى كل زائر يتردد عليه ..

وقد ركز هذه المواهب كلها .. فى الدعاية لمشروعه ..

ولم يكن الجو — بكل ما هو مشبع به من عناصر الملكية والإقطاع ورأس المال والرجعية والاستعمار — يسمح لمثل هذا المشروع بالتنفس فيه .

ولو أن أحداً من (الثقلاء) تقدم به .. لوُجهت إليه تهمة الشيوعية .. ولأسقط الشيوخ عضويته .. ولا يدخل فى حيز المستحيل أن تفكر الدولة فى إسقاط الجنسية المصرية عنه .. ووضعه على ظهر باخرة تجوب به البحار من غير جنسية .

وكان (خطاب) حكيما .. فترك مشروعه يمشى على يديه زحفاً .. فلم يخِف فى البداية أحداً .. حتى إذا بلغ من العمر عاماً .. بدأنا نعلو بالضجة من حوله . . حتى إذا بلغ عامين .. بدأ الكتّاب يهشون له .. وكان (خطاب) يحسن التودد إلى طائفة منهم .

وكان الفضل كله .. له .

وكان دورى لا يتعدى .. حمل الراية .

كنت الكاتب الذى « هوش » قراءه بالمشروع .. وأورثهم (صرعاً) .. وأصلاهم (صداعاً) .

كنت أحب « المشروع » بكل قطرة فى القلم .

وكنت أحب « صاحب المشروع » بكل خفقة فى القلب .

وكان حسبنا أن عبأنا — فى حدود الطاقة — قوى الرأى العلم ..

وأثرناها على الإقطاعيين والحكام ..

وكانت الدورة لا تكاد تبدأ .. والمشروع لا يكاد يتحرك .. حتى يخف رئيس الوزراء أو وزير العدل أو وزير المالية إلى حيث يجلس (خطاب) ويلاطفه .. ثم ينسرب إلى محاولة إقناعه بتأجيل النظر فى المشروع .. أو بإعادته إلى اللجنة .. بحجة أن الوزارة تفكر فى تبنيه .. على أن يعدل قليلا فى الأساس الذى يقوم عليه .. وحتى تهدأ ثائرة القصر .. وحتى لا يسىء الإنجليز تفسيره .

وكان الصديق طيب القلب فى كثير من الأحيان .

وكانت الكلمة الطيبة تؤثر فيه .. وكان يوافق على التأجيل .. ويفوّت على نفسه .. جواً .. لم يكن من السهل تعويضه .

وهكذا أصبح المشروع — على كل هذه العقبات والعراقيل — يقضّ مضاجعهم ويفتنون فى الإفلات منه .. و إرجائه الشهر بعد الشهر .. حتى يقبل الصيف .. و يسافر الوزراء إلى « بولكلى » .. و يغلق البرلمان أبواب قاعاته .. تماماً كما يفعل مجرم مطلق السراح .. يدرك أن التهمة آخذة بتلابيبه .. فيجعل كل همه — هو ومحاميه — أن يخلق سبباً جديداً لتأجيل جديد .. حتى يحل موسم الأجازات فيقذف بالقضية إلى دائرة جديدة على هلال العام الجديد .. وتتجدد طلبات التأجيل .

***

ولم نكن من السذاجة إلى الحد الذى صدقنا معه أن القصر والسفارة والإقطاع والحاكمين .. يمكن أن يقروا مشروع القانون ..

وكان كل همنا أن نفتح العقول والعيون .. على « الحقيقة » .

وكانت « الحقيقة » التى نعنيها .. أن لا سبيل إلى « تحرير العبيد » إلا سبيل القضاء على الإقطاع .. إذا أردنا أن نتفادى الثورة .. والدماء .. وقطع الرقاب .

* * *

ولم يخل بخاطرنا — وأعترف — أن المشروع يمكن أن يتحقق بالتشريع .. وفى وقت قريب .

والدليل أن (خطاب) وافق على رأى ناصح — غاب عنى اسمه — اقترح عليه أن يدخل تعديلا على المشروع يجعل نفاذه رهينا بوفاة المالك .. تطمينا للأحياء من المالكين .. وحتى لاتتألب كل قوى الرجعية عليه .

* * *

والآن أسأل نفسى :

— لماذا أذكر تاريخ ذلك المشروع وأعقد عليه فصلا ضافيا من فصول الكتاب ... والمشروع مشروع «خطاب» .. ولم أكن إلا داعية من دعاته ؟

والجواب :

— أذكر ذلك التاريخ كله .. لتدرك مدى ابتهاجى .. عند ما أطاح مجلس القيادة بعلى ماهر لأنه رفض وضع هذا القانون .. وعند ما ثبت لى أن حكومة الثوار الجديدة لم تكن « حكومة بكباشية وصاغات » كما كانت تسميها أبواق الرجعية فى صحف لبنان .. وإنما كانت حكومة أحرار .. يسددون الضربة وهم يدركون أبعادها ... ومدى أثرها فى بناء مجتمع جديد وقيم جديدة ومفاهيم جديدة .

* * *

وهكذا خطا بى قانون الإصلاح الزراعى إلى رجال الثوار بعد أن شككت فيهم .

ولو أنى كنت يومئذ على صلة بهم لاندفعت إلى قلب المعركة معهم ، ولحاربت فى الصف تحت رايتهم .

ولكن حال دون الإقدام ، نقص لازمني في كل أطوار حياتي ، وهو حدة الشعور المبالغ فيه — حدة « الشعور المختل أو « المخبول » — بما نسميه « الكرامة » وهو ليس من الكرامة في شيء — بحيث لا ألقى حاكماً إلا إذا دعاني إلى لقائه ، وقد تدهش — وقد عشت خمسة وتسعين في المائة من عمري السياسي «وفديا» — إذا قلت لك صادقاً أني لم أزر « رئيس الوفد » مرة في بيته ولم أكن أعرف سكرتيره — وزميلي في المؤامرة أحمد السقا — إلا بعد أن خرجنا من السجن الحربي والتقيت به ، وتعارفنا ، وقد يتضاعف الدهش إذا علمت أني لم أدخل طوال ربع قرن في الصحافة دار صحيفة من الصحف إلا إن دعيت للعمل بها .

ولم أدخل دار (الأهرام) — كبرى الصحف — طوال ربع القرن إلا مرة واحدة ، شكرت فيها لتقلا (باشا) وأنطون الجميل (باشا) والأساتذة مصطفى أمين وكامل الشناوي ومحمد أحمد الحناوي و بقية الزملاء الذين عزوني بالبرق في وفاة شقيقة لي ، كريم تعزياتهم .

حالت تلك الكبرياء — وليدة الرواسب الريفية أو الرجعية — دون اتصالي بالثوار ، فلم يشأ القدر أن يلحقني بالركب ، ولو أني لحقت بهم لاكتشفت من بداية الثورة حقيقة قائدهم ، ولما التوى الحظ بعد ذلك في يدي فضللت الطريق إليهم ، ضلة بلغت يوماً حد التآمر على هذا القائد .

لكنها حكمة الله ..

ردتني عنهم بعد أن دنوت منهم ، لتملأني بعد ذلك شكوكا جديدة فيهم ، ولتلتوي علي الدروب ، فأضرب فيها على غير هدى ، كما سترى — مع الحزن والأسى — في الفصول الكثيرة التالية .

***

أما هذا الموقف الذي فرغت من رسمه ، فهو يشكل في ميزاني ، المرحلة الثانية في موقفي من « الرجل الذي تآمرت عليه » .

الفصل الثالث

مرحلة ... اختلال الموازين

وجاء دور المرحلة الثالثة من مراحلى المهتزة عبر السنين العشر .

وقد اختلت جميع الموازين فى يدى .. فى تلك المرحلة ..

ولا أدرى إن كانت الموازين قد اختلت أيضاً فى أيدى الحاكمين .. أم أن اختلالها فى يدى هو الذى صورها لمخيلتى .. مختلة فى أيديهم .

* * *

خطا بى تحديد الملكية .. خطوة جبارة وجذرية .. إلى رحاب الثوار ..

ولم يكن يعوزنى غير نسمة من نسمات « القدر » تهب علىَّ .. طيبة رخاء .. فى صورة صديق قريب منهم .. يعنيه أمرى .. يقيم جسراً بينى و بينهم .. لتطمئن إلىَّ قلوبهم . ولألقى بكل ثقلى إلى جانبهم .. ولأخوض قلب المعركة معهم ..

ولكن النسمة لم تهب .. والأقدار لم تشأ .

* * *

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن من واجبى أن أتحرك داخل إطارى .. وأن أشد أزر الثوار على قدر جهدى .. وصح عزمى على أن أعيد الحياة إلى جريدتى .. وأن أسهم بها فى تدعيم موقفهم من غير أى اتصال بهم .

وتراءت الفكرة .. رشيدة .

ولاح الموقف .. نبيلا .

ولـكن .. كيف .. وأنا لا أملك مالا ؟

وذكرت شيئاً .. وكنا يومئذ فى سنة ١٩٥٢ .

ذكرت أن وداً كان قد قام — عن طريق التراسل — بينى و بين « كبير سعودى » كان قد أعرب لى — فضلا منه — عن إعجابه بى .. ودعانى أكثر من مرة إلى حج البيت .. وكنت فى كل مرة أشكر وأعتذر ..

وفى هذا الموقف — وكنت مشوقاً للحج فعلا — خطر لى أن أفعلها .. وأن أرى إن كان فى وسعه أن يمد إلى جريدتى يداً .. على أن أصارحه أن القرض عرضة للضياع أو الإرجاء .. إذا لم تنجح الجريدة .. ويُرَد إذا هى نجحت .. وعدت فترددت ..

ترددت .. لأن اللغط كان قد بدأ يدور فى تلك الأيام بين أروقة الصحافة .. حول ذهب السعوديين .. والصلات المريبة بينهم و بين الصحفيين ! !

وهى شبهة .. لابد أن تعلق بأطراف رحلتى .. وليس من الهين على أى إنسان سوى .. أن يدع الشبهات تعلق بأطرافه .. إلا أن تكون « ضربة لازب » كما يقول رجال الأدب .. أو « لأسباب خارجة عن إرادته » كما يقول رجال القانون .

وأقنعت نفسى بوجود « الضربة » .. وقيام « الأسباب » .

وركبت الطائرة ..

وعاونت على اقتناعى .. مظاهر الإخاء التى كانت قد بدأت تبين .. على الصلات بين الرسميين من المصريين والسعوديين .. فكثر طيران أنور السادات و (المرحوم) صلاح سالم وغيرهما .. إلى جده والرياض .. ولاكت الألسنة أن الدولتين تسيران فى خط واحد .. يتجه بهما إلى تحالف أو شىء أقوى من التحالف .

وأعلن يومئذ أن « الطيب الأشيب » — حامل اللافتة — شد الرحال إلى الحجاز لأداء فريضة الحج .

وأديت فريضة الحج ..

ولم أبرح أماكن الشعائر .. إلا إلى جده فى طريقى إلى العودة ..

وأدى الجنرال — حامل اللافتة — الفريضة — أيضاً .. وطار فى حشد من الصحفيين إلى «مصيف الطائف» حيث كان الملك عبد العزيز .. فى طريقه الى النهاية .

وكان الأمير سعود (الملك الحالى) ولى العهد ينوب عن والده فى شهود الحج .

والتقيت فى مكة لأول مرة بالكبير السعودى « الصديق بالمراسلة » .

وغلبنى حيائى .. فلم أستطع أن أفاتحه فى أمر الجريدة .. وعدت إلى «القاهرة» كما خرجت منها .. وكل ما ربحته من أمور الدنيا أن سألنى السكرتير الخاص لولى العهد .. إن كان فى نيتى أن أصف رحلتى إلى بيت الله .. لأن القراء المحبين لريشتى (وزعم أنه منهم) يودون لو قرأوا وصفاً لمثل هذه الرحلة بهذه الريشة .. وأن الفرصة مواتية لها لو أنها تؤدى تحت ظلة الجولة الروحية فى رحاب البيت الحرام .. واجباً عربياً آخر .. هو توثيق الصلات بين مصر والسعودية .. كقاعدتين للعروبة والإسلام .. تصلحان نقطتى انطلاق .. لوحدة العرب والمسلمين .. فى إفريقيا وآسيا .

وحسن وقع المطلب فى نفسى .

وأصدرت بعد عودتى كتاب « مملكة فى الميزان » .

وأعترف .. أن خيال أمنية من أمنياتى طوف برأسى يومئذ ..

تمنيت لو أن هذا السكرتير الخاص عاون على أن تشترى السعودية طبعة خاصة من كتابى تدر علىّ ما يعيد الحياة إلى جريدتى .. لأسهم فى الاتجاه الجديد الحار لجماعة الثوار .. بعد أن أصدروا قانون الإصلاح .. ولأعمل فى الوقت نفسه على توثيق الصلات بين قاعدة العروبة وقاعدة الإسلام .

ولم يحقق الكتاب ما عقدته عليه من الرجاء .. ولم تصدر (السوادى) .

وقد رخصت لنفسى فى هذه اللمحة .. لاتصالها أولا بنية لم أجهر بها إلا اليوم

نية إصدار (السوادى) فى ذلك العام . . لتأييد الثورة والثوار . . ولاتصال اللمحة ثانياً بفكرة سخيفة رددها بعض « المتعالمين » .. ووجدوا فى مادة الكتاب . . عوناً لهم على الترويج لها .. فقالوا — ولجّوا فى القول — أنى أصبحت داعية من دعاة السعوديين .. وأن أواصر الود انعقدت بينى و بين الحاكمين فيهم .. بدءاً من سعود (وكان قد نودى به ملكا فى نفس العام) وانتهاء إلى أى موظف مسئول فى حكومة السعوديين .

وليس مما يتصل بأهداف هذا الكتاب أن أسخر أحد فصوله لمناقشة هذه الفكرة ، وحسبي أن أستأذن فى سطور معدودات أعبر خلالها تلك الفرية .. أو الفكرة . . تاركا لمذكراتى المقبلة إن شاء الله تأييد الحقيقة بالأسانيد ..

أما الآن فحسبي أن أقول لهؤلاء أنى لو كنتُ صديقاً للسعوديين وملكهم وأمراء بيته وأصحاب الحل والربط فى مملكته كما أرجف المرجفون لأصبحتُ من أصحاب الملايين من أمد بعيد .. أو لأصبحتُ فى القليل من المثرين .. ولما أعيانى فى سنة ١٩٦٢ طبع كتابى عن « الرجل الذى تآمرت عليه » . فحمل صديقى صاحب « المطبعة العالمية » هذا العبء عنى ..

* * *

وأُرد الآن قلمى إلى مناطه ، من صميم موضوعه : وأعنى موقفى من الثورة فى تلك المرحلة .

فشلتُ إذن فى الحصول على قرض لإصدار الجريدة لأؤيد الثوار .

فهل كان ذلك الفشل ، هو وحده سبب عدولى عن إصدار جريدتى ؟

وهل لم يكن فى وسعى أن أحاول الاستعانة بأية هيئة من الباحثات عن النفع ؟

أعتقد أن المنافذ ، لم تكن كلها مغلقة .

وأعتقد أنى لم أحاول أن أسير فى أى طريق تؤدى إلى أى منفذ .

كانت الخيوط قد بدأت تهتز فى يدى من جديد .

الإخوان المسلمون

وكان مما هز الخيوط فى يدى ، موقف الثورة من (الإخوان المسلمين) .

جىء بضابط من الضباط الأحرار ، فعين أياماً وزيراً للمواصلات ، ليثبوا به إلى مجلس الوصاية ، وقيل فى تعليل هذا الوثوب أنه عضو فى جماعة الإخوان .

وذاع أن محادثات جرت بين مجلس القيادة يمثله جمال عبد الناصر وجماعة الأخوان يمثلهم الهضيبى ليشاركوا فى الحكم ، وتعثرت المحادثات لأن الهضيبى وقف موقف التعالى يملى شروطاً لا يمليها الغزاة الفاتحون ، وكانت الشروط وصاية صريحة يفرضها الإخوان على الحركة .

وقيل إن حامل اللافتة لم يعد ذلك الطيب الأشيب بعدأن خلف على ماهر فى رياسة الوزارة ، فخلا له المسرح ، ونسى إنه إنما يمثل دوراً ؛ وراح يتصل سراً بجماعة الإخوان بعد أن تعذر اتفاقهم مع جمال .

وقيل، وقيل ، وقيل الشىء الكثير .

وكان لى مع الإخوان دور ، من قبل الثورة بسنين .

كنتُ أهاجم سياستهم فعلا، وأنا أصدر مجلة «الخبر» ـ لحسابى ـ فى عام ١٩٤٥/١٩٤٦ ثم وأنا أصدر (السوادى) من بعد النصف الثانى من سنة ١٩٤٦ وما تلاها من سنين .

وكنت أسميهم بالخط الكبير وعلى عرض الصفحة الأولى من جريدتى (رهبان الليل ، وفرسان النهار) .

وليس من الفروسية فى شىء أن أطيل فى عرض هذه الخصومة بعد أن تسحّبوا من ميدان السياسة .. وإنما أشير إليها ، وإلى آرائى فيهم لأضع إلى جانب هذا الرأى ، عناية الثورة بالتعاون معهم ، ومحاولة إقناعهم بالمشاركة فى الحكم ، وانتهز الخصوم الفرصة وأشاعوا أن جمال عبد الناصر كان هو نفسه (إخوانيا) وأن الثورة نفسها ، كانت من إعداد الإخوان وإخراجهم ، ولم تقم إلا لحسابهم .

وإذا كان هذا ، هكذا ، فكيف أعود إلى إصدار (السوادى) لتأييد الثورة وهى إخوانية ، بعد أن ظلت (السوادى) نفسها تهاجم الإخوان ، وتسميهم « رهبان الليل ، وفرسان النهار » ؟

وبدأ الشك القديم ، يزحف إلى الصدر من جديد .

والشيوعيون ؟

وفى الوقت الذى كانت الرءوس تتقارب فيه لتتهامس بإخوانية الثوار .. ترامى إلىَّ أن من أعضاء مجلس القيادة ضباطاً ذوى ميول يسارية ، وأن أحدهم كان قد أوشك على أن يدفع بالقيادة إلى هوة حمراء ، وأن آخر يؤمن بالماركسية من الناحية المذهبية الخالصة ، ومن الناحية العلمية التجريدية .

* * *

والموقف ـ إذن ـ يوشك أن يجاوز حد السخف .

ومن حقى ـ إذن ـ كمواطن أن أقف مفتوح العينين ، على كل ما يجرى فى البلد .

وإذا كان مجلس القيادة قد اتسع لضباط من أقصى اليسار وضباط من أقصى اليمين ، وإذا كان « الطيب الأشيب » قد بدأ يتصل بالوفد والإخوان ليقلب بهم كل الموازين ، فمن هو القائد الحقيقى للثورة ؟ هل هو إخوانى ؟ هل هو شيوعى ؟ هل هو وطنى ؟ أم هو شىء لا ندريه ؟

* * *

ثم ضعف نشاط هذه الشائعات ، وانتقل الحديث إلى الثوار و (الأطيب الأشيب) ..

قيل إن « جمال » بدأ يظهر على المسرح ، وأن (حامل اللافتة) أصابه فزع .

وقيل إن (حامل اللافتة) أشير عليه من البطانة أن ينتهز فرصة البلبلة التى

أحدثهما اتجاه (جمال) إلى تصفية الأحزاب ، ليخطو (الطيب الأشيب) خطوة نحو الوفد ، وليفتح عيون الوفديين على ما يراد بالحريات ، وبالدستور ، وعلى الاتجاه الجديد إلى إقامة « ديكتاتورية » تحكم بالحديد والنار ، وتسخر كل مقدرات البلد لخلق « فاشية ناصرية » .

ولما اعترضت بأن من غير المعقول أن يحاول القائد الشاب إقامة ديكتاتورية فى بلد محتل ، قيل لى — وكان الرد يبدو يومئذ معقولا — إن المحادثات التى كانت قد بدأت فى ذلك العام مع بريطانيا وتوقفت.. والنشاط الفدائى الذى بدأ القائد الشاب يوجهه من جديد إلى منطقة القنال ليقض به مضاجع الاحتلال ، — وكان قد بدأ يؤتى ثماره فعلا حتى جرى اسم « ناصر » على ألسنة الجنود البريطانيين يحمل إليهم صوراً عجيبة من الرعب والهلع — قيل إن الشاب إنما يرجىء إعلان الديكتاتورية إلى ما بعد الجلاء .

وقت لنفسى تعقيباً على هذا الذى قيل : لیته يفعل

وليت هذا الشاب ينجح فيما فشلت فيه ثورات الشعب عبر سبعين عاماً أو تزيد ، فيحقق لنا حلم الجلاء ناجزاً ، فإذا أراد وهو ابن من أبناء مصر أن يستذل أهله وأن يفرض نفسه سيداً عليهم ، وحاكماً مطلقاً فيهم ، فهم أحرار فيما يختارونه لأنفسهم ، حرية الأب الرخو أو الأب الحازم ، إزاء الإبن الذى يشق عصا الطاعة .

وأياً كانت النتيجة ، فتحرير مصر من الاحتلال تهون الى جانبه كل النتائج .

فترة مهزوزة

والمهم أنى فى خاتمة هذا الفصل أقول ما قلته فى مطلعه أن جميع الموازين اختلت فى يدى ، وأنها لا بد أن تكون قد اختلت فى يد القيادة .

ويبدو أنى وكثيرين من الثائرين القدامى ، كنا قد تأثرنا فعلا بالجو الحزبى الفاسد وانجذبنا إليه ، والدليل أنى أحسست بالغضب عند ما حلت الأحزاب .

وعلى الرغم من أن هذه الغضبة تناقض فرحتى بتحديد الملكية الزراعية ، فإنى

أصغيت إلى حجج الخصوم ، وإلى نعيب الخصوم وهم يلطمون الخدود ويشقون الجيوب ويؤبنون الحريات ، غداة حل الأحزاب ، وتفاقم الموقف عند إعلان الجمهورية .

ودللوا بهذا الإعلان على اتجاه القائد الشاب إلى حكم الفرد .

وبدأوا يتحدثون عن السجون التى ضاقت بالأحرار من الزعماء (؟!) .

ورأيتنى أضرب بذراعى فى هـذا البحر اللجى ، والأمواج تحملنى بعيداً عن الشاطىء ، وسفن الإنقاذ تلوح لى بعيدة هى الأخرى .

ومصيرى عالق بيد القَدَر .

• • •

وفى ميزانى أن هذه الصورة المهزوزة لتلك الأحداث ، إنما تشكلُ المرحلة الثالثة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الرابع

أمواج تتلاطم.. وآمال تتهدم

من بواعث ارتياحي أن تأذن لي — وأنا أدير المفتاح في مكانه من باب هذا الفصل — أن أشير إلى (حقيقة منهجية) ذات شأن ، وهي أني لا أحرص أبداً في هذا الكتاب على اقتفاء الثورة في كل أطوارها ، طوراً بعد طور ، ولا على بيان خطاها ، خطوه تلو خطوة ، ولا أحرص أبداً على بسط ما أدته لمصر في كل المجالات ، صنيعاً بعد صنيع ، ولو أن الأمر كان هكذا ، لما كان أيسر على من أضع أمامي (مجموعات الصحف) التي صدرت خلال السنين العشر ، وأنهض بهذا العبء في غير جهد .

ولكن الأمر ليس هكذا ..

إنما أتناول (الأحداث) التي تتصل بموقفي فقط من (الثورة) ، لأني أنا الذي تشككت وترددت ودنوت منها ورددت عنها وكفرت بها ، ثم آمنت .. فالحدث الذي كان له أثر في أي وضع عانيته من هذه الأوضاع ، هو وحده الذي أتناوله ، غير مقيد حتى بالترتيب الزمني في وقوعه بين الأحداث الأخر ..

هذه الملاحظة ذات أهمية بالغة ، وأنا أقف بباب مرحلة ، ياطالما ازدهرت خلالها آمال ، ثم تهدمت ، وياطالما هب نسيم البحر يحمل إلى رئتي سحراً وحلاوة ، ثم لم يلبث البحر أن هاج ، وتلاطمت أمواجه ، فحملتني موجة إلى مقربة من الشاطىء ، وردتني أخرى بعيداً .. بعيداً .

من هنا رأيت أن أنبه على هذه الحقيقة .

سنة . . غنية ؟ !

وسنة ١٩٥٤ التى يعنينى أن أتصدى الآن لجانب من أحداثهـــا ، كانت غنية بالأحداث وأعنى أنها كانت غنية بالأحداث التى تتصل بموقفى من الثورة .

فى سنة ١٩٥٤ بدأت شبهات السنة التى سبقتهـــا تتحول إلى حقائق أو تلوح لنا كالحقائق .

بدأت الخلافات تبدو واضحـــة بين (الطيب الأشيب) حامل (اللافتة) و بين (صَانع الثورة) .

وحدث أكثر من صدع فى جبهة الثوار ، ورأينا التشقق فى مبنى القيادة بالعين المجردة أو هكذا خيل لنا أننا نراه .

* * *

وكأن الغاضبون من المستعمرين وفلول القصر والإقطاع والأحزاب ، قد نشطوا فى تسميم الجو ، و برعوا فى صنع الأكاذيب ، وأمسى الجو مهيأ لتصديق كل خبرمكذوب ، عن أى شر (مزعوم) يراد بالأمة ، أو أى حق (موروث) يراد اغتصابه من أبناء الأمة .

وركب (الطيب الأشيب) ، قمة هذه الموجة أيضاً ، وأمسك بعصا تشبه (عصا موسى) — لا ليهش بها على غنمه و إنما ليحقق بها (مآرب أخرى ؟ !) — زاعماً أنه إنما يحملها باسم الأمة ، ليقول لفرعون الجديد : (محلك .. قف) ، وزاعماً أنه الحفيظ على حقوق الشعب فى الحياة النيابية ، وفى الديموقراطية السياسية ، وفى سيادة حكم الأغلبية ، وفى رفع راية الإسلام أيضاً .

* * *

وأشهد أنه أحسن تمثيل دوره الجديد ، وترك فى بعض النفوس المهيأة أثراً غير

هين ، و بدأ الناس يتساءلون و يتهامسون ، و بدأت الفرقة تدب فى صفوف الأهلين ، و بدأ الرأى يتشعب فى البيت الواحد ، و بين الولد والوالد .

* * *

وأطل (الإخوان المسلمون) برؤوسهم — ليتهيأوا لدورهم ، فى مساندة (الطيب الأشيب) — بزعامة مرشد ، هو مستشار سابق ، وهو أيضاً (طيب وأشيب)[1] ، وكانت الأحزاب قد حات ، وكان أضعف الإيمان أن هوى الحزبيين لا بد أن يكون هو الآخر مع (القائد الشيخ) ، وكان بعض صغـار الأحلام من الضباط المخدوعين فى سلاح الفرسان قد ضلوا طريق الثورة وأيدوا هذا (الشيخ) .

وكانت جريدة (الجمهورية) قد أصدرتهـا (هيئة التحرير) وعهد بها إلى أنور السادات — أحد الأحرار الذين يقدسون القائد الشاب — فبدأت التلميحات تنساب فى براعة بين السطور .

* * *

و بدأت ظلمة الليل تمشى بنا ، إلى ليال معتمة لا تبين لها نهاية ، ولا يكاد الناظر فيها يستبين يده ، فكيف يستبين أسرار الأحداث ومعميات الموقف ؟

وكنت قد شرعت فى وضع كتابى « مملكة فى الميزان » أرسم فيه الأهداف عربية و إسلامية ، و إفريقية وأسيوية ، فتجنبت الدخول فيما يمس من قرب أو من بعد تلك الخلافات .

وكان الملك سعود قد تحدد لزيارته القاهرة شهر مارس من ذلك العام ١٩٥٤ — وهو الشهر الذى حفل بالحوادث التى نذكرها جميعاً ولا ننساها .

---

(١) ظهر للشعب فيما بعد أن الهضيبى مرشد الإخوان « غير المسئول » كان يتصل سراً من سبتمبر سنة ١٩٥٣ بمستر أيفانز مستشار السفارة البريطانية ليفاوضه فى شروط المعاهدة التى كان عبد الناصر يفاوض الإنجليز فيها « كمسئول » ... ولعل ذلك « العدوان » كان سبباً فى تعثر المباحثات « الرسمية » فى ذلك الحين ... وإيفاد الفدائيين إلى القتال .

سعود وحوادث مارس

وكنت فى الحج قد لقيت « الأمير سعود ولى العهد » فى قصره بجده ، وفى حفل أقيم بمناسبة تنازل والده « المريض » عن « سلطاته الملكية » لولى عهده ، ودعينا نحن الضيوف إلى الحفل ، فجفلت من المعنى الذى أقيم من أجله ، ولكن الشيخ عبد السلام غالى (مدير الضيافة وأصله مصرى) ألح علينا فى أن نستره فلبينا الدعوة .

ولما جاء سعود إلى القاهرة فى مارس — وكان قد (بويع) بالملك بعد وفاة أبيه — تلقيت دعوة أقامها لعدد محدود من المدعوين فى قصر الطاهرة — وبالأسماء على المقاعد والبطاقات — فأكبرت هذه العناية من جانب ملك ، وحييته فى (السوادى) تحية بالغت فيها ، تأنيباً لحكومة مصر التى لم تدعنى إلى أى حفل أقامته للرجل .

* * *

وكانت آخر الحفلات التى أقيمت لتكريم الملك ، حفلة عشاء فى فندق «هليو بوليس بالاس » دعا إليها سعودى بارز اسمه (الكعكى) كان يملك (فندق مصر فى مكة) ولم أكن أعرفه ، ولعله نقل اسمى ضمن أسماء مَن كانوا مدعوين إلى قصر الطاهرة .

ولبيت الدعوة طبعاً .

وكان مقرراً أن يصل الملك إلى القاهرة فى مغرب ذلك اليوم عائداً من الاسكندرية حيث كان يتناول الغداء على مائدة شكرى القوتلى ليجىء (مع القائد الشيخ والقائد الشاب) إلى حفلة الكعكى ثم يبارح القاهرة فجر الليلة نفسها عائداً إلى جدة .

* * *

وطال انتظارنا للحاكمين وضيفهم ، ولم يجيئوا فى موعدهم .

وبدأت (مصانع الشائعات) ترسل إلينا ألوانا عجيبة من إنتاجها عبر الردهة الكبيرة التى تكدس المدعوون فيها ، وتفرقوا إلى جماعات متجانسة أو متآلفة ، ولم يكن لهذه الجماعات من أحاديث غير أسرار هذا التأخير ، وغير ما أرسلته مصانع

الشائعات من ألوان الإنتاج ، وحسبك أن من هذه الألوان شائعة تقول إن القائد الشيخ اغتيل فى الاسكندرية بيد أنصار القائد الشاب .

* * *

و بعد بضع ساعات أذِّن فينا بوصول الملك .

ودخل من الباب الكبير — بين حملة سيوفه — عابس الوجه مقطب الجبين ، فوقفنا تحية له فرفع إحدى يديه يرد التحية ، ومضى وفى إثره الحاشية إلى مائدة الصدارة لافتتاح العشاء ، فانتهزت فرصة مرور سكرتيره الخاص — عبد الله بالخير — على مقربة منى وجذبته من كم العباءة وسألته فى لهفة عن الشائعة الخطيرة فنفاها وهمس فى أذنى : (جلالته يبغى الصلح بينهم ، أجل سفره الليلة ، والرجال (بتشديد الجيم المفتوحة) — ويقصد (الطيب الأشيب) وصل معنا بخير وسلامة .. اطمئن ، والحمد لله .

وأحسست من الإجابة أن هوى السعوديين مع حامل اللافتة .

وتناول الملك قليلا من الطعام — على غير عادته — وقام .

وانصرف وانصرفنا .

وفى الصباح أذيع أن الملك أرجأ سفره يوماً ، وأنه استقبل جمال عبد الناصر ، و بقى معه إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكلام يفهم منه أن الصفو قد عاد إلى النفوس بفضل الضيف الكبير ، وسافر الملك — وهو عليم أو غير عليم — بما خبأته الأقدار من حوادث مارس بعد أيام من رحيله .

ومرة أخرى أقول : أحسست أن هوى السعوديين مع حامل اللافتة ، فهل كانوا يحبونه لأنه « طيب أشيب » ولا شيء إلا « الطيبة والشيب » ؟ أم أن الأمر لم يكن (حباً فى معاوية ..) ولكن (كرهاً فى على ..) ؟ وترجمة هذا (القول المأثور) إن الأمر لم يكن حباً فى (نجيب) ولكن كرهاً فى (ناصر) .

ولـكن ناصر .. لماذا يكرهونه؟

أغلب الظن أن التعبير غير دقيق ، والدقة أن تقول : (كانوا يخافونه) ، فإذا صح أن الأمر كان هكذا ، فمن الإنصـــاف أن نشهد لهم ببعد النظر ، بعد أن أثبتت الأحداث أن (الناصرية) أمست تثير مخاوف (الرجعية) فى كل البلاد العربية .

• • •

ونعود .. نقول :

وقعت حوادث مارس ، وتفاقم الخلاف ..

وذهب (جمال) بنفسه إلى سلاح الفرسان ، وواجه صغار الأحلام ، وبسط الموقف على حقيقته ، وأفاق من أفاق ، وتجمد من تجمد .

وقيل فيما قيل أن صفوة من أنصار (جمـــال) أصروا على أن يفتكوا بالقائد الشيخ ، فوقف (جمال) فى وجوههم ، وردهم عما أرادوه .

وكانت الحريات ، قد أطلقت للصحف والمجلات ، وما كان أشد دهشتنا ونحن نرى « أحمد أبو الفتح » — الصديق الصدوق — لناصر — يؤيد اتجـاه « الطيب الأشيب » وأصبحت جريدة «المصرى» التى كان القائد الشاب يقضى الجانب الأكبر من أمسياته فيها ، أصبحت منبراً لـكل من يريد أن يطالب بعودة الأحزاب وعودة الدستور وعودة البرلمان .

واختلط الحابل بالنابل ، ولم يعد أحد يدرى على التحديد شيئاً .

ومشت الضلة إلى نفسى ، فشعرت بهواى إلى جانب « القائد الشيخ » ولـكنى تحفظت ، وسيطرت على هذا الهوى ، (لا ثقة) فى (القائد الشاب) ، بل (عدم ثقة) فى (القائد الشيخ) ، وهو يوزع وده على قوم لا يجمع بينهم ود ، كالإخوان والوفد .

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن الأمر كله ملتو على ، وأن الخيوط كلها عادت تتشابك وتهتز بين يدى .. وأن الجانب الخفى من الموقف أشد خطورة

من الجانب الظاهر ، وأن (الطبيب الأشيب) ، ليس هو الذى تصوره (المصرى) ، شعبى العقيدة ، ملائكى الخلق ، دستورى النزعة ، وأن (القائد الشاب) ليس هو الذى يصوره الخصوم فى صورة (فرعون) .

وأحسست — كما لم أحس من قبل — أن (حمى البلبلة) بدأ دبيبها يتمشى فى أوصالى ، ويهدد بالعىّ ، طاقةَ الإدراك فىّ .

* * *

ومشى الانقسام إلى جماعات المثقفين ، فانقسم المحامون ، فى اجتماعات صاخبة وعاصفة ، انعقدت فى دار النقابة ، وكاد الفريقان يتضاربان .

وعلى حين غرة ، تفجرت طاقات الشعب الملهم ، ونزل العمال إلى الشارع ، واكتسحت المظاهرات القـــاهرة ، وهى تنادى بالموت لـكل من يعترض طريق (الثورة وصانعها) هاتفين بسقوط المحامين ، وكل مثقف تنتهى به ثقافته إلى (الخيانة) .

وربطتُ على قلبى بيدى ، وعينى على جيش الاحتلال فى القنال ، خشية أن يتحرك ، وأن يضرب .

وارتفع جمال إلى مستوى الأحداث ، وأصر على الاستقالة ، وأعلن تسحُّبه من القيادة ومن كل تشكيلات (النظام) — وهو صانعه — حتى يبقى (النظام) .

واشتدت ثورة العمال ، وأرغموه على أن يسترد الاستقالة ، وعلى أن يعود من جديد رئيساً للوزارة .

وسنحت الفرصة للتخلص من القـائد الشيخ من غير أن تهرق قطرة من الدم ، وأبى جمال إلا أن يعيده رئيساً للجمهورية (يملك ولا يحكم) بلغة دستورنا القديم .

وجرت الأحداث فى الطريق التى رسمتها الأقدار وكلكم تذكرون تلك الطريق .

وليس مما يتصل بمهمتى فى هذا المقام أن أتلبث عندها ، أو أفصلها ، أو أطيل الحديث عنها .

وحسبى أن أعود إلى نفسى لأحاول مرة أخرى تحديد مكانى .

أين مكانى ؟

نعم .. أين مكانى من هذه الأحداث ؟

بل أين مكانى من أحداث سنة ١٩٥٤ بأ كملها لا من أحداث مارس وحده ؟

وأعترف أنى لم أجد لى مكاناً ، إلا أن تشدنى (اليمين) فيعاودنى الحنين إلى (الشمال) وتشدنى (الشمال) فيردنى الحنين إلى (اليمين) .

نعم .. كان لى عقل وضمير وحس كالكل الأناسىّ ..

كان لى عقل .. وللعقل تفكيره .. وللتفكير أسلوبه .

وكان لى ضمير .. وللضمير (صوته) .. وللصوت تأثيره .

وكان لى حس ، وكان الحس أسبق من أخويه فى التأثر ، حتى خفت منه فجمّدته ، بحيث يرى كل شىء ولا يثيره شىء ، ونفضت يدى من الأمر كله ، وجلست فوق رمال الشاطىء أحدق فى الأمواج يطارد بعضهـــا بعضاً ، ولا تدرك إحداها الأخرى ، وإن كانت كلها تتكسر فى النهاية تحت أقدام الشاطىء ، وأحدق فى البواخر تمخر العباب ، ثم ترسو أو تغيب ، وأحدق فى الأفق البعيد وهو يرمز للغروب ..

***

وقد يكون مفيداً فى هذا المقـام أن ألتقط من حوادث العام بعض ما انعكس تأثيره على العقل فخطا بى إلى النور ثم ارتد ، وعلى الضمير فصحا من النوم ثم همد ، وعلى الحس فأكل منى حتى أتخم وتجمد ، وتركنى فى صحراء الرأى جيفة .

• فى ذلك العام حاول الإخوان اغتيال (جمال) فى المنشية .. فواجه الرصاص فى شجاعة تدير الرؤوس واكتشفت أجهزة الإرهاب ومخابىء الأسلحة .

• وفى ذلك العام وقع جمال — رئيس وزراء مصر — اتفاقية الجلاء عن مصر ،

واعتبرها فى خطبة له خلاصاً من المستعمر بعد الاتفاقية التى كان قد وقعها مع انجلترا لحل قضية السودان .

• وفى ذلك العام صفيت رياسة (الطيب الأشيب) و بدأت الصفحات المطوية تنشر فى الصحف .

• وفى ذلك العام بدأت مصانع الذخيرة تنتج .

• وفى ذلك العام قرأت كتاب (فلسفة الثورة) .

* * *

وأحب أن تعرف أن (تصفية الإخوان) صادفت هوى من نفسى بعد أن امتد نشاط الإرهابيين فيهم إلى الآمنين فى دورهم ، و إلى سابلة الطريق ، و إلى دور القضاء ، وكنت أعرف أن هذا اللون من إشاعة الذعر وبث الفوضى — كما حدث فى حريق القاهرة — عمل من أعمال (الشيوعيين) وليس عملا من أعمال (المسلمين) مهما تكن (البواعث) ، وكانت لى آراء فى (الإخوان) حقق لى صدقها ، ذلك الذى جرى منهم ، وذلك الذى جرى عليهم ، وكان المعقول أن يشدنى هذا (التطهير) إلى (سياسة الثائر) ، كما شدنى (قانون الإصلاح الزراعى) إلى (اتجاهات الثوار) .

ولكن (الخصوم) كانوا واقفين بالمرصاد ، لكل ما هو (معقول) ، حتى يتبدى فى نظر الجماهير (غير معقول) فأشاع (مصنع الشائعات) بين الناس أن (حادثة المنشية) كان (مدبراً) وأن (جهاز الإرهاب الإخوانى) كان جمال على علم به من سنين ، وكان قد شارك فى إعداده ليعمل ضد المحتلين ، وكان يعرف مكان كل قنبلة ومدفع ، فلما اشتدت قبضته على الحكم ، واشتدت معارضة الإخوان له ، غدر بهم ليتخلص منهم ، وزعم أنه كشف عن مخابئهم ، بعد أن اطمأن إلى الاتفاقية التى أبرمت مع الإنجليز بشأن القنال وقاعدتهم فيها .

وعاودتنى البلبلة ورحت أقول لنفسى :

— إذن فالقائد الشاب يستهدف إجلاء الأعداء عن أرض الوطن ، بمعونة

الإخوان وغير الإخوان ، فإذا سلمنا جدلا بأنه غدر بهم ، فهل نقيد لحسابه (الدائن) فضيلة إجلاء العدو عن أراضينا بأى ثمن ، أم نقيد لحسابه (المدين) غدره (المزعوم) بإخوان له ، ربط (العهد) بينه و بينهم ؟

وتسحّب العقل فلم أستطع أن أبدى رأياً .

والجلاء ؟

وكنت قد فرغت من كتابى عن رحلة الحج ، عند ما وقع (جمال) اتفاقية الجلاء ، فأضفت إليه — وآخر ملزمة فيه يهيؤها عمال (المطبعة العالمية) للطبع — صفحة جديدة قلنا فيها تحت عنوان (مجرى التاريخ) إن رئيس وزراء مصر ووزير حربية المملكة المتحدة قد وقعا فى السابع والعشرين من يونيو ١٩٥٤ و بالأحرف الأولى من اسميهما (الخطوط الرئيسية للاتفاق الذى يتضمن المبادىء التى يقترح إعداد اتفاق على أساسها خاصاً بقاعدة السويس) ورغبتُ من إبداء الرأى فقلت بالحرف: « وكل مرجوى ، وقد بدأ مجرى التاريخ المصرى يتحول ، أن يكون هـذا التحول موضوعاً لكتابى السياسى التالى » .

والقائد الشيخ ؟

وكان عجيباً — بعد حوادث مارس — أن يفتتح أنور السادات (والمرحوم) صلاح سالم الحملة على القائد الشيخ — وهو يمارس سلطات رئيس الجمهورية فى عابدين — فى فصول ضافية ترفع الستار عن القصة الكاملة للرجل الذى طلب إليه أن (يمثل) دور الرئيس ، فمثل ، وكان عجيباً أن يتسابق الصحفيون والكتاب ، إلى إصدار الكتب تحمل إلى القراء ما لا يكاد يصدق عن تصرفات شخصية للقائد الشيخ ، يخجل من نسبتها إليه أى مواطن عادى ، فضلا عما كان قد أثير فى المحاكمات عن اتصالاته السرية بالإخوان وغير الإخوان .

وثبت أن القائد الشيخ لم تكن له صلات أصلا بتشكيل الضباط الأحرار وإنما وقع على الشيخ الاختيار ، بعد أن مهدوا لظهوره كلواء له قدره بين لواءات الجيش

فرشحوه لرياسة نادى الضباط ليسقطوا به حسين سرى عامر ، كلواء له مكانه بين رجال الملك ، ونجح القائد الشيخ ، وغضب الملك وأمر بإلغاء نتيجة الانتخابات ، ونقل الشيخ مديراً للحدود ، وبدأت الحرب المكشوفة بين الملك وطلائع الثورة .

ومن أسباب اختيار القائد الشيخ أيضاً لقيادة الثورة رغبة الضباط الأحرار ، فى أن يحتفظ (صانع الثورة) بحرية الحركة حتى يستكمل تشكيله السياسى بعيداً عن الأضواء ، وحتى يضع تخطيطه وتكتيكه فى مواجهة المحتلين والإقطاع ورأس المال والأحزاب .

وكان ينبغى أن (أعقل) هذا الذى قيل ، لأنه (معقول) .

ولكنى ترددت ..

ترددت لأن الخصوم رسموا صورة مقابلة للشيخ (المسكين ؟) فذكروا بطولات له جرح خلالها ثلاث مرات فى فلسطين ، واستشهدوا عليها بأقوال الثوار أنفسهم إثر قيام الثورة عن تلك البطولات ، وذكروا أن الشيخ لا يريد أن يستقبل ربه وهو يحمل على كتفيه التمهيد .. لفرعون جديد .. بدأ يذل قومه باعتقال أصحاب الماضى المجيد فى مكافحة المحتل .

وقال الخصوم إن الشيخ لم يفعل أكثر من أنه أصر على أن ترد حقوق الشعب للشعب وأن يعود كل جندى إلى ثكنته ، فلم يكن منهم إلا أن حشدوا فى الطرقات كل مأجور من العمال المحترفين ، وشنوا على الشيخ أبشع ما يشن من الحملات ، وجردوه من كل السلطات ، وشتتوا أنصاره من الضباط ، فنفوا منهم إلى أوربا الفريق المحظوظ أو المخوف ، ملحقين عسكريين فى السفارات ، وحملوا ياوره الخاص على أن يطير إلى السعودية لاجئاً سياسياً ليذيعوا رسمياً أنه (هرب) .

ومرة أخرى فتحت عينى على السعودية ، وذكرت سكرتير الملك يوم حفلة هليوبوليس بالاس ، والعبارة العجيبة التى همس بها فى أذنى ، ولم أثبت عند هذا الخاطر ، ولم يدر بخلدى أن الغد سوف يتمخض عن ضوضاء رهيبة ، نتيجة لتلك الهمسة الخافتة ، ومضى الخاطر ، أو كان ومضة ، وتلاشى الوميض .

* * *

ومضيت أقول لنفسى بعد أن ملأها الخصوم شكوكا :

— لو أننا سلمنا — جدلا — بأن القائد الشيخ ، بلغ من (السوء) المبلغ الذى صوره لنا (دعاة السوء) ، فلماذا اندفع الثوار من فجر الثورة يرتفعون بالشيخ إلى السماوات العلا ، ولماذا أسرفوا على ثورتهم فصوروه للشعب ، مبعوث العناية لإنقاذ العرب ، حتى لقد كادوا ينادون به نبياً لولا إيمان المسلمين بأن محمداً بن عبد الله هو خاتم النبيين .

والحق أن الثوار — والأنصار المتخصصين فى قرع الطبول والنفخ فى المزامير — لجوا فى الدعاية للشيخ حتى لقد قالوا إن عجائز الأمريكان أصابهن الهوس ببطولة الجنرال (وأن كثيرات منهن أبرقن إلى المسئولين فى الاستعلامات يطلبن صوراً له تزدان بها صدورهن) وأن موسم السياحة قد يحمل لنا من الدولارات أكياساً أو أكداساً ، لأن أصحاب الملايين من الأمريكيين مشوقون إلى رؤية الجنرال الأعزل الذى طرد الملك وهزم بريطانيا وقوض الاستعمار .

مضيت أسأل نفسى :

— بأى حق ضللونا على هذا النحو ، وهم يعرفون أن كل ما قالوه ، عن (الطيب الأشيب) لا يمت إلى الحقيقة بسبب ؟ !

وفى غمرة الغضب ، قيدت التصفية — التى كنت أرنو إلى تقييدها لحساب الشاب الدائن — فى حسابه المدين .

عدوان علىّ ...

ثم جاءت الضربة التى سددوها إلى صدرى شخصياً ، فأجهزتْ على كل تردد فيه ، وملأتنى (ضغينة) .

أقول (ضغينة) ولا أتردد هذه المرة ، لأنها تدخل ضمن « الصدق الرهيب » الذى توخيته فى هذا الكتاب .

نعم .. وفجأة .. وفى غير مقتض — وكنت ألازم مكتبى أصغى ولا أتحدث .. وأحايد ولا أخاصم — تلقيت كتاباً مسجلا من وزارة الإرشاد القومى — كما كانوا يسمونها — و بتوقيع وزيرها .. بإلغاء رخصة جريدتى .. و بحجة أنها لا تصدر بانتظام .

وأذكر — وأرجو ألا تكون الذاكرة قد خانتنى فى عدد أو عددين أو ثلاثة — أن « السوادى » كانت تصدر بانتظام ، وتطبع فى (المطبعة العالمية) التى تحمل عبء هذه الطبعة من هذا الكتاب ، ولم تكن توزع فى السوق ، وإنما كانت تصدر فى أضيق نطاق ممكن ، احتراماً للقانون ، وكنت أضمنها (مذكرات من الذاكرة) عن ربع قرن قضيته فى الصحافة ، وكانت بعض المؤسسات الكبيرة لا تزال تجاملنا وترسل إلينا إعلاناتها ، وكان بعض المشرفين على الدعاية للأفلام لا يزالون يجاملون .

وأكثر من هذا ، أن البلد كانت — ولا تزال — ملأى بالمجلات التى تصدر فى أى وقت تجد فى صدورها نفعاً ، وتكف عن الظهور فى أى وقت يضنيها الظهور فيه .

ودارت الضربة برأسى وحاولت عبثاً أن أجد سبباً .

والحادث فى ذاته قد يبدو عادياً فى نظر القارىء العادى ، أما أنا فالذى يعنينى منه وقد تأثرت به ، أنه وقود جديد صبوه بأيديهم على تشككى فيهم وعلى كل ما دفع بى إلى كفرى بهم .

(إننى يا عبل ، من لحم ودم) هكذا قيل إن عنترة .. قال لعبله .

وهكذا يقول واضع الكتاب لقراء الكتاب — وفى مقام الاعتراف لا فى مقام الدفاع : إننى — يا قوم — من لحم ودم .

وقد سددوا الضربة ، إلى مصدر رزقى ، فاستقر فى ذهنى وقلبى ، أن من يضرب

بريئاً) أعزل ، وعلى هذا النحو ، وبهذا العنف ، ومن غير داع ، يصدق فيه كل ما يقوله الخصوم عنه .

وعلى ضوء هذا المنطق ، رأيتنى أدخل فى دائرة (الكفر) أو (الخصومة الحادة) للقائد الشاب .

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة ، أو بهذا الفصل ، قد رسمت المرحلة الرابعة فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .

الفصل الخامس

أوغلت فى الكفر

وجاءت سنة ١٩٥٥ حافلة بالأحداث ، جساماً هذه المرة .

ولم تكن الأحداث على مستوى مصر والملك ، والإقطاع والإخوان .

ذلك مستوى ، لاح لى أنه يتراجع باهتاً إلى زوايا النسيان ، وأنه يبحث فى خطو المهزوم عن مكان له فى التاريخ .

كانت صفحة الأحزاب قد طويت منذ حلت وصودرت أموالها وممتلكاتها فى ١٨ يناير سنة ١٩٥٣ وإن كان قد تركت خلفها أذيالا من الحقد ، لم يكن من بقائها بد .

وكانت أسرة محمد على قد دفنت فى ضريح معتم فى مقابر التاريخ منذ قام الحكم الجمهورى فى سنة ١٩٥٣ أيضاً .

* * *

وأعود قليلا إلى الوراء لأذكر أن الثوار كانوا قد تكتلوا ، إثر اتخاذ تلك الإجراءات الحازمة ليقدموا إلى الجماهير ما يبررها فعهدوا إلى حامل اللافتة بخطب أعدوها ليلقيها ، وانطلق بها إلى نجاج الأقاليم بين عواطف مشبوبة وقلوب جياشة وهتافات تواصى مرسلوها على أن يملأوا بها كل شبر يزوره من الإسكندرية إلى أسوان ، وظهر فى تلك الفترة « جمال » .

ظهر (جمال) ليخطب فى (هيئة التحرير) أول خطبة له فى ٦ فبراير سنة ١٩٥٣ وأوفد إخوانه الثائرين إلى مختلف الأقاليم ليتعرف الشعب عليهم فشهد الشهر الرابع من

نفس العام سباقاً «شبابياً» بينهم ، وسافر عبد الحكيم عامر إلى بلده (المنيا) فخطب فى أهله ، كما خطب أنور السادات وزكريا محيي الدين وكمال الدين حسين وحسين الشافعى فى نفس الشهر فى كفر الزيات و بنها وغيرهما من مدن الوجه البحرى .

وكان (جمال) قد أمر بتشكيل حرس وطنى من شباب الجيل الثائر . فتم تشكيل (الحرس الوطنى) .

وأحس القائد الشاب أن اليد الباطشة التى أجهز بها على الإقطاع والأحزاب فى حاجة إلى مساندة واعية ، فطلب إلى (هيئة التحرير) أن تضطلع بهذه المهمة ، فصدرت جريدة (الجمهورية) يشرف عليها (أنور السادات) ، فأحسن القيام عليها ، بعد أن حاولوا ملء الثغرة ، من مطالع الثورة ، بمجلة (التحرير) ولم تكن تقدر وحدها على سد حاجة القراء كل صباح وهى نصف شهرية ، و إن كانت بعض نجوم الضباط قد لمعت فيها لمعاناً فكرياً خاطفاً لم يجل أبداً بخاطر ، فالتقينا لأول مرة بثروت عكاشة وكمال الحناوى ، ومصطفى بهجت بدوى ، يعاونهم بعض الصحفيين المعروفين استعاروهم من جريدة (المصرى) صديقة الثورة فى ذلك الحين ، مثل عبد المنعم الصاوى وحسن فؤاد وكثيرين لا أذكرهم .

سنة ١٩٥٥

وأعود إلى سنة ١٩٥٥ وحوادثها الجسام ..

ولم تكن هذه الأحداث على مستوى مصر والملك ، والإقطاع والإخوان كما قلت فى بداية الفصل ، وإنما ازدانت تلك السنة بوثبات جريئة فجرت حوادثها على المستوى الأسيوى والإفريقى ، وعلى المستوى العالمى أيضاً ، فشهدت محاربة حلف بغداد وشهدت انعقاد مؤتمر باندونج ، وشهدت زيارة عبد الناصر للهند ، وشهدت حادث تسليح الجيش المصرى من روسيا وتشيكوسلوفاكيا .

ودارت الرؤوس مرة أخرى ، ومن بينها كان رأسى .

وهجوم إسرائيل

وكان مما استرعى الأنظار وقوع الهجوم الإسرائيلي الغادر على « غزة » فى ٢٨ فبراير من ذلك العام .. وفى هذا الهجوم منينا بخسائر جاوزت الحدود التى ألفناها فى المصادمات المألوفة بين « الداوريات » فراعنى الحادث ورحت أقول لنفسى :

● فى سنة ١٩٥٤ عقدنا المعاهدة بيننا وبين انجلترا .. واتفقنا على الجلاء .

● وفى ٢٤ فبراير سنة ١٩٥٥ أقامت انجلترا نفسها « حلف بغداد » تصد به تيار « القومية العربية » التى يرفع ناصر رايتها .

● وفى ٢٨ من الشهر نفسه فبراير — أى بعد أربعة أيام من قيـــام (حلف بغداد) — حرضت انجلترا نفسها .. جيش إسرائيل فشن الهجوم علينا فى (غزة) وهى تعلم أننا لا نملك من السلاح ما نرد به هذا العدوان إذا تحول حرباً ، وكنا قد طالبناها بتسليحنا فراغت منا وسلحت جيش إسرائيل.. فـكيف يستقيم فى الذهن — وهذا هو الوضع — أن جلاء سيتم ؟

● وفى غمرة هذا الظلام الذى أمسى يملأ نفسى.. توالت شائعات الخصوم تعقب على ذلك الهجوم ، وتعقد المقارنات بين هتلر وناصر ، وتؤكد أن سياسته لابد أن تنتهى بإسرائيل إلى احتلال أرضنا ، وتحقيق حلمها الصهيونى القديم: (من الفرات إلى النيل) كما احتلت أرض ألمانيا الهتلرية ، جيوش الروس والحلفاء .

حقيقة كبيرة ؟

وحقيقة ـ (كبيرة) ـ أميل الساعة إلى (التركيز عليها) ، بعد أن أثبتت التجربة وجودها وبعد أن عشت بنفسى هذه التجربة ، وصح عندى أن لهذه (الحقيقة) أثراً بعيد المدى — فى نفوس الـكثيرين — ولا أتهيّب أن أقول : (فى اتجاهات الجماهير) .

حقيقة تشبه الوباء الذى أزمن و (توطن) ، وتلازم (فترات الانتقال) التى تمر بها الشعوب الغنية بالأمجاد ضاربة الجذور فى التاريخ والتى تركت بصماتها واضحة على

صفحات ماضيها المضيء ، ثم توالت عليها الليالى السود ، وعوملت كما يعامل العبيد ، وقاتلت ، كلما وجدت إلى القتال سبيلا ، وعانت من عوامل (التعرية البشرية) ما تعانية الجبال الشم من عوامل (التعرية الطبيعية) ، فتعقدت هذه الشعوب تجـاه أى جيل ، يجيء ، وأصيبت ، بالحساسية تجاه أى حاكم جديد .

* * *

هذه (الحقيقة) ، عرفتها (مصانع الشائعات) من بداية الحكم الثورى الجديد فعكفت عليها ، وأحسنت استغلالها وأعنى بالحقيقة فى معناها الواسع : (تشكك الجماهير فى كل حاكم جديد) ، وفى معناها الضيق (أحقاد الفاشلين على كل حاكم ناجح) .

ويبدو أن هذه (الحقيقة) هبطت على شعبنا بجناحيها معاً وأطبقت عليه بكل ضراوة فيها ، ضراوة الطير الجائع ، ينقض على الفريسة والفريسة بين يديه تتلوى .

وناصر (حاكم جديد) من حيث (المعنى الواسع) .

وهو حاكم ناجح من حيث (المعنى الضيق) ، والفاشلون فى عهده وبسببه ، قطاع غير هين ، قطاع كان يملك كل شيء ولم يعد يملك شيئاً .

ويكفى أن تجد نفسك — مصادفة أو عمداً — فى هـذا القطاع الذى يخاصم الحاكم ، حتى تحتكر أذنيك شائعاته ، تنصب على أذنيك وتنصب ، وتنسل إليك من كل حدب وصوب ، وتتسرب إليك فى المقهى وفى البيت وفى المكتب ، مرة فى صورة (خبر مثير) وأخرى فى صورة (رواية) عن (شاهد عيان) ، وتارة فى صورة (بشرى) تزف إليك إن كنت فى ضيق ، وطوراً فى صورة (نكتة) تملأ سمعك فى السهرة أو العمل أو فى الطريق .

و (التريقة) السياسية على الحاكم الناجح ، عدوى قابلة للانتشار ، وفى أقصر وقت وعلى أوسع نطاق ، وقد تصاب بهذه العدوى من غير أن تكون خصماً لهـذا الحاكم ، لا لشيء إلا لأنك تعيش فى بيئة من بيئات الخصومة .

وأنا أعيش فيها ، وبرغمى ولو تأبيت عليها .

لقد أمضيت العمر كله فى الصحافة ، التى تمثل الأحزاب والساسة ، ومعظم الأصدقاء من الحزبيين والسياسيين ، وإذا أنا أوصدت أبوابى دونهم وثبوا إلىّ من النوافذ ، وقد تجاهلتنى حكومة الثورة فى غير سبب ، وألغت رخصة جريدتى من غير خصومة ، وفتحت أمام أصدقائى من أعدائها ، كل طريق يؤدى إلىّ ، من غير حاجة إلى (باب) أو (نافذة) .

هكذا وجدت نفسى بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

* * *

وأرجو أن يكون مفهوماً ، أنى لا أعنى بالخصوم (أشخاصاً) معينين .

إنها (جو) ، جو كل الأجواء يقسع لكل من يتنفس فيه ، لرواد المقاهى تسمع منهم (الأخبار الزائفة) ، ولسابلة الطريق تسمع منهم (النكتة) المثيرة ، جو موبوء بخصومة كل حاقد ، وموبوء بخصومة كل فاشل .

ومرة أخرى أقول : هكذا وجـــــدت نفسى بين الخصوم وأنا على مطالع سنة ١٩٥٥ .

* * *

وقد يكون من الانصاف (لكرامتى الفكرية) — إن صح هـذا التعبير — أن أقرر أنى لم أكن — برغم ظروفى — (صيداً سهلا) لكل من (يحمل بندقية صيد) .

وقد خضت فعلا معارك حامية بين العقل والعاطفة ، وصراعاً عنيفاً بين (هواى) أو (عدواى) من ناحية وبين (منطقى) الذى كنت بطبيعة (تكوينى) أحب له دائماً أن يستقيم على الجادّة ، من ناحية أخرى .

وكنت أحس أن (منطقى) يحاول أن ينهض (بالتزاماته) ، وأن يُذكّر (مواطن الضعف) فى (الهوى) أو فى (العاطفة) بما صنعته الثورة لهذا البلد ، من أمجاد ، وفى

سنوات ثلاث ، ولـكن العاطفة كانت تعتصم بهواها الجديد ، وكانت تلوذ برواسب التحزب القديم ، فـكان المنطق المسكين ، ينسحب من قلب المعارك ، شاحب الوجه ، متعثر الخطى ، أشبه بالجريح .

وشددت الرحال

ولم أجد — وأنا أحاول أن أَطِبَّ لنفسي — خيراً من أن أنتزع هذه النفس التعسة من هذا (الجو الحزبي الفاسد) ، إلى جو أكثر هدوءاً وأوفر طهراً .

لم أجد ـ وأنا أطالع ذات صباح أنباء (الزيارة الرجبية) خيراً من أن أشدّ الرحال إلى الرسول ، وكنت قد تعلقت به ، وبالروضة التي أستنشق عبيرها فأستروح فيه روائح الجنة ، و(بالمدينة) التي أتحدث إلى الأهلين فيها ، فأذكر الأنصار وأذكر يثرب ، وأرى التاريخ ممتداً بكل نفحات الرسول إلى البقاع التي ثوى فيها عبر أربعة عشر قرناً .

وشجعني على الزيارة ، سهولة السفر إلى مكة لأعتمر ، ولأدعو رب البيت أن يفتح بصيرتي على الحقائق ، وأن ينير طريقي إلى الحق ، ولأرى ما صنعت (المـكتبات) فيها بثلاثة آلاف من نسخ كتابي كنت قد صدرتها إليها عن طريق البحر الأحمر قبل ذلك ببضعة أشهر ، ودائماً تقترن فينا ، شفافية الروح بكثافة المـادة ، حكمة الله في الإنسان الذي سواه ، فنفخ فيه من روحه ، وأكرمه وقوّمه ، وخاف عليه أن يتطلع إلى السماء فلا تستقر به أرضه ، فزين له المـال والبنين ، ليصفو ويألفه ، أويستقر ويتوازن .

وهكذا شددت الرحال ، يهفو الروح مني إلى رسول الله .. ويهفو الضعف فيّ ، إلى كسب مادي أسوغه فأسميه (فضل الله) .

* * *

وزرت واعتمرت ، زرت رسول الله وبيت الله ورفضت أن أزور الملك ، بحجة أن أحداً لم يدعني لزيارته .

وكان مريضاً في الرياض ، وكانت الفرصة سانحة لما يسمونه (التسليم على جلالته)

ولكن برنامجى لم يكن يتضمن مقابلة ملوك ، وخفت إذا أنا أدخلت عليه تعديلا ، أن يدخل (الملك الكبير المتعال) تعديلا آخر عليه تأديبيا ومضاداً .

وكان الأمير فيصل على مقربة أمتار منى ، فلم أزره ، ولم أبرق إليه .

ولم أزر أحداً من الأمراء لأنى لا أعرف حتى اليوم أحداً منهم ، وقد يدهش لهذه الحقيقة كثيرون من الصحب الذين ظنوا أنى (وصلت) .

ولكنى لقيت الكثيرين من المصريين المقيمين فى جدة ومكة ، موظفين أو منتدبين أو مقاولين أو محاسبين أو عمالا .

وكانت العلاقات من (الناحية الرسمية) بين مصر والسعودية على خير ما تكون العلاقات الحميمة بين الأشقاء المتحابين ، أما من (حيث الواقع) فقد لاحظت أن ضحايانا الغالية فى الهجوم الغادر على (غزة) ، لم تكن تقابل بالأسى المفروض أن يحفر الأخاديد فى كل القلوب ، فى قلب كل عربى ودود .

وأعترف أن هذه الملاحظة أغضبتنى وطويت الجوانح عليها فى صمت ، ولم تغضبنى وفاء للناصرية أو ولاء لناصر ، وإنما أغضبتنى ، لأن للوطن كرامة تثور ، إذا هى مست من (غريب) ، والحساسية من هذه الناحية تبدو أعراضها واضحة على كل مواطن وهو فى (الغربة) .

ولكن المهم فى موقفى من الثورة ، أن تلك (الملاحظة) زادت نفورى من السياسة المصرية التى لا ترى أبعد من مواطىء أقدامها ، ولا تدرك حقيقة السعوديين كما أدركتها ، أو هكذا خيل إلىّ يومئذ .

كما قيل لى إن (خصوم الناصرية) كانوا محقين ، عند ما كانوا يقولون إن السياسة (فن) له (أقطابه) ، وكانوا يبررون كل ما عزى إليهم من أخطاء بالمثل العامى المدام « إدى العيش لخبازه ، ولو أكل نصه » .

عدت من الزيارة الرجبية أكثر كراهية للناصرية .

ولـكن .. حتى هـذه (الـكراهية) لم تخلص لى ، ولم أخلص لها ، فـكنت إذا عدت إلى البيت آخر السهرة ، وأسلمت رأسى إلى الوسادة ، ومر شريط الثوار أمامى — يعرض صوراً مما أدوه إلى مصر فى هذه الفترة القصيرة ، شعرت بخفقة فى القلب ووخزة فى الضمير ، وومضة فى الرأس ، وكلها تصرخ فىّ أو تكاد (لا تـكن أعمى) .

وأشعر بالبرودة تسرى فى أوصالى ، فأغضى حياء ، وأشد الغطاء فوق كأنى أحصن به جسدى ضد هذه البرودة ، أو كأنى أحجب به عن عينى رؤية الحقيقة .

ويتسلل مع الدفء المصنوع ، إلى أحضانى ، أخ وأخت ، أتشهى طلعتيهما فى مثل تلك اللحظة الراعشة ، أو اللحظة اللاهثة ... يتسلل (الهوى) وتتسلل (العدوى) وينقضّان على « الخفقة » فتمضى .. وعلى (الوخزة) فتسكن .. وعلى (الومضة) فتخبو .. ويمر شريط الخصوم بكل ما يحمل من قتامة فأغمض عينى على العتمة ، وأنام .

وهذه .. « الخبطة » ؟

وفجأة سافر القائد الشاب الذى صوروه لنا مهتزاً (على المستوى الوطنى) ، سافر إلى (باندونج) ليقف إلى جوار (نهرو) و(ماوتسى تونج) وليمشى رابط الجاش ثابت الخطو .. إلى (العملقة العالمية) .

وفركنا أعيننا كما لو كنا صحونا ساعة النبأ .. من النوم .

إنه خبر داهم .

خبر يقع على رءوس الخصوم .. وقع الصواعق .

هكذا تصورت .

وددت لو ألتقى الخصوم وأسمع آراءهم فى هذه الخطوة .

وأذكر أن أحدهم لقينى — وذمة لا أذكر اسمه — وقال كلاما كثيراً نسيته وبقى فى الذاكرة سؤال وجهه إلى : « لـكن هو جمال يعرف انجليزى كافى للتفاهم مع نهرو وأمثاله » ؟

وأذكر أنى زممت شفتى استنكاراً لهـذه السطحية فى التفكير .. وشننت على السائل يومها حملة شعواء بقى منهـا فى الذاكرة أنى طلبت إليه فى عنف أن يرتفع بالسخرية إلى مستوى الحدث .. وأن يسأل إن شاء عن الأفق السياسى لناصر وعن مدى اتساعه لوعى الدوليّـات على المستوى الموضوعى للمؤتمر الخطير الذى يشارك فيه ؟ أما اللغة فهتلر نفسه لم يكن يعرف إلا الألمانية وخروشوف لا يخطب إلا بالروسية . . وليس هناك ما يمنع أن يكون جمال متمكناً فى الإنجليزية .

* * *

ونجح مؤتمر باندونج .. وأسفر عن قرارات عشرة .. ترسم لإفريقيا وآسية مخططاً جديداً .. وترفع شعلة الحياد الإيجابى وهى تتوهج فوق سارية الدنيا وتحركت فوق الشاشة الدولية صورة شاب من الشرق .. فارع العود .. عريض المنكبين . . تلوّح وجهه سمرة .. يدرك ما يقول .. ويزن كل كلمة .. ويقيس كل خطوة . . ويحوطه بالاحترام نهرو أكبر سياسىّ مفكر فى هذا النصف الأخير من القرن العشرين . . كما كان غاندى أقدس سياسى صوفى فى النصف الأول من القرن نفسـه . . يحوط بالاحترام سعد زغلول .

وكل ما استطاع الخصوم أن يقولوه فى تلك الرحلة .. أن الخطاب الذى ألقـاه جمال فى المؤتمر هو من وضع فلان وعلان .. وليس من وضعه هو .

ومرة أخرى .. زممت شفتى استنكاراً لهذه السطحية فى التفكير . . ولهذا التهوين الهازل من تلك الرحلة الجادة .. ولهذا الغض الصبيانى من جلال الوقفة التاريخية ، وكنت أقول — أنا «الخصم» — لأولئك « الخصوم » إن الخطورة ليست فى الصياغة يتولاها وزير متمرس أو كاتب متمكن .. أو خبير مدرب .. أو لجنة منهم .. ولم يقل أحد عبر تاريخ الحضارة الحديثة أن من شروط القيادة أن يكون القائد أبلغ خطيب أو أبرع كاتب .. وكلنا نعرف أن رئيس أكبر دولة فى العالم لا بد أن يرافقه أكبر خبراء القانون فى الصياغة إذا كان يعتزم إبرام اتفاق أو معاهدة وأكبر خبراء السياسة إذا كان يعتزم الدخول فى محادثات سياسية .. ولـكن الخطورة أن جمال عبد الناصر وقف بجدارة وكفاية وثبات إلى جوار شيوخ الفكر والسياسة .. وعلى الصعيد الدولى .

وكنت أشعر .. ولم يكن قد مضى على ازدياد كراهيتى للناصرية غير أمد قصير .. كنت أشعر أن سطحية التفكير من جانب الخصوم تكاد تضعف هذه الكراهية .. بل تكاد تراودنى على أن أدنو من الناصرية مرة أخرى .. وكدت أدنو .. لولا أن احترامى لنفسى ، أبى علىّ أن أبدو أمام هذه النفس مهزوز التفكير .. حادث يشدنى إلى الشمال .. وحادث يشدنى إلى اليمين .

وكنت أحل الضحكة الساخرة محل الغضب الهادر .. كلما كان الخصوم يعودون إلى التعقيبات « البائخة » على الرحلة « الناجحة » .. ويقولون إن كل ما يصدره ناصر من قوانين .. وكل ما يقيمه ناصر من مشاريع .. وكل ما يلقيه ناصر من خطب .. وكل ما يضعه ناصر من خطط .. إنما هو من صنع عباقرة (مأجورين) من علماء النازية الضاربين فى الأرض يلتمسون قوتاً ، أو من خبراء الماركسية الضـــاربين فى الأرض يحملون المعاول للهدم لا للبناء .. ويوقدون النيران بين الطبقات .. وينشرون الفوضى والدمار بين الفلاحين والعمال .. ويجهزون على الاستعمار حيث كان .. ليخلو لهم الجو ... ولتعبيد الطريق أمام « المذهب » الأحمر .

وكنت أقول لهم ضاحكا .. وهادئاً .. كأننا نسمر :

— ولـكن هؤلاء العلماء والخبراء .. لماذا لم يستأجرهم كل زعيم ناشىء ، ولمـاذا نجحوا مع « أخينا » ، ولم ينجحوا مع الزعماء الذين يماثلونه فى الدول المتطلعـة إلى التقدم ؟ بل لماذا لم يستأجرهم خصومه من الرجعيين الحاكمين وغير الحاكمين ، ليعاونوهم على إزاحته من طريقهم ، وعلى استرداد سلطانهم ونفوذهم ؟ .

بغداد ـــ وباندونج

وفى شهر أبريل والمؤتمر قائم فى باندونج ، وردهاته تموج بأبرع رجال المخابرات فى كل دولة ، وجمال يعلن من فوق منبره عداءه الصريح للاستعمار وللأحلاف — والعراق ممثل فى المؤتمر بوفد كبير يخب فى رداء عربى فضفاض ، فوجىء العـالم بمستر إيدن — طيب الله ثراه — يقف فى مجلس العموم ويقول : إن حلف بغداد يرفع صوتنا عالياً فى هذه المنطقة بل يضع هذه المنطقة كلها داخل نفوذنا .

وأفرك عينى من جديد وأعيد قراءة التصريح ، وأربط بين حلف بغداد الذى قال عنه نورى السعيد إنه إنما أقيم لرد العدوان الشيوعى عن الشرق الأوسط ، وقال صانعه إيدن إنه أقامه ليضع الشرق الأوسط كله داخل النفوذ البريطانى ، عدت أربط بين هذا الحلف .. وما قاله ناصر فى مؤتمر باندونج . ولم يسعنى إلا أن أرى بوضوح ، أن جمال أصبح فى نظر العالم كله عدو الاستعمار رقم ١ ، وأن حلف بغداد إنما أقيم لرد العدوان الناصرى عن النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط . وأن هذا الحلف يعمل فى خط واحد — وفى اتجاه واحد ، مع إسرائيل ، أراد بعض أبناء الحلف أو لم يريدوا .

* * *

وواضح من هذا العرض الذى مر شريطه أمام عينى ، وأنا أضم الأحداث بعضها إلى بعض داخل إطار محكم ، من خالص المنطق ، أن القائد الشاب أحرز نصراً لاشك فيه — أردنا أو لم نرد — وأن حصيلة النصر يجب أن أقيدها فى (الرصيد) لحسابه الدائن لا لحسابه المدين .. ولكنى لم أفعل .

* * *

وكان المنطق — النائم على وجهه داخل رأسى المحطم — يحتم على أن أخطو إلى الناصرية خطوة واسعة فى هذه المرة — ولكن شيئاً من الخطو لم يحدث .. كما أن شيئاً من قيد الحصيلة فى الرصيد لحسابه الدائن لم يتم .

فلماذا ؟

الجواب عند (الهوى) وعند (الأحقاد) .

وقد عاد (الهوى) يميل بى من جديد إلى حيث تكمن (الأحقاد) فى حنايا العاطفة وقلت أحاول أن أبرر هذا (الميل) وأدارى هذا (المنطق) :

— نعم ، أشهد أن (أخانا) يمشى رابط الجأش على طريق النصر ، وبخطى ثابتة أعترف أنها تثير الإعجاب ، ولكن إلى أى الأهداف هذى الخطى ؟ إلى أمجاده

الشخصية لا إلى أمجاد العروبة ، والدليل أنه أعلن الثورة والدول العربية لها جامعة تضمها فى إطار من التضامن العربى المحترم ، وانتهى هو بهذه الدول إلى الخصومة تأ كل بنيها . وواضح أن ناصر إنما يريدمن بغداد ما أرادهمنها هو لاكو والتتر ، لا مايريده لها العرب ، وأن (الوحدة العربية) إنما يتخذها ستاراً يخفى وراءه أطماعه ، والدليل القياسى فى هذه المرة ، الدليل أنه قال لأحزاب مصر ذات يوم (نظمى نفسك)فأدركت الأحزاب ما يرمى إليه (وانشقت على نفسها)فانتهز فرصة الانشقاق و (أجهز عليها) ، والدليل أنه استعان (بالإخوان) على الأحزاب والاحتلال والحكم مهدد ، فلما اتفق على الجلاء وتخلص من الأحزاب ، التفت إلى (الإخوان) و (أجهز عليهم) .

وظللت أستوحى كل حادث (حقاً يراد به باطل) وأعكس الأوضاع التى كنت أراها بعينى رأسى حتى تبتدى مقلوبة أمام عينى .

ولم أتردد هذه المرة فى قيد الحصيلة لحسابه المدين لا لحسابه الدائن .

والامبراطورية أيضا ؟

ولبيت دعوة (السعودى الكبير) وسافرت إلى الحجاز لأؤدى فريضة الحج الثانية فى صيف نفس العام ولأنهى مع(المكتبات) حساب الكتاب ولأرى إن كان (الإخلاص) السطحى الذى كان يرطب به السعوديون الرسميون ألسنتهم وهم يتحدثون عن (مصر الناصرية) لا يزال يرطبها .

وقال لى بعض المصريين ، إن ذلك (الإخلاص) عملة لا يزال معمولا بها . ولكن مثل هذه (العملات) القابلة للتداول الآن ، يمكن أن تسحب من الأسواق فى أى وقت ، من غير أن يحدث سحبها أية هزة .

وضربوا مثلا للموقف ، قصراً مغلق الأبواب أشاروا إليه ، وقالوا إنه بنى خصيصاً لاستقبال الملك فاروق ، فلما خلع عن عرشه ، أقسم المسئولون ليظلن القصر مغلقاً حتى يعود المخلوع .

ولا أحب أن أتوسع فى هذه الناحية ، كما لا أحب أن أسىء إلى أحد ، وليس من أهداف الكتاب أن يسىء .

وإنما أردت أن أقول إن فكرة الخوف من الناصرية ، كانت مختمرة من البداية فى أذهان السعوديين الحاكمين ، وكانوا يؤمنون بأن جمال ، إنما يستغل ودهم . وود كل من تتصل أسبابه بأسبابهم . لصرف الأذهان عن (الإمبراطورية الناصرية) التى يحلم بها .

وحتى الخدمات التى كان يؤديها لهم ، كانت تستقبلها تلك (الفكرة المختمرة) فى أذهانهم فإذا هو أوفد إليهم ضباطاً مصريين يدربون قواتهم ، فهو إنما يوفدها لبث (الروح الثورى) بين الضباط السعوديين توطئة لإحداث انقلاب .

ونقابة الصحفيين ؟

وانتهى الحج . واعتزمت العودة .

ولكن حادث تصادم وقع ذات ليلة لسيارة كنت أستقلها ، ونقلت إلى المستشفى اللبنانى بجده فى حالة سيئة ولم أعد إلى القاهرة إلا فى السابع من نوفمبر ، أى أنى بقيت فى الحجاز ثلاثة أشهر كاملة . أشيع عنى خلالها أنى عينت مشرفاً على النشر فى السعودية . وكانت نقابة الصحفيين — التى كنت عضواً فى أول مجلس إدارة منتخب لها — تعيد تنظيمها فاستبعدتنى من العضوية لذلك (السبب المزعوم) ولا أزال — والله العظيم — مستبعداً .

وكانت لطمة جديدة من (الناصرية) لشخصى الضعيف .

لم يكتفوا بإلغاء جريدتى ، بل استبعدونى أيضاً من العضوية (العادية) فى النقابة هذه العضوية التى يتمتع به كل تلاميذى بتزكية منى . . ولا أريد أن أتوسع فى وصف الأثر الذى تركه فى نفسى ، ذلك التصرف .

والتسلح ؟

والأهم من هذا كله ، أنى فوجئت وأنا فى جدة ، بالمذياع يحمل إلى أذنى ، صوت تفجير سياسى مروع فى وجوه كل الخصوم — خصوم ناصر والناصرية — من الحاكين فى الشرق الأوسط أو فى خارجه — وكنت أعد نفسى يومها خصما — وأعنى بالتفجير تسليح المعسكر الشرقى لجيشنا المصرى • عملية تجارية . عادية ، تدفع مصر بمقتضاها ثمن هذه الأسلحة ، منتجات مصرية •

واستمعت إلى «جمال» وهو يلقى فى (معرض القوات المسلحة) ذلك الخطاب التاريخى ، ويسرد فيه قصة الأسلحة الثقيلة التى تتحكم فيها الدول الكبرى فى الغرب . وترفض أن تزود بها جيش مصر ليحمى بلاده ، وتزود بها جيش إسرائيل ليعتدى على (غزه) ، وعجب للضجة الكبرى التى عمت عواصم أوروبا وأمريكا ، وذكر أنه طلب من فرنسا السلاح فساومته على أن يترك الفرنسيين أحراراً فى شمال أفريقيا . . وطلب من انجلترا السلاح فراوغته لتستغل الوقت فى تسليح إسرائيل منها ومن فرنسا وبلجيكا وكندا وإيطاليا ، وطلب السلاح من أمريكا وروسيا وتشيكوسلوفاكيا ، وكل دولة تصنع الأسلحة ، وكلها كانت تفرض شروطاً سياسية تنافى مبادئنا الحيادية ، ما عدا تشيكوسلوفاكيا فقد قبلت ، وبغير أى شروط تعاقدت معنا !

* * *

وامتدت الضجة فعلا إلى كل عواصم الدنيا ، ولم يكن للصحف العالمية من حديث إلا حديث مصر وتسليحها والخطر المتوقع منها .

ولكن الضجة لم تعد تجد طريقها إلى آذان المصريين .

* * *

كانت الضجة قد هدأت ، قد حجبتها ضجة أقوى ، من إدارة الشئون العامة للقوات المسلحة المصرية... ضجة أسبوع التسليح الذى أقامه وقتئذ للدعاية له ، ضابط من الضباط الأحرار كان يرأس هذه الإدارة ، وكانوا يسمونه الدينامو ، واسمه محمد حمدى عاشور ، وأحسبه الآن محافظ الاسكندرية .

وافتتح الأسبوع اللواء عبد الحكيم عامر (المشير الآن) بنداء مؤثر وحار ، ما كاد يذاع حتى أقبل المصريون على (التبرعات) بصورة مذهلة ، وتبرع الرأسماليون (خوفاً وطمعاً) وتبرع العرب فى كل مكان تثبيتاً لدعائم الناصرية العربية الزاحفة .

وإذا كانت ذكرى الأسبوع العجيب قد استهوتنى فأفضت فيها ، وأعطيتها هذا الحيز من كتابى فإنما قصدت إلى القول ، إن هذا الذى يستهوينى اليوم كان يملأنى حقداً فى سنة ١٩٥٥ .

كان المنطق — وبالشقاء المنطق معى عبر السنوات العشر — يفرض على ضميرى أن يبارك هذه (الضربة الناصرية) التى سددها «جمال» على غفلة من الغرب وإلى صميم صدره وأن يهتف لها كما هتف كل برىء من أهلى وأهلك .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .

كان الأخوان — الهوى والعدوى — يعملان .

وكان الخصوم يعملون .

جمال كشفته قصة **التسليح** هكذا بدأ الخصوم يقولون .

جمال .. **شيوعى احمر** ، أحمر لحماً ودماً ، وأحمر من قمة الرأس إلى أخمص القدم .. وإن كان لا يريد أن يتبدى قانى الحمرة .

جمال يمشى بمصر **المسلمة** إلى الستار الحديدى **الملحد** لحساب **خروشوف الشيوعى** ولكن من الباب الخلفى ، من الباب التشيكى وتحت لوحة زائفة كتب عليها : اتفاق تجارى .

جمال ... لم يلغ الحكم الملكى حباً فى الحكم الجمهورى ، وإنما ليضم جمهورية مصر إلى **الجمهوريات السوفيتية** .

وجمال لم يصفّ **الاخوان** بسبب الإرهاب الذى اتخذوه سلاحاً ، ولم

بلغ المحاكم الشرعية والمجالس الملية بسبب فساد فى قضائها ، ولا بسبب الرجعية فى قضاتها ، وإنما صفى . وألغى ، لحساب الماركسية التى لا تعترف بإسلام أو مسيحية ، أو دين من الأديان السماوية .

وجمال .. ، إنما حل الأحزاب وأجهز على الإقطاع ، ليمشى بالبلاد إلى حكم البروليتاريا .

وجمال ، إنما اتخذ من نهرو صديقاً ليتخذه ستاراً لأن نهرو اشترا كى معتدل وهو أميل على أى حال إلى اليسار .

إلا ربى .. وإيمانى ؟!

قضى الأمر — إذن — وحددتُ مكانى ؟!

استغفر التردد قصدت أن أقول :وكدت أحدد مكانى

كل شيء فى الوجود أتهاون فيه ، إلا ربى وإيمانى

السياسى العربى أخاصمه اليوم ، وقد يصلح الأمر بيننا غداً ، وقد ينضم إلىّ ، وقد أنضم إليه ، تحت وطأة ظرف سياسى ، أو بدافع من مصلحة بلاده و بلادى ، إلا الشيوعى أخاصمه حتى الموت

وأنا إذن أخاصمك يا أخى جمال ، حتى الموت

هذا هو القرار الذى انتهيت اليه سنة ١٩٥٥ وقلت بملء الفم (وحددت مكانى) وغلب على (التردد) فقلت أعدل ثمار القرار : (وكدت أحدد مكانى)

ألم أقل لك أن كل الخيوط ظلت تهتز فى يدى طوال السنين العشر ؟

نصر .. ولكن

ومع أن البانديت جواهر لال نهرو وجه للرئيس جمال عبد الناصر دعوة إلى زيارة الهند فاستجاب لها «جمال» وعرف كيف يحرز بها لحارسة الباب الشمالى لأفريقيا، نصراً مؤزراً فى الهند العريقة، والهند الصديقة، وطوّف «جمال» بكل أرجائها، واستقبله الهنود بالقلوب و بالورود، وخطب فى البرلمان تخلّف فى النفوس أثراً غير هين، وكان ينبغى أن أشعر كمصرى بشىء من الزهو، ولكن (اللون الأحمر) المزعوم ردنى عن هذا الشعور، وذهب نصره فى الهند من غير أن يترك فى نفسى أى أثر، بل على النقيض نحيت عنى كل أثر للشوامخ، من قصص باندونج وتسليح الجيش، وزيارة الهند، و بدأت أعنى بالصغائر، التى كانت هواية لخصومه، وكنت دائماً أندد بهذه الهواية، بدأت أعنى بألوان منها لا ينبغى أن يُعنى بها راشد كقصة المنشورات المعادية للناصرية، والتى ضبط أحد الوزراء السودانيين وهو يطبعها فى القاهرة، ورحت أتخذ منها دليلا على فشل (السياسة الناصرية) التى فصلت السودان عنا، ثم جعلته عدواً، فشرع وزراؤه يتولون بأنفسهم طبع (المنشورات) ضدنا، وفى عقر دارنا أو فى عاصمة بلادنا.

«الجمهورية» .. تهاجمنى

وكأن القرار الذى اتخذته ضد (الناصرية)، وطويت عليه قلبى، قد أفلت من هذا القلب، وانقلب إلى دعاة الناصرية، يقدم إليهم ذاته أو عباراته.

نعم، حدث — ومن غير مقتض أيضاً — أن نسبوا إلى جريدتى و إلى كل صحيفة ومجلة اتهاماً لا أنوى أن أثيره الساعة من ناحيتى و إنما أرجئه إلى (مذكراتى عن ربع قرن فى الصحـافة)، والذى يعنينى أن جريدة (الجمهورية) تركت وراءها كل أصحاب الصحف وعقدت فصلا رئيسياً خصت فيه شخصى الضعيف بالهجوم العنيف، ونسبت إلى ريشتى — كناقد برلمانى — كل التضليل الذى بلبل الجماهير، وأنا أرسم بها صوراً خلابة وكاذبة، للسياسيين القدامى فى البرلمان المصرى.

ولم تقنع (الجمهورية) بفصلها الضافى، و إنما أطلقت الحرية لبعض المحررين الذين

كانوا يعملون يومئذ فيها فراحوا يتسابقون فى مهاجمتى أنا الذى لم أقابل فاروقاً ، ولا عرفت قصوراً ، ولا زرت دار حزب ، ولا سهرت مع زعيم .

وأياً كان نصيب ذلك الهجوم — غير المفهوم — من الخطأ أو من الصواب ، فهو من غير شك زيت جديد صب فوق النار التى كانت تتأجج يومئذ فى صدرى .

استقرت النار — إذن — وازدادت استعاراً .

وأترعت كأسى بخمر الكراهية لا بخمر الشكوك .

وأنا — إذن — أخاصمك ياأخى جمال ، حتى الموت

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة التى رسمتها لك عن تلك الفترة المعتمة ، قد أفلحت فى تصوير الحلقة الخامسة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السادس

حديث التآمر

واضح من الساعة ، أن أذنى الإثنتين ترحبان بكل حديث غير سار ، عن جماعة الثوار وكان لى صديق شاب يسميني — كرماً منه — استاذا له ، لا لشيء إلا لأنه كان يهوى الصحافة ، فلما تخرج (من كلية الآداب) أشبعت فيه هذه (الهواية) فألحقته (محرراً) بجريدتى (السوادى) ، ثم التحق بجريدة (المصرى) ، ثم انفصل عنها أو فصل منها — لا أذكر — وتعرض للبطالة ، فأعدته إلى (السوادى) فتوكأ على (خزائنها) المتواضعة ، حتى التحق بجريدة (الأهرام) فشكر لى تلك (الضيافة) .

* * *

ويهمنى أن أتجنب من الساعة ذكر اسمه — وهو صاحب أخطر دور فى (المؤامرة) — حتى أكون أكثر تحرراً فى الحديث عنه — من غير أن أشهر به أو أسيء إليه — وله على كل حال حق (الصديق القديم) مهما ينحرف به الظرف أو المطمع . وهو أولا وأخيراً ، والد . . لأطفال ستة .

وسأحرص على أن أشير إليه — عبر الحديث الطويل عنه — بكلمة (الشاب)

. . .

ولعل الشاب كان يسميني أستاذا له ، لسبب آخر ، يتصل بالسن أو بالألفة فأنا أكبره بستة عشر عاماً ، وكنتُ فى الحقيقة صديقاً لأخيه الأكبر لا له — وأخوه الأكبر أديب معروف ومحقق لغوى — وقد عشت حياتهما منذ كان (تلميذى ؟) طالباً ثانوياً وشهدت الكفاح المضنى المرير الذى خاضه الأخ الأكبر فى إصرار (يثير الشفقة والإعجاب) لكى يكمل لأخيه الأصغر دراسته الجامعية .

وكان الأخ الأكبر « محرراً » فى « السوادى » أيضاً .. عند ما ألحقت أخاه الأصغر بها ..

وكان الأخ الأكبر يبثنى آلامه وشكواه من تنكر الأخ الأصغر له وتمرده عليه بعد أن تخرج ، وكنت أواسى الأكبر .. وأؤنب الأصغر .. وأحاول — عبثاً — أن أصلح ..

* * *

وقد ألممت إلى تلك اللمحة .. لتدرك عراقة الصلة بينى و بين هذا « الشاب » ولتدرك — بالتالى — مدى اطمئنانى إليه .. إذا هو تحدث إلىّ هازلا أو جاداً .. فى السياسة أو فى غير السياسة .

وكنت أعرف مواطن النقص .. والضعف فيه .. ولم أكن أحذرها .. اعتقاداً منى أن كل إنسان فيه مواطن للنقص أو للضعف مع التفاوت .. وكان يكفينى منه وفاؤه السطحى .. ولم يكن من عادتى أن أتطلب فى الأصدقاء سَرفاً فى الوفاء .. ولو أنى من ناحيتى كنت أباشر هذا اللون من « السَّرف » مما دمر حياتى أو كاد .

* * *

وكان « الشاب » قد استطاع أن يثب — بوساطة الصحفى الكبير الدكتور محمود عزمى — رحمة الله عليه — إلى منصب « السكرتير الصحفى » لوزير الخارجيـــة الوفدى الأسبق الدكتور محمد صلاح الدين .. فأولاه ثقته — « لفرط ثقته بعزمى » — واستصحبه فى رحلاته المشهورة إلى منظمات هيئة الأمم فى نيويورك وفى باريس .. كما وثب من ناحية الوظيفة وفى مدى قصير —أحسبه عاماً أو يزيد — إلى الدرجة الثالثة مع أن صلاح الدين كان « الوزير الحزبى » الأوحد الذى لا يرقى الموظفين استثناء إلا عن اقتناع بالجدارة ومدى على أنه لم يكن له « محاسيب » .

ولم نكن خلال تلك « الفترة الذهبية » فى حياة « الشاب » نلقــاه أو نراه ..

فلما قامت ثورة ١٩٥٢ نقل إلى وزارة الإرشاد .. وأعطى نفس المرتب — ولكن على اعتماد لا على درجة — فساءه أن يصبح عرضة للفصل إذا ألغى الاعتماد المعين عليه.. وعاود الاتصال بى .

* * *

وكنت قد عدت إلى مكانى من « المقهى » فى كل ليلة — بعد احتجاب «السوادى» — فبدأ « الشاب » يتردد علىّ — بين الحين والحين — فى « مكتبى » نهاراً أو فى « مقهاى » ليلا ، وكان يصحب معه ابنه الطفل أحياناً .. وكنت أحب ذلك الطفل لفرط ذكائه .. فازدادت الصلة توثقاً .

وكان « الشاب » يحسن التعبير عما يريد .. فى عبارة سليمة .. وفى طلاقة مستأنية .. وكان من أظهر عيوبه .. إصراره على أن يعرض عضلات معارفه ومواهبه عنوة على جلسائه .. أحسنوا الإصغاء أو لم يحسنوه .. وثقل عليهم أو لم يثقل .

* * *

وواضح أن « هواه » لم يكن مع الثورة .. استمساكا بعروة الوفدية كما يزعم . وغضباً على وضعه الحكومى كما كنت أظن ..

والذى يعنينى من هذا الحديث .. أنه التقى بهواه مع الاتجاه الذى كنت أستريح اليه وأرضاه .

مهد الطريق

وكان « الشاب » قادراً .. على صقل أى نبأ تافه يترامى إليه .. بحيث يتبدى فى نظرك بعد الصقل نبأ له خطورته .. فما بالك إذا ترامت إليه أنباء لها خطورتها ؟!

وبدا لى — وأنا أتحدث الآن عن سنة ١٩٥٦ — أن فى « جعبة الشاب » أنباء « خطيرة » .. وأنه «يتحفظ» فى الإشارة إليها برغم ثقته بى .. أو برغم اعتقاده أنى على شىء مما يسميه الناس « خلقاً » .

وكنت أقيم فى حى (الفجالة) .. وكان يقيم فى حى (العباسية) .. وكانت (سهرتى) فى (قهوة فينكس) بشارع عماد الدين .. وكانت (سهرته) فى (كازينو أوبرا ..) فإذا أمضى السهرة ضيفاً علينا .. رافقنى عند نهايتها إلى أول (الفجالة) ليستقل (الترام) إلى داره .

وكانت تلك الرحلة القصيرة .. هى الفترة الفريدة.. التى يخلو فيها إلىّ ، ويلقى فى أذنى ببعض الأنباء (المثيرة) يطمئننى فيها — فى (تحفظ واقتضاب) — إلى قرب زوال (النظام الناصرى) الذى يضيق به كما أضيق .

وكنت أدع له (حرية التحفظ) كاملة .. ولم أكن أبدى من ناحيتى أىّ رغبة فى استدراجه إلى مزيد من (الأنباء) أو إلى مزيد من (التبيين) .

واستطعت مع الليالى أن أفهم أن فى صفوف الجيش انقساماً .. واستطاع هو أن يدعنى أشم من خلال حديثه الغامض أن ضباطاً كثيرين يفكرون فى تخليص البلاد مما كان يسميه (ديكتاتورية ناصر) .

وملأتُ رئتى ـ طبعاً ـ بتلك «الرائحة الزكية» وعقبت بكلمات أدرك منها أنى أتنفس بارتياح فى تلك الأمسية .

وبعدها .. شرع يخطو إلىّ .. فى مهارة .. وعلى حذر .

و... إذا أفضى بـ «معلومة» جديدة — كما كان يسميها — وسألنى الرأى فيها .. اكتفيت بضحكة قصيرة .. أو بعبارة مازحة عن عباراتى .. مألوفة من كل أصدقائى : « ربنا يتمم بخير » فتنبسط أساريره و يشارك فى الضحك.. ويهز يدى مودعاً .. ويثب إلى « الترام » .

أمريكا والثورة؟

وإلى جانب تلك الخطى التى بدت لى مرسومة وهادفة .. كان « الجو السياسى » نفسه «مشحوناً» بكل ما يغرى الغاضبين بالولوغ فى الغضب ، وبكل ما يغرى «مصانع

«الشائعات» بصنع المزيد منها والجديد ، وكان فى طليعة تلك «المغريات» — جهود عبد الناصر فى محاولة التقرب من «أمريكا» .

وقد أتاحت تلك «المحاولة الناصرية» لجماعات الخصوم ، فرصة ذهبية ، فانطلقوا يدللون بحوادث «مزعومة» .. على أن الثورة من بدايتها إنمـــا قامت لحساب «الأمريكان» ، وأن «كافرى» إنما حمى الملك وأشار عليه بأن ينجو بحياته ليتخلص منه فى هدوء .. ولتمضى الثورة فى طريقها «بيضاء» من غير سوء ، حتى تأخذالطريق على أى تدخل بريطانى .

وأكد الخصوم — وكانت هناك قرائن تؤيد ما أكدوه — أن «أمريكا» هى التى استخدمت نفوذها ووالت ضغطها على «انجلترا» حتى عقدت مع «القاهرة» اتفاقية الجلاء .. وبهذه البراعة ، تخلصت أمريكا من الملكية التى كانت قد تعفنت على يد الملك وأسرته .. بعد أن قيل ما قيل عن صلة الملكة بأحمد حسنين .. وعن حادث ابنتها مع رياض غالى..وعن تدبير الأمريكان للتصادم الذى ذهب أحمد حسنين ضحية له .

أكد الخصوم أن أمريكا التى عاونت على عقد اتفاقية الجلاء وعلى التخلص من الملكية والملك والأحزاب ، هى بعينها التى انتهزت «حريق القاهرة» فأغرت الضباط الأحرار بالتعجيل بثورتهم ، وتعهدت بحمايتها لهم .. وهى التى أشارت عليهم أن يرسلوا الفدائيين إلى القنال .. ليحمل المحتل عصاه فوق كتفيه ويرحل .. ولتترك أمريكا عصاها خارج الباب .. حتى يصفو الجو وتدخل .

تمويل السد ؟

وكانت أقوى ضربة سددها الخصوم إلى الناصرية هى ما أسموه «فضيحة السد العالى» والمساعى التى بذلها جمال ليحمل أمريكا على أن تمول له حلمه الكبير ، وتبنى له سده العالى ، لتتدفق أموالها وخبراؤها على مصر ، وليضعوا أيديهم على كل شىء فيها ، ضماناً للتمويل ، وتجديداً لمأساة القروض فى عهد إسماعيل .

ولم تقنع « الشائعات » بهذا « الإطار الأمريكى » تضع داخله « القائد الشاب » و « مشروعه الـكبير » ، و «إنما تدهلزت » إلى الطعن فى سلامة المشروع نفسه من الناحية الفنية ، واستحالة تحقيقه من ناحية السودان وغير السودان من «الجيران» .

وقالوا إن أمريكا تدرك كل هذه « الحقائق ؟! » وهى ترمى إلى توريطنا فيها ، حتى يتسنى لها .. أن تمكّن لأخطبوطها أن يتسلل بكل أذرعه .. إلى القبض على مصر من قمة الرأس فى الثغور « على طريقة بناما وكوبا » إلى أخمص القدم فيما بعد أسوان.. « وباسم السودان والجيران » ، ولتصل بين هذا كله وبين مهام لها بعيدة المدى عما أسموه « الحزام الإفريقى » .

وبهذا تبدّى جمال عبد الناصر فى «آخرطبعة» له — أصدرها خصومه — أمريكياً لحماً ودماً . ورأساً وقدماً . بعد أن كانوا قد رسموه لنا «شيوعياً أحمر» .. ولاكوا نفس الـكلمات : لحم ودم .. ورأس وقدم .

دمى يغلى

فى ذلك الجو .. الذى أفعمته مصانع الشائعات سموماً .. وساندتها رأسمالية قوية لم تحد الثورة من قوتها ، و إقطاع طاغ لم يؤثر فى عقاراته وممتلكاته ما استولت عليه الثورة مما يزيد على المائتين من الفدادين بعد أن رخص لهم أن يبيعوا الزيادة بالنقد لمن يريد الشراء .

فى ذلك الجو ، الذى تجمعت فى صدرى خلاله حصيلة مخيفة للأطماع الناصرية تترية الطابع حيناً ، وهتلرية الاتجاه حيناً ، وشيوعية الرأس والقدم حيناً ، وأمريكية اللحم والدم أخيراً .

فى ذلك الجو . وبعد أن فهمت من « الشاب » أن فى الجيش انقساماً .. وكانت قد ظهرت فعلا «مؤامرة اليوزباشى المصرى» وصدرت أحكام فيها . وذكرت الشائعات اسم ضابط كبير فى سلاح الفرسان أظنه « النكلاوى » . على رأس مؤامرة أخرى .

فى ذلك الجو . ظهرت « محطات سرية جديدة » تؤلف شبكة رهيبة . وتضرب

حصاراً أثيرياً من حولنا ، لتذيع علينا أكاذيبها ، وتستخدم فى إذاعاتها ..مصريين من الخصوم.. كانوا قد تمكنوا من السفر إلى أوروبا ولم يعودوا . واتصلت قلوبهم الملأى بالأحقاد .. بقلوب الأعداء فى «حلف بغداد» .

واستمع المصريون إلى محطة قوية الإرسال إسمها (صوت الحق) وإلى أخت لها ، إسمها (صوت الحرية) .

فى ذلك الجو ، الذى أرى فيه « **صانع الثورة** » موضوعاً بكل « **كيانه الثورى** » داخل الإطار الأمريكى المحكم . صنيعة لهم وعميلا ، دوّى انفجار جديد ، ملأ الجو دخاناً ولم نعد نرى شيئاً .

القنبلة الجديدة

نعم وفى العشرين من شهر يونيو سنة ١٩٥٦ على التحديد فوجئنا — كما فوجىء العالم كله — ببيان أمريكى لا ينسى .. ترفض فيه أمريكا تمويل السد العالى .

وتقول فى البيان أن هذا المشروع « لا يمس حقوق مصر ومصالحها فحسب .. ولكنه يمس أيضاً مصالح وحقوق الدول الأخرى التى تقع فيها منابع النيل وهى السودان وأثيوبيا وأوغندا » وأن « التطورات التى حدثت خلال الأشهر السبعة التى انقضت على تقديم العرض لم تكن مواتية لنجاح المشروع » و « بناء عليه فقد انتهت الحكومة الأمريكية إلى أنه من غير العملى الاشتراك فى الظروف الحاضرة فى تمويل مشروع السد العالى إذا لم يتم الاتفاق بين الدول المشتركة فى مياه النيل » .

وفى اليوم التالى تابعتها انجلترا فسحبت عرضها وتابعهما البنك الدولى فسحب عرضه أيضاً .

* * *

وكأن البناء كله قد انقض فوق رأسى أنا وحدى ! ؟

وكأنى ثقل دولى فى السد العالى .

وكأنى طرف فى التمويل كأمريكا وانجلترا والبنك الدولى .

شعرت بأن خيوط الموقف تشابكت بين يدى كما لم تتشابك من قبل ، ورحت أقول لنفسى وكأنى أحلم :

— سنوات أربع عبث الخصوم خلالها بعاطفتى ووجدانى وإدراكى . . وتنقلوا بى فى معرض للتصوير لا نهاية للقطات فيه . فرأيت فى إحدى اللقطات جمال عبد الناصر « **وفديا** » ورأيته « **اخوانيا** » ورأيته « **شيوعيا** » ورأيته « **انجليزيا** » وتركت حصيلة العرض الأخير داخل « **الاطار الأمريكى** » وقامت كل القرائن على أن الرؤية فى هذه المرة واضحة ، فإذا البيان الأمريكى يمزق الإطار تمزيقاً ويكاد يعلن على الأشهاد أنه إنما يسترد عرضه ويرفض عونه نكاية فى « **ناصر** » وحده . بدليل حرص البيان على أن يقول « **للشعب المصرى** » أن هذا الرفض لا يحدث أى «تغيير» فى علاقات الود بينه وبين « **الشعب الأمريكى** » .

* * *

وناصر — إذن — رفض أن يتأمرك فرفضت أمريكا تمويل السد .

وكل ما ترامى إلى أذنى — إذن — ومن « مطالع الثورة » وعن « ناصر » . يقتضى « مراجعة الحساب » . والبدء من جديد فى دراسة «القائد الشاب» .

هو إذن ليسَ وفدياً ولا إخوانياً . وليس شيوعياً وليس أمريكياً .

وهو — إذن — « جمال عبد الناصر » فقــــــط . فمن هو — إذن — « جمال عبد الناصر » . ؟

أنكون — إذن — أمام «رسالة جديدة» تنزلت على فقير من (بنى مر) — وعن طريق الإلهام لا عن طريق الوحى — ويكون مكانى من الصف مكان أبى لهب — مع كل الفوارق ، أم أن الخصوم على (حق) ، ويكون من (حقى) أنا أيضاً أن

أفكر فى هذا (الحكم) كما أفكر فى أىّ نسخة (بشرية) من نسخ الديكتاتورية تعمل على غرار تترى ، أو غرار هتلرى ، أو غرار فاشى .

ولم أستطع أن أجيب ، ولم أرد أن أجيب .

وآثرت أن أنزوى بعيداً ، حتى أستطيع أن أرى ، أو حتى تتضح الرؤية .

وانقطعت عن مكتبى ومقهاى أياماً ، ثم حننت إلى العودة إليهما ، عسى أن أسمع من أى زائر .. ما يعلل به الخصوم تسحب أمريكا من تمويل السد العالى وما كانوا يذيعونه عن العميل الأمريكى ؟ .

وكنت أعتقد أنهم لاذوا بالجحور ، خجلا من الصدمة ، وأنى لن ألقى أحداً منهم ، ولاأحداً ينقل عنهم ويااعجباًلهم . عدت فرأيتهم شوامخ ورواسخ ، ورأيت عيونهم وهى ترسل إليك تحية النصر وضاحة النبرات . . أخاذة الرنين ؟ .

لقد كانت هناك عبارة واحدة جديدة يرددونها فى تحد و يقين .. وهم يقولون : انتظروا خطبة جمال بعد أيام .

وكنا — فى شهر يوليو ، وهم يقصدون — طبعاً — خطابه فى عيد الثورة .

— وماذا فيها أيها الإخوة ؟

ولم يجيبوا بصراحة . لأن و باء «التعالم» لم يعدمقصوراً على الشاب — الذى أسمانى كرماًمنه أستاذاً له — و إنما عم الو باء معسكرات الخصوم جميعاً ، وازدادت رءوسهم اهتزازاً ، وأرسلت شفاههم ابتساماً ، واستطعت بعد الجهد أن أفهم ما يعنيه الخصوم بعبارة : «انتظروا خطبة جمال بعد أيام» .. استطعت أن أفهم أن (ناصر) ركع على ركبتيه أمام (البيان الأمريكى) ، وأنه سيعلن فى السادس و العشر ين من يوليو ، عودة الأحزاب و يحدد موعد إجراء الانتخاب ورد الأطيان التى استولى عليها إلى أصحابها .. ولم يشترط إلا أن يبقى رئيساً للجمهورية إلى نهاية مدته .

وفى الخامس والعشرين من يوليو تراجع الخصوم خطوة ، فاختفت شائعة رد

الأطيان إلى أصحابها ، و بقيت قصة عودة الأحزاب و إجراء الانتخاب ، و إعلان الجمهورية (برلمانية) بدلا من (رياسية) مقابل أن تعلن أمريكا وانجلترا والبنك الدولى استعدادها لتمويل (المشروع) .

ركوع .. ولكن ؟!!

وفى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ اجتمع خلق كثير فى ميدان المنشيه الكبير . وفى تلك الليلة كنت أمام (الراديو) فى (الفيلا) التى كنت أستأجرها فى (المطرية) وأسموها فى (المؤامرة الكبرى) بـ (البيت الكبير) .

و بدأ عبد الناصر يلقى خطابه :

وأحسست أنى أتأهب لزم شفتى .. لكل كلمة يلقيها ، فى انتظار إعلانه المعتم لركوعه المخجل أمام السادة الأمريكيين .

ولكن الرجل تبدى — من أول كلمة فى الخطاب — فى (أحسن حالاته) ، فعجبت له ، ثم عدت فعللت الأمر بأن كل ما يعنيه ، أن يظل رئيساً للجمهورية ، ولاشك أن أمريكا (أمنته) على هذه (الأمنية) هى وحلفاؤها ، كما فعلوا مع (محمد على) يوم ديس بالأقدام ، ورد على الأعقاب ، وقنع من الغنيمة بالإياب ، مقابل تأمينه على أن تكون مصر وراثية فى أسرته .

مفاجأة مذهلة

وفجأة ، أعلنها جمال ..؟ !!

ولم تكن ركوعاً أمام الأمريكان أو غير الأمريكان .. ؟ ! !

أعلنها جمال ، أعلن تأميم القنال .

ووثبت من مكانى فى الكرسى بضعة أمتار ، وكاد أحد عمد الشرفة يشج رأسى وأنا أصرخ وحدى : (إيه ده ؟ إيه ده ؟) .

ثم رأيتنى أنخرط فى البكاء ، كالطفل .

كانت لحظة من لحظات العمر ، لا تنسى .

لحظة برئت فيها من كل شكوكى .

لحظة رددت فيها إلى يوم مولدى ، لا يرين على قلبى غضب ، ولا يأكل صدرى الحقد ، ولا يساور خاطرى مطمع .

وخيل لى لحظتئذ — أنى وقعت على اكتشاف بديع ورائع . اكتشفت أنى (مصرى) بكل ما تحمله هذه الكلمة من شموخ وعزة .

وتاريخى ؟

وعندما تلا جمال قرار التأميم ، (باسم الأمة) ، لم أشك لحظة فى أن تاريخى المتواضع قد جرى بكل جروحه ، إلى القائمة الناصرية ، وفى هزة انفعال راعش سجل اسمى فى القائمة .

وفى الليل رحت أسأل نفسى : أترانى أمسيت (ناصرياً) . ؟

أم تراها (ناصرية مهزوزة) ناصرية اندلاع فى الوجدان واندفاع فى العاطفة ، لا ناصرية اقتناع من الفكر الحنير ، ومن التفكير المادىء ؟ ولم أستطع أن أجيب ، كنت سعيداً ولم أشأ أن تفلت منى سعادة الساعة .

* * *

وعسى أن أكون بهذه الصورة الصادقة قد رسمت الحلقة السادسة فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .

الفصل السابع

عراك دولى

ظللت اياماً ،أسأل نفسى إن كنت قد غدوت (ناصرياً) على مستوى التأميم أو بسبب هذا التأميم . أم كانت (لحظة انفعال) ، أملاها (موقف مثير) ؟ .

واستطعت أن أدرك أن مثل هذه (الوثبة) إلى الناصرية بسبب (عمل طيب) ليس بالأمر الهين . وأن الاعتراف بالعمل الطيب ، لا يعنى حتما تغيير الرأى فى صاحبه لمجرد أن عملا طيباً تم على يديه .

ومع إدراكى هذه (الحقيقة) ، لا أستطيع أن أنكر أن هذا (العمل الطيب) ترك بصماته على صفحة قلبى — بعد زوال الانفعال — و بدأت أحس براحة من نوع جديد (راحة) الضلل الذى يضرب فى الصحراء — ولا نَبْتَ ولا ماء — ثم يعثر فجأة على (واحة) ، فيها نبع وفيها ثمر ، فيأكل و يشرب ، و يحمد و يشكر ، ثم يغمض عينيه ، لينام ملء جفنيه ، تاركاً لله أحداث الغداه ؟ !

* * *

ولم يكن أشهى على نفسى فى تلك الأيام الحلوة ، من أن يتوارى عن عينى ذلك « الشاب » — حتى أستطيع أن أتتبع الأحداث فى « جو » لا يعكره « شبابه » .

* * *

و بدأ العراك الدولى — الذى تعرفونه — بين « ناصر » من ناحية ، و « انجلترا وفرنسا » من ناحية أخرى .

ولاح لى — بدءاً من الدعوة إلى مؤتمر لندن وانتهاء إلى « لجنة الخمسة » التى زارت مصر برياسة الأسترالى « منزيس » — لاح لى أن ما حدث لمحمد على « التركى المغامر » ، هو ما يدبّر لجمال عبد الناصر « المصرى الثائر » ، وأن « نافارين » أخرى فى الطريق .

ولـكن أمريكا ، ما أمرها ؟ وما موقفها من هذا الذى يدّبر ؟

وهل هى خصم أصيل لناصر ، أم هى صديق ، ترتدى « ثوب الخصومة » فى مهارة ، حتى تقضى على النفوذ البريطانى والنفوذ الفرنسى فى الشرق العربى بل فى الشرق الأدنى ، لتـكون « الوارث الشرعى » لهما ، و برضاء « الحـكام الشرعيين» فى المنطقة ولها « ركائزها » التى لا تنكر فى إيران وتركيا والسعودية و بعض الشمال الأفريقى ؟

* * *

عاد شيطانى يذكرنى بالسد العالى .

عاد الشيطان يهمس فى أذنى : إن أمريكا تلعب من بداية الثورة دوراً تعنو لعمق الخبث فيه جباه كل الشياطين ، وقد أغرت « أمريكا » حليفتها « بريطانيا » بالتسحب من « تمويل السد العالى » ، ليغضب « ناصر » ويؤمم القنال ، لتثور بريطانيا ومعها فرنسا —أم القنال — وتقاتلاه ، فتمتد يد الإنقاذ من «أمريكا» إلى « ناصر » فى ساعة العسرة والشرق لا ينسى (اليد البيضاء) أبداً .

هذا إذا أحسنا الظن بناصر ، وكنتُ فى هذه الأيام أحسنه .

أما إذا ماشينا خصوم ناصر من الرجعيين (المصريين) ، وقلنا كما يقولون إنه (عميل أمريكى) فلعبة (أمريكا) تكون أكثر وضوحاً ، وهى تمضى بعد (اليد البيضاء) ثابتة الخطى ، وعلى وفاق معه ، أو على اتفاق بينها و بينه .

وقال شيطانى : «وأحسن الفرضين سيىء ، وأحلى الاحتمالين مر» .

وقلت للشيطان : ولماذا نبحث دائماً عن (الوجوه السود) كلما ذكرنا (ناصر) ولماذا لم تفترض الاحتمال الثالث الذى عشت — من يوم التأميم — سعيداً كمواطن تحت ظله الوارف .. احتمال أن يكون (ناصر) هو (البطل) الذى أعدته العناية لتحرير بلاده وليس (العميل) الذى ينكس راية الإنجليز ، ليرفع مكانها راية الأمريكان؟

* * *

وتلقينا جانباً من الإجابة عند ما طار (فوستر دالاس) بأعوامه السبعين ، يعبر المحيط إلى لندن ، ليأخذ بين يديه زمامه ، وليسيطر عليه سيطرة تكاد تكون تامة ، وليدور النقاش كله حول ما أسموه يومئذ : «مشروع دالاس» .

وسألت نفسى :

— هل انقلب (دالاس) (صديق ناصر) فى ساعة العسرة ، (خصما لناصر) مرة أخرى ، أم هى (الصداقة) ترتدى ثوب (الخصومة) كما قال شيطانى ؟

ولم أشأ أن أفرض تفكيرى على الموقف ، وأنا لا أملك من أسراره أكثر مما يملك قارىء الصحف ، ورأيت أن أتتبع تطورات المؤتمر ، والخطب التى تلقى فيه ، واللجان التى يشكلها ، والقرارات التى يصدرها ، والنتائج التى يحصل عليها .

كما رأيت أن أترصد من ناحية أخرى ، خطى عبد الناصر تجاه ذلك العراك الدولى

* * *

ولاحظت أن « ناصر » يواجه « مناورات المؤتمر » بمناورات مضادة . .

لاحظت أنه يعنف ثم يلين .. و يضرب ثم يتراجع .. و يوافق على تعديل « معاهدة القسطنطينية » ثم يرفض « تدويل القنـاة » .. و يرحب بمقدم الأسترالى منزيس . . ثم يرفض عروضه .. و يرحب بالتفاوض مع « إيدن ومواليه » ثم يستثير «دول باندونج» . و يرد « إيدن » بإعـلان من وزارة حربه أن الأساطيل البريطانية غادرت الموانىء البريطانية إلى شرق البحر الأبيض المتوسط . . وترد فرنسا بأن أسـطولها يتحرك من مينـاء طولون إلى قبرص . . فيعلن « ناصر » أنه يحمّـل بريطانيا وفرنسا مسئولية ما يحدث للملاحة فى القناة ..

* * *

كل هذه الخطى من « ناصر » قد تفهم . .

وكل هذى الخطى من « إيدن ومولييه » قد تُفهم .

ولكن الذى لم يُفهم يومها .. أن جون فوستر دالاس (صاحب سياسة : وضع العالم على حافة الحرب) يدفع العالم بمشروعه إلى هذه (الحرب) .. ثم يعلن بلسان الرئيس (أيزنهاور) أنه لا يفكر فى (استخدام القوة) ضد (ناصر) .

أتراها (اللعبة الأمريكية) .. التى وسوس بها فى صدرى .. (شيطانى المصرى) ؟

أتراه يدفع بالجانبين الواقفين على حافة الحرب إلى الحرب .. ثم يلعب هو الدور ؟

لا أريد أن أقحم نفسى على الإجابة ولست مؤهلا لها .

وإنما أريد أن ألاحظ أن دالاس لم يقنع بالقول أن أمريكا لاتفكّر فى استخدام القوة ضد مصر .. وإنما خطا خطوة رهيبة .. فطلب إلى الرعايا الأمريكيين فى مصر أن يستعدوا للرحيل عنها .. وأمر أسطوله السادس بإجراء مناورات فى المنطقة الوسطى للبحر الأبيض المتوسط وفى غير أوانها .

مجلس الأمن

وتحرج الموقف بعد أن رفض (ناصر) قرارات الدول الثمانى عشرة ، وعروض لجنة الخمسة .. وقيام (هيئة المنتفعين) ، تحرج الموقف بعد فشل المؤتمر وقراراته ، وبعد تحرك شعوب افريقيا وآسيا لمناصرة مصر ، وبدأ (مجلس الأمن) ينهض بواجبه .

وانتهى المجلس إلى (المبادىء الستة) التى قرر أن يدعو الجانبين إلى التفاوض داخل إطارها .. أو إلى التوسل بها للتوصل إلى تأمين الملاحة فى القناة .

ولعب همرشولد على هامش اجتماعات المجلس دوره على المستوى الإنسانى .. واستطاع أن يجمع بين وزراء الخارجية الثلاثة محمودفوزى وسلوين لويد وكريستيان بينو وأن يتم الاتفاق بينهم على إجراء المفاوضات التى دعا إليها المجلس .. تاركين لهمرشولد تحديد الزمان والمكان .

وحدد الرجل .. مدينة (جنيف) مكاناً .. والتاسع والعشرين من أكتوبر .. زماناً ..

وسافر وزير خارجية مصر إلى جنيف فعلا .. قبيل الموعد .

وبدا أن باريس ولندن تحاولان التهرب من الموعد .

عذر غير مسبوق

وفى هذا اليوم المحدد لبدء المفاوضات بيننا وبين انجلترا وفرنسا فى جنيف . . .

ومن غير سابق إنذار ، أذيع نبأ تحركات (القوات الإسرائيلية) وهجومها على الأراضى المصرية عند (الكونتيلا) ، وهبوط كتيبة المظلات عند مضيق سدر الحيطان .

وفهم (العسكريون) أنه (هجوم عام) .

* * *

وهى الحرب إذن ؟

ومن إسرائيل ، وعلى مصر ؟ ! وربطنا على القلب باليد .

وكان العدوان الذى تعرفه .

وكانت (بور سعيد) التى دخلت التاريخ تحمل فوق صدرها (وسام الشرف) بعد أن أنقذت كرامة أمة .. لها على هذا التاريخ يد .. ولها على الحضارة البشرية يوم لم يكن للبشر حضارة .. كل حقوق المربى وكل حقوق الوالد .

وانتهى عدوانهم .. بأكبر خيبة منى بها عدوان .. فى التاريخ الحديث .

عود إلى الشيطان

ولم يدعنى (شيطانى) — هذه المرة أسعد أياماً .. بالدم الذى شربنا منه حتى

ارتوينا — دم الدولة التى أذلتنا سبعين عاماً .. ودم الأسد الذى «قلم» غاندى ونهرو «أظافره» فى الشرق الأقصى ، وجاء «المصرى الأسمر» فانتزع منه «الأنياب» وأودعه «حظيرة النعاج» . . أمثولة لا تنسى على طريق العالم المتحضر .

عاد الشيطان يتسرب إلى أذنى .. فى صورة وادعة من صور الهمس الخادع .. يقول وكأنه يسمر معى :

— أرأيت ؟ أمريكا ، ولا شىء غير أمريكا ، هى الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، أمريكا الديموقراطية الحرة ، تمد يد الصداقة (الحَرّى) ، إلى روسيا (الحمراء) الشيوعية ، لأول مرة فى تاريخ (الحرب الباردة) بين المعسكرين ، لتقفا معاً جنباً إلى جنب ، فى وجه الاستعمار الأوربى (المعتدى) ، ولترغما .. انجلترا وفرنسا على الجلاء الناجز عن بور سعيد (المعتدى عليها) .. ولتنهى التاريخ السياسى العريق .. لإيدن — خليفة تشرشل — إنهاءً مخجلا وغير مسبوق .. أتستطيع أن تقول لى ما الذى يعنيه هذا الموقف ؟

— قل أنت .

— نعم .. أقول .. والموقف نفسه يقول :

أما أن تقف روسيا معنا ، فمعقول ، لأن مصلحتها فى أن تقف فى وجه الاستعمار حيث كان ، ومع كل من يخاصم الاستعمار .

وأما أن تقف الشعوب العربية معنا ، فمع من تقف .. ؟ ، إذا لم تقف معنا ؟

وأما أن الهند والصين الشعبية و إندونيسيا وكل الشعوب التى عانت من الاستعمار تقف معنا .. فمعقول ، لأنها فرصة العمر ، تثأر فيها من كل مستعمر .

وأما أن أمريكا — زعيمة المعسكر الغربى — تخذل حلفاءها فى نفس المعسكر ، وتمد يدها إلى روسيا — زعيمة المعسكر الشرقى — ومن أجل (مصر) ، وحباً فى سواد عيون (ناصر) ، فقل أنت .. إن كان معقولا ، أو غير معقول .

حديث التآمر

وما كاد شيطانى يلقى بهذه الهمسات إلى أذنى ويتوارى .. حتى ظهر «الشاب» وفى المقهى والمكتب على التوالى .. وكأنما قرأ فى عينى .. كل ما جرى بين الشيطان وبينى .. فجاء هو الآخر يواصل السمر .

ولم يدر بخلدى قط .. أن « التسامر » قد يكون الطريق السلطانى .. إلى «التآمر »

وبدأ يسمر ..

بدأ يتحدث عن « بور سعيد » وما جرى فيها .. وعن الحكومة وتقصيرها وعن الفدائيين من الأهلين .. وما سجلوه من بطولات .

وكان يميل إلى أذنى بين الحين والحين فيخصنى بعبارات بعينها .. ثم يستأنف حديثه إلى السامعين .

واستطاع أن يتركنى — وحدى — أفهم أن خلاص مصر من كل « عميل أمريكى » بات وشيكا ..

وكثر تردده علىّ ..

وكثرت همساته .. إلى أذنى .

واشتد حرصه على أن يلف عباراته فى غموض دبلوماسى يثير التشهى لما هو خلف العبارات .

* * *

وذات ليلة ..

وكنا فى طريقنا إلى « الفجالة » قلت للشاب ما معناه :

— أراك تكثر فى هذه الأيام من العزف على أوتارى .. وأنت تعرف أنى

أعرفك .. فهـل لك غاية .. أم هى هواية الغموض تزاولها لحساب أعصابك على حساب أعصابى ؟

ولاذ بالصمت .. ثم عاد فرفع وجهه إلىّ .. وحدق بعينيه تحديقاً مسرحى السمات فى عينى .. وقال وفى نبراته رنة الجاد .. وكان الترام الذى يستقـله قادماً من ميدان « باب الحديد » قد جاء :

— أليس من الجائز .. أن تـكون أنت شخصياً .. مدعواً إلى أداء واجبك نحو بلادك .. إذا دقت الساعة ؟

وأطلق ضحكة ..

وجرى خلف الترام فأدركه ..

وعدت إلى بيتى .. وأذكر أن النوم فى تلك الليلة تخلى عنى ..

* * *

وتمنيت — لأول مرة — لو عجل بالزيارة التالية .

وعجل ..

وأمضينا السهرة .. وعدنا معاً .. من نفس الطريق .

وطاب له أن يتعالى فلم يطرق باب الحديث الذى تركه مفتوحاً .

وضقت بتعاليه فسألته فى شىء من الجفوة عمـا قصده الليلة المـاضية بالعبارة التى قالها .

وابتسم وقال : « هزار » .

وازداد ضيقى بطريقته فقلت له فى شىء من الجد الصارم :

— إسمع يا أخانا ، كفانا دوراناً ، ثقة أو لا ثقة .

وابتسم مرة أخرى — وفى زهو المنتصر هذه المرة — وقال جاداً ما معناه :

—هى ثقة ، وأكبر من ثقة ، وأنت تعلم ، ولكنى مقيد بيمين ، وبخطى مرسومة لى ، فإذا أنا جاوزت حدى معك اليوم ، فغداً أجاوز حدى مع غيرك ، ويفسد كل شىء ، ولكن من حسن حظى معك ، أنه رُخِّص لى من الأمس فقط ، فى مفاتحتك والتحدث إليك وداخل حدود لا أتعداها .

ورضيت .

وبدأ يتحدث .

حديث خطير ؟

تحدث .. وأصغيت .

ولا أذكر طبعاً نص الحديث .

وإنما أذكر معناه .

واستطعت أن أفهم من حديثه أن قيادة رشيدة وواعية ، هى التى تتولى الأمر كله ، وأنها من صميم الضباط الأحرار ، وأن زعيمها من زعماء الثوار ، وأن دورنا — نحن المدنيين الذين وقع عليهم الاختيار ، سلمىّ ونظيف ومأمون العاقبة ، بل لا يقع أصلا تحت طائلة العقاب ، بل لا سبيل للحاكمين إلى العلم به أو الكشف عنه إذا فشل مشروع الانقلاب ، لأن دورنا لا يبدأ إلا بعد نجاح المشروع ، ونحن إذن خارج دائرة التآمر ، وأعضاء التشكيل العسكرى لا يريدون بحركتهم إلا ما نريده .. إلا رد حقوق الأمة إلى الأمة ، ولهذا السبب قرروا ألا ينتقلوا إلى مرحلة التنفيذ إلا بعد أن يكون « جهاز الحكم » معداً إعداداً سليما ، وقائماً على مدنيين أكفاء وأمناء ، يتولونه عندما يُستدعون من منازلهم بعد ساعة الصفر ونجاح الانقلاب .

وسادنا الصمت لحظات ثم سألته :

— لكن .. لماذا كل هــذه العناية بالجهاز المدنى ؟ ومَن ، مِن المدنيين لا يوافق — خوفاً أو طمعاً — على التعاون معهم إذا استدعوه بعد نجاح حركتهم ، وثبت له أنهم إنما جاءوا ليردوا الأمر كله إلى الأمة ؟

وقال الشاب من غير أن يفكر فى الجواب :

— الجواب بسيط ، بساطة الحقيقة ؟! الجهاز ككل... ليس من الضرورى أن يكون معداً ، وإن كانت أسماء الساسة قد طرحت كلها على بساط البحث ، ولم يخل أى اسم من مطعن ، ولكن هناك مناصب يقترن عملها بساعة الصفر ، ولابد من الاتفاق على شاغليها قبل تلك الساعة ، بحيث يكونون جاهزين عند أول دقة من دقاتها ، وهم رئيس الجمهورية كرأس للدولة ، ورئيس الوزراء الذى يحكم ، ووزير الخارجية الذى يتصل بالدول ، ووزير الداخلية الذى يسيطر على جهاز الأمن ، ووزير الحربية الذى يسيطر على الجيش ، ووزير الاستعلامات الذى يتصل بالشعب ، وسيعود العسكريون إلى ثكناتهم إثر تشكيل الوزارة لينفضوا أيديهم نهائياً من السياسة .. وقد تم اختيار هؤلاء جميعاً ما عدا وزير الاستعلامات ، ولا أملك أن أفضى إليك باسم أحد منهم باستثناء رئيس الجمهورية الذى رُخص لى فى أن أذكره لك وهو : « محمد نجيب ، أما منصب وزير الاستعلامات فقدر شحتك له ، ولكن رؤى أن الاستعلامات لا تزال مصلحة وليس لها وزير ، وأن الإذاعة جانب خطير من وسائل الإعلام ، وأن المتفرغ لهذه المسائل فى الأيام الأولى يجب أن يكون على مستوى المتفرغ فعــلا لا على مستوى الوزير السياسى ، فتقرر الاكتفاء بإسناد منصب مدير مصلحة الاستعلامات إليك ، لتشرف بنفسك على الاتصال بالشعب من أول لحظة. ورؤى إسناد منصب مدير الإذاعة إلىّ ، لأتولى الاتصال بالشعب اتصالا مباشراً ، ثم يبت فى مصيرنا بعد أن يستتب الأمن ويستقر الأمر ، ولا أخفى عليك أنى لا أنوى أن أقبل أى منصب وزارى ، وقد صارحت زعيم الحركة بإصرارى من الآن على منصب سفير ، لأنى أقدر على خــدمة بلدى ونفسى فى السلك السياسى منى فى المنصب الوزارى .

وقلت للشاب : دع الحديث يقف بنا إلى هــذا الحد .. وفى الليلة المقبلة أعطيك كلمتى .

وأعطيتها ... ؟!!

وفى اليوم التالى قلت للصديق الشاب مازحاً .

— أيها التلميذ النجيب .. يقول الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : « قبلت » .

ووثب التلميذ الفتى فقبّـل أستاذه الشيخ .

***

ومن عجب — ومن باب الفكاهة المُرّة — أن شاباً من ممثلى هيئة الاتهام فى قضيتنا طاب له وهو يشن الحملة علىَّ ، أن « يتظرف » فتخير لرسم الحديث الذى زعم « الشاب » فى « تقاريره » أنه دار بينى وبينه ، تخير ممثل الاتهام أسلوب عميد الأدب العربى أطال الله بقاءه فقال — أى وكيل النيابة المترافع : « وهنا قال التلميذ الفتى لأستاذه الشيخ كيت وكيت » و « هنا قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى كيت وكيت » .

***

وبعد فأرجو أن أكون بهذه الصفحات قد رسمت المرحلة السابعة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .



الفصل الثامن

المؤامرة

أكبر الظن — وقد انتهيت بك إلى هذه المرحلة من مراحلى عبر السنين العشر — أن يكون قد تبادر إلى ذهنك أنى سأخوض بك فى بحر لجى من تفاصيل « المؤامرة الكبرى » — كما أسموها — وبكل ما تنطوى عليه هذه التفاصيل من بحوث فى الفقه والقانون .. وبكل ما جرى فى جلسات المحاكمة من كر وفر .. ومن اتهام ودفاع .

كلا .. وما استهدفت بكتابى شيئاً من هذا ..

إنما استهدفت — فيما يخص « المؤامرة » — أن أتحدث إليك عنها الحديث الذى يخرج بك من تلك الظلمات التى ظلت تملأ أنهار الصحف والمجلات شهوراً .. وتستغلها المحطات السرية العشر التى كانت تشكل فى ذلك الحين شبكة رهيبة تحاصر مصر بالأكاذيب .. وتحارب « ناصر » بنا — وبكل أداة تصلح للحرب — وبكل الأساليب .. واستهدفتُ ، فيما يخص « المؤامرة » أيضاً أن أتحدث إليك عنها الحديث الذى يتيح لك الرؤية الواضحة لكل الأسباب التى دفعت بى إلى الكفر بالقائد الشاب حتى تآمرت عليه .. فإذا عرجت بك — داخل السجون الثلاثة التى تنقلنا بينها — على بعض ما جرى لنا أو علينا فيها .. فلكى إبرز معنى يتصل بالناصرية وبمراحل قربى منها أو بعدى عنها .. أو لكى ألطف قساوة الجو فى السجون بنادرة تحمل إلى شفتيك بعض الابتسامات أو تحمل إلى قلبك بعض الرضى ..

***

ولك بعد أن تفرغ من قراءة هذا كله — قراءة أرجو أن تكون مستأنية وواعية وعادلة — أن تقول مستريح الضمير إن كان ما قرأته وثيقة من وثائق الصدق

جديرة بشرف الانتماء إلى مهمة التأريخ .. لهذه الفترة من تاريخنا .. أو أن الكتاب .. كتاب رخيص من كتب النفاق .. يأخذ مكانه من «مكتبة المنافقين» وما أكثرهم على مطالع كل « ثورة » .. وعلى باب كل « ثائر » .

ولن أجنب القلم — بداهة — « كل » ما جرى فى التحقيق أو فى المحاكمة .. أو فى السجون التى أطبقت علينا .. لن أجنب القلم شيئاً يستدعيه هدف الكتاب .. ولا مفر من أن ألتقط بالقلم حادثة من هنا .. وحادثة من هناك .. إذا تطلب «الهدف» هذا « الالتقاط » .

مثلث الضلالة

وأعود إلى « الثالوث » العجيب .. الذى جمع « بينى » .. وبين « الشاب » الذى قام بضمى إلى المؤامرة و «الشيطان» الرجيم الذى أغرانى بهذا التآمر ..

وقد تدهش إذا قلت لك صادقاً أن الأمر كله — وعلى خطورته — قد مر بى كما تمر سرحة الخيال المهزوز باثنين من الشعراء الفاشلين .. جمعت بينهما ذات يوم جلسة « حشيش » أو « أفيون » .. فوق مجرى ماء .. أو تحت ظلة نخيل .

☆ ☆ ☆

بدأ الأمر — كما رأيت — بعرض مثير .. من جانب الشاب كحلقة أولى .

وجاءت الحلقة الثانية من جانبى .. عند ما أعلنته بقبولى .

وهكذا أصبحنا .. بسرحة حشاش .. أو بخيال قصاص .. عضوين فى «مؤامرة» لم يقدم لى على طول طريقها — كما سترى — أى « دليل مادى » على وجودها .

ولعل الأمر استهوانى فى البداية .. بوصفه « حركة عنيفة » بعد خمول طال مداه .

ولعلى نفست ببعض هذا الشعور عن بعض ما انطوى عليه الصدر من غضب على

« الثورة » بسبب ما نالنى على يدها من أذى .. كصاحب جريدة وكعضو مؤسس فى النقابة .. أو فى القليل كمواطن له الحق فى العيش الكريم .. ثم بسبب ماعبئت به من شحنة الأكاذيب بأيدى الخصوم .

بل لعل « الخيال » قد شط بى أياماً .. فرسمت خطوط « المحكمة » التى يمثل أمامها خصومى « الثوار » — وعلى رأسهم « صانع الثورة » — لتسألهم عن حقوق المواطنين — وحقوقى — التى وئدت .. بأى ذنب قتلت ..

ولعلى فاضلت — فى الخيال — بين الثأر منهم أو العفو عنهم .. فآثرت أن أتأسى أنا الآخر بالرسول الكريم .. وقررت أن أطلب إلى رئيس الوزارة التى أكون قد اشتركت فيها أن ينادى فى الثوار الحيارى : « كل من دخل بيت عبد الناصر .. فهو آمن » .

وطبيعى .. لا أذكر اليوم — على التحديد — كل الأضواء التى ألقاها الخيال على طريق تفكيرى .. أو استمدها من كل ما ترسب فى الذاكرة عبر تلك السنين الست أو .. من معالم باهتة لصور مهزوزة .. لخيال مريض صاحبنى أياماً ، مذقات الشاب : « قبات » .

* * *

أما « الشاب » فقد تغيرت — من لحظة قبولى — كل صلته بى .. وخيل لى أنه بالدعوة التى وجهها إلىّ .. قد تخيل هو الآخر أنه انتزع زمام « الأستاذية » من يدى .. وراح يرتب لنفسه « حقوقاً » علىّ — أشير إليها عابراً وبرغمى — وأعف عن أى بيان لها .. لأنى حريص على ألا ألحق به أى تجريح .. وحسبه ما يلاقيه وما لاقاه ، ولنا جميعاً لقاء محتوم بين يدى الله ؟!

المؤامرة .. لها أصل

ولعلك تحب أن تسأل :

هل كانت هناك « مؤامرة » أم لم تكن ؟

والجواب :

— كانت .

وقد تحب أن تسأل أيضاً :

— هل كان كل الذين أدينوا فيها يعلمون أن هنـاك مؤامرة جادة ويؤمنون بأنها ستتم حتماً ، وأن كل واحد فيهم انضم إليها عن ايمان بها ؟

والجواب :

— ذمة وضميراً ، لا أستطيع — حتى هذه الساعة — أن ادين أحداً بعينه ، بكلمة نعم ، ولا أستطيع أن أبرىء أحداً بعينه بكلمة لا وإنما أستطيع أن أتحدث عن نفسي فقط ، وهو ما أنوى أن أفعله .

* * *

ومذ قلت للشاب : « قبلت » ، أهمني الأمر بعض الوقت

وأنا أعلم علم اليقين أن كل إنسان ميسر لما خلق له .

وكنت أعلم علم اليقين أنى غير ميسر للتآمر ، وغير مؤهل لأى عمل « تحتى » .

وعلى ضوء هذا العلم ، رحت أسائل نفسى فى حزن وحيرة : كيف قلت للشاب : «قبلت» .. وبدأت الحروف الأربعة[1] تخايلنى فى نومى وصحوى ، وغدوت نهباً لليمين وللشمال ، أرانى على الصبح مشدوداً إلى الشمال ، وعلى المساء مشدوداً إلى اليمين .

كنت أستريح إلى المشاركة فى «المؤامرة» عندما أذكر أن الحياة ـ فى إدراكى — مجموعة من «القِيَم» تمثل «القاعدة» التى يقوم عليها «الحق والخير» ، ومجموعة من «المُثُل »

(١) « الحروف الأربعة » التى أشير إليها هنا هى التى تتألف منها كلمة « قبلت » كما أن « الحروف الأربعة » التى أشرت إليها فى السطر الثانى عشر من صفحة ١٧ هى التى تتألف منها كلمة « جمال » وقد رأيت أن أرجع إلى تلك الصفحة ـ كاستدراك منى ـ خشية أن يكون الأمر قد التبس على القارىء فيها .

تمثل «القمة» التى نتجه إليها ، ونعمل لها ، حتى نكشف عن وجه « الجمال » منها .. وننعم (بالنور) المستور فيها .. وندرك معنى (الحق) وقيمة (الخير).

وكنت أستريح إلى (المشاركة) فى (المؤامرة) عندما أذكر أن الديموقراطية السياسية - كما تباشرها بريطانيا - هى فى رأيى أقرب السبل وأقوى الوسائل إلى إدراك معنى الحق وقيمة الخير وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ما دمنا عاجزين عن « الردة الخيرة » بالحكم والحكام ، إلى صدر الإسلام .

وكنت دائماً أكره من (معاجم العصر) كلمة (الديكتاتورية) وعلى أى صورة وعلى أى وضع وداخل أى إطار وتحت أى شعار ، بأشد ما أكره كلمة (الزنا) - مثلا - كجريمة مروعة للخلق ، منافية للذوق ، هدامة للمجتمع ..

وكنت أقول لنفسى إن (الزنا) قد أكره - ديناً وضميراً - أن أقع فيه ، ولكنى أمام إغراء الجمال (المعربد) فى أى حسناء (متوهجة) قد أشتهيه .

أما (الديكتاتورية) فعلى النقيض ، قد أقع فيها وأخضع لها على كره منى ولكنها لا تستطيع أن تغرينى بتشهيها .. أو تغنينى عن الحرية التى جردتنى منها .

وكنت قد اقتنعت - كما رأيت - بما قاله الخصوم عن «الديكتاتورية الناصرية» وخيل إلىّ أن الأحداث التى وقعت تؤيد كل ما قالوه ، وأنا الآن أرى قوماً يريدون أن يحرروناً من هذه (الديكتاتورية) ويردوا الأمر كله إلى الأمة ، لتقيم حكماً جديداً ، مبرءاً من أخطاء الملك والأحزاب ، أقرب ما يكون إلى الحكم النيابى فى انجلترا ، فهل يكون خطيئة أن أنضم بهذه النية إلى هؤلاء القوم ؟ بل ألا يكون « واجباً وطنياً » محتوماً أن أستجيب لهم ، بعد أن وجهوا الدعوة إلىّ ؟

وكان هذا هو « اليمين » الذى أرانى (على الصبح) مشدوداً إليه .

فإذا جاء المساء ، وألقيت برأسى إلى الوسادة ، راح الشريط يمر ، شريط فساد قديم أنا من عارفيه .. وقد عشت العمر فيه أيام الملكية والحزبية ، وشريط جديد لا أشتهيه ، لوجود (الحكم الفردى) فيه ، ولكن (أضواء) تخايلنى من خلاله

و برغمى ، فلا ألبث أن أحدق فيها ، فأرى شيئاً إسمه (الجلاء) قد تم ، وأرى شيئاً إسمه (القنال) قد أمم . وأرى شيئاً إسمه (التصنيع) قد بدأ ، وأرى شيئاً إسمه (الإقطاع) قد تحطم ، أفيستحق (صانع هذه الحقائق) أن يُعزل ، فضلا عن أن يؤتمر به ؟

وكان الجواب : (كلا) .

ولـكن النفس المليئة بالضغن ، لا تلبث أن تنزع بى إلى الردة .. ولا تلبث أن تزين لى ، مستقبل البلد فى ظل (التحرر) وبفضل (التآمر) .

فلسفة الثورة ؟

وذكرت يوماً كتاب (فلسفة الثورة) ، وذكرت أن فيه (أشياء) قد تعاون على تحديد الموقف .

وما كدت أتصفحه حتى وقعت عيناى فى الجزء الثانى منه على أهداف الثورة ووسائلها ..

وقرأت للقائد الشاب أنه كان يعرف ما يريد أن يفعله ، ولـكنه لم يكن يعرف الطريق إليه .. كان يريد أن يحلم بمصر المتحررة .. أما الطريق إلى (التحرر) فتلك كانت (عقدة العقد) .

و يقول أخيراً أن رأيه استقر على أن (العمل الإيجابى) هو الطريق ..

ولـكن (الصورة المثالية) لهذا (العمل الإيجابى) كانت دائماً (تتغير) .

* * *

تَبدَّى « العمل الإيجـــابى » فى نظره — أيام دراسته الثانوية — فى صورة مظاهرات فقاد المظاهرات ..

وتبدى (العمل الإيجابى) بعد ذلك فى (تضامن الزعماء) فشارك فى إجبار الزعماء

على (توحيد كلمتهم) ففجع فى أمنيته .. وكانت معاهدة ١٩٣٦ (وليدة) هـذا « التوحيد » .

وجاءت الحرب العالمية واعترف أن الاغتيالات السياسية (توهجت) فى خياله المشتعل (على أنها العمل الإيجابى الذى لا مفر من الإقدام عليه) .. وفكر فى اغتيال الملك وبعض رجاله .. وقام هو و إخوان له ببعض المحاولات فعلا ..

٭ ٭ ٭

وليس يعنينى — هنا — أنه اقتنع أخيراً بأن العنف (ليس خير الوسائل) .

وكل ما يعنينى من المساعى إلى ما قاله فى كتابه .. أنه رخص لنفسه فى الاغتيالات وفى التآمر .. « إنقاذاً لوطنه » من الملك ورجاله وكل حاكم ظالم .

٭ ٭ ٭

و إخواننا (العسكريون) الذين حدثنى عنهم « الشاب » لابد أنهم « فكروا » مثل تفكيره « إنقاذاً لوطنهم » .. ومن (الرجل) الذى يرونه — خطأ أو صواباً — (حاكماً ظالماً) فلماذا يحرّم اليوم على غيره ما أحله بالأمس لنفسه ؟

٭ ٭ ٭

رحت أضع المسألة فى هذا الوضع .. وأضيف إليه أننا نحن (المدنيين) لانشارك فى أى اغتيال أو فى أى انقلاب ، كما أكد لى (الشاب) ، وكل ما فى الأمر أننا مدعوون إلى تسلُّم زمام الحكم بعد نجاح حركتهم .. فأية جريمة فى تسلم هذا الزمام ؟

واطمأن قلبى — إلى سلامة وضعى .. ورحت أهمس لنفسى بصوت مسموع وعن رضى واقتناع هذه المرة : (قبلت) .

عمرى .. فى المؤامرة ؟!

وعشت فى قلب المؤامرة .. ثلاثة شهور كاملة ، بدأت بعد (العدوان) وانتهت

في فبراير ١٩٥٧ ، هذه الشهود الثلاثة هي . كل عمري في المؤامرة . . أو هي « الفترة » التي اقتطعتها « المؤامرة » من عمري

وأنا أشعر أنك مشوق إلى معرفة الكثير من أخبار هذه الفتره ، والدور الذي لعبته خلالها ، ومن حقك كشاهد دفع في « تذكرة » الدخول الثمن .. أن تستمتع بهذه المشاهد .

وكنت أود أن أحقق لك هذه الرغبة .

ولكن يبدو أن الأمر ليس سهلا كما قد يبدو لك .. لأن الكتاب لا يستهدف أن أحتكم إلى القراء ، فيما ارتكبت من أخطاء ، حاكمني عليها القضاء ، وإنما يستهدف الكشف عن الأسباب التي دفعت بي إلى التآمر على القائد الشاب ، والأسباب التي انتقلت بي إلى الإيمان به ، وليس من بين أهداف هذا الكتاب ، تفاصيل دور لعبته في المؤامرة أو لم ألعبه .

ثم إن هناك حقيقة أكثر خطورة ..

وهذه الحقيقة تقول إن الأمر لا يخرج عن واحدة من اثنتين : إما أن أكون قد قمت بدور إيجابي له اتصال بغيري من المتهمين ، وفي هذه الحالة لا أرى أن من الرجولة أن أعترف على غيري أمام القراء ، أنا الذي لم أعترف على أحد أمام القضاء ، وإما أن يكون دوري كله كلاماً في كلام جرى بيني وبين هذا الشاب ، نفخ فيه « من روحه » أمام المحققين فاستوى (أحداثاً) حوكمتُ عليها ، وأخشى إذا أنا ركزت على هذه (الحقيقة) أن يوجد من بين القراء من يظن أني انتهزت فرصة (الكتاب) لأبرىء نفسي ، وما إلى هذه التبرئة أهدف ..

***

ولكن بعض القراء قد يجهلون دوري من القضية نفسها برغم كل ما ثار حولها من ضجيج ، ولهم عليّ إذن أن أقول لهم شيئاً عن هذا الدور بعد أن مضى عليه أكثر من سنوات خمس .

والاتهامات كلها لم يوجهها إلىَّ أحد غير هـذا (الشاب) ، وكل ما فى القضية ناطق بأن (الشاب) هو وحده الذى يقول عنى كيت وكيت . .

يزعم (الشاب) أنه طلب إلىَّ ـ باسم التشكيل العسكرى ـ كتابةَ (منشور) أسفِّه فيه السياسة الناصرية فكتبته بخطى ولـكن (عاطف نصار) الرئيس العسكرى للتشكيل عاد فعدل عن (فكرة المنشور) ومزق (أصل المنشور) ، فانعدم جسم الجريمة .

ويزعم (الشاب) أنه طلب إلىّ ، إعداد (الڤيللا) التى كنت أقيم فيها فى ضاحية (المطرية) ، ليجتمع فيها (المتآمرون الضباط) ، ولتكون مستودعاً لأسلحتهم ، وملابسهم العسكرية التى يرتدونها ساعة الصفر ، وأنى قبلت تهيئة (الڤيللا) لهذا الغرض وكان (التشكيل) يطلق عليها اسم (البيت الـكبير) .

ويزعم الشاب أنه بعد أن أعد (المنشور) رأى أن من الخير أن ندفع نحن المدنيين ثمن طوابع البريد و (المظروفات) التى توضع فيها (المنشورات) وأنى أسهمت فى هذه المهمة بعشرة جنيهات — كما أسهم صلاح الدين وعبد الفتاح حسن وكما أسهمت بكتابة (بعض المظروفات) .

ويزعم أخـيراً أنى كنت على علم بأسماء الشركاء فى المؤامرة وأنه كان ينقل لى أولا بأول كل أخبارهم .

هذه هى خلاصة الاتهامات التى وجهها إلىَّ (الشاب) .

***

وليس لدى مانع من أن تأخذ بها أو تدعها .

وكل الذى يعنينى أن أقرر ، أن (الشهور الثلاثة) التى عشتها فى قلب هـذه المؤامرة ، كان (الشاب) يتولى ملء الفراغ فيها ، بحديث لا ينفد عن دورى ، وعن (الـكيفية) التى أدير بها أجهزة الإعلام فى «الدولة الجديدة» وكان يطيب له ـ وقد انفسح أمامه مجال « التعالم » ـ أن يمدنى بالخبرة التى اكتسبها من العمل فى وزارتى

الخارجية والإرشاد ومن رحلاته إلى أمريكا وأوربا فى معية وزيره ، وفى مهام.. كلها تقوم على أحدث وسائل الإعلام .

إلحاح وهروب

وكنت إذا أحرجته مرة أو مرتين فى كل شهر بسؤال معاد ومتواضع عن الموعد الذى حدده التشكيل للضربة .. زم شفتيه استنكاراً لتباطؤهم وقال : « همه برضه معذورين فى التأخير . . لازم يستكملوا كل شىء » .

* * *

وفى شهر يناير ١٩٥٧ كنت قد ضقت بأساليبه وداخلتنى الشكوك فى جدية الأمر فرأيت أن أضايقه بدورى.. وصارحته ذات يوم أنى لا أستطيع أن أبقى طويلا « تحت السلاح » .. ووعد بأن يطلع التشكيل على هذه الرغبة من جانبى ويحمل إلىَّ الجواب .

* * *

وفى شهر فبراير قال لى ذات ليلة :

— يبدو أن المسألة صرف عنها النظر لأسباب أنا نفسى أجهلها والزعيم العسكرى سافر فعلا إلى النمسا فى مصالح تجارية له .

وقلت فى بساطة :

— عملوا طيب .. مين عارف كان حايجرى إيه ؟

— على رأيك .

وأسدلت الستارة على « المؤامرة » « وإن كنت لا أكتمك أنى أسأت الظن فى « الشاب » نفسه ، وأخشى أن أقول إنى ملت إلى الاعتقاد بأن المؤامرة كانت من نسج خياله ، أخشى أن أعلن هذا القول ، فتتهمنى بحق — بأنى أبديت رأيى ، وقلت إن الأمر لم يكن إلا كلاماً فى كلام ويكفى — إذن — أن أعيد القول إن « الشاب »

صارحنى بأن الأمر صرف النظر عنه ، وأن صاحب الأمر فيه سافر إلى النمسا ولم يعد للحديث عنه محل .

***

وأعترف أنى تنفست الصعداء .

وأعترف أنى شعرت كأنى صحوت من كابوس ثقيل .

***

ومضى فبراير ومارس واثنان وعشرون يوماً من أبريل (وكان يساير شهر رمضان يوماً بيوم) ، من غير أن أسمع منه كلمة واحدة عن « التشكيل » ، ولو كلمة « سباب » يعرب بها عن ضيقه بهم ، أو يغطى بها ، موقفاً له بات فى نظرى مكشوفاً .

وأرجو ألا تعجب إذا أنا قلت لك إنى لم أقابل تصرفه بأى استنكار ، لكثرة ما ألفت منه — أو مرّ بى — من تصرفات غير مألوفة .

***

وقد لا أعدو الحق إذا أنا قلت لك إنى نسيت الأمر كله أو كدت . أو على التحقيق لم أعد أفكر فيه ، أو لم يعد له وجود بالنسبة إلىّ ، حتى قبض علىّ .

***

وفى الدرجة القصوى يهمنى أن تدرك أن صلتى بهذه « المؤامرة » لم تقم على صلتى بالمتآمرين ، ولا بالزعيم العسكرى ولا بإخوانه العسكريين ، وإنما قامت على صلتى (بالشاب) ، وأنه وحده الذى وجه الاتهامات إلىّ ، ولم يوجهها أى شخص آخر ، ولم توجهها أية جهة أخرى .

***

وعسى أن أكون بهذه الصورة قد رسمت صورة صادقة للمرحلة الثامنة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل التاسع

المفاجأة المذهلة

اثنان وعشرون يوماً مضت من أبريل سنة ١٩٥٧ — ومثلها من شهر الصيام الذى كان يساير أبريل فى الأيام — وكان من عادتى ألا أذهب إلى مكتبى إلا فى الحادية عشرة من الصباح لأسلى صيامى مع زوّارى ساعتين من الزمن .. أعود بعدهما إلى البيت لأنام .. حتى يوقظنى أهل البيت قبيل الإفطار .

* * *

وفى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أبريل ومن رمضان .. دقّ جرس التليفون فى مكتبى وكان المتحدث زوجة هذا « الشاب » وهى ابنة خالة له . . ولم أكن رأيتها قبلا ولا سمعت صوتها .

وفهمت من السيدة أن زوجها دعى تليفونياً أمس ذلك اليوم (أى الإثنين) من مكتب شركة مصر للطيران بميدان الأوبرا لتسلم طرد مرسل باسمه ، فبارح البيت ولم يعد .. وأنها سألت عنه فى كل مكان يتردد عليه.. وكل صديق يعرفه فلم تعثر له على أثر . . وأن جارة لها . . طُلب أيضاً زوجها تليفونياً فى الفجر . . بعد أن قيل له إن « الشاب » أصيب إصابة بسيطة فى حادث سيارة ودعى إلى لقائه فى مكان حددوه له .. بعد أن حذّروه إلا يُقلق أولاد « الشاب » وذهب الجار ولم يعد أيضاً .

* * *

ولو لم يكن المتحدث زوجة « الشاب » . . لما أعرت المحادثة اهتماماً . . لأن « الشاب » كان لا يدخل بيته إلا وجه الصباح عادة . . وله سهرات لا يبالى أن تستغرقه يوماً و يومين .. ولكنى أردت أن أجاملها فأوفدت مهندساً فى مصلحة الآثار

كان يزورنى .. وصديقاً آخر من « التجار » كان موجوداً عندى .. إلى الأقسام والمستشفيات فلم يعثرا له على أثر أيضاً .

ولا أدرى كيف مر الأمر بى بسيطاً .. هكذا .. ومن غير أن يثير فى ذهنى أمر المؤامرة .. التى كان قد ضمّنى إليها ثم جمّدها .. وحتى هذه الساعة لا أجد تعليلا لهذه الحقيقة .

وفى اليوم التالى — الرابع والعشرين من أبريل (ومن رمضان) ذهبت إلى مكتبى كالعادة .. وفتح لى « بَوَّاب العمارة » باب (التاكسى) كالعادة أيضاً .. ولكن الذى لم يكن عادياً .. إمارات الذعر التى خيل إلىّ أنى أراها مرتسمة على وجه الرجل .. ولم أتلبّث عندها .. ومضيت أصعد الدرج وأفسر إمارات الذعر .. بالأثر الذى يتركه الصوم على وجه كل صائم .. إعياء فى القوى وامتقاعاً فى اللون .. وذهولا فى النظرة أشبه بالخوف أو بالذعر أو بالجمود .

وواصلت الصعود .. وإذا نداء مهذب باسمى يلاحق أذنى ..

وتوقفت واستدرت إلى الذى ينادينى فرأيت أمامى شاباً يبين عليه التهذيب يقول فى أدب جم :

— فلان .. ؟

— نعم

— أنا يافندم .. الصاغ (وقتئذ) إبراهيم حليم من المباحث .

— أهلاً وسهلا .

— والله يافندم إذا سمحت .. عندى أمر بالتفتيش .. وإن شالله ما ازعجكشى .

— أبداً .. تفضل .

وكان (ساعى المكتب) يفتحه فى الثامنة من صباح كل يوم .. وكان ابن أختى (فتحى نجيب) الطالب — عامئذ — فى السنة النهائية فى كلية الحقوق .. يقيم فى غرفة من غرفات المكتب .. ليستذكر دروسه مع إخوان له فى مكان مهيأ .. ولكنى لاحظت أن الباب (موارب) وما كدت أدفعه بيدى حتى حدث لغط . . وألفيتنى أمام ثلة من المخبرين كانوا يجلسون فى أول غرفات المكتب و بينهم ابن أختى وساعى المكتب .

ولأول مرة بدأ جهازى المتعطل يعمل .

ولأول مرة ربطت بين هذا المشهد . . و بين « الشاب » الذى لم تقف له زوجته على أثر .

ولأول مرة من شهرين أو ثلاثة . . ذكرت المؤامرة والمتآمرين . . وساورتنى المخاوف .

* * *

وفرغ الضابط من تفتيش « المكتب » ولم يجد شيئاً يريبه . .

وظننت أن الأمر وقف على ذلك الحد . . ولكن الضابط سألنى إن كان من الممكن أن أرافقه إلى بيتى فى « الفجالة » . . وإلى « الفيلا » للتفتيش أيضاً . . فأدركت أن لديه بيانات وافية ولم أعد أشك فى أن الإجراء يتعلق بالمؤامرة . . وخطر لى لحظتئذ — فى شكل الخاطر الذى يتوهج فى الرأس وينطفىء — أنى ظلمت «الشاب» وأسأت به الظن . . وأن هناك — إذن — مؤامرة جادّة . . ومتآمرين جادين .

* * *

و يبدو أن الضابط كان صاحب ضمير . . ولم يكن أخا تهذيب شكلى فقط . . لأنه انتهز فرصة تفتيشه فى « دولاب ملابس » وقال فى مرح يهوّن به وقع النصح علىّ . . أنه يرى من باب الأخذ بالأحوط فقط .. أن آخذ معى بعض الملابس الخفيفة

لأن التحقيق قد يستغرق ليلة أو أكثر . . فأدركت حقيقة الأمر . . وملأت إحدى الحقائب ملابس . . وكان عندى عشرون علبة من سجائرى فأخذتها معى ونفعنى نصحه أيما نفع .

واتجهت بنا العربة — بعد التفتيش — إلى طريق تؤدى إلى العباسية . . وفجأة عرجت إلى يسارها ومرقت من تحت قوس . . آخذة طريقها إلى مالا أدريه . . حتى وقفت أخيراً أمام مبنى رهيب كتب على بابه : « السجن الحربى » ورأيتنى أتمتم :

إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة

* * *

واستقبلنا صاغ مهذب آخر علمت من الحديث أن اسمه « إبراهيم خليل » أو لعله « خليل إبراهيم » ورق الرجل فى حديثه . . وكأننا أعزاء ننزل عليه ضيوفاً . . فعجبت لمثل هذه الرقة . تستقبل الضيوف فى سجن رسم له الخصوم فى الأذهان صوراً مرعبة . . وعدت فقلت لنفسى : « لعل الصور التى رسموها تبين بعد حين » .

وانصرف « إبراهيم حليم » لشأنه وأسلمنى « خليل إبراهيم » إلى الجاويش بعد أن أعرب لى عن أسفه وتمنى لى إفراجاً قريباً وأدخلت إلى إحدى الحجرات فى « المعتقل رقم ١ » . .

ولم أجد فى ملامح الجاويش الشاب . . ما يستريح إليه السجين . . فأردت أن أتملقه . . فشكرت له متاعبه وهو يضع الحقيبة فى غرفتى فاستدار على عقبيه وعقد ما بين حاجبيه ولم يرد كلمة الشكر التى وجهتها إليه وكنت أسمع صوته . . إذا طرق سجين آخر باب غرفته من الداخل . . كنت أسمع صوت « الشاويش فؤاد » وهو يرد على الطرق « طيب . . بزياده بقى . . أسكت » .

ومضى الأربعاء ومضى الخميس . . ولا صدى . . إلا صدى صوت « الشاويش » يصدر تعلياته إلى جنوده . . و إلا وقع خطاه . . وخطام . . يروحون و يجيئون . .

التحقيق

وإذا كنت أرخص لنفسى فى لمحة عن التحقيق الذى جرى معى فى « السجن الحربى » فليس معنى هذه اللمحة أنى سأتابع كل التحقيقات فى مختلف مراحلها .. وإنما معناها أن لها صلة بموقفى من الناصرية ومراحل كفرى وإيمانى .. وأهداف كتابى .

* * *

وفى يوم الجمعة السادس والعشرين من أبريل (ومن رمضان) جاءنى الجاويش ينهى إلىَّ .. أنى مطلوب فى مكتب (قائد السجن) فاستمهلته حتى أرتدى ملابسى فقال (لا داعى) فتبعته بجلبابى الصيفى الأبيض .. ودلفنا إلى حجرة القائد .. فرأيت « المحقق » يتصدر « المكتب » وقد خلع عنه سترته وهو شاب فارع العود سمح المحيا رياضى التكوين تأنس النفس به ويسكن الخاطر عنده وتستريح العين إليه أو هكذا خيل إلىَّ ..

وإلى يمين المكتب صفت كراسى شغلها ستة أو سبعة .. وإلى اليسار صف عدد مماثل شغله عدد مماثل ، وكان معظمهم يرتدون وجوهاً عابسة وملابس باشة فقدَّرتُ أنهم لابد أن يكونوا ضباطاً فى أزياء مدنية .. وأن يكون المحقق من رجال النيابة والقضاء ، ولم يكن فى الغرفة زى عسكرى إلا الذى يرتديه قائد السجن .

الكذب الأبيض

وفى مثل هذه القضايا لا تصدق أن متهماً يقول « الحق كل الحق .. ولا شىء إلا الحق » ..

وأشرفُ المتهمين من يقنعون من « الكذب » باللون « الأبيض » الذى يجنبه المتاعب .. ولا يقصيه عن « الصدق » إلا بقدر ما يبذل من الجهد فى تجنب هذه المتاعب .

وكنت خلال الليلتين اللتين قضيتهما وحيداً داخل غرفتي .. أكرس جانباً كبيراً من وقتي وتفكيري لإعداد « الأكاذيب البيضاء » التي ألمعت إليها ، وأعتقد أنها لا يمكن أن تعرف ، وأنها لابد أن تمر هينة وفي يسر ، لأن دوري « في المؤامرة » هين في حقيقته ويسير . . وبدأ المحقق حديثه معي رقيقاً ومشجعاً وسألني بما معناه :

— إيه حكاية المؤامره دي يا فلان ؟

وكنت قد قررت أن أتجاهلها تماماً ، وهي « كذبتي الكبرى » فقلت في لهجة مَن خلا ذهنه منها :

— مؤامرة إيه يافندم ؟

وابتسم في وداعة وقال :

— أنا عارف إنك صائم .

— صحيح .

— وأنا صايم مثلك .. دعنا نتعاون .

— يافندم أنا على أتم استعداد .

— أنا عارف .. وأعرف كمان أنك راجل صريح .. وأؤمل ألا تتعبني .. شرفاً ألا تعرف شيئاً عن المؤامرة التي قبض عليك من أجلها ؟

— إطلاقاً .

قلت « إطلاقاً » ولا أدري حتى الساعة : كيف كان وقعها على الرجل ، وإنما الذي أدريه وأذكره . . أن كلمة : « شرفاً » التي وجهها إليَّ .. وَخَزتني .. فهل ارتسم على وجهي يا ترى انعكاس لذلك الوخز .. وإن كان الانعكاس قد ارتسم .. فهل تنبه عليه الرجل .. ومفروض فيه أنه محقق مدرَّب تمرس طويلا بالكذب الأسود والكذب الأبيض ومختلف ألوان الأكاذيب ؟

لا أدرى أيضاً ، والذى أدريه مرة أخرى أن المحقق صمت قليلا ثم سألنى فجأة وكنت أتوقع سؤاله :

— تعرف فلان (يعنى الشاب) ؟

— طبعاً .

— ولماذا طبعاً ؟

— لأنى أعرفه مذ كان تلميذاً .. بحكم أنى كنت صديقاً لأخيه الأكبر .

— إذن مفروض وقد كبر أنه هو الآخر صديق ؟

— برضه طبعاً .

— عظيم .. ما رأيك إذن فى أن هذا الصديق هو الذى يقول إنك تآمرت معه .. وأنه هو الذى ضمك إلى تشكيل المتآمرين ؟

وأذكر — أو شعرت ساعتها — أنى أحسنت تمثيل الدور وأنى كنت أتكلم فى حرارة يبين عليها الصدق ، ولا أستطيع أن أحدد مدى تصديق المحقق لهذا الذى تبدى « صدقاً » أو « كالصدق » وأنا أجيب بما معناه إذا لم يكن قريباً من النص :

— يؤسفنى وبكل الصراحة التى أعرفها عن نفسى أن أقرر أن كل ما يقوله هذا الشاب غير صحيح ، وأنا شخصياً أمضيت الليلتين فى هذا السجن أحاول عبثاً أن أجد سبباً يبرر اعتقالى ، فلو أنى أعرف شيئاً عن مؤامرة شاركت فيها لما أتعبت نفسى .

ضمير وذمة

وتوالت الأسئلة من السيد المحقق وتوالت الإجابات منى واختتم هو كل هـذا الـكر والفر بقوله :

— طيب يا أستاذ سوادى .. أحب أن تلخص لنا فى تقرير — وأنت الكاتب — كل

ما جرى بيني وبينك اليوم من سين وجيم وسيضع السيد قائد السجن تحت تصرفك كل ما تطلبه من تسهيلات ، من ورق وقلم وشاى وقهوة ، وقد أصدرت تعلياتى إليه أن يحقق لك كل ما يعاونك على الإقامة المريحة هنا حتى ينتهى التحقيق ، وكمسلم صائم مثلك أرجوك وأحتمل المسئولية أمام الله أن تفطر اليوم حتى لا يدفع الصوم بالقلم للانزلاق إلى أية عبارة قد لا ترضى عنها وأنت فى قواك العادية والسيجارة فى يدك .

* * *

وأحسست أنى أمام محقق يجمع بين الضمير والذمة ، ويخفق قلبه بمشاعر الإنسان ، ومشاعر المسلم ، وشجعنى سلوكه على أن أقول له :

— ما دمت قد ذكرت السيجارة .. فأرجوك أن يكون من حقى أن أشكو إليك منع السجاير على .

وأبدى الرجل دهشته وقال لقائد السجن فى غضب :

— إصرف له من الكانتين كل ما يطلبه ، ما هذه التصرفات ؟

— يافندم ألف شكر ، وأنا على فكره عندى أظن حوالى عشرين علبة سجاير فى خزانة أركان حرب السجن ولدىَّ فى « الأمانات » اثنا عشر جنيهاً وبعض القروش كانت فى جيبى وقت اعتقالى وأظن أنها تكفى مطالبى من الكانتين حتى تسمحوا لإبن اختى أن يرسل لى مزيداً من النقود .

وأمر المحقق بجىء بالسجائر وناولنى منها علبتين ورخص لى أن أطلب ما أشاء منها .

وأعادنى (الشاويش فؤاد) إلى (الزنزانة) فى شىء من الرقة لم يكن يعاملنى بها قبلاً . ولم تكن مفصلة على قده أصلا .. وقال وهو يغلق الباب (تلزم خدمه يا حاج ؟ وابتسمت وشكرت . فغمغم يقول وهو يغلق الباب ولم ينس العنف فى إغلاقه كما تعود : «يظهر إنك انت الراجل الطيب اللى فى جماعتك» .

ومن هذه العبارة ، أدركت أن آخرين اعتقلوا معى ، وأنهم شركاء فى نفس المؤامرة.. وحزرت أن يكونوا أعضاء فيما كان «الشاب» يسميه «التشكيل العسكرى» و « التشكيل المدنى » ولكن من هم يا ترى ؟

وأعيانى الجواب .. وإن كان تفكيرى قد امتد إلى الكثيرين من الساسة الذين يصلحون للتآمر .. ولعل اتهامى امتد إلى خمسين منهم ..

من هو المحقق؟

وعاد المحقق يوم الثلاثاء (وقفة العيد) فاستدعانى مرة أخرى ولم يكن معه من ثُلَّة العابسين أحد ، وكان يرافقه كاتب تحقيق شاب ، أنيق هو الآخر ورقيق .. وبدأ المحقق يفتح محضراً و يقرأ التقرير الذى كنت قد كتبته ويستخرج منه أسئلة يوجهها إلىَّ وأثبت الكاتب إجابتى عليها حتى إذا أتم المحضر قدمه إلىّ لأرى إن كان أميناً فى إثبات ما قلته ، ووقعت بامضائى وشكرت الله على أن اختار لى من السلك القضائى محققاً نظيفاً ومسلماً وصائماً وذا ضمير ولم أر الرجل مرة أخرى ، فمن هو يا ترى ؟

والجواب سيجىء .

التعذيب ؟

وجاءت ليلة العيد ..

وكان كل همى أن ينسرب إلىَّ من خلال القضبان قبس من نور ، نور يبدد شيئاً من الظلمة التى أعيش فيها ، أو يرينى شيئاً يطمئننى إلى مصيرى ، وهأنذا فى يوم عيدى ، أقضيه خلف أسوار السجن الرهيب .

ولم يغمض لى جفن ليلة العيد .

وكان المرح بادياً على صوت الجاويش وأصوات مساعديه ، وإذا سعد السجان ، شقى السجين ، أو هكذا لاح لى والجاويش « يدندن » على مطالع العيد .

وخيل لى أن حرب الأعصاب قد بدأت ، لأن باب المعتقل كان يحدث صريراً

مخيفاً كلما فتح وكلما أغلق ، كما خيل إلىّ أن الجاويش ومعاونيه يتعمدون بث المخاوف فى قلب كل سجين ، لأنهم أكثروا من فتح الباب و إغلاقه . . وترامى إلينا من خلف نوافذ المعتقل .. نباح كلب .. تبدى فى خيالى كلباً باطشاً ، أعد لنهش المتهمين بأنياب لا ترحم ، كما حدثنا قبل السجن خصوم ناصر عن هذه الكلاب وما لها من أنياب ، وعن مختلف وسائل التعذيب .

***

وجاء يوم العيد ، ولم يجيء معه أى تعذيب .

والذى جاءنا هو قائد السجن يحف من حوله ضباطه ليزجوا إلينا التهانى بالعيد ، وليقدموا لنا الحلاوى ، وليؤكدوا أنها « محنة وتنتهى » و « شـدة وتزول » ، وعنى القائد بسؤالى عما إذا كان فى وسعه أن يقدم أية خدمة فسألته عن الطعام ولماذا لا يرخص لأهلنا فى إرساله إلينا من منازلنا فأكد الرجل أن المطلب سيتحقق فى خـلال أيام وأخذ منى رقم تليفونى ليتصل بابن أختى ، و بر بالوعد فعلا .

***

وجاءنا العيد بمشهد يثير الدهشة .

جاءنا بصول من صولات السجن عليه سمات الصالحين ومعه شيخ كبير فى السبعين وقد يزيد ، هو إمام مسجد السجن .. للمعايدة ، وكانت عينا الشيخ مليئتين بالرقة والحنان ـ ولا أقول : « وبالدموع » — وراح يؤكد فى تهدج الواصلين والعارفين أن الفرج بإذن الله قريب .. وأن الصبر الجميل هو أمضى سلاح فى معركة الشدائد .

وأشهد أنى تأثرت بالشيخ والصول ، أكثر ممـا تأثرت بالضباط والقائد ، وما كاد الشيخ والصول ينصرفان ، والباب يغلق علىّ ، حتى شعرت بحاجتى الملحة إلى الدموع ، فبـكيت لأول مرة فى سجنى . وانشرح لأول مرة صدرى وأحسست أن الدموع غسلت كل ما كان قد ران على الصدر والقلب والروح من أثقال وآلام وجروح .

وأرجىء الآن الحديث ليجيء فى مكانه عن المعاملة التى عوملنا بها فى هذا السجن وكيف كانت «ركيزة» من «الركائز» التى قام عليها تفكيرى فى «الناصرية» كسلوك .

فى النيـابة

وجاء دور انتقال التحقيق إلى ممثل نيـابة أمن الدولة الأستاذ على نور الدين . وكان قد اتخذ لهـذا التحقيق مكاناً .. غرفة من غرفات الدور الأول فى مبنى وزارة الداخلية .

وكان المتبع أن يصل أحد ضباط المباحث إلى السجن فيطلب إلىّ الجـاويش أن أرتدى ملابسى كاملة ، ويذهب بى إلى مكتب أركان حرب السجن فيتسلمنى ضابط المباحث منه فأرافقه فى سيارته الفاخرة حيث يسلمنى إلى على نور الدين فيحقق معى وبعد التحقيق يعود بى الضابط إلى سجنى .

وكان بعض الضباط يذهبون فى حسن المعاملة إلى حد بعيد .

وكانت الشوارع فى ذلك الحين (مايو ١٩٥٧) قد ازدانت بلوحات الدعاية عن الانتخابات التى كانوا يزمعون إجراءها لإقامة أول مجلس أمة فى « جمهورية مصر » ليجتمع فى الثانى والعشرين من يوليو من نفس العام فكان الضابط يسألنى — وقد يكون له هدف من وراء حسن المعاملة — إن كان يطيب لى أن أتفرج على الزينات .. ويأمر السائق فيطوف فى شوارع عماد الدين وسليمان باشا وغيرهما ثم يذهب بى أخـيراً إلى وزارة الداخلية ، وليتنى الساعة أضع قصة ولا اضع كتاباً لأحدثك عن شعورى والعربة تمشى ببطء أمام المقهى الذى كنت أسهر فيه ، وأشهد الخدم الذين أعرفهم يمرقون بين الموائد « أحراراً » وفوق أيديهم أكواب وأقداح ، ولا يدرون أى نعيم مقيم هم فيه ، وأنّ داخل العربة التى مرت أمامهم .. عزيزاً يعرفونه لا يملك أن يلقى التحية عليهم .

ولـكن مالنا .. وهذا الشطط ؟

ولنعد ..

استغرق تحقيق النيابة معى أربع جلسات .

وكنت أراجع كل صفحة كتبها كاتب التحقيق قبل أن أضع عليها توقيعى .

وقد فقدت أعصابى مرة واحدة .. لـكلمة — لم تعجبنى — من ضابط كبير كان يشهد التحقيق — وكانت تعنى أنه لا يصدق ما أمليه على الكاتب ، فاحتججت احتجاجاً عنيفاً ، وسارع الضابط إلى الاعتذار وأكد أنه لم يقصد إلى المعنى الذى ذهبت إليه وأوقف على نور الدين التحقيق ، وطلب لى قدحاً آخر من القهوة ، وشارك فى تأكيد ما أكده الضابط ، ومرت العاصفة .

ورضيت عن سير التحقيق .

وبعد عشرين يوماً من اعتقالى كان التحقيق قد انتهى بالنسبة لى .

وظللت بقية الشهور الثلاثة التى قضيتها فى السجن الحربى آكل وأشرب .. وأصلى وأقرأ .. وأدخن وأفكر .. ولا أجد جواباً كلما سألت نفسى : « وبعد » ؟

ثم أسلم رأسى إلى الوسادة وأغمغم « إلى الغد .. » .. أى غد يشاؤه القدر ..

صلاح الدسوقى

وفى يوم العيد الخامس للثورة .. عندما التقينا نحن الخمسة — أفراد التشكيل المدنى — لأول مرة فى غرفة القائد .. اكتشفت سراً لم يجل لى قبلا بخاطر .. اكتشفت أن الشاب الذى أوليته تقديرى ظناً منى أنه من الأسرة القضائية .. وأنه وكيل نيابة أوفد إلى السجن الحربى للتحقيق معنا ، لم يكن من أسرة القضاء يوماً .. وإنما هو ضابط البوليس صلاح الدسوقى (أركان حرب وزارة الداخلية يومئذ ومحافظ القاهرة اليوم) .. وقد رأيت لحساب التاريخ وقد بدأ الشاب يقرع بابه — ساعداً مفتولا من سواعد ناصر — أن أسجل للتاريخ هذه الواقعة .

الفصل العاشر

عود إلى التعذيب

قد يدور بخلدك — قبل أن نبرح هذا السجن الرهيب — أن تسأل : إن كنا قد قضينا فيه بقية الشهور الثلاثة بنفوس مطمئنة .. بعد أن عوملنا تلك المعاملة الطيبة ؟

و بكل «الصدق الرهيب» الذى أتوخاه فى هذا الكتاب . . أقول : « كلا » .

و بيان هذا « النفى » — وأفضل أن أتحدث عن نفسى فقط — أنى أمضيت الشهور الثلاثة فى قلق .. وكنت طوالها فريسة للمخاوف ونهباً لسوء الظن .

وكان للظن السيىء ما يبرره .

وجاءت إحدى الحادثات .. فلم تبرر القلق الذى كان يفترسنى فقط .. ولا بررت الظن السيىء الذى كان يلازمنى الشهور الثلاثة فقط .. و إنما جاءت حادثة التاسع عشر من ما يو لتملأنى رعباً .. ولتفر أمامها شجاعتى فراراً .. وكنت أظن —غروراً منى— أن الشجاعة إحدى صفاتى .. كريني وصعيدى .

و يحسن أن أبدأ بالحديث عن القلق .. ثم أنتقل إلى الحادثة التى ملأتنى رعباً .

قلق .. وسوء ظن

انتهى التحقيق بالنسبة لى بعد جلسات أربع .. أمام على نور الدين كما سبق أن ذكرت .

ولكنى كنت أجهل أنه انتهى ..

وكنت فى كل يوم .. وفى كل ساعة .. أتوقع أن يستأنف .

ولم أكن أعلم أن المعتقلين معى — لذمة « المؤامرة » — ثلاثة عشر . . وأن من بينهم ثمانية من ضباط الجيش .

ولم أكن أعلم أن من بين العسكريين ذوى رتب عالية كالأميرالاى عاطف نصار الذى يرأس التشكيل العسكرى .. والذى اعتبر فى إحالته إلى المعاش « لواء » .. وأن من بين المدنيين الخمسة وزيرين وفديين هما الدكتور محمد صلاح الدين وعبد الفتاح حسن .

ولم أكن أعلم أن التحقيق كان مقدراً ألا يجاوز أياماً وكان مقرراً أن يجرى فى سرية . . وأن هذا الوضع كان يحتم على المحقق أن يواصل ليله ونهـاره . . وقد يمتد التحقيق مع أحد المتهمين إلى منتصف الليل ثم يستدعى آخر . . وقد يمتد التحقيق معه إلى الفجر أو إلى الصبح . .

* * *

لم أكن أعرف شيئاً من هذا كله ..

وكنت أسترق السمع دائماً .. رجاء أن أعرف شيئاً ..

ولم أكن أسمع غير خطى « الجاويش » مقبلة بعد منتصف الليل .. تتبعها خطى « إنسان » آخر . . ثم أسمع باب غرفة يفتح . . ويغيّب خلفه ذلك الإنسان ثم يغلق عليه . . وتتجه خُطى الجاويش — وقد ألفَتها أذناى — إلى غرفة أخرى . . يخرج منها « إنسان ثان » .. وتتجه خُطى الإثنين إلى باب الخروج ليدور .. ويرسل صريره كأبشع صرخة تشق قلب السكون .. ويخرج الإثنان .. وتتلاشى الخطى ..

وأظل أنتظر دورى .. حتى يعود الجاويش بالمتهم الثانى قبل الفجر أو بعده . . وتسكن الحركة . . وأغمض عينى وأنام . . أنام بنصف عين فقط . . لا للقلق الذى يلازمنى فحسب . . بل لأن (الشاويش فؤاد) . . يطيب له بعد كل ما قام به من «عمليات استيراد وتصدير » إلى مكتب التحقيق . . أن يرفه عن نفسه . . وأن يغنى فى الفجر أو فى السحر . . « عاد السلام . . السلام يانيل . . بعد الكفاح . . الكفاح المجيد »

وعلى الرغم من أن التحقيق فى السجن .. وفى النيابة انتهى .. ولم يعد أحد يُستدعى .. ولا ترامت إلى مرة أخرى أصداء تلك الخطى .. برغم هذه الحقيقة .. لم أستطع أن أطمئن إلى السجن الحربى أبداً .. إلا بعد أن « أخلوا طرفنا » منه .. و بارحناه مودعين من القائد والضباط فيه .. بأطيب التمنيات .

* * *

وهذا « الشعور » الذى رسمته لك بأمانة .. يكشف عن الأثر الكبير الذى تُرسّبه فى الأعماق أكاذيب الخصوم وهم ينبثون فى فجاج البلد يروون « الحواديت » و يرددون الأقاصيص عن السجن الحربى وما يجرى فيه .. وعن لوحة علقت ببابه وكتب عليها : « الداخل مفقود والخارج مولود » فلما زار المشير عامر هذا السجن وقرأ اللوحة غضب غضباً شديداً وأمر بنصفها الأخير فرفع .. رحمة برجولة السجين .. من أن يعود وليداً .. وأصبح المكتوب « الداخل مفقود » فقط .

كانت هذه « النكتة البائخة » تروى لنا فى المقهى .. وكنا نضحك لها فى راحة الشامت العاجز .. حتى دخلنا « السجن الحربى » وعشنا فيه .. وفى قضية كان عبد الحكيم عامر نفسه هو الذى تلقى أول بلاغ عنها .. وهو الذى أشرف عليها .. وندب صلاح الدسوقى لتحقيقها .. وخرجنا .. ولم يعتبر أحد منا « مفقوداً » .

الحادثة المرعبة

أما الحادثة التى ملأتنى رعباً فقد وقعت كما قلت فى اليوم التاسع عشر من شهر مايو و « أظنه كان يوم ثلاثاء » وكان التحقيق بالنسبة إلىَّ قد انتهى .

كنت فى ذلك اليوم أحدق فى الفضاء من خلال قضبان النافذة الوحيدة فى الغرفة كعادتى .. وكانت هذه النافذة هى التى تصل بين مشاعرى و بين الحياة .. ومنها وحدها أتجه دائماً إلى الله و إلى سماء الله .. ومنها وحدها أتلقى أضواء النهار ونسمات الليل فى ذلك الصيف .. وفجأة ترامت إلى سمعى دقات نجار يدق « مسامير » .. أو يفعل شيئاً فى إحدى الزنازين .. وظلت الدقات تقترب وأنا أرهف السمع .. حتى ترامت

إلى .. من الغرفة التى تلاصق غرفتى .. واستطعت أن أدرك أن ألواحاً خشبية تثبت بالنوافذ لإغلاقها .

ومشى الرعب إلى قلبى .. وذكرت كل ما كان الخصوم يقولونه عن التعذيب فى السجن الحربى ، و إغلاق النوافذ .. معناه أن تسبح الغرفات فى ظلام دامس فى قلب الظهيرة .. ولا تفسير لهذا الظلام .. إلا أن دور التعذيب قد حان .

* * *

ورأيت السلم الخشبى تنتقل به يد فى خارج الغرفة .. وتثبته على حافة النافذة .. ورأيت « نجاراً » يرتقى السلم وفى يده لوح من الخشب و « قدوم » و « مفصلات » و « مسامير » و « مشابك » .. حتى أطل علىّ .. وأنا جالس فى سريرى والمصحف بين يدى .

حدق الرجل بعينيه فى عينى .. وبان عليه الأسى — أو هكذا خيل إلىّ — وتلفت يمنة ثم يسرة وألقى السلام علىّ .. فرددت التحية بأحسن منها — طبعاً — وأنا أغتصب له من بين شفتى ابتسامة زائفة .. وانتهزت فرصة عطفه وسألته فى نبرة المغلوب على أمره :

— انتم حاتسدوا الشباك ؟

وفهمت من إجاباته المتقطعة وهو يواصل التلفت .. أن تعليمات من أركان حرب السجن صدرت إليه بعمل هذه النوافذ ولا يعرف لها سبباً .

وقلت للرجل فيما يشبه الرجاء أنى مريض بالقلب (وهذا أيضاً من الكذب الأبيض) وفى حاجة ملحة إلى الهواء فى الليل قبل النهار .

وفكر قليلا ثم اقترح أن يترك أحد اللوحين بغير « شنكل » أو « مشبك » حتى يتعذر عليهم إغلاقه .. أو ليفتحه أى هواء يهب عليه .

وشكرت له حسن صنيعه وهو كل ما يملكه .. وإن كانت فكرة التعذيب ظلت تلاحقنى وتفرض نفسها على تفكيرى .

وانتقل إلى غرفات أخر .. وفرغ من المهمة .

* * *

ولم تمض دقيقتان .. حتى سمعت الضابط يستدعى الجاويش ويسأل غاضباً : كيف ترك نصف هذه النافذة بغير « مشبك » ؟

وحدث هرج وجىء بالسلم من جديد .. وارتقاها النجار كاسف البال . وأدى ما طلب إليه وهو يغمغم بعبارات اعتذار تصلح لى ولرجل من خلفه ذى شأن عرفت فيما بعد أنه الضابط .

وقعت الواقعة !!

وبعد ربع ساعة تقريباً .. حدث هرج جديد .. وترامت إلى أذنى أوامر الضابط تنفلت من بين شفتيه فى لهجة عسكرية صارمة : « اقفل يا عسكرى » .. وترامت إلى أذنى أصداء إغلاق النوافذ .. وجاء دورى فأغلقت نافذتى .. وسبحت غرفتى فى بحر من الظلمات لا أكاد أتبين فيها يدى .. وأطبق المحذور .. ووقعت الواقعة .

ورفعت عينى إلى السماء .. فالتقت بالسقف ولم تلتق بالسماء .. فلم أقوَ على الضراعة والدعاء .. وانهمرت دموعى .. وكان البكاء الصامت الثانى داخل سجن .

وسمعت الضابط يقول : « مظبوط يا عسكرى ؟ » وعاد يقول « طيب افتح بقى » وفتحت النوافذ .. وعاد النور .. وتنفست الصعداء .. وتطلعت بعين العرفان إلى السماء .

ولكن إلى متى .. تظل مفتوحة ؟

ألا يكون الأمر قد أعد نهاراً .. ليجرى ما قدر علينا بعـــد أن يغلقوها فى الليل ؟

وومض برأسى خاطر .. فوثبت من فراشى ودققت الباب بيدى .. وجاء الجاويش .. ففتح الباب .. فطلبت منه استدعاء « حضرة أركان حرب » وأغلق الباب ومضى .. و بعد فترة عاد إلىّ يطلب « ذكر أسباب الاستدعاء لأنه مشغول » فقلت له « قل له إنها أسباب خاصة لا أفضى بها إلا إليه » وأغلق الباب .

ومرت ساعة من الزمن لعلها أثقل على النفس من عام .

وترامى إلى أذنى هرج تحيات .. ووقع أقدام .

وفتح الباب .

* * *

وكان أركان حرب السجن ضابطاً سودانياً متمصراً .. بشوشاً ومهذباً فصافحنى وسألنى إن كان فى وسعه أن يقدم أى خدمة .. فسألته بدورى أن يوضح لى سبب عمل الشباك لنافذتى فقال إن زميلا لنا — يجاور غرفتك — شكا من البرد الذى يتسلل إليه فى الفجر .. و يصيبه بزكام فأمر قائد السجن بعمل شبابيك خشبية للنوافذ حتى يتسنى إغلاقها ليلا حرصاً على سلامتكم .

وقلت للضابط إنى على نقيض الجار .. مريض بالقلب وضيق التنفس .. وفى حاجة إلى كثير من الهواء فى الليل قبل النهار . .

ووعد الضابط أن يرفع الأمر للقائد .. وربطت على القلب باليد .

* * *

و بعد فترة قصيرة — مضت ثقيلة و بطيئة — رأيت النجار يرتقى السـلم للمرة الثالثة — ضاحك الوجه هذه المرة .. وراح ينتزع اللوحين فى ابتهاج ورضى ..

ويتلفت يمنة ويسرة ... ويقول وكأنه ظفر بالورقة الرابحة « انت راجل طيب ياحاج » الفرج قريب إن شاء الله .. خليك مع الله » .

وما كاد يتوارى عنى —هو وسلمه الخشبى— حتى سجدت لله شكراً.. وانهمرت دموعى المرة الثالثة والأخيرة طوال الشهور الثلاثة . . وكانت دموع العرفان لله فى هذه المرة . . ورأيتنى أتلو فى المصحف أمامى : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » .

يا شعيب . .

وفى شهر يونيو أو يوليو — ندب لمعاونة الجاويش مجند جديد « دفعـهْ » اسمه « شعيب » من أبناء الوجه البحرى — وأذكر اسمه لأنه أتم الخدمة وعاد إلى بلده — وأولانى شعيب عطفه من أول وهلة ولغير سبب!.. وأمسَى بعد أيام صادق الود حميمه .

وكانوا ينتدبونه لمراقبتى مرتين فى كل يوم « للفسحة » فى حدائق السجن بعض الوقت . . مرة فى الضحى ومرة بين العصر والمغرب . . وكان محظوراً على الجندى (كسجّان) أن ينبس ببنت شفة مع المتهم (كسجين) . . ولكن (شعيب) كان يختلس النظر من بعيد إلى الجاويش (الذى اعتاد أن يراقب الجنود وهو مستخف خلف الشجر) حتى إذا اطمأن (الدفعه) إلى عدم وجود المراقبة .. انثنى إلىَّ . . ينبئنى كل ما يتصل به من أنباء . . وكان أهمها أنه سمع الضباط وهم يتحدثون عن قرب الإفراج عنا . . يوم افتتاح مجلس الأمة يوم ٢٢ يوليو أو فى عيد الثورة يوم ٢٣ لأن قضيتنا تقرر حفظها .

وكنت أنتظر مقدم (شعيب) كل يوم لأسأله إن كان قد سمع جديداً . . فيضيف ما يؤكد أنباءه أو لا يضيف .

وكان يؤسفنى أن يأخذ شعيب (راحة) وأن يحل مجند آخر محله .. وكنت أمضى مع الجديد إلى (الفسحة) صامتاً .. وأعود معه صامتاً .

وكنت إذا ناديت الحميم باسمه وقلت بملء فمى : « يا شعيب » أحسست كأن النداء يحمل إلى .. أريج النبى — سَمِىّ شعيب فى القرآن — من فرط ارتياحى إلى هذا المواطن .. وتفاؤلى به ..

***

وسألت « شعيب » ذات مرة . . إن كان فى وسعه . . ومن غير إحراج — أن يقول لى شيئاً عن أوصاف المعتقلين معى ؟ فبدأ يدلى بكل ما يذكره من أوصاف كل سجين وقال عن أحدهم إنه كان كما يقال وزيراً وفدياً للخارجية وعن آخر إنه كان وزيراً للداخلية فى وزارة الوفد فسألته أن يصفه لى فقال « أسمر وقصير ولسانه حلو وعصبى) فأدركت أنه يعنى (عبد الفتاح حسن) بفارق « العصبية » فقد كنت أعرفه سليم الأعصاب ولكن السجن يفعل الكثير . . ولم أبذل جهداً فى معرفة مَنْ قال عنه (وزير خارجية) وأدركت أنه (صلاح الدين) .

وتولى شعيب وصف مدنى آخر أدركت أنه (الشاب) وأكد لى صحة الوصف عند ما قال (ويلبس نضاره . . وبعيد عنك شايف نفسه شويه) وأضاف أخيراً أن هناك شاباً آخر يقولون عنه إنه وفدى واسمه (أحمد السادة أو السادات) فقلت له (هوه محامى ؟) فقال (أظن) ولم يدر بخاطرى أنه (أحمد السقا) ولم أكن أعرف « السادة المحامى » حتى أطلب مزيداً من الوصف .

وهكذا عرفت أسماء ثلاثة من الزملاء الأربعة . . بفضل صديقى شعيب .

وأوصيت « صديقى » أن يصغى فى عيد الثورة إلى الإذاعة صباح يوم افتتاح مجلس الأمة . . عند ما تحلق الطائرات فى الفضاء . . إيذانا بتحرك ركب الرئيس .

وفى ضحى ذلك اليوم . . أصغيت بكل أذنى . . إلى الفضاء . . فلم أسمع أى أزيز أو أى ضجيج ومنيت بخيبة مريرة . . ولم أعلم إلا بعد أن بارحنا السجن . . أن المجلس افتتح جلسته — على غير عادة البرلمان المصرى — فى المساء ولم يفتتح فى الصباح.

وجاء اليوم الثالث والعشرون من يوليو عيد الثورة .

وكنت قد رأيت فيما يرى النائم حلماً لا محل لتفصيلاته فى هذا المكان . . وإنما يعنينى منه أنى فسرته على ضوء الأرقام التى وردت فيه والأحداث الناطقة التى تخللته .. بأن الإفراج عنا فى هذا اليوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٧ أمر مفروغ منه .

وتفاقم الإيمان بهذه الرؤيا .. حتى ألهب أعصابى . . ولم أنم طول ليلى . . فى انتظار صدور القرار بالإفراج .. تفسيراً للحلم واستناداً إلى ما كان (شعيب) قد سمعه من الضباط .

وجاء الصبح .. ولم يجىء الإفراج .

ومرت الساعات الأولى من الصباح من غير أن تحمل إلىَّ أى قرار آخر أو أىّ إرهاص بالقرار .. فحزنت .. كأن القرار قد صدر ثم أُلغِى .

وفى الظهر أو قبله .. سمعت خُطى الجاويش تقترب من غرفتى فخفق قلبى . . وعند ما فتح بابها ازدادت ضربات قلبى .. ولكنه مَدَّ يده بعلبة السجائر التى يجيئنى بها يومياً وأغلق الباب فيئست . . وانقلبت على عقبى . . أؤنب النفس وأؤدبها .. وأسألها كيف تدهورت إلى هذا المستوى من الضعف و « التخريف » كأنها لم تهذب بالمعرفة يوما ولم تجتز وادى الثقافة ولو عبرا .

وفى هذه الغمرة من الأسى على تدهور تفكيرى انفتح الباب فجأة وسمعت الجاويش يقول فى لهجة العسكرى ينفذ الأوامر :

— إلبس هدومك وجهز شنطك وكل حاجاتك وانتظر التعليمات .

ووثبت من السرير أقاوم الفرحة وأحاول أن أخفيها وهى تطغى وقلت للجاويش :

— ليه ؟ فهمنى .

وقال الجاويش :

— الأوامر كده بس .. مافيش حرف زيادة .

ومضيت أجمع حاجياتى .. وأترك لهم كل ما لست فى حاجة إليه من الأطعمة وارتديت ملابسى ورحت أذرع الغرفة .. وقلبى يحدثنى بأن شيئاً ما له صلة بالغيب يحاول أن يعبث بمشاعرى وأن من الخير أن أسيطر عليها حتى أرى ما يخبئه القدر .. لأن « السعادة » على هذا النحو — وتفسيراً لحلم — لا تكاد تصدق .

ومر الوقت .. ولم يعد الجاويش .

مرت ساعة وأكثر من الساعة . وبدأ القلق يساور نفسى .. فطرقت الباب فجاء الجاويش فسألته :

— إيه الحكايه ؟

وأجاب :

— خليك لابس وانتظر التعليمات .

وحضر غداؤنا اليومى فأعدته مع (شعيب) إلى الخادم ومعه (العمود) الفارغ الذى كان قد حمل لى طعام الأمس .. ولم أعد أتصور أن آكل شيئاً وأنا فى الطريق إلى بيتى .

صدمة .. ؟!!

وجاءت الأوامر أخيراً ..

ومشى الجاويش أمامى .. والجندى من خلفى يحمل حقيبتى وانفتح باب المعتقل رقم ١ فى طريقنا إلى مكتب القائد .

ولم ألبث أن جمدت فى مكانى .

رأيت «الشاب» عن بعد .. واقفاً .. وعلى سيماه كل علامات الأسى والأ

ورأيت شاباً آخر جاء يقدم لى نفسه (احمد السقا سكرتير الرئيس السابق مصطفى النحاس) ولم يكن وجهه هو الآخر يحمل بشرى الإفراج .

وسألته :

— إيه الحكايه ؟

وقال ضاحكا :

— يظهر حايودونا سجن الاستئناف .. عشان احنا مدنيين .. وعايزينا نكون تبع النيابة مش القيادة تصحيحاً للأوضاع .

وكان كل تعليقى : « ياه ؟ » .

ولم يدرك أحمد حتى هذه الساعة .. ما كانت تحمله يومئذ كلمة « ياه ؟ ! »

وأقبل الأستاذ عبد الفتاح حسن .. فتعانقنا .

ودخلنا إلى مكتب قائد السجن .. فوجدنا قوة من ضباط البوليس جاءت لتتسلمنا .. وانتظرنا مقدم الدكتور محمد صلاح الدين من المستشفى العسكرى حيث كانوا قد أجروا له عملية جراحية بسيطة .

ونقلنا إلى سجن الاستئناف .

* * *

وفتحت أبوابه ..

وهبت من ورائها .. نسمات جديدة وندية .. نسمات الطمأنينة فى السجون العادية .. نسمات ضباط بوليس فيه يرحبون بمقدمنا .. ونسمات (زملاء .. ؟!!) من (المساجين) يقبلون علينا (بالأحضان) ولا يبالون أحداً .

واجتمع شملنا فى غرفة الضابط .. أربعة من المتهمين بالانضمام إلى تشكيل .. وخامسهم .. الذى ضمهم .

ولـكن هناك سادساً .. وجهاً جديداً لا نعرفه .. مدنياً .. كان يرافقنا فى رحلتنا من السجن الحربى إلى سجن الاستئناف ويرافق الضباط .. وقد انصرفوا هم .. وبقى هو ..

فمن هو ؟

قرار الاتهام

وتبين أنه « المحضر » جاء إلى السجن الحربى ليعلننا بقرار الاتهـام .. فطلبوا إليه أن يرافقنا ليتم الإعلان على (أرض النيابة) لا (على أرض القيادة) أى فى سجن الاستئناف لا فى السجن الحربى .

* * *

وأثقل عليك فأنقل لك بعض سطور من هـذا القرار لتستكمل ملامح القضية والاتهام فيها إذا لم تكن تتبعتها .. ولأثير ذكراها فى ذهنك إن كنت من الملايين الذين تتبعوها فى مصر وفى كل بلد عربى .

أمر إحالة

فى قضية الجناية العسكرية رقم ١١٧ سنة ١٩٥٧ الوايلى

(١١٣٧ كلى شمال القاهرة سنة ١٩٥٧ – ١٧ أمن الدولة سنة ١٩٥٧

٧١ حصر أمن الدولة سنة ١٩٥٧)

نحن رئيس نيابة أمن الدولة . . . .

بعد الاطلاع على التحقيقات التى تمت فى هذه القضية

وعلى (كيت .. وكيت .. من القرارات والأوامر)

نأمر بإحالة

(وهنا ذكر ثلاثة عشر اسماً) .

إلى المحكمة العسكرية العليا .. لمعاقبتهم بالمواد (كذا وكذا) من قانون العقوبات لأنهم فى خلال المدة من شهر أبريل سنة ١٩٥٦ إلى ٢٣ أبريل سنة ١٩٥٧ بدائرة محافظة القاهرة :

اشتركوا فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جناية الشروع بالقوة فى قلب دستور الدولة وشكل الحكومة فيها وهى الجناية المنصوص عليها فى المادة ٨٧ من قانون العقوبات وذلك بأن يؤلفوا من بينهم وممن ينضم إليهم من ضباط الجيش عصابة مسلحة تقوم بمقر رياسة الجمهورية باغتيال رئيس الجمهورية والوزراء أو اعتقالهم والاستيلاء على مقاليد الحكم وقلب دستور الدولة وتغيير شكل الحكومة والمناداة بآخر (يقصد محمد نجيب) رئيساً للجمهورية وتنصيب المتهم الخامس — أى الدكتور صلاح الدين — رئيساً للوزارة والمتهم السادس (يقصد الأستاذ عبد الفتاح حسن) وزيراً للداخلية وكان المتهمون الأول (يقصد الأميرالاى عاطف نصار) والثانى (يقصد البكباشى حسن صيام) والثالث (يقصد الصاغ محمد أمين فوزى) والرابع (يقصد الشاب الذى لا أريد أن أسميه) المحرضين على هذا الاتفاق ومديرى حركته ومرفق بهذا قائمة بأسماء شهود الإثبات وفحوى شهادتهم ؟

تحريراً فى ٢٢ يوليه سنة ١٩٥٧ رئيس نيابة أمن الدولة

إمضاء (حامد بسيونى)

* * *

ويلى هذا تلخيص لشهادة أحمد قدرى محمد (شاهد الإثبات) والمبلغ وصديق الشاب .. وسنه ٢٧ سنة وموظف بمصلحة الفنون بوزارة الإرشاد وضابط سابق (وكان عضواً فى مؤامرة اليوز باشى المصرى .. وحكم على قدرى هذا بالسجن خمس سنوات مع إيقاف التنفيذ لأنه ساعد فى الكشف عن تلك المؤامرة) .

* * *

ويلى تلك الشهادة تلخيص لأقوال كل متهم من المتهمين .

وتسلم كل منا نسخة من قرار الاتهام . ومضينا إلى الحجرات التى خصصت لنا .

* * *

وأعتقد أن هذا القدر من تاريخ المؤامرة يكفى لتذكيرك بها ..

كما أعتقد أنى بهذا الفصل .. استطعت أن أرسم المرحلة العاشرة .. فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .



الفصل الحادى عشر

من السجن .. إلى الليمان

كنت أقدر لهذا الفصل أن يجيء — بحكم موضوعه — أقل إثارة من اى فصل آخر .. لأنه يعرض لمحاكمة جرت ونحن فى سجن الاستئناف .. ولأحكام صدرت علينا.. و « لترحيلنا » ـ بلغة الإدارة ـ من السجن الظريف ـ إن صح أن فى السجون ظرفاً ـ إلى الليمان الرهيب ـ ليمان طره ـ واسمه يكفى .

ولكن الفصل جاء ـ على غير ما توقعت له ـ فصلا مثيراً .. أو هكذا يبدو لى .

ويبدو أيضاً أن « الكفر والإيمان » ـ والأصل فيهما أنهما عدوان لا يجتمعان ـ يبدو أنهما على صعيد هذا الفصل يجتمعان اجتماعاً ، بل يلتحمان التحاماً ، ويخوضان معركة كبيرة ومريرة ، وإن لم تكن حاسمة .

وعاون على هذا الالتحام ، وجودنا فى سجن الاستئناف .

معركة حامية

نقلنا إلى سجن الاستئناف فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٧

واستمرت المحاكمة من يوم ١٢ أغسطس إلى يوم ١٢ سبتمبر .

وصدر الحكم فى يوم ٢٠ أكتوبر .

ونقلنا إلى الليمان فى يوم ٢١ أكتوبر ١٩٥٧ .

وأسدل علينا ستار النسيان حتى أفرج عنا مساء السبت ١٨ يوليو ١٩٥٩ .

***

وكان فى وسعى أن أقنع بهذه الأرقام ، أؤرخ بها لتلك الفترة ولا أزيد ، لأن المحاكمة وما جرى فيها ، ليست من أهداف هـذا الـكتاب ، ولأن السجون وعجائب الحياة التى يحياها الداهلون خلف أسوارها ، إنما تستأهل كتاباً ضخما ، أؤكد أنه لم يصدر بعد ، برغم كل ما صدر عنها من كتب .

فى سجن الاستئناف

لـكن الذى حدث ، أن معركة حامية نشبت ، وأن قتـــالا مريراً دار ، فوق أرض المعركة ، و « الأرض » دارت بين « الـكفر والإيمـان » وهذه « النفس » ، وهذان هما الـكتاب . . ولا سبيل إلى التجاهل .

نقلنا إلى سجن الاستئناف ، وقضينا فيه ثلاثة أشهر كالتى قضيناها فى السجن الحربى ، وشتان كان هناك خوف من المجهول ، وكان هنا خوف من المعلوم ، وشتان كنا فى السجن الحربى فرائس لما ترسب فى أعماقنا من شائعات الشارع وأكاذيب الخصوم عما يجرى خلف أسوار السجن الرهيب من تعذيب ، فقضينا كل يوم من الأشهر الثلاثة ونحن ننتظر المتاعب التى لم تجىء ، وطال انتظارنا لها ، حتى تركنا هذا السجن .

أما فى سجن الاستئناف وبرغم المحاكمة التى جرت والأحـكام التى صدرت ، فقد كانت أيامنا فيه كلها سعادة ، إن رخِّص للسعادة أن تعيش خلف الأسوار .

* * *

كان كل ما فى سجن الاستئناف ـ بالنسبة لنا ـ « جميلا » .. وأقدم اعتذارى لأقداس « الجمال » .

كانت « الحرية » مكفولة لنا ، وإن ساءك أن أتحـدث عن « الحريات » وراء « القضبان » .

أعدوا لنا نحن الخمسة ، خمس حجرات ، وجعلوا بين كل واحدة وأختها ، حجرة خالية ، حتى لا يتصل أحدنا بالآخر ـ كما يجرى العرف فى القضايا الخطيرة — ولكن « الواقع » أننا كنا نجلس معاً ، ونسهر معاً ، ولا يفرق بيننا إلا النوم .

ولم نصدق أننا منحنا كل هذه الحرية ... فبـدأت الرواسب تعمل عملها فى تفكيرنا ... وبدأنا نعتقد أنها « حرية مدبرة » و « حرية مقصودة » ... وأننا مُنحناها لنتكلم ونثرثر ... ومَنحوها لتتسمع آذانهم علينا ... ولتنقل إلى المسئولين كل كلمة نقولها ... فكنا نمسك عن الكلام كلما أقبل علينا ضابط أو سجّان ... بل كلما جيء بغلام سجين ... من اللصوص أو من النشالين ... ليغسل أرض حجراتنا ... وليصيبه منا بقية من حلوى أو طعام .

وحتى « المحكوم عليهم بالإعدام » من أصحـاب الأردية الحمراء ... الراسفين فى الأغلال ... وكانت حجراتهم امتداداً لحجراتنا ... وكان مرآهم تجفل منه النفوس وتنقبض له الصدور ... حتى هؤلاء... كنا نستمع إليهم... وهم يسردون علينا التفاصيل الحقيقية للجرائم المنسوبة إليهم ... وكان عددهم إثنى عشر شخصاً — وهو عدد قل أن يجتمع فى سجن واحد وفى وقت واحد ... وقد تركونا ومضوا ... وكل ما أذكره أننا بعد الحكم علينا تركنا على قيد الحياة السيد أمين ناظر المدرسة ، وكبير المتهمين فى قضية الجاسوسية ، لنلتقى فى الليمان بابنه الضابط البحرى احمد لطفى السيد .. و بابن أخته (صالح) المحكوم عليهما بالأشغال الشاقة مع بقيـة زملائهم المصريين و (سوينبرن) الاسكتلندى و (زارب) المالطى (بريطانى الجنسية) ، تركنا وراءنا السيد أمين مؤمناً بأن الحكم لا يمكن أن ينفذ فيه ، إذا أتيح له أن يشهد مطلع القمر ، فى أول شهر عربى .. وعاد إلى حجرته إثر تلك الرؤية فتلا اسم الله (يا لطيف) عشرة آلاف مرة ، ومعه صيغة بعينها تلقّى أسرارها عن المغاربة عند ما كان فى بلاد المغرب ذات الأسرار والأحجبة خلال الحرب العالمية الثانية .

ورأينا — رحمة بأعصاب الرجل وبرغم بشاعة التهمة المنسوبة إليه — أن ندبّر أمره مع بعض القادرين على أن يهبطوا به إلى (حوش السجن) ليطالع (وجه القمر) .

وليقوم بتجربته ، وأجراها ، وبرغمها تم إعدامه ، وكنا يومها فى « الليمان » .

* * *

أذكر هذا كله لتدرك مدى الحرية التى مُنحناها فى ذلك السجن ، ولتدرك معها أن (الجو) كان صالحاً للتفكير المستريح ، الذى يمارسه كل مواطن فى حياته العادية وفى بيته الآمن .. مع الفارق ؟ !

وكنت ـ نتيجة لهذا التفكير المستريح ـ كبير الرجاء فى الحكم ببراءة الثلاثة الأواخر فى قائمة الاتهام بعد أن قرأت (ملف القضية) قراءة واعية ، وبعد أن لاحظت أن سلطة الادعاء (النيابة) قد رتبت المتهمين فى (قرار الاتهام) ترتيباً (تنازلياً) يناسب خطورة ما أسندته إليهم من تهم ، ولا يتصل من قرب أو من بعد بأقدارهم ، والدليل أن الأربعة أو (المحرضين والمدبرين) جاءوا فى طليعة القائمة وبدأوا بالأميرالاى عاطف نصار والبكباشى حسن صيام والصاغ أمين فوزى و (الشاب) الذى أحدثك عنه (وهم الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة فعلا) ثم جاء الدكتور محمد صلاح الدين — على قدره — بعدهم (وحكم عليه فعلا بعقوبة أقل من عقوبتهم خمسة عشر عاماً) ثم جاء الأستاذ عبد الفتاح حسن (وحكم عليه بعقوبة أقل إثنى عشر عاماً) .

وأنا إذن كنت منطقياً مع قائمة الإتهام نفسها عند ما كنت كبير الرجاء فى أن يحكم ببراءة الثلاثة الأخيرين فى القائمة التى ضمت ثلاثة عشر متهماً إذا كانت هنـاك أحكام بالبراءة وهم بالترتيب التنازلى أيضاً بدءاً من المتهم الحادىعشر (فتحى اسماعيل كوكب ومحمد السوادى وأحمد السقا) وكانت التهم الموجهة إلى ثلاثتنا بادية التفاهة ـ أو فى القليل لا يصح تسميتها بالخطيرة ـ سواء أصحت أم لم تصح ، وثبتت فى ذهن القضاء أم لم تثبت .

* * *

واسم (فتحى اسماعيل كوكب) كان بالنسبة لى شخصياً ، (مفاجأة) أو (فكاهة) والسبب أن والده كان (وفدياً) ، وكان يعمل معى فى جريدة (السوادى) وأذكر أنى

— إذا لم تخنى الذاكرة — تحدثت ذات عام إلى المرحوم عبد الرحمن عمار وكان يومها وكيلا لوزارة الداخلية وكان أديباً وكان صديقاً ، فى أمر الطالب الصغير (فتحى) ابن اسماعيل كوكب المحرر فى جريدتى ليعاونه بنفوذه فى قبوله فى الكلية الحربية ، وكان (فتحى) معروفاً بالهدوء والاستقامة ، حتى لقد جهل بعد تخرجه كيف يسهر مع أترابه من الضباط ، وسهر مع (كتبه) كما كان دائماً يفعل ، وحصل على ليسانس الحقوق وهو ضابط ، فضع نفسك مكانى ، وتصور نفسك وأنت تطالع اسمه فى قائمة الاتهام وفى مؤامرة كبرى تضم وزراء سابقين وضباطاً عظاماً .

وأرجو ألا يكون هذا الاستطراد قد خرج بى عن أهداف الكتاب ، إنما أردت أن أرسم بهذا اللون من تفكيرى الهادىء فى هذا الشاب .. صورة للجو الآمن ، وللجو الصالح لمراجعة الحساب والجو فى سجن الاستئناف .

* * *

وبدأت إذن أراجع الحساب كله وأسأل نفسى فى هدوء ، رأيها الصريح غير المتحيز فى « الرجل الذى تآمرت عليه » ؟

وطالعتنى من جديد قصة « السجن الحربى » ، وما يلقاه فيه كل من تلقاه جلادوه ، قصة مشى بها الخصوم فى المقاهى والمكاتب والدور ، وزاحموا بها فى العواصم والبنادر .. قصة أبى زيد الهلالى فى ريف مصر وصعيدها .

وها نحن أولاء قد دخلنا هذا السجن ، وعشنا فيه ، وخرجنا منه ، ولم نجد لتلك الاتهامات ظلا ، إلا إن كان وجود كلب ينبح طوال الليل داخل أسواره ، مؤيداً لما كانوا يقولونه عن كلاب مدربة ، تترك مع المتهم داخل زنزانته لتداعبه طوال ليله ، وتتناول عشاءها بضع شرائح من فخذه .

ونسجاً على منوالى ، فى الشك الذى يفترس كل تفكيرى ، عدت أقول لنفسى :

— قد يكون عند غيرى ، شىء يقال ، عن متاعب صادفها ، وقد تكون بساطة الاتهام الموجه لى ، سبباً فى المعاملة الطيبة التى صادفتها .

وكان « الاحتمال » معقولا .

ولكن حادثاً وقع فى اليوم التالى أجهز على كل « معقولية » فى هذا « الاحتمال » .

***

كان كل منا — نحن الأربعة — يطوى صدره طبعاً على أحقاد لا نهاية لها على « الشاب » أو — فى القليل — على شعور بالنفور من الاتهامات التى كالها لنا فى « تقاريره » ، ولم نكن نتصور وقد جمع « سجن الاستئناف » بيننا ، أى عذر يمكن أن يقدمه لنا ، أو يمكن أن يعلل به ، ما فرط منه فى حقنا .

وجاء الشاب ، وتحدث ، وقال كلاماً عجيباً ، قال إنهم عذبوه ، وأين ؟ فى السجن الحربى الذى كنا فيه ، عذبوه ، وأملوا عليه ما كتبه فى التقارير ، ولم يكن له يد فيما « كتب » إلا « يد الصياغة » وراح كل منا يسأل أخاه إن كان قد عذب . . وأجاب كل منا ببساطة أن أحداً لم يعذبه ، بل إن أحداً لم يمسسه بسوء ، وكان (أحمد السقا) هو وحده الذى سجل على السجن سوءاً « متواضعاً » يخص الملابس ، لأنه لم يحضر معه شيئاً منها عند القبض عليه ولم يصرحوا له باستحضارها من منزله إلا بعد وقت غير قصير ، فلقى فى هذا السبيل شيئاً من المتاعب ، انتهت عندما شكا أمره إلى المحقق .

وإذن كان الخصوم يكذبون وهم ينشرون بين الجماهير تلك الأكاذيب الجريئة عن ذلك التعذيب المزعوم ...

وقياساً على هذه الأكاذيب ، يكون الحكم إذن على كل أكاذيبهم عن « الرجل الذى تآمرت عليه » .

امتحان مقطوع النظير

وشاء القدر أن يقدم لنا صورة مروعة لحقيقة « الشاب » الذى عاشرناه عمراً ... ولم نعرف من حقيقته شيئاً ... صورة ترسم اقتداره على « التشكل » بكل ما يشاء من

« أشكال »... اقتداراً يسلكه فى زمرة « الخالدين » من رجال «الفن» ... ويدخل به إلى « وادى عبقر » ... ولكن من باب خلفى ... أو من باب « غير خلقى » .

ولا أظن أنى نادم على أن أخص هذه الصورة بحيز من هذا الكتاب .. ولا أظن أنى نادم على أن أضع هذه الصورة تحت ناظريك لتطيل التأمل فيها ... ولترى فى كل خط من خطوطها دليلا على أنه لم يعذب قط ... الأمر الذى له صلة بأهداف الكتاب ومفتريات الخصوم ... وتأثرى بهذه المفتريات .

***

جاءت المحاكمة ...

وجيء بنا صباح الثانى عشر من أغسطس إلى القاعة التى أعدت لمحاكمتنا .

وكان قد جيء بالعسكريين من « السجن الحربى » قبلنا ... وأخذوا فى « قفص الاتهام » الأماكن التى اختاروها لجلوسهم ... وكان كبيرهم « عاطف نصار » يأخذ أول مكان من مدخل القفص ... وقيل فى تعليل الاختيار أنه أصيب داخل السجن بشلل ... فإذا صح ما كان قد قيل ... فمن حقه أن يأخذ أول مكان يلقاه ... وكان شقيقه « وزير الصحة التنفيذى فيما بعد » يعمل يومئذ كبيراً لأطباء الجيش ونقيباً لأطباء مصر ... وقد شهد كل جلسة من جلسات المحاكمة .

وما كدنا نصل إلى القفص فى ذلك اليوم حتى تصاعدت « الترحيبات » بنا من وجوه لا أعرفها — باستثناء فتحى كوكب — وسارع « الشاب » فقدم إلينا زملاءنا العسكريين فى « المؤامرة » وقدمنا لهم ... وبان على وجوه الجماهير التى ضاقت بها القاعة علامات الدهشة ... ولعل من بينهم من ظن أننا نقوم بمشهد تمثيلى .

وكانت الجلسة الأولى جلسة إجراءات ... لأن المحكمة التى تحاكمنا « عسكرية عليا خاصة » ... خاصة بنا تنتهى مهمتها بانتهاء محاكمتها لنا ... والمحاكم العسكرية لها إجراءات يتخللها قسم من الرئيس والأعضاء على المصحف أو على الإنجيل ... ثم يسأل

كل متهم : « هل أنت مذنب » أو « غير مذنب » ؟ وعليه أن يقول : « مذنب » أو « غير مذنب » ولا يزيد ... وقلنا جميعاً « غير مذنب » ورفعت الجلسة .

وجيء بنا فى اليوم التالى للجلسة التالية .

موقفان

وما أزال عند قولى أنى لن أعرض بالبيان أو بالتبيين لكل ما جرى فى المحاكمة من مرافعات أو بحوث أو دفوع ... ولكن موقفين اثنين من المواقف أستأذنك فى عرضهما لاتصالهما — فى تقديرى — بأهداف كتابى ، وأرجو ألا أكون قد أسأت التقدير .

الشاب « الفنّان »

كان « الشاب » قد أكد لنا أنه سيقول للمحكمة « الحق ... كل الحق ... ولا شيء غير الحق ... » وكان قد أعد لهذا الحق « كراسات » ... عكف على إعدادها أياماً فى حجرته ... وحملها معه فى الجلسة الثانية .

وبعد افتتاح الجلسة .. لفتنا رئيس المحكمة إلى أن المتهم منا ، إذا دعى للشهادة اعتبر مطلق السراح أو مفرجاً عنه حتى يفرغ من شهادته ، وله كافة الحقوق التى لكل مواطن طوال المدة التى تستغرقها الشهادة ، وله أن يستعين بما شاء من مذكرات ، وأن العبرة - فى القانون العسكرى - بالأقوال التى تذكر أمام المحكمة لا بالأقوال التى وردت فى التحقيق .

وأدركنا أن ما يقوله الشاب فى هذه الجلسة هو الذى يعول عليه ، وأن كل ما أدلى به فى التحقيق ، وما كتبه فى التقارير ، تسقط كل ماله من (حجيَّة) إذا هو تسحَّب منه .

وعلت إذن قيمة (الشاب) .

ونودى .. بوصفه شاهداً .

وخرج من القفص ثابت الخطى ، وأخذ مكانه من كرسى الشهود فى ثقة وعزة ، وسلطت عليه أضواء المصورين ، وأحسن تلقى هـذه الأضواء ، كخبير مدرب على وسائل الإعلام .

وكانت المحكمة والله أعلم — أو أغلب الظن ولا أجزم — تميل إلى الاعتقاد أن الأقوال التى سيدلى بها أمامها ، لابد أن تجىء — بحكم منطق الأشياء — مطابقة لما كتبه فى تقاريره ، ولما أدلى به فى التحقيق الابتدائى أمام صلاح الدسوقى ، وفى تحقيق النيابة أمام على نور الدين .

وبدأ الشاب بداية تؤيد هذا الاعتقاد .

ولم يفته أن يكون بارع الاستهلال فأضفى صفات الإكبار والإجلال . . على رئيس المحكمة الموقر . . وعلى أعضائها الضباط العظام . . وأعلن أنه يلوذ بعدالة يعرفها فى رئيس هذه الهيئة ، ويطلب حمايته من أى مقاطعة من جانب النيابة أو الدفاع أو الجمهور ، وركز على « الدفاع والجمهور » وأكد له الرئيس — وكان لواء اسمه الدجوى — أنه فى حماية المحكمة ، وأن حريته مكفولة ، وأن له أن يستغرق أى وقت يشاؤه ، هو أو أى شاهد ، وأن يستعين بما شاء من أسانيد ومراجع .

* * *

وكانت هيئة الدفاع رهيبة هى الأخرى — توكيلا وانتدابا — بلغ عددهم ستة وثلاثين محامياً إذا لم تخنى الذاكرة ، وكان من بينهم أساتيذ لهم فى القانون صدارة . وهم فى الفقه أسانيد ومراجع ، كالقللى ووحيد رأفت ومحمد عبد الله وغيرهم ، وكان من بينهم وزراء سابقون كالدكتور محمد هاشم ومن اشتغلوا بالسياسة أو احترفوا القلم كعبد المجيد نافع واحمد حسين وعدلى المولد .

وكان واضحاً أن « الشاب » كان محقاً وهو يطلب من المحكمة حمايته من تألب هذه القوى عليه .

ولقد قلت فى أحد الفصول أن الشاب يحسن التعبير «بالفصحى» عن المعنى الذى يريده فى طلاقة مستأنية ، وأحب أن أضيف — إنصافاً وأمانة — إنه قادر أيضاً على إحداث تأثير فى السامعين شأن كل خطيب مدره ، وإذا « تدفق » قل أن يتعثر .

* * *

وبدأ يمهد ..

وبدأ صوته يتدرج فى (طبقــات صوتية) مرسومة لا يحسنها غير (المطرب المدرب) ـ وهو يعاهد الله والمحكمة والضمير على أن تجىء شهادته على مستوى الشهادة يوم الدين ، صراحة وصدقاً ، لا يبالى معهما شخصاً أو شيئاً ، ولا يتوخى بهما إلا وجه الله والحق .

وظل يضرب على هــذا الوتر — لا بهذه الكلمات التى جرى بها قلمى المغلف بالصدأ ، بل بعبارات أشد روعةً وأكثر مَضاء جرت على لسانه الذرب ، حتى أرهفت آذان الجمهور ، وبان على رئيس المحكمة أنه معجب ، فراح يشجع (الشاب) على مسلكه الطيب — والسكون يسود القاعة ، والوجوم يعــلو وجوهاً ، والبشر يبسط وجوهاً .

وظل الصوت يتصاعد فى تماوج فنى ، أو فى سلم موسيقى إلى طبقاته العليا ، حتى إذا استوى عند طبقة « الخطيب » من (درجة مفوه) ، جلجل الصوت ودوى ، ورددته جنبات القاعة فى رهبة .. وأعلن الشاب أنه يقسم بالله الذى أمر بالحق .. وبالرسول الذى عاش للحق .. وبشرف العــدالة وقدسيتها ، وبشرفه الشخصى إنساناً له عزة المثقف ، أن كل حرف كتبــه فى التقارير ، وكل كلمة وقع عليها فى التحقيق الابتدائى ، وكل صفحة ذيلها بإمضائه أمام النيابة ...

* * *

وأتمهل قليلا ، لأؤكد لك أنى أحسست ساعتها أن أنفاس الجماهير تركض لاهثة خلف (الشاب) ... واستهوانى المشهد أنا المتهم الذى يتوقع الشهادة ضده حتى نسيت

حكانى من القفص ، وكان واضحاً أنه سيقولها ، سيقول إن كل حرف كتبه ، هو الحقيقة بعينها .

وقالها فعلا .. مع فارق واحد .

أكمل وقال : إن كل حرف كتبه فى التقارير ، وكل كلمة وقع عليها أو ذيلها بإمضائه ، كذب فى كذب ، وتزوير فى تزوير ، وكلها أمليت عليه إملاء ، وبعد تعذيب يشيب لهوله الوليد أو لا يشيب ، فما عدت أذكر عباراته .. وإنما أذكر المعانى ... وأعيشها ... وأحاول بقلمى أن أجد من البيان قوالب لها ... ولا أحسبنى موفقاً .

* * *

وصدقنى أنى فزعت ...

فزعت أنا المتهم الثانى عشر المنتفع أكبر انتفاع بهذه الشهادة ...

فزعت من هول القدرة على النهوض بالدور ...

وشهدت ...

شهدت — وبعد سنوات خمس ما أزال أشهد من حيث (البناء الدرامى) — وكناقد ومؤلف مسرحى فى مطلع شبابى — ما أزال أشهد من حيث هذا البناء ، ومن حيث التأليف والتمثيل والإخراج ، أن هذا الخصم (الشاب) كان رائعاً ، وأنه جاوز من حيث التأثير ما كنا نحدث به الجماهير عن كيانتونى الإيطالى — وتلميذه يوسف وهبى — أو عن سيلفان الفرنسى وتلميذه جورج أبيض .

ولكن الأمر كان محكمة ولم يكن مسرحاً .

وكان الله فى عون رئيسها .

واستطاع الرجل أن يملأ كرسيه بجدارة ، وقال — بعد فترة — للشاب : « تفضل قل ما تشاء .. إثبت يا كاتب كل كلمة يقولها » .

و (تفضل) طبعاً و (تدفق) .. وأنا أتابع المشهد (الرائع) فى ذهول (مطبق) .

* * *

لم ينكر (المفتريات) التى دسها علينا فى تقاريره فقط ، ولا اعترف حتى (بالحقائق) التى اعترف بها (بعض) المتهمين أنفسهم ، بل أنكر كل شىء ، كل حرف وكل واقعة ، ودافع عن هـذا الإنكار بكل قدراته وبكل طاقاته ، ودافع دفاعاً يسمع ويستأهل كتاباً يوضع ..

* * *

وكان ما فعله فى مصلحتنا طبعاً .

ولـكن للأمر هنا زاوية أخرى ، أحب أن أنظر منها .

ومن أجل هـذه الزاوية ، رخصت لنفسى فى أن أصور لك على قدر جهدى ذلك المشهد ، ومن ذلك المشهد أصل بك إلى هدفى من الكتاب . إلى مراحل تطورى من الكفر إلى الإيمان .

وإليك الحقيقة التى أراها وأنا أنظر من هذه الزاوية :

— هـذا (الشاب) ، كان يوماً من أكبر أجهزة الإعلام التى كانت تنشر الشائعات فى المقاهى والمكاتب ، وكانت علائم الصدق والإيمان ، بادية على كل كلمة يقولها وعلى كل نبأ يسوقه ، وكانت هذه العلائم ـ (لمعاناً) فى (العين) ، وعمقاً فى الصوت ، وتهدجاً فى النبرة ، كانت كل هذه العلائم هى بعينها ـ التى رأيتها بادية على كل كلمة قالها فى المحكمة .

هذا « الشاب » — إذن — « عينة » من الخصوم الذين أضلونى وأضلوا الكثيرين غيرى .

وها هو ذا يقوم بالدور المضاد .. وفى حرارة وإيمان ودار رأسى .

وودت لو تسللت ورأسى فوق الوسادة مساء ذلك اليوم إلى صميم موقفى لأحاول إنصاف « الرجل الذى تآمرت عليه » من ضاتى.. ولكن هاتفاً ردنى وكأنه يقول لى : « كفى يا أحمق .. تذكر أنك الآن خلف أسوار سجن .. وداخل جدران أربع .. انتظر حتى تقضى لك المحكمة بالبراءة و بعدها حاولْ » .

وأغمضت عينى ونمت .

وهذا هو الموقف الأول الذى استأذنتك فيه .

الموقف الثانى

وجاء الموقف الثانى فجمَّد المحاولة تجميداً .. وردنى عن « الناصرية » من جديد بعد أن كاد موقف « الشاب » يخطو بى إليها .. تماماً كما حدث عبر كل المراحل السابقة .

كان الموكل للدفاع عنى هو المحامى الكبير عبد المجيد نافع .

وعبد المجيد — ولا أدرى إن كان قد جاوز السبعين أو لم يجاوزها بعد — لايزال قوى الصدر جهورى الصوت شاباً فى انفعاله .. جياشاً فى عاطفته .. سريعاً فى تأثره ..

كان يؤمن ببراءتى — بعد أن زارنى أكثر من مرة فى السجن — إيماناً يجرى مع الدم فى عروقه ويتردد مع الهواء فى أنفاسه .. وساعد على هذا الإيمان أنى كنت صديقاً لابنه فلم يكن الرجل يطيق أن يجرى على لسان النيابة أن تذكرنى بسوء .

وفى إحدى الجلسات طاب لأحد وكلاء النيابة — أو ممثلى الادعاء — من الشبان الذين يجدون متسعاً فى مثل هذه القضايا لامتحان مواهبهم — أن يشتد فى الحملة علىَّ .. فغضب المحامى عنى واحتج .. فقابل المدعى الشاب هذا الاحتجاج بالمزيد من العنف .. فانفعل المحامى الشيخ انفعالا شاباً .. واهتز جو القاعة اهتزازاً رهيباً عندما جلجل صوت عبد المجيد بوصفٍ وَجّهه إلى النيابة .. وجفلت النيابة من الوصف ورأت فيه

عدواناً غير مسبوق على كرامتها .. وأصرت على تقديمه إلى المحاكمة التأديبية[١] .

وانسحب المحامى يومها من الجلسة ..

ويبدو أن تهجم المحامى على النيابة بهذا العنف ملأ صدر المدعى الشاب موجدة على شخصى — من غير أى دخل لى فى الخلاف — فما كاد المحامى ينسحب .. حتى وقف المدعى الشاب ليثأر من المحامى فى شخصى وترافع ضدى ولم يبق فى حقيبته سهماً لم يسدده إلى صدرى .. وفى غيبة المحامى عنى .

ولا أنكر أبداً أن الموقف ملأ صدرى أنا الآخر موجدة .

ولم أكن واجداً على المدعى الشاب وحده .. فقد كنت أرى فى شبابه وطموحه ما يلطف مرارة الغضب .. وإنما امتدت الموجدة إلى العهد وصاحبه .. وإلى « الناصرية » و « ناصر » .

وكان المدعى الشاب سبباً .. فى أن يدفع بى إلى الوراء .. خطوات وخطوات .. بعد أن كنت على وشك أن أتقدم إلى الأمام خطوة جديدة .

وكان المدعى الشاب سبباً .. فى ازدياد موجدتى على « الناصرية » من غير أى دخل لناصر .. تماماً كما كان الخلاف بين المحامى والشاب .. سبباً فى ازدياد موجدة المدعى الشاب على شخصى من غير أى دخل لى .

الأحكام

وانتهت المحاكمة فى يوم ١٢ سبتمبر .

وكان المفهوم ان يصدر الحكم خلال أسبوع .

ولكن هيئة المحكمة ظلت تجتمع يوماً وتنفض .. وتضع الحيثيات ثم تراجع

(١) ومما يذكر أن المحامى الكبير قدم فعلا إلى محاكمة تأديبية ظل يخوض غمارها بضع سنين حتى قضى له بالبراءة .

والصحف تكتب عن الحكم وموعده .. وتعود فتعدل الموعد .. وتعود فتذكر أن الرئيس أعاد إلى الهيئة حيثيات الحكم مرة أخرى وطالت المدة .

وبدأت الأنباء — من العليمين تتسرب إلينا داخل السجن وكلها تجمع على أنى برئت من التهمة — أنا وأحمد السقا — وأن ثمة خلافاً ثار حول الحكم على عبد الفتاح حسن .

وجاء يوم ٢٠ اكتوبر وفوجئنا باستدعائنا لسماع الحكم وتواصينا على أن نتلقاه بشجاعة مهما يكن .. وفعلنا .. وعدت مع السقا إلى السجن يحمل كل منا فوق كاهله عبء سنوات سبع ، مع أشغال شاقة وعاد « الشاب » يحمل عبء أشغال شاقة مؤبدة وجموداً فى عينيه .. وعاد صلاح الدين يحمل عبء خمسة عشر عاماً .. وابتسامة دائمة على شفتيه .. وعاد عبد الفتاح يحمل عبء إثنى عشر عاماً .. ولا شىء .

***

وعسى أن أكون قد رسمت مرحلة جديدة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثاني عشر

أحزان وتأملات .. خلف الأسوار

بدأ تاريخنا فى « ليمان طره » فى صباح الحادى والعشرين من أكتوبر ١٩٥٧ — غداة الحكم علينا — وانتهى بالإفراج عنا فى الثامن عشر من يوليو ١٩٥٩ .

☆ ☆ ☆

وليس فى نيتى — وعجائب « الليمان » لا تعرف نهاية ولا يحدها كتاب — أن أذكر لك كل ما حدث لنا أو لغيرنا .. إلا ما اتصل منه بأهدافى .

☆ ☆ ☆

وأعود إلى آخر يوم قضيناه فى سجن الاستئناف .

وكنا قد تواصينا — كما قلت لك — باستقبال الأحكام التى تصدر علينا .. بأعصاب سليمة ، وأدينا أدوارنا بنجاح .. فلما عدنا إلى السجن كانت تفاصيل الأحكام قد سبقتنا إليه .. فاستقبلنا معظم من فيه بعبارات العزاء .. وأجهش بعضهم فى البكاء وعادوا فتنبهوا إلى الاستخفاف البادى علينا .. فأخجلهم أن يكونوا « ملكيين أكثر من الملك » فانقلب العزاء إلى تشجيع رقيق .. وتحول البكاء إلى تعليق ضاحك .

☆ ☆ ☆

وطاب لنا أن نستمر فى تمثيل دورنا — حتى على أنفسنا وفيما بيننا — فقضينا السهرة نستعيد مشاهد الجلسة التى تلا خلالها نائب الأحكام .. نص الحكم على كل متهم .. ونعلق على الشجاعة التى تحلت عن « فلان » وعن « فلان » .. وظللنا نسمر حتى تفرقنا لننام .

وأعتقد أن كل واحد منا .. ما كاد يثب إلى سريره ويطفىء « نوره » .. حتى نضا عنه قناع التزييف وقذف به من النافذة .. ومضى يعرض شريطه .. أمسه الذى أدبر .. ويومه الذى أظلم .. وغده الذى لا يكاد يَبين .

وأعتقد أن ألوان التفكير عندى لابد أن تكون قد خالفت عن ألوان التفكير عند الآخرين .. فأنا مثلا لم أكن يومها متزوجاً .. ولم أكن أباً لأطفال.. أذكرهم فتتقطع نياط قلبى .. وأطوى الروح على ما أثخنت به من جروح كما كان يحدث مع عبد الفتاح حسن كلما ذكر أطفاله الثلاثة .. ولم أكن وزيراً أجر ورائى ماضياً على المستوى الدولى ويعنينى أن يرى الناس ذلك « الراسخ كالجبل » كما كان الأمر مع محمد صلاح الدين .. ولم أكن فى شرخ شبابى أخا عربدة شابة .. أقول « بضع سنين وتمضى » و « السجن رصيدى فى بنك المستقبل » كما كان الأمر مع « أحمد السقا » وأعجز طبعاً عن العرض بالتصوير لمشاعر «الشاب» فى تلك الليلة.. ولعله كان أكثرنا ألماً .. لأن موقفه كان أكثر سوءاً .

* * *

أغلقت باب الحجرة .. وأطفأت النور .. ونمت .. وبدأت أفكر .

والخلوة إلى النفس فى غرفات السجون .. ليست ميسورة بمعناها الكامل .. ففى كل باب « نظارة » يملك « السجان » أن يطل منها على السجين .. بين الحين والحين .. ومفتاح النور من الخارج .. يملك « السجان » أن يديره إلى الشمال أو إلى اليمين .. وكل ما كان لنا من « ميزة » خصونا بها — كرماً منهم — أن «السجان» لم يكن يباشر حقوقه فى التطفل علينا باستخدام « النظارة » .. أو فى تعكير صفونا بإدارة المفتاح .

نمت لأفكر .. وتزاحمت الصور .

أنا أحب « الناصرية » أو أكرهها .. ذلك أمر يتصل بالضمير .

وأنا أجهر بالكراهية أو أخفيها ..ذلك وزنى..وأنا حر فيما أملك من الموازين .

أما أن أقضى فى السجن سبع سنين .. وقد تخطيت الخمسين لأخرج منه وأنا أزحف فى بطء إلى الستين .. محدودب الظهر .. أو فاقد البصر .. لا لشىء إلا لأنى ألقيت أذنى .. إلى شاب من الشبان .. عرفته عشرين عاماً أو تزيد .. ولم أصنع له خلالها إلا الخير « ولا شىء غير الخير .. » فيكون جزائى منه أن ألقى فى غيهب السجن .. بل فى غياهب « الليمان » بين القتلة والمجرمين .. أما هذا كله .. فأمر غير مفهوم .

الليمان .. ؟ يا لها من كلمة ! !

غداً — إذن — نرحّل إلى الليمان ؟ !

وهل نعامل — يا ترى — معاملة المعتقلين من السياسيين فنظل كما نحن بملابسنا ويجيئنا الطعام من منازلنا .. أم نعامل معاملة المحكوم عليهم من المجرمين — فنرتدى الملابس الزرقاء التى تثير الغثيان .. وتوضع فى أيدينا الأغلال .. كما كان الأمر مع الذين « يرحلون » من سجن الاستئناف إلى السجون الأخرى .. على مشهد منا ؟

وثقل رأسى .. وأطبق « الملعون » على جفنى .. الهم لا النوم .

وعدت لحدقت فى الحقائب أمامى .. وكان شعاع من النور خارج الغرفة ملقى عليها ، فدنوت منها ، وأخذت أقلب ما فيها ، فى أسى وشرود .. ترى هل يسمحون لنا بالاحتفاظ بشىء منها .. بالملابس الداخلية مثلا .. بشىء من الجوارب والمناديل .. بمشط أو فرشاة .. أو معجون أسنان .. أو بنظارة للقراءة .. أو بملابس صوفية للشتاء ؟ أم تراهم يقصون شعرنا كما يفعلون كما غيرنا ونغدو أمثولة وأضحوكة ؟

لا أدرى ..

وكل الذى أدريه أن السجناء أو « المساجين » الذين رأيناهم سمح لبعضهم بلبس الأحذية فقط .

و « الأشغال الشاقه » التى وردت فى الحكم ، ما معناها ؟ بالنسبة لأمثالنا ؟

وهل نساق — ومنا وزيران سابقان — إلى الجبل الذى قرأنا عنه .. لنحمل

فؤوساً ونقطع أحجاراً .. وتحت وهج الشمس فىالصيف ووابل الأمطار فى الشتاء ؟

والنوم ؟ أفوق « أبراش » كالتى نراها فى « زنازين النشالين » ومعها « بطانية » يجاء بها من « المخازن » تقيم بين خيوطها الهوام .. وتحمل فى طياتها ما لا ندريه من جراثيم ؟

كل الشريط مر .. وأنا متكىء بمرفقى فوق الوسادة « أحدق مرة فى فضاء الغرفة وأخرى فى الحقائب ، وشعرت أنى أحنو بكل قلبى على كل قطعة من ملابسى ومددت يدى ، وتناولت حزمة من « الفانلات » و « بيجامات » من الحرير « فلثمتها » فى صمت ، قطعة بعد قطعة ، تماما كما يفعل الوالد مع أطفاله الأحبة ، وهم يُنتزعون من بين يديه انتزاعاً .

ومن شريط جديد ، شريط « المساجين » الآخرين الذين تردد جنبات السجن أصداء ضحكاتهم طوال النهار وزلفاً من الليل ، وهم « يرفلون » فى ملابس السجون ، وقد أثقلت بالتراب أو ازدانت بالطين ، ولا يشكون ، ورحت أسأل نفسى : أى فرق بينى و بينهم ، ولماذا لا يحزنون مثل حزنى ؟

— لا يحزنون .. لأنهم لا يملكون « البيجاما » التى أملكها .

— ولماذا ملكت أنا ، ولم يملكوا .. هُم ؟

— لأن فرصة هيئت لى فتعلمت ، فغدوت كاتباً ، وأعطيت قلماً وأوراقاً ، فبحثتُ عن قضية ، وضللت طريقى ، وملكت « بيچاما » ، وغداً سيجيئون ، وعلى الرغم منى سينزعون « البيچاما » عنى ، أما هم ، إخوانى « المساجين » ، أبناء بلدى ، ومثلهم أقارب لى فى قريتى ، فكل ذنبهم ، أن أحداً لم يهيىء لهم فرصة التعليم ··· فلم يملكوا رغيفاً ··· فبحثوا عنه فضلوا معذورين . وضللت غير معذور ··· والتقينا فى السجون ··· فحزنت ولم يحزنوا ··· حزنت لأن المجتمع نسج لى من حبات

العرق الذى يتصبب من جباههم « بيچاما » وغداً ينزعونها عنى ... ولم يحزنوا هم لأن المجتمع رفض أن يعطيهم مقابل العرق رغيفاً ، فجاءوا إلى السجن ، فأعطاهم الرغيف .

***

وتراءت لى من خلال الدخان المتصاعد من لفافتى صورة «الرجل» ، وهو يحدق باسماً فى عينى ، وكأنه يقول لى : « ألم تكفر برسالتى وكنت أقيمها على أساس تكافؤ الفرص بين هؤلاء جميعاً ؟ » .

وكدت أغضى حياء وأستغفر ، ولكن العزة بالإثم ، سيطرت على مشاعرى فاستويت على فراشى ، وتنفست بعمق ، وفركت العينين باليدين وغمغمت كمن يصحو من حلم مزعج : « أعوذ بالله ، ماهذا التفكير المعتم ، وماهذه الفلسفة المختلة ؟ أهذا وقت تفلسف ، وعلى هذا النحو القابض ، وبينى وبين الصبح ساعات ، وكل « غد » بالنسبة لى هو تيه أضرب فيه ؟ لا محل للندم ، نم ، وتوكل على الله .. وفوض أمرك إلى الله ، أو فاعتبر يا أخى أنك مت ، وأنك من الغد تحاسب ، وأن المدير فى الليمان والمأمور .. هما منكر ونكير .. وواجه الواقع .

وفى ظلمة الليل ابتسمت ، لأن قدرة الله عند ما ذكرت التوكل عليه ، حملت إلىّ .. روح الفكاهة . ومشت بها إلى قلبى الحزين :

ولا يعرف الله إلا سجين .. أو هكذا خيل إلىّ .

تحية الصباح

نمت .. وصحوت .

ولم أدر — يومها — كيف نمت أو كيف صحوت .

والذى دريته أن الساعة كانت قد تخطت السادسة من الصباح ، وأنى لمحت — وكنت فى طريقى إلى (الحمّام) — ضابطاً وديعاً من ضباط السجن ، يروح ويغدو

— والحيرة تبدو عليه — أمام غرفة الأستاذ عبد الفتاح حسن ، ثم رأيت عبد الفتاح يخرج من غرفته ويتجه إليه ، ويحييه تحية الصباح ، ويتبادلان حديثاً خاطفاً — ويشده من كمه ، والرجل يمر بمنديل فى إحدى يديه على عينيه ، ثم يريانى فينادينى عبد الفتاح فألحق بهما فى غرفته ، وأسمعه وهو يلقى على الضابط الشاب يميناً مغلظة ، ليحضرن له الملابس ، وليكونن أول مرتد لها فى غير أى تأثر ، وأدركت من الحديث أن لواء اسمه (همت) — كان يومئذ وكيلا لمصلحة السجون — اتصل بالضابط تليفونياً وسأل إن كنا قد ارتدينا ملابس السجن لتجيء القوة المنوط بها (ترحيلنا) إلى (الليمان) .

٭ ٭ ٭

وكان الأستاذ عبد الفتاح حسن أول من ارتدى فعلا ملابس السجن الزرقاء .

وكنت أول من وقعت عيناه عليه فى هـذا الزى العجيب ، وعلى مطالع الصبح الذى يقول الناس فيه للناس : (صباح الخير) و (صباح النور) .

وكانت لحظة لاهثة فى تاريخ المشـاعر ، لعل الشعور بالامتياز الطبقى هو الذى أملاها .

وأقبل علينا الدكتور صلاح الدين — وهو دائماً مرح — فقال وملء فمه ضحكة لطيفة عرف بها : « وأنا بدلتى فين يا عبد الفتاح ؟ وفين بدلة السوادى ؟ أنا عاوز أنقيها له بإيدى ، وانت يا احمد ، نقى بدلتك انت بقى » .

وبين الضحكات — التى تحمل فى رنينها دموعاً تجمدت ، كان «الشاب» يحدق فينا هو الآخر فى جمود ، ومن بعيد ، ثم أقبل على الجنود يتهادى فى وقار ، أو فيما لا أدريه ويصطنع ابتسامة ، ويلقى تحية ، ويتخير زياً .

٭ ٭ ٭

ونزلنا إلى غرفة المأمور . .

وأذكر ولا أنسى أنى — ونحن فى طريقنا إلى هذه الغرفة — ذكرت بالخير

« الرجل الذى تآمرت عليه » وكان الطبيعى والمعقول أن أذكره بكل ما تحمله المشاعر من سوء .. ولكنى ذكرته بلون من ألوان الخير ـ غير المقرون طبعاً بأطيب التمنيات ـ عند ما غافلتنى عينى ، ونحن فى طريقنا إلى الباب ـ فألقت نظرة عجلى على الغرفة السوداء رابضة فى الركن الأيمن منى ، وذكرت ، كيف كان فى مقدوره لو أنه كان عاطشاً إلى الدم وباطشاً لوجه البطش أن يوجه خطانا اليوم إلى ذلك الفناء الذى يجثم أمام هـذه الغرفة ليستقبل هيئة التنفيذ ،، تتلو على الذبيحة صيغة الحكم بالإعدام ويسأل المسكين عن أية أمنية له فى الحياة .. غير تمنى الحياة .. فيطلب لفافة أو يطلب شاياً .. أو يطلب قهوة .. أو يطلب ماء أو يتمتم بدعاء .. أو يرسل سباباً .. أو صراخاً .. وتمضى حياته لتتردى فى الهاوية ، كما مضت صرخاته لتتبدد فى الهواء ..

ومن هنا كان الخير الذى ذكرته به .

* * *

نزلنا إلى غرفة المأمور ، فرأينا ضابطاً فارع العود ، برتبة عقيد ، يتحدث إليه ، فلما رآنا ، أقبل يصافح كل واحد منا ـ ويهوّن الأمر علينا ، ويؤكد أنها شدة إلى زوال ، وأحاطنا المأمور وضباطه بعواطف طيبة أو بعبارات المجاملة ، وأقبل يوزباشى لا نعرفه فصافحنا هو الآخر ، وطلب إلينا أن نحمل معنا إلى « الليمان » ما نشـــاء من الملابس الداخلية ، وأذن لكل منا فى «مشط» و «فرشاة» .. وفى « معجون أسنان » وكل ما نرغب فيه باستثناء « البدل والمعاطف والبيجامات والجلابيب والساعات » فقد تسلمها وكيل السجن ، وكان أهلنا قد بكروا بالمجىء فتسلموها ، واذن لتقودنا المودعة بأسمـائنا فيما يسمونه « أمانات السجن » فى أن ترافق « الركب » .. وتولى هـذا اليوزباشى « المنتدب » إلقاء نظرة على « الحقائب » ، هى بمثابة «تفتيش» لها بوصفه ضابطاً من ضباط « الليمان » — حتى يوفروا لنا شيئاً من الكرامة عندما نبلغ أبوابه فندخل إلى غرفاتنا من غير تفتيش ، أو هكذا قالوا .. وليس بمستبعد أن يكونوا قد قاموا بمهمة تفتيش الحقائب « فى سجن الاستئناف » تلافياً للمتاعب فى الليمان ، وحتى نمضى إليه فى غير جلبة من هواة الاستطلاع فيه أو من محبى الفرجة من النازلين عليه

أو من موظفيه ، ولعل الذى أثار هذا التعليل فى ذهنى ساعتئذ ، موظفو المحافظة «القديمة» فى باب الخلق وهم يطلون علينا من النوافذ ونحن وقوف فى فناء السجن ، حباً الفرجة أو لما تريد أن تسميه .

* * *

وبلغنا « الليمان » .. غير مصفدين فى الأغلال ..

ولم يعد شعورنا متجهاً إلى الأسى على ما انتهينا إليه من مهانة الزى ، أو غير الزى ، وإنما اتجه بنا الشعور — أو بى على الأقل — إلى الإرتياح والترحيب بأقل رعاية نلقاها من أصغر ضابط ، وما أشد حاجة السجين — مهما يعظم — إلى أقل رعاية من أصغر (سجان) .

بلغنا (الليمان) — وكل حرف من هذه الكلمة ينضح بالبشاعة والثقل — فاستقبلنا المدير العام يحيط به ضباطه — وكان رجلا مهيباً ، أوتى بسطة فى الجسم والشخصية — وحيانا أجمل تحية ، يمكن أن تلقى على سجين ، واتجهوا بنا بعد إجراءات بسَّطوها — إلى صف من الغرفات المتلاصقة يحجبها عن بقية المبانى باب ، وتجاور حدائق القسم الطبى ، ويسمون هذه الغرفات (إيراداً) يستقبل فيها كل سجين (وارد) ليظل تحت الرقابة الطبية أحد عشر يوماً تقريباً ، (يُصنَّع) بعدها أى يوزعون على (الصناعات المختلفة) فى الليمان و (صناعة) السجين الذى لم يجاوز الستين — ولا يقعده مرض خطير — أن يرسل إلى (الجبل) ليقطع أحجاراً ، أو ليحملها فوق كتفيه إلى مكان لها ويكعّبها فيه أمتاراً ، إلى آخر فنون الأشغال الشاقة ، وما أقبحها من فنون .

* * *

وكان علينا — إذن — بعد أن نستريح أن نزور القسم الطبى ٠٠ ليرى رأيه فينا .

وهش لنا الأطباء واكتفوا بالترحيب بنا فى اللقاء بيننا وبينهم ما عدا «طبيب أول الليمان» فقد تبدى عابس الوجه .. ثم عاد يبثنا تحياته « على حذر » و « فى خفر » فقدرنا أن يكون ناصرياً أو منافقاً للناصرية ٠٠ ولم نقف على سر هذه « العذرية » فى التحية

إلا بعد زمن طويل .. عند ما علمنا أن شقيقاً له ضابطاً كان معتقلا معنا لذمة القضية لأنه صديق لعاطف نصار زعيم التشكيل العسكرى فى المؤامرة .. ولم يقدم ذلك الشقيق للمحاكمة وبقى معتقلا مدة ثم أطلق سراحه بعد أن ثبت للمحققين أنه لم يكن يعلم عن تآمر صديقه شيئاً ولكن ما جرى له .. خلف وراءه أثراً .. ملأ قلب شقيقه الطبيب خوفاً .. يضاف إليه ماض للطبيب مريب .. إذ كان مديراً لمبرة إحدى الأميرات .. وذكرى الإمارة ظلت تطارده من غير أن يفكر أحد فى مطاردته .. وقيل إنه عرف فى الليمان بالقساوة على السجناء .. وقلت إن هذه القساوة وليدة تلك المخاوف .. وأشد عجباً من هذا كله أن نكتشف فى الرجل غير المحبوب من نزلاء الليمان .. إنه « عالم » كبير فى « تاريخ مصر القديم » .

وعدنا من زيارة القسم الطبى إلى غرفاتنا فى « الإيراد » .

* * *

وما كدنا نستريح .. حتى ترامت إلينا أصداء هرج وجلبة .. ثم فتح الباب .. ودخلت ثلة من الصحفيين والمصورين ، ومعهم (مأمور الليمان) وبعض الضباط — ومن بين الزائرين زملاء لى ومن بينهم تلاميذ كانوا يعملون فى (السوادى)، وسلموا .. وعزوا .. وراحوا يطلبون إلينا أن نجلس فى أوضاع صالحة للتصوير ، بين أكداس من الكتب كنا نحملها معنا ، وفى يد أحدنا مصحف مفتوح .. وفى يد الآخر مسرحية لإبسن أو لشكسبير ، أو لأى اسم مشهور نختاره نحن لأنهم (شبان عاديون) لا خبرة لهم بتلك الأمور ..

وأغلظ لهم صلاح الدين فى القول .. وأغلق دونهم بابه ، وحمّل للأمور مسئولية أى تحايل منهم .

وتوليت من ناحيتى إقناعهم بأن من غير اللائق نشر صور لنا بملابس السجن وأن هذه الصور لا يرضى عنها المسئولون إن كانوا يستهدفون بهذا النشاط إرضاءهم .

ولكن فريقاً كان ينتهز فرصة اشتغالنا باقناع الفريق الآخر ، ويلتقط بعض الصور (اختلاساً) وانصرفوا .

وأعترف أنى — يومها — ظلمت حرفتى وأحسست بالضعة التى تلازم طبيعتها وأخجلنى أنى كنت يوماً من الأيام من أبنائها . . وتمنيت لو كنت « سجاناً » برتبة « نفر » ولم أكن « صحفياً » بدرجة « أستاذ » .

* * *

وجاء المدير — يحف من حوله ضباطه أيضاً — جاء زائراً هذه المرة .

وإلى جوار هذا «العملاق» — الأميرالاى سيد والى — مشى مأمور أول برتبة قائمقام ، قصيراً مسرفاً فى القصر ، ضئيلا مسرفاً فى الضآلة ، مشرب الوجه بالحمرة ، أقرب إلى « الأتراك » فى السمات وفى البشرة — وكان اسمه رحمة الله عليه « اسماعيل طلعت » — يتبعهما رهط من الضباط ومن خلفهم جنود « سجانون » يحملون « كابينهات » من الطراز الفرنجى الراقى المستخدم فى دورات المياه فى المنازل .. وقد صنعوها — كما علمنا — فى « ورش الليمان » ، وأمر المدير بوضع كل منها فى كل غرفة من غرفاتنا وقال مبتسماً :

— الحقيقة يا اخوانا أننا صنعنا إحدى عشرة قطعة (أى بعدد المحكوم عليهم) ولكن يظهر أن نصيبنا كان فى خمسة منكم فقط (وكان العسكريون الستة قد اختير لهم السجن الحربى) فأودعنا القطع الباقية مخازننا .

* * *

وأدركت من حديث المدير أن كل ما «صادفناه» من رعاية وعطف ، فى السجون الثلاثة ، إنما كان « بناء على تعليمات من جهات عالية » وشعرت بأمواج من الرضى تنساب بيضاء إلى صدرى موجة إثر موجة ، وبأمواج أخر — سوداء معتمة — تنسل خارجة من هذا الصدر ، حقداً إثر حقد ..

وأدركنا — مع الزمن — أن أغلب المسئولين فى السجون إذا طُلب إليهم إحسان معاملة سجين قيراطاً .. أحسنوها قيراطين ، وإذا طلب إليهم استخدام «الحزم» فى معاملة السجين قيراطاً ، حزموا أمرهم عشرة قراريط ، بدافع من رواسب الماضى المظلم ، يوم كان السجين مهدر الآدمية إلى حد يثير الغثيان ، يعاقب بلبس « الخيش »

فوق جسمه العارى عشرة أعوام تسبح فيه الهوام ، ويجىء المفتش الإنجليزى بعشيقته من البغايا ، لتتفرج على « لابس الخيش » وهو يجلد خمسين جلدة من غير أن يئن أو يتأوه ، ليثبت أنه « صعيدى » أو « منوفى » أو « رجل » .

***

وأمر المدير ، لجىء بالمشرفين على « الكانتين » ، وفى أيديهم قائمة بما لديهم من « مربى وجبنة وزيتون وسجاير هوليود » ، وطلب منا أن نملى عليهم ما نرغب فى شرائه من مأكولات حتى يذهب ضابط الكانتين ورجاله إلى السوق لشرائه ، وتبارينا مرحين ضاحكين — واعجب — فى عمل قوائم لا أول لها ولا آخر ، وبدأ بتلك المباراة عهد ذهبى فى تاريخ الكانتين لم يطفىء بريقه إلا رجل — لا أسميه — خلف السيد والى فى منصبه — وكان يعيش عمره فى الخوف من المسئولية الموهومة وهو الآن يصلى حلقة المعاش فى بيته — فأضاع كل ميزات ذلك « الكانتين » ، حتى « السكر » فى آخر شهر لنا فى الليمان حرم بيعه فأمست له « سوق سوداء » رهيبة .

***

وأخيراً وقّع الكشف الطبى النهائى علينا فاعتبر ثلاثة منا مرضى — لأنهم جميعاً دون الستين من العمر — وأكبر الثلاثة صلاح الدين وهو يكبرنى بثلاث سنين وأصغر الثلاثة عبد الفتاح وأكبره بثلاث سنين .. وأعفينا بسبب المرض الذى (اكتشفه) القسم الطبى من (الجبل) ولم يعفوا منه (احمد السقا) إلا بعد أسابيع قليلة زار فيها (الجبل) زيارات معدودة ، ولم يعفوا « الشاب » من الصعود إلى الجبل إلا بعد ثمانية أشهر تقريباً ، وكان يعود مثقلا بتراب الطريق ، ولكنه لم يكن يقطع أحجاراً ، وإنما كان يحمل معه كتاباً ، يشغل به وقته فى مكان ظليل ، يجمع بينه وبين الجاسوسين البريطانيين (سوينبرن) و (زارب) وكانت حكومتنا تحرص على أن يعاملا معاملة طيبة .

وأدركنا ـ طبعاً ـ أن هذا الإعفاء ، كان عطفاً من الجهات العالية ، وكان يسيراً عليها أن تقسو ، وأن تمعن ما شاءت فى القساوة .

ولعل قلبي أفعم بقدر من الرضى ، أكبر من القدر الذى أفعمت به قلوب زملائى ، — أو قلب صلاح وقلب عبد الفتاح على التحديد — وهذه اللفتة من قلبي ، أرى لزاماً أن (أركز) عليها . لأنها كانت (المفتاح) الذى أدرته فى (باب تفكيرى) - من جديد - فى حقيقة (ناصر) ، وعذراً إذا أسرفت فى تسميه (عبد الناصر) - على طريقة الأجانب - باسم (ناصر) فهو اسم فى الحقيقة يستهوى الريشة .

كنت أعمق شعوراً بالرضى من الزميلين — أو هكذا خيل إلىّ - لأنهما وزيران سابقان وأنا صحفى من الصحفيين وكاتب من الكتّاب ، ولعلهما يريان فى هذه (المعاملة الكريمة) ، أقل ما يجدر بالحاكم القائم بالأمر فينا أن يعامل بها حكاماً سابقين ، أما أنا فليس من اليسير أن يغرر بى مثل هذا التعليل ، ثم إن للزميلين الكبيرين ، أصدقاء من الكبراء ، وأصهاراً وأقرباء ، أكفاء لبذل الجهود وللنهوض بالمسعى الحميد ، لدى رئيس الجمهورية (جمال عبد الناصر) أو لدى وزير الداخلية (زكريا محيى الدين) لإحسان معاملة الوزيرين السابقين ، أما أنا فأسرتى فى (سواده) إذا قيل إن لها (مكانها) بين الأهلين فإنّ هذه المكانة تلهث ، وهى آخذة طريقها إلى (القاهرة) ، حتى إذا بلغ البارزون من الأسرة باب (ناصر) ، طُلب إليهم - أغلب الظن - أن يقفوا طويلا بين صف طويل من الشاكين الكثيرين ، وحسب هذه الأسرة أنها تولت الإنفاق علىّ داخل سجنى بسخاء صعيدى مكّن لى من الوقوف كريماً إلى جانب الزميلين ، وإذا قيل إن من أسرة والدتى وزيرين سابقين أيضاً هما (عبد الحميد وعبد المجيد عبد الحق) فقرابتهما أولا بعيدة (أولاد بنت خال والدتى) ، وهما أولا وأخيراً ، يحمدان الله على السلامة ، وليس من العدل أن يطلب إليهما الزج بنفسيهما فى قضية (قريب يتآمر) ؟!

أمّا أسرة أبى وأصهارى فقد نفرت خفيفة إلى الوقوف إلى جانبى ، ولكنها لا تملك لى بحكم مستواها الشعبى أن ترسل صوتها عبر صعيد مصر إلى القاهرة تطلب لى (امتيازاً)من الحاكمين ولو كان على رأسهم(ابن بنى مر) ، ولو كان فى طليعة إخوانه المنياوى (ابن عامر) .

وقصارى ما بلغته أسرة أبى من قدر فى صعيد مصر ، هو (فضل) لها (أوحد)

تباهى به — بحسن نية — سائر الأمر ، ولا تدرى أنها بهذا (الفضل) قد ارتكبت أبشع جناية ، ارتكبتها أسرة فى تاريخ مصر الحديثة من حيث لا تدرى ، ومن غير أن ينتبه هذا التاريخ على هذه الجناية .

ولعل مما يرفه عنك — قبل أن نخوض غمار السياسة — ومما يتصل بأهدافى من بعض نواحيها أن أسمر معك بهذه القصة التى لا تخلو من ظرف وطرافة ، وأنت ترى أن هذا الفصل كله وإن اتصل بأعمق مشاعرى تجاه «الرجل الذى تآمرت عليه» ، لا يخلو من روح القصص أو من روح السمر .

أسرتى .. تجنى على مصر

نعم .. للتاريخ .. أذكر أن أسرتى — الفقيرة الآن « فى سَواده » — لا تزال تمنّ على بقايا آل سلطان « باشا » عبر أجيال أربعة بقولها : « إحنا فكينا جدكم أبو سلطان من الحبل اللى ربطوه بيه فى الصـــارى . . ولولا جدنا . . كان السنجق خد أجله » .

فما هذه القصة ؟ وكيف كانت جناية ؟ وجناية على تاريخ مصر ؟

لعلك تذكر أن محمد سلطان (باشا) الكبير (رئيس مجلس النواب المصرى وقائمقام الخديو توفيق أيام حرب عرابى) هو الذى خان مصر . . ورشـــا البدو . . ومكن الإنجليز من هزيمة عرابى واحتلال مصر سبعين عاماً .

هذا الرجل كان يقيم فى بلدة اسمها « زاوية الأموات » ولعل اسمهـــا الآن « زاوية سلطان » أو « نزلة ســلطان » ، تجاور « سواده » التى ترقد من قديم وسنانة مسالمة على الضِّفة اليمنى للنيل .

وكان الرجل فى مستهل حياته شاباً مفتول الساعدين موفور القوة « أقرع الرأس » طموحاً ذكياً . . فيه روح المغامرة . . يعمل مع أبيه « الجمّــــال » الذى وفد على « زاوية الأموات » — قرية المقابر والآثار — يبحث عن عمل له فى محاجر تابعة لها (ليحمل جَمله) أحجاراً ويقتات . .

وظل (محمد سلطان) الشاب الذكى المغامر . . يدخر من أجره . . ويرفع فى مستواه . . ويزحف على مهل إلى مناصب الصدارة فى القرية حتى غدا (شيخاً) فيها ، ثم (عمدة) لها .

وكان أحد (السناجق) فى عصر إسماعيل — إذا لم تخنى الذاكرة — يمر (بذهبيته) . . يذرع النيل ويتلقى (الهدايا) . . حتى إذا جازت (الذهبية) قرية سلطان . . قلّ الماء وسط النيل . . وكثر عند الشاطىء فاضطرت أن تحاذيه فى خط سيرها . . وكان على الشاطىء صبية يلعبون فقذفوا (الذهبية) بالطوب والأحجار . . فأصابوا السنجق بطوبة منها وهم يهزجون بأغنية فيها سباب للتركى والعثمالى فهاج السنجق . . وأمر بإلقاء مراسى السفينة عند الشاطىء ٠٠ وأمر بالقبض على العمدة ٠٠ وبأن يجاء به موثق اليدين ٠٠ وأن يُربط بالحبال إلى (الصارى) ٠٠ وأن يجلد حتى الموت .

وبدأ أتباعه ينفذون أمره .

وخطر لذكى من أهل القرية خاطر ٠٠ فركب جواداً ٠٠ ركض به إلى سواده ينقل الأمر إلى جدى الخامس (وكان اسمه حمزه وكان عمدة سواده) .

وكان « حمزه » مشهوداً له بحسن الرأى ٠٠ وحل ما تعقد٠٠

و (سواده) كانت — وما تزال — أشهر قرى النيل بكثرة عدد السفن فيها .. وربُع أهليها من (المراكبية) .

وأعمل (حمزه) ذكاءه ٠٠ وأمر بسفن القرية أن تقلع ٠٠ وأن تسد النيل (بالعَرض) فى صورة (مظاهرة بحرية) تقف فى وجه سفينة السنجق ولا تسمح لها بالمرور .

وأقبلت (الدهبية) ٠٠ ووقف (السنجق) على ظهرها ٠٠ وخرج له (حمزه)

فى السفينة (الشعبية) التى عقد له لواء القيادة فيهـا على حد التعبير البحرى .. وقال يخاطب السنجق :

— دى عادة بلادنا يا فنديفا .. السنجق لمـا يفوت من هنا .. تحييه البلد بالشكل اللى أنت شايفه — علشان لازم ندبح له الدبايح .. وندق الطبول .. ويتغدى عندنا و يفرح به الشعب .

وقهقه (السنجق) وسر .. وانتفخت أوداجه وتمطف (بواخد غداً عند واخد فلاح تمام) — وقيل إنه رأى الشر فى أعين الناس فخاف العاقبة وقبل الدعوة — وأياً كان الدافع .. فقد رست السفينة وصعد إليهـا حمزه (لتقديم ولائه وتمنياته) هو وأعيان البلد .. وما كادوا يرون (محمد أبو سلطان) مربوطاً إلى السارية .. حتى تظاهروا بالدهشة فسألهم (السنجق) إن كانوا يعرفون هذا (الكاب) فقالوا : هو « ابن عمنا يا فنديفا » فأمر أتباعه فخلوا عنه الوثاق وهو يقول : « خرسيس .. حظه تمام .. كان ييجى أكل كويس .. السمك بتاع الميه » .

وهكذا أعتق الفلاح جدى .. ذلك الشاب (أبا سلطان) ليعيش .. وليتصل بأسرة الشريعى محسوباً عليها .. لتصل بينه وبين الخديوى بعد أن كان (أبو سلطان) قد أصبح (ناظر قسم) مكافأة له على نجاحه فى تسخير الفلاحين من أهل المنيا وأسيوط فى حفر ترعة كبيرة أمر بحفرها الجناب العالى .. ومضى أبو سلطان قدماً يرقى المناصب العالية بفضل رضاء الخديوى إسماعيل ، حتى خان أبو سلطان مصر فى عهد توفيق وأسلمها للانجليز .

وكنت أخفض رأسى خجلا .. كلما سمعت جاهلا من أفراد أسرتنا .. يمنّ على آل سلطان ذلك الفضل .. ويذكره بالمباهاة مجداً من أمجاد الأجداد ، وهو لا يدرى أنها جريمة فى حق مصر ، ارتكبها جدى حمزه .. يوم لم يترك للسنجق فرصة الإجهاز على رأس الأفعى ، وكبير الخونة فى حرب عرابى محمد سلطان (باشا) ، وجد (محمد سلطان) الحالى .. صديق النجمة العـالمية (جابى مورلاى) قبل الحرب العالمية — وزوج بنت يهودى كبير فى مصر ، و (باشا) لم يهنأ (بالباشوية) يوم أنعم عليه بها فاروق ، فخلع

بعد أيام ، وانتزعت من (محمد سلطان) كما انتزعت نفس الأطيان التى اشتراها له جده (محمد سلطان) الكبير .. بعد أن كوفىء بعشرة آلاف من الجنيهات ذهباً .. وأقطع ما أقطع من الأرض .. ثمناً لهزيمة عرابى .. واحتلال مصر .

عود إلى الليمان

وأعود بك إلى « الليمان » ، لا أراكه الله إلا مسطوراً على ورق .

أعود لأذكر لك أنى انتهزت فرصة إدراكى ، أسباب المعاملة الكريمة التى نلقاها ، وانتحيت جانباً بالقائمقام إسماعيل طلعت .. لأسأله إن كان شقيقاً لمحمود طلعت «محافظ السويس يومئذ» — وكنت أعرف ان للمحافظ شقيقاً ضابطاً فى السجون — فقال « أيوه ، مضبوط » فقلت له «طيب قل له السوادى يسلم عليك ومش ها ازيد عن كده » وقال «حاضر» وتركته .

و بعد أيام عاد متهلل الأسارير يحمل لى تحيات أخيه بعد أن عرف أنى كنت ناقداً برلمانياً لجريدة « البلاغ » يوم كان أخوه قائداً لبوليس البرلمان ، وكان حبل الود موصولا بيننا .

ولا تستطيع أن تتصور أى « كسب » شعرتُ به — فيما بينى و بين نفسى — بقيام هذا « الود » بين مأمور أول ، و بينى ، فأنا سجين وهو صاحب الأمر والنهى فى السجن ، وكان الرجل مصدر رعب « للمساجين » ، قاسياً فى معاملتهم قساوة كنت أعللها — غفر الله لى هذه المرة — بمركب النقص فيه ، بوصفه قصيراً مسرفا فى القصر ، وكانت هذه القسوة التى يصطنعها ، تحجب طيبة قلبه عن كل سجين ، وكان كل من فى السجن يتنفسون الصعداء إذا علموا أنه قام بأجازة مثلا .

وهكذا ، بدأت أتحايل ، لأتوازن .

* * *

وانتهت أيام الحجر الصحى .

ونقلنا إلى الطابق الرابع من العنبر رقم ١ ويسمون هذا الطابق « دور السياسيين » لكثرة من أقام منهم فيه .

وفى دخولنا إلى هذا الطابق ، صادفَنا عطف جديد آخر ، فلاحظنا أن الغرفات الخمس الأخيرة من الصف قد أخليت خصيصاً لنا ، وطليت بالزيت ، وأمست كل غرفة منها صالحة للسكنى — ويا بؤسها سكنى — وماج « دور السياسيين » فرحاً بمقدمنا ولعلهم أحسوا أيضاً أن وجودنا بينهم قد يرد بعض غارات السجن عنهم ، وأصبحت غرفاتنا كخلايا النحل من كثرة القادمين للتسليم والترحيب .

وكانوا يقدمون إلينا بأسماء قضاياهم إلا إن تعذرت ، فمثلا « دُول بتوع حسن البنا » أى الذين اتهموا بقتله و « دول بتوع عبد القادر طه » و « دول بتوع قضية الجاسوسية » و « دُول، بتوع قضية الصهيونية » و « دول بتوع قضية الصولات » و « دول اللى قتلوا أبو رياض غالى » و « دول اللى خطفوا البطرك » و « ده فتحى يونس ابن عم شوكت التونى » و « ده كمال عبد العزيز زوج زوزو ماضى » و « ده عبد الحميد الطرزى وزيدان بتوع قضية مورو » .

* * *

أما قضيتنا فأطلق السجناء عليها اسماً لطيفاً لم نتنبه عليه إلا بعد أيام ولا نعرف « صاحب الامتياز » فى تلك التسمية .

أسموها « قضية الباشوات » .

ونتج عن هذه التسمية أن أنعم علىّ شعب الليمان العزيز .. شعب السجناء العاطفيين والحراس وصغار الموظفين .. والتمورجية .. برتبة لم يتلق مثلها يوما ... أحد من أسرة أبى .. لا من خديوى ولا من سلطان ولا من ملك .

أصبحت أنا الآخر (باشا) .. كصلاح وعبد الفتاح .

وشعرت بالحاجة إلى هذه الرتبة التى لم أفكر فى مثلها طوال حياتى ولا أشتهيتها يوماً ، شعرت بالحاجة إلى الرتبة الزائفة ، لفرط حاجتى أنا الأعزل إلى أى سـلاح ولو (فاسد) ، وكنت أضيق بهـذا (الزيف) أحياناً فأهم برد (السجانين) عنها ، فيدركنى (الشاب) — هاوى العظمة — وينهانى عن المحاولة وهو يصرخ فىَّ جاداً (خلينا نكسب جولة) ، وكان هو نفسه لا يخاطبنى أمام (السجانين) و (التمورجية) إلا بهذه الرتبة .

أما (المتعلمون) فكانوا يعرفون الحقيقة طبعاً .. ويُغضون .

راحة وتفكير

رسمت لك صورة عابرة لبعض مشاهد السجن وأرجو أن أكون قد رفهت بها عنك .

بيد أنى أرجو أيضاً أن أكون قد سجلت بها هدفاً .

وهدفى أن تدرك أننا وجدنا فى (الليمان) شيئاً من (الراحة النسبية) وإن كانت محكومة باللوائح ... وأن هـذه (الراحة النسبية) عاونتنى على أن ألم شعث أفكارى ... وعلى أن أجمع أشلاء نفسى ... وعلى أن أبدأ مراجعة ماضىَّ كله ... وبكل ما حمل من أخطاء ... مراجعة أمينة وجريئة ... رجاء أن أرى إن كان قد تبقى لنـا غد ... غدٌ لى يستحق أن أحرص عليه ... أو أن كل شىء تبدد .

نحن هنا ... فى الطابق الرابع من العنبر الأول فى « ليمان طره » ... وبملابس السجن ... ولنا (نمره) .

ليس فى الإمكان ... أسوأ مما هو كائن .

وعندما ينتهى الإنسـان ... إلى الدرك الأسفل من المجتمع ... يشعر أن أى حركة جديدة ... تعنى الصعود إلى فوق ... أو تعنى التقدم ...

وهذا الشعور فى ذاته خير ... محرك ... رجاء ... نور على الطريق ...

وبدأت أفكر ..

وبداية التفكير .. أختتم المرحلة الثانية عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .



الفصل الثالث عشر

دفاتر قديمة .. وجديدة ؟!

أحب أن أستهل هذا الفصل بحقيقة .. أخشى إذا أنا « حجبتها » عنك .. أن يؤدى هذا « الحجب » إلى « سوء فهم » .

أحب أن أعلن أن السجن سجن .. وأن أحاديثى عن « المعاملة الكريمة » التى عوملنا بها .. لا تعنى أبداً أننا كنا بمنجاة من اللوائح وأحكامها .. أو أننا لم نصادف « بعض المتاعب » و « بعض المضايقات » من جانب « بعض الأطباء » أو « بعض الضباط » أو « بعض التصرفات » أو « بعض النظم » .. ولا تعنى « المعاملة الكريمة » نسبياً أننا كنا نعيش فى « أمن » كما تعيش أنت « داخل بيتك » أو كنا نتصرف أحراراً داخل مجتمعنا الصغير كما تتصرف حراً داخل المجتمع الكبير .

أبداً .. أبداً .. ما قصدت إلى شىء من هذا مطلقاً .

كنا نعيش بالقلق الذى يعيش بمثله كل سجين .

وكنا ننام بأنصاف العيون .. التى ينام بها كل المسجونين .

بل لعل زعماء القتلة من صعيد مصر وريفها .. أرسى قلوباً وأرسخ أقداماً .. لأن لهم أتباعاً يحسب السجن لهم حساباً .. بل لعل «المجرمين» من اللصوص والنشالين أشد استهتاراً باللوائح والنظم .. لأنهم أقل حرصاً على ما نسميه « كرامة » .. بل إن من بينهم من يفقأ بيديه .. إحدى عينيه .. ليتهم ضابطاً يكون قد أنزل به عقوبة .. أو سجاناً يكون قد ضبطه متلبساً بقطعة أفيون .

أما نحن فأكثر تفكيرنا كان مستنفداً فى المحافظة على ذلك القسط من الكرامة التى وفروها لنا .. أو ذلك اللون من المعاملة التى خصونا بها .

ويحسن أن تعرف أيضاً أن « الحرب » دائماً « سجال » بين « السجين » و « السجان » بطبيعة الوضع الموروث فى السجون .. ومما يجعل هـذه « الحرب » مشبوبة على الدوام .. ولا تخبو الا لتتقد .. أن « المحظورات » أو « الممنوعات » فى لوائح السجون لا حصر لها .. وحتى المرخص به منها .. أجازت هذه اللوائح للمسئولين فى السجون أن يصادروه لأى سبب يعن لهم أن يتذرعوا به .. وحول هذه « الممنوعات » أو « المحظورات » يدور القتال .

ولعل هذه « الحرب » المستمرة .. تحجب وراءها حكمة خفية .. فالزمن مستهلك فى هذه « الاشتباكات » .. اليوم .. والشهر .. والعام .. وفى ظل اشتغال السجين بالتحايل على اللوائح والقوانين .. و بالتحفز المستمر لمواجهة ما يخبئه له « غده » .. كلما تخلص مما جاء به « يومه » .. يخف حمل السنين عليه ويهـون .. وتسعون فى المائة منهم محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة .

ومداهمة « الغرف » بحملات تفتيشية بين الحين والحين .. بحثاً عن « الممنوع » أمر متوقع فى كل حين .. ولكم عانينا من الحروجة وعانى الضباط بسبب هذه الحملات .. لأن المفروض أن يداهموا « غرفاتنا » كما تداهم « غرف الآخرين » .. ومن غير المعقول أن نخلو من « ممنوعات » كالبن أو الشـاى .. أو « الوابور » أو « السخان » فكان علينا تلافياً للحروجة أن نداري هـذه « الممنوعات » .. وكان على الضباط أن يدخلوا غرفاتنا .. وأن يخرجوا منها .. ليقولوا للمطلين عليهم من الغرفات الأخرى .. أنهم يسوون فى المعاملة بين الجميع .

كنا إذن نحسب ألف حساب لهذه المفاجآت .

وكنا نعيش فى « القلق » الذى يعيش فيه كل سجين .

والسجون لم تستطع حتى الآن أن تتخلى عن الكثير من « السخافات » التى ورثتها عن الماضى المعتم .. ورجالها — فى حماية هذه « السخافات » — يحرصون على السلطات التى توفرها لهم .. سنة الله فى الخلق وفى غرائز السيطرة والاستعلاء والتسلط ومع أن عبد الحكيم عامر استطاع بقرار يوم كانت السجون تابعة له أن يرد إلى

السجين المصرى « كرامة » ظلت القرون مهدرة يوم ألغى (الأغلال) التى كان السجين يرسف فيها ويبيت بها طوال مدة عقوبته — أى عشرين عاماً أو تزيد — حتى لقد سماه السجناء : « محطم السلاسل ».. واستطاع بقرار ثان أن يجرّد « الحرب العوان » بين « السجين والسجّان » من أبشع أداة لها أو وقود لنارها .. عندما رخص للسجين بالتدخين .. وكانوا قبلا يشمون رائحة فمه — إذا لم يضبطوه متلبساً بلفافة — وكانوا يحددون للرائحة عدداً من الجلدات .. وللفافة عدداً أكبر .. وكان «عبدالحميد عبد الحق» هو الوزير الأوحد الذى استطاع يوم كان وزيراً للشئون — وعبر العهود الماضية كلها — أن يصدر قراراً جريئاً يحرم « لبس الخيش » ولم يستطع تحت وطأة الروح الرجعى الذى كان يحكم .. أن يقدِم على ما أقدم عليه عبد الحكيم ..

أقول : مع أن عبد الحكيم عامر حدد بقراريه .. سياسة الثوار إزاء السجون .. فإن عقليـة « السجان » بكل ما حملتْ من صور الرجعية لا تزال تسوس السجون سياسة تثير الغثيان .. ويحجبها المسئولون فى السجون عن العيون ببضع حفلات يقيمونها كل عام .. تحية لعيد الثورة .. أو احتفالا بعيد الأم .. إلى آخر ألوان النفاق التى يغلـّف بها كل رجعى تصرفاته ...

وقد حدث مرة فى عهد سيد والى — مدير الليمان — أن ضبطت مطواة عنـد سجين .. وأراد المأمور أن (يعمل) له (محضراً) ليجلد .. فثار المدير وقال لزميله المأمور « تعاقبه على المطواه ازاى .. وأنت مصرح له بشراء البطيخ وعلب الخضار المحفوظ من الـكانتين .. يفتح العلب بإيه ويشق البطيخ بإيه ؟ » ولـكن المدير الذى جاء بعد سيد والى—وهو فى المعاش — كان من مخلفات الإنجليز .. فحرم بيع (السكر) فى الـكانتين حتى لا يقال إنه يعاون السجين على عمل الشاى ..

وأعجب من هذا التعفن فى التفـكير أن يؤخذ أربعة آلاف سجين بخطيئة سجين واحد .. وأن يحرموا — وحرمنا معهم طبعاً — ثلاثة شهور من (نعمة الـكانتين) لأن (حشيشاً) أو (أفيوناً) ضبط فى غرفة تضم عشرين مسجوناً ولم يعرف صاحب الأفيون فوجب أن يؤخذ الليمان كله — ويسمون هذا العقاب (تـكديراً) فى مختلف

(العنابر) — بجريرة مذنب واحد .. فى طابق واحد .. فى غرفة بعينها من عنبر بعينه . وتنشط (السوق السوداء) ... ويزداد (الوارد) من خارج الليمان ... وترتفع الأسعار ويجد ضعاف النفوس من (السجانين) و (الموظفين) و (أسطوات الورش) و (المدرسين فى مدرسة الليمان) فرصة لا تعوض لجلب (الممنوعات) معهم من خارج الليمان إلى داخله ... ويتساءل كل سجين : « فيم كانت الثورة إذن ... وفيم كان تحرير العبيد ... وفيم أتعب عبد الحكيم عامر نفسه فوضع الأغلال عنهم ... ليتلقاها مدير أو مأمور ويعيدها إلى عنق السجين ... بمختلف الحيل » ؟

وليتهم عاقبوا أو (كدروا) العشرين المقيمين فى الغرفة التى ضبط فيها الأفيون وإنما عاقبوا أربعة آلاف برىء .

لماذا .. ؟

وقد تسألنى الآن :

— لكن... لماذا كل هذا الاستطراد وأنت تضع كتاباً عن كفرك بناصر وإيمانك به ... ولا تضع كتاباً عن الحياة فى السجون وما يجرى فيها .

وجوابى :

— إنما أعرض هذه النماذج ولا أقصد إلى وصف السجن والحياة فيه ... لأن (الحياة فى السجون) تعوزها بحوث ... وددت لو عنى الوزير الاجتماعى حسين الشافعى أو الوزير الثقافى ثروت عكاشة بدعوة فريق من المثقفين الذين قدر عليهم أن يسجنوا للنهوض بهذا العبء الكبير ... وإنما أعرض هذه النماذج لصلتها بأهداف كتابى ... أعرضها لأنها دارت برأسى — قبل أن آلفها — فأطلت علىّ من خلال هذا الرأس صورة قديمة كان خصوم الناصرية قد افتنوا فى التقاطها من (الدواوين) والشركات والمصانع ... تدليلا على أن ما يقال فى خطب الرئيس عن العدالة ... لم يكن إلا كلاماً تمر عليه يد الحقائق فإذا هو زاهق ... وأن الرجعية التى كانت تسيطر على مرافق البلد وكنا نجد متنفساً لها وعزاء ... عند ما نعزوها للاحتلال وأعوانه ... قد ازدادت اليوم

فى إدارة هذه المرافق ضراوة ... متسترة خلف شعارات الثورة ... وحفلات أعيادها... واللافتات تعلق على الواجهات .

أعرض هذه النماذج الآن لأذكر الأثر الذى خلفته فى نفسى على مطالع سجنى وأنا أحمل على كاهل النفس عقوبة السجن السوداء ... وعلى كاهل الجسد كسوة السجن الزرقاء ...

وأعرض هذه النماذج لأمر أهم وأخطر — بالنسبة لهذا الفصل من فصولى — وأنا أواجه مرحلة جديدة من مراحلى ··· وأريد أن أقول لك — بمناسبة (الممنوعات)— أن الصحف كانت قبل وصولنا إلى الليمان — ولفترة طالت حتى رخص بها — تدخل ضمن هذه (الممنوعات) ... وكان التصرف عجيباً ... إزاء جيل من المسجونين ... يجب أن يبصر بالثورة و بأهدافها الستة .

خطب الرئيس .. ممنوعات

وأريد أن أخطو فى قصة الصحف المحظورة على السجين خطوة أخرى ... هى أكثر وضوحاً أو أشد التصاقاً بأهداف كتابى .

كنت قد حملت معى من مخلفات (عهدنا الذهبى) فى (سجن الاستئناف) بعض ما تبقى من الصحف التى كنا نشتريها ... وكان من بينها (نسخة) نشر فيها (الخطاب) الذى ألقاه الرئيس فى افتتاح (مجلس الأمة) يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ أى يوم نقلنا إليه من السجن الحربى ... ونسخة من (الأهرام) نشر فيها حديث للرئيس مع رئيس تحريرها فى ٨ سبتمبر ... و بضع نسخ نشرت فيها أحاديث للرئيس أيضاً مع مراسل الإذاعة الأمريكية فى الشرق الأوسط قبل صدور الحكم علينا بأيام .

ولم أكن قد قرأت من هذا كله شيئاً ... فقد كنا فى شغل عنه بانتظار الحكم علينا فلما نقلنا إلى (الليمان) ... وعرفنا أن (إحراز) الصحف جريمة يؤاخذ عليها ... اتخذت من الصحف (مفارش) لحاجياتى ... حتى إذا جاء الليل ... استللتها

— إن صح التعبير — لأستوعب ما فيها ... وكان الضباط يرونها خلال النهار «مفروشة» ويتغابون عنها ... فى الوقت الذى كان مذياع السجن يذيع على السجناء فيه كل خطب الرئيس التى تصبح من (الممنوعات) إذا نشرت فى (الصحف) .

بداية التفكير

وفضل هذه (النسخ) علىّ .. لا أنساه .. باعتباره بداية لمرحلة جديدة .

كان باب (الزنزانة) يغلق فى الخامسة أو السادسة من المساء — حسب مواعيد إغلاق السجن — وكنت أتناول عشائى وأؤدى فريضتى المغرب والعشاء ... وأعد القهوة أو الشاى .. وأستل هذه الذخيرة من أعداد تلك الصحف ... وأعكف على قراءة ما بها من أحاديث وتصريحات وخطب ..ومنها — و بسببها — بدأت عجلة التفكير — فى الرأس — تدور .

* * *

وكان فى (الليمان) جوّان : جوٌّ فى الليل .. وجوٌّ فى النهار .

جو النهار ألقى فيه (المساجين) .. أساير هذا .. وأستمع إلى ذاك .. وأرد على ثالث يسأل .. وأضحك لرابع (ينكت) .. وجلّ (المساجين) حاقدون .. وألوان الحقد لا حصر لها .. ولكل سجين ظروفه .. وعلى ليلاه — طبعاً — يغنى .

وفى النهار أيضاً أجتمع بزملائى فى (المحنة) — أو فى (القضية) — وكنت أقرب فى (الود الحميم) إلى (صلاح) .. وأقرب فى (التفكير المتشائم) إلى عبد الفتاح .. ولم أكن أضيق بمرح (السقا) وأخباره الغريبة ينقلها عن مصادر مجهولة و يؤكد أنها «عليمة» وكثيراً مابشرت مصادره بقرب الإفراج عنا ولم تشأ الأقدار أن تحقق هذه البشائر لصاحب المصادر ، كما لم أكن أضيق (بالشاب) المعروف لك . إذا هو خرج من غرفته — التى كان يعيش فيها معزولا — ليزورنى فى غرفتى .. وليشكو لى جفوة عبد الفتاح فى معاملته .. أو خشونة (السقا) فى مهاجمته .. أو فتور (صلاح) فى بشاشته .. وكنت

أشعر أحياناً بالعطف على (الشاب) برغم كل ما سببه لنا من آلام وكل ما جره علينا من متاعب .. وكان (صلاح) يشاطرنى بعض هذا (الشعور) فى بعض الأحايين على نقيض (عبد الفتاح) الذى كان يتأذى من مجرد وقوع عينه على (الشاب) المعزول .

ولم يكن جو النهار الملىء بالصخب . صالحا للتفكير .

* * *

أما جوى فى الليل .. فالأمر فيه كان على النقيض .

كان كل شىء هادئاً .. وكانت القهوة والشاى والسجائر — وهى كل (مكيفاتى) فى الحياة العادية موفورة . وكانت تحيات (حراس الليل) تلقى علينا بين الحين والحين ومن خلال قضبان (الشراعات) كريمة ورقيقة — وكان الباب الكبير «للعنبر» كله مغلقاً .. ولم يكن يسمح — عادة — بإدارة المفتاح فيه إلا استجابة لاستغاثة .. وإذا دار المفتاح فى أى ليلة .. أحدث صلصلة .. وأيقظ كل نائم .. فإذا استثنينا مثل هذه الحالات .. فالسكون شامل لا يعكره فى بعض الليالى إلا ضحكات بعض (أصحاب المزاج) من (المساجين) — وفى جو الليل بدأت أقرأ ... هذه الصحف ... وبدأت أفكر فى كل ما جاء فيها .

والعميل الأمريكى ؟

ولست أدرى لماذا لم يقع اختيارى — من كل هذه البيانات والخطب التى ألقاها الرئيس — إلا على ما يتصل بالاتهام « القديم » الذى أحسن الخصوم غزل خيوطه حول ناصر من سنين .. حتى ردنى عن الناصرية أكثر من مرة بعد أن دنوت منها أكثر من مرة .. وأعنى به قولهم : إنه (عميل أمريكى) .

وقرأت ردود (ناصر) ... وملأ (الزنزانة) نور ...

قرأت الردود .. وطويت الصحيفة .. ورفعت عينى إلى السماء .. أستوحيها وجه الحق فى هذا الاتهام .

« عميل أمريكى » ؟ نطقت بالكلمتين فيما يشبه الغمغمة أو الهمس .. وقلت لنفسى :

— حسناً .. لنعرض الوقائع من جديد .. ولنحاول مرة أخرى أن نتجرد من الخصومة .. عسى أن نرى وجه الحقيقة .. والجو ساكن ؟! اتهموه بهذه « العمالة » .. بدءاً من (كافرى) يوم التمس الترخيص لفاروق بمغادرة الاسكندرية سليما معافى إلى روما . وبأبهة الملك .. ومعه صناديقه الغالية .. وانتهاء إلى العرض الأمريكى بتمويل السد العالى .. ولم يشأ الخصوم أن يبرئوا (القائد الشاب) من هذه (العمالة) يوم تسحبت أمريكا من التمويل كما قلنا فى فصول سابقة .. وقالوا — وصدقنا قولهم — إنها إنما تسحبت لتقبعها انجلترا .. ليغضب « جمال » .. ليؤمم القنال .. لتقاتله انجلترا وفرنسا .. لتنقذه أمريكا .. لتتقاضى الثمن .. لتحل بنفوذها محل النفوذين البريطانى والفرنسى فى مصر وقنالها وفى الشرق الأوسط ..

وهأنذا أقرأ (حديث ناصر) مع محرر (الأهرام) بعد العدوان بعام .. وقد طرد الإنجليز من مصر إلى غير رجعة .. وأمست القنال ملكا لنا .. وبدأ المال يتدفق منها على خزينتنا .. فهل ارتفع العلم الأمريكى (الصديق) على سارية القنال ؟

كانت أمريكا قد زحفت فعلا إلى المطالبة بالثمن . ولكنها أدركت — كما لم تدرك من قبل — أن (ناصر) يعرف لما يدها . . ولكنه لم يطرد الإنجليز ليلقى بنفسه فى أحضانها .. ولم يحارب المستعمرين ليخون قرارات باندونج من أجلها ..

وبدأت أمريكا تمارس أشد أنواع الضغط على مصر حتى تقبل مشروع أيزنهاور — وكانوا قد جندوا للدعاية له .. كل أجهزة الإعلام الأمريكى وكل مساعى الدبلوماسية الأمريكية — ولكن جمال لم يكتف برفضه .. وإنما جند لمقاومته كل أجهزة الإعلام المصرى وكل مساعى الدبلوماسية العربية حتى أجهز عليه ، وتبدى أمام العالمين فى صورة حلف بغداد .

***

ولاحظت السياسة الأمريكية أن ضرب (ناصر) فى (مصر) فات أوانه .. وأن ضربه فى (سوريا) جاء أوانه .. فسوريا كانت قد حذت حذو مصر واتجهت إلى روسيا تطلب أسلحة تدافع بها عن نفسها بعد أن ضرب الغرب حصاراً عليها وحشد الجيوش التركية على حدودها ، وتحركت جيوش نورى السعيد من ناحية أخرى ، ومصر كانت قد تحالفت مع سوريا لرد أى عدوان عنها ، تحت قيادة موحدة معقودة اللواء للمشير عامر ..

وفشلت السياسة الأمريكية ، أو هكذا لاح للناس جميعاً .

* * *

وفى هذا الجو تحدث (ناصر) إلى رئيس تحرير (الأهرام) وكان طبيعياً أن يكون أول سؤال يتقدم به المحرر هو عن ذلك الفشل الذى أصاب سياسة أمريكا .

ودهشت وأنا أرى عبد الناصر ينفى بشدة فشل السياسة الأمريكية ويحذر المحرر من مثل هذا الاعتقاد ويؤكد أن خير ما يتمناه واضعو هذه السياسة أن يعتقد الناس هنا فى شرقنا الأوسط أن هذه السياسة فشلت .

● واستبان لى من (حديث ناصر) ، ما لو استبان (للخصوم) من البداية ، لترددوا كثيراً قبل أن يقولوا عنه : إنه (عميل أمريكى) .

● استبان لى من (حديث ناصر) أنه كان يعرف خفايا السياسة الأمريكية ومراميها ويتغابى عنها لحكمة عنده وبدءاً من سنة ١٩٥١ يوم عرضت على الدول العربية المشروع الأمريكى للدفاع عن الشرق الأوسط ورفضته هذه الدول وانتهاءً إلى ما بعد العدوان يوم حاولت استدراج الدول العربية إلى مناطق نفوذها .

● واستبان لى من حديث (ناصر) أنه خاض ضد أمريكا حرباً خفية ومريرة عبر سنوات خمس غيرت أمريكا خلالها كل أساليبها ولم تكن تيأس أبداً ، وتوسلت بحلف بغداد فنازلتها مصر بشن الحرب على الأحلاف لجمد الحلف ، وتوسلت أمريكا

باحتكار السلاح فكسر ناصر الاحتكار وتسلحت مصر ، وتوسلت بتمويل السد ثم عادت فتسحبت منه فأمم القنال ليبنى السد ، وغيرت الأسلوب فدفعت انجلترا وفرنسا إلى العدوان ووقفت أمريكا فى وجهه فشكرنا لها موقفها ورفضنا الانحياز إليها لأننا لا ننحاز أبداً . . . فرفضت هى أن تعطينا قمحاً لنجوع ونركع ، ففضلنا الجوع على الركوع ، حتى حصلنا على القمح من غيرها ، وتحدث الأمريكان عن « الفراغ » الذى أحدثه انسحاب بريطانيا من القنال .. فأبينا عليهـا أن تسد هى «الفراغ» ... وأعلن الأمريكان فى ٥ يناير سـنة ١٩٥٧ مشروع أيزنهاور ليزودنا بالمساعدات الاقتصادية والعسكرية مقابل ارتباطنا بالسياسة الأمريكية فرفضنـا المشروع ، وبدأت الصحف الأمريكية تطالب علناً بعزل مصر عن العالم العربى ، وقالوا بصراحة : «إن الخطر الداهم ليس الشيوعية الدولية ولـكنه القومية العربية التى تمتد من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى » .

● واستبان لى من (حديث ناصر) أن هذا كله لا يعنى فشل السياسة الأمريكية ، لأن المشروع الأمريكى نجح فعلا فى خلق أخطار وهمية من بعض العرب على البعض الآخر ، وفى تخويف الملوك والرؤساء العرب بأن الخطر الشيوعى الذى بدأ ينقض على سوريا يوشك أن ينقض عليهم ، وصرفت أنظارهم بهذا التخويف عن اسرائيل و بدأت الطائرات الأمريكية تحمل إليهم بعض الأسلحة فانطلت عليهم الخدعة — وما تزال السياسة الأمريكية تجرب .

قرأت هذا كله ، ورحت أسأل نفسى وأنا داخل الزنزانة .

— أهذا هو (العميل الأمريكى) .. الذى تآمرت عليه ؟

وهززت رأسى ولم أجب .

* * *

فى هذا الجو الذى جرى فيه هذا الحديث كانت أمريكا تتهم سوريا رسمياً وعلناً

بأنها ألقت بنفسها فى أحضان الشيوعية الأمر الذى يهدد السلام بالخطر.؟! وبات العالم كله يتوقع عدواناً من أمريكا القوية على سوريا حليفة مصر؟! فانتهز محرر (الأهرام) الفرصة وسأل (ناصر) عن موقفه إزاء التهديد الأمريكى المسلح لسوريا الصغيرة؟! وكان المتوقع أن يروغ (ناصر) من الإجابة بغموض دبلوماسى يوائم خطورة الموقف.

ولكن ناصر، لم يغمض ولم يَرُغْ، وإنما قال، وقالها فى إصرار عجيب :

« ومع أن موقف مصر واضح لا يحتاج إلى تحديد جديد، إلا أننى أعود فأؤكد : أن مصر ستقف بجانب سوريا إلى غير حد وبدون قيد أو شرط، ومهما تكن تطورات الضغط على سوريا فإن شيئاً واحداً لا يجب أن يغيب عن الأذهان، ذلك أن جميع إمكانيات مصر السياسية والاقتصادية والعسكرية كلها تسند سوريا فى معركتها بل فى معركتنا نحن، معركة القومية العربية كلها ».

* * *

«ويقولون : عميل امريكى» وكررت العبارة، وحدقت فى نجوم السماء — من خلال (الشراعة) — أستوحيها بعض نورها.

وطويت الصحف، ثم عدتُ فنشرتها من جديد.

وفرشتها كما كانت، تحت حاجياتى..

وكان الفجر قد بدأ يرسل خيوطه عبر القضبان، ولم أكن أسمع غير وقع أقدام السجّان وهو يروح ويجىء أمام (الزنازين)، وغير أنفاس النائمين من المذهولين خلف أبوابها.

وتوضأت، وصليت، ودعوت الله أن يلهمنى الرشاد فى الحكم على القائد الشاب.

.. ونمت.

* * *

وأرجو أن أكون قد رسمت بهذه الجولة الأولى فى زنزانتى الحلقة الثالثة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه ».

الفصل الرابع عشر

وحدة .. وخطبة .. ونقاش

لعلك خرجت – معى – من الفصل السابق بأن الاتهام الذى ظل معلقاً بيد الخصوم .. وفى لافتة من نار .. وفوق رأس ناصر .. ومن بداية الثورة إلى ما بعد العدوان بعام . . قد انهار بالنسبة إلىّ .. وبعد أن راجعت تصريحات الرجل.. وربطت بينها وبين الأحداث ، وأنا رابض فوق « مرتبتى » داخل الزنزانة ، ولم يعد ناصر « عميلا أمريكياً » كما قالوا . . بل عاد (خصماً لأمريكا) – كما كان دائماً – وكما تقول الوقائع .

* * *

وأحب أن أضيف إلى هذه الحقيقة فى مطلع هذا الفصل الجديد .. أن انهيار ذلك الاتهام كان المعْلم الثانى عن طريق تحولى إلى الناصرية بعد تأميم القنال .

وبدأت أفتح « كل عينى » على الحقائق .. وإن كان قد تعذر علىّ .. أن أفتح « كل قلبى » لأنى (سجينه) ولا أقول : لأنه (سجّانى) .

* * *

وأنا الآن على مشارف العام الجديد – ١٩٥٨ – أرى جيداً وبكل عينى ، أن عبد الناصر خصم لأمريكا التى أيدته فى مقاومة العدوان ، كما أنه خصم لانجلترا وفرنسا صاحبتى العدوان ، وسوريا هى الآن الميدان المهيأ للصدام .. وهذا الميدان بات مكشوفاً بعد البيان الرسمى الذى نشرته الحكومة الأمريكية فى انفعال وعصبية عن شيوعية حكومة سوريا ، وناصر حليف لسوريا ، وقد أصدر تعلياته إلى (المشير) أن يرد عنها أى عدوان .

وإذن فلندع تلك «النسخ» القديمة المفروشة تحت حاجياتى فى «الزنزانة» ولنتابع

الأحداث عن طريق الصحف الجديدة التى نقرأها فى «مكاتب الأطباء» أو «ينساها» عندنا « بعض الضباط » ، وكل هذه (المتابعة) كانت تتم فى أثناء النهار ، فإذا جن الليل رحت أراجع حياة الرجل ، على قدر جهدى ، ولا أقول بتفكير تجريدى ، لأن الفلسفة التجريدية لاتطرق باب السجين السياسى إلا إن كان نبياً ، والسجن لم يشرُف عبر التاريخ المقصوص ، إلا بيوسف الصدّيق .

* * *

وفجأة قيل إن مصر وسوريا تبحثان فى إعلان الاتحاد بينهما ، وكانت الخصومة بين أمريكا وسوريا قد جرت على كل لسان وفى كل مكان .. وأمست حدثاً دولياً يثير القلق حتى على الصعيد الدولى ، فإذا تحقق هــذا ، كتحد لأمريكا ، فإن معناه أن عبد الحـكيم عامر سيكون مستعداً لإفناء آخر جندى فى مصر ، دفاعاً عن أصغر مواطن فى سوريا ، والله وحده يعلم ، على أى أرض نهادن ، أو بأى أرض نموت .

وتحقق الاتحاد ..

ولم يتحقق (فيدرالياً) كما كنا نتوقع ، وإنما تحقق (وَحدة) تذيب كل إقليم فى الآخر ، والمهمة — كما ترى — أقرب ما تكون إلى المغامرة ، مهمة تذويب (المصرى) فى (الشامى) ، من قبل أن نذوّب (المصرى فى المصرى) و (الشامى فى الشامى) .

* * *

وأعلنت الوحدة على مراحل ، لا أنكر أبداً برغم تهيبى لها أنها بهرتنى .

أعلنت على مراحل تبدت لى رائعة ومرسومة ، وكأنها الخطى المنغومة فوق سلم موسيقى مرتب .. يخطوها فنان عالمى مدرب .

أعلنوا الوحدة (رسمياً) فى يوم السبت أول فبراير ١٩٥٨ — هكذا قرأنا .

وألقى عبد الناصر فى مجلس الأمة المصرى أول خطاب له عن هذه الوحدة فى اليوم الخامس من فبراير .

وفى خاتمة ذلك الخطاب التاريخى الذى أذيع علينا . أصغيت إليه وهو فى رفرف الخطاب يقول كأنه يعزف أو يغنى، ويقول كلاماً أعذب من الشعر ولم يكن شعراً، وإنما كان حقائق، يقول بالحرف الواحد :

« لقد بزغ أمل جديد على أفق هذا الشرق

« إن دولة جديدة تنبعث فى قلبه

« لقد قامت دولة كبرى فى هذا الشرق ، ليست دخيلة فيه ولا غاصبة ، ليست عادية عليه ولا مستعدية ، دولة تحمى ولا تهدد ، تصون ولا تبدد ، تقوى ولا تضعف ، توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، لا تتحزب ولا تتعصب ، ولا تنحرف ولا تنحاز ، تؤكد العدل ، تدعم السلام ، توفر الرخاء لها ، ولمن حولها ، وللبشر جميعاً بقدر ما تتحمل وتطيق » .

***

استمعت إلى هذا الخطاب ، وعجبت .

لم أعجب لروعة البيان فيه فقط ، وإنما عجبت لمعانيه ، وعجبت لمراميه ، وعجبت للخطورة فيه ، وعجبت لتفصيل كل عبارة على قدّ المعنىّ بها ، وعجبت لروح التحدى ، وروح الفروسية ، وروح الإنسانية ، موزعة بإحكام وحزم وعدل .

وكانت هذه هى أول مرة ، فى حياتى ، أتذوق فيها (حلاوة) خطبة لعبد الناصر ، ولا تذكرنى بالخطاب الذى أمم فيه القنال ، فشتان بين مذاق ومذاق ، ذلك خطاب ملأنى زهواً بانتزاع حق كان مغتصباً ، وهذا خطاب ملأنى فرحاً ، لا بلقاء شقيق كان مغترباً — فقط — بل بـ (عودة الروح) إلى عربى من الشرق ، يملى على العالم دستوراً أرساه باسم العروبة ، ولا يتعامل إلا بمقتضاه مع من يريد التعامل ، دستوراً خطيراً على الصعيد العربى ، ودستوراً رهيباً على الصعيد الدولى ، ودستوراً رفيعاً على الصعيد الإنسانى ، وله فعالية ، وفيه إيجابية ، فيه الأزر الذى يشد ، وفيه الكيد الذى يرد ، وفيه الحديث عن التعصب والتحزب ، وعن الانحراف والانحياز ، وعن العدل والسلام ،

وعن العداء والاستعداء ، وعن التهديد والتبديد ، وترك لك وضع النقط فوق الحروف .

والمسألة — إذن — ليست وحدة بين مصر وسوريا فقط .

إنما هى أمل جديد على أفق هذا الشرق ، يرنو إلى بعيد ، من قريب ، بعين الدولة التى انبعثت فى قلبه ، (دولة كبرى) من يوم مولدها ، تستمد جلالها من مقومات الحضارة التى ظلت القرون تستخفى فى حنايا تاريخها .

وقلت لنفسى أسألها على طريقتى :

— ماذا يريد هذا الشاب أن يفعل ؟ و إلى أين يريد أن يذهب ؟وهل هى فرحة الساعة استغرقتنى انفعالا ولا تلبث أن تنجاب عنى وتخمد ، كما حدث لى يوم أمم قناتنا وكدت يومها من الزهو أرتد طفلا .

وعدت لنفسى أتولىَّ الإجابة عنها :

— الأمر لا يبدو سهلا ، والجواب يتحتم أن يحدد هذه المرة موقفى ، أو فلأنفض يدى من بحث لست مؤهلا له ، وأنا الليلة متعب ، وغداً سألتقى بإخوانى فى المحنة و بزملائى فى السجن ، وستدور كل أحاديثهم حول الوحدة وخطاب ناصر ، والخير أن أزعم أنى كنت نائماً فلم أسمع شيئاً ، وأن أستمع إليهم ولا أبدى رأياً .

* * *

وصح ما توقعته .

وما كاد الباب يفتح ، حتى انفلت منه ضحايا القضايا التى يزعمون أنها سياسية ، بما فيها قضية الصهيونية وقضية الجاسوسية ، وأقبلوا علينا وفى كل فم (قفشة) أو (نكتة) .

ونجحت خطتى وتلافيت الحروجة ، وأعددت نفسى ، لِلَّيلى .

* * *

وجاء الليل ..

ورأيت أن أعود من جديد إلى النسخ القديمة المفروشة تحت حاجياتى .

وذكرت أن إحداها تحمل — كما أشرت قبلا — نص الخطاب الذى كان قد ألقاه على النواب فى افتتاح مجلس الأمة قبل الوحدة بنصف عام ، وقلت لنفسى : لعل فى هذا الخطاب أضواء ألقيها على طريقى الليلة وأنا أحاول أن أفهم الموقف الجـــديد لآخذ مكانى .

ولم أكن قد قرأت هذا الخطاب قراءة واعية .

كنت قد مررت به كريماً ولم أتلبث عنده .

وكنت أعتقد أن كل خطبة ألقاها أو يلقيها إنما هى حزمة من الأباطيل ، يضلل بها الجماهير ، على نحو ما يفعل جهازه العجيب الذى أعده للاعلام وعهد به إلى شيطـان رجيم اسمه حاتم ، وأعجب ما برع فيه أن يتغزل فى نصاعة البياض وهو يصف لنا ظلمة الليل ، ويتخطى بهذا التضليل حـــدودنا إلى مختلف الشعوب فتهوى إليه أفئدة عاطشة إلى الأحلام ، وأعصاب مشوقة للتخدير ، وكنت أصدق الخصوم وهم يقولون إن أمرين لا ثالث لهما هما اللذان نجح بهما ناصر ، ولولا براعته فى إعدادهما لما قامت له قائمة : جهاز الإعلام ينفث السموم وينشر الأكاذيب ، وجهاز المخابرات يكشف المؤامرات ، ويجند نصف كل شعب ليكونوا عيوناً على نصفه الآخر .

هذه هى الصورة المرعبة التى كانت ريشة الخصوم قد رسمتها للثورة وصانعها عبر سنوات خمس قضيناها بينهم .

* * *

والآن .. ؟

الآن .. وقد بدأت بعض الحقائق تبين .. ؟

الآن .. وقد انهار أضخم اتهام عمن أسموه (العميل الأمريكى) .. وقامت الأنقاض — على افتراء الخصوم — شاهداً لا يمين ..؟

الآن .. أليس من واجبى نحو نفسى — ومن باب الاحترام لتفكيرى — أن أراجع الحساب كلما وجدت للمراجعة سبيلا ؟

وقلت : (نعم) وتناولت خطاب (ناصر) فى افتتاح مجلس الأمة .

* * *

وقرأت له . . يقول لهم . . بعد أن حياهم :

« لقد كان موعدنا معكم منذ خمس سنوات — أى فى بداية الثورة — فقد كنا نتصور وقتئذ أنه فى استطاعتنا أن نلتقى بالممثلين الحقيقيين للشعب » ، ولكن التجربة ما لبثت « أن أوضحت لنا أن الأمر لم يكن بالبساطة التى كنا نتصورها» .

و« ناصر » إذن يقول للنواب أن الطليعة الثائرة التى اقتحمت الأبواب عنوة ففتحتها . . انتظرت « الزحف المقدس قادماً إثر خطاها شعباً يتلقى مسئولياته وينهض بها » فلم يظهر الزحف الشعبى ولم تتحقق أحلام الثوار ؟

ولكن لماذا ؟

أجاب (ناصر) أن الذى حال بينه و بينهم . . وجود ملك كان لا بد أن يذهب . . ووجود استعمار كان لا بد أن يرحل . . ووجود أحزاب كان لا بد أن تحل . . ووجود إقطاع كان لا بد أن يلفظ أنفاسه . . وحال بينه وبينهم قبل هذا كله و بعد هذا كله (يأس مخيف سيطر على القلوب والعقول) بسبب تلك العقبات « فإذا الأحداث تترى على هذا البلد والغالبية من شعبه تكتفى بموقف المتفرج) و « فى هذا الظرف . . ضاعت الثقة فلم يعد كل فرد فينا يؤمن أو يثق بزعمائه . . أو يؤمن أو يثق بغيره من المواطنين . . أو يؤمن أو يثق حتى بنفسه . . وكان ينبغى للايمان والثقة أن يعودا إلينا كشعب وكأفراد . . حتى نستطيع أن نلتقى بكم . . وهكذا فى الوقت الذى اتضحت فيه معالم طريقنا إليكم وطريقكم إلينا . . اتضحت فى الوقت ذاته حدود المعارك التى كان يتعين علينا أن نخوضها لكم . . ليتم اتحاد شعبنا . . و يصبح حراً طليقاً . . يفتح بيده . . آفاق غده » .

* * *

قرأت هذه السطور ورحت أسأل نفسي :

— أكان حقاً ما قاله أم لم يكن حقاً ؟

وأجبت عن نفسي :

— كان كله حقاً . . وأنت تعلم .

— نعم أنا أعلم . . لأنى (مخضرم) . . نعم أنا من أعلم الناس بأن كل ما قاله القائد الشاب . . عن الاحتلال والإقطاع . . وعن الملك والأحزاب صحيح . . وأكثر صحة منه ذلك الذى أسماه (اليأس المخيف) . . كان كل شىء ميئوساً منه فعلا . . وكانت جريدة (مصر الفتاة) أو (الحزب الاشتراكى) — لا أذكر — تكتب على عرض صفحتها : (رعاياك يا مولاى) وترسم صوراً من شعب حطموه وما يزال يقاوم . . وكانت طالبات (المدرسة السنية) يتظاهرن فى ميدان عابدين ..ويردد (الميدان) أصداء هتاف غير مسبوق .. ومن فتيات طاهرات عن (بيوت الطهارة) — يقصدن الملكة فريده الطريده — وعن (بيوت الدعارة) يقصدن بيته الملكى الكريم . بيت مولانا (الملك الصالح) .. وكان كل شىء يترنح . . وكانت أسماء (ناهد) و (شيرين) و (ساميه) و (تحيه) و (ثابت) و (كحيل) تتردد على كل لسان .. وفى كل سامر . . وكانت أقاصيص كابرى والريفييرا . ومونت كارلو ، ورياض غالى ، صفحات (بيضاء) فى كتاب (الملك المسلم) يتصفحها الأجانب ، من ساسة وغير ساسة ، وكانت أقاصيص الكاباريهات ، واتخاذ كلمة (المصرى) فيها اسماً مستعاراً لحاكم (مصر) فى لياليها الحمراء ، تجرى على كل لسان وفى كل سامر أيضاً ، فى القاهرة (وفى الأقاليم) ومنها جمع (مصطفى أمين) مادة كتابه الظريف عن (مولانا المعظم) بعد أن ذهب !

* * *

وأرجو أن يكون مفهوماً أنى لا أستهدف بهذه المجموعة من المخجلات ، أن أهاجم فاروق ، فليس من أهداف كتابى أن أهاجم ملوكا أو سوقة ، ولم يعد تاريخ فاروق فى

حاجة إلى المزيد (من الصفحات السود) و إنما أردت أن أقول إن ما قاله (ناصر) عن (اليأس المخيف) كان صحيحاً .

* * *

وكان على (ناصر) — إذن — أن يرفع هذه الألغام من الطريق التى تعبد ، حتى يطمئن الشعب ويزحف .

وكان على (ناصر) — إذن — أن يخوض أكثر من معركة — وأن يحارب فى أكثر من جبهة ، ولو تردى فى (الخطأ) الذى تردى فيه (هتلر) ، ولو خالف — ناصر — عن أصول الفن العسكرى وهو الجندى الذى عرفت فيه (الفالوجا) شجاعة لم ينكرها عليه خصومه .

وكان على (ناصر) أن يحارب حرباً هدامة فى البداية ، والأنقاض من خلفه ترفع ، والبناء فى مكانها يقوم..

وكان عليه أخيراً أن يعيد الثقة إلى الحيارى واليائسين..

فماذا فعل ناصر ؟

هل حقق الوعود التى ارتبط بها مع الجماهير ؟

وهل خاض — لهم — هذه المعارك وقاتل هو وأصحابه ببسالة ومهارة و إيمان .

أم أن كل ما كان يقوله .. إنما كان دعماً لأجهزة الإعلام والدعاية . . ولعبد القادر حاتم فى مجال النشر والفكر ولوجيه أباظه فى مجال الفن (وقطار الفنانين) و (معونة الشتاء) .

تولى (ناصر) بخطابه فى مجلس الأمة الإجابة.

قال لهم ، إنه بر بما وعد ..

خلع الملك ، قضى على الملكية ، صادر أملاك الأسرة المالكة ، أعلن الجمهورية ،

حلّ الأحزاب ، وسلح الجيش ، أمم القنال ، هزم العـدوان ، طرد الاحتلال ، بدأ التصنيع .

ولم يقله كلاماً ، وإنما فعله حقائق .

ولم ينس الخامة البشرية ، فبدأ يبنى « الإنسان » إلى جوار (المصنع) ، وضرب مثلا لـكل ما صنع .

* * *

وقد حرصت — وأنا أقرأ خطابه فى مجلس الأمة — على أن أجنبك ما لم أتجنبه من البيانات التى أدلى بها دعماً لما نهض به — وحسبى أن أذكر لك إنى سألت نفسى بعد أن طالعت هذه البيانات السؤال الصريح التالى :

— إذا كان هذا الرجل قد فعل هذا كله عبر سنواته الخمس ، فـما الذى حجب هذه الحقائق عنى ؟.. وكيف تراءى هذا الهرم مقلوباً أمام عينى ؟ .. وأى المرايا أرتنيه على هذا الوضع المقلوب ؟

— مرايا الخصوم من غير شك .

— هل تستطيع هذه المرايا أن تريك الليل نهاراً والنهار ليلا ؟

— نعم .. ويعاونها أن تكون قد أوذيت . . فينتهز الخصوم فرصة شعورك بهذا الأذى .. لينسجوا لك من هذا الشعور غشاوة على عينيك ، هى مرآتك التى تريك كل شىء مقلوباً .

— يبدو — إذن — أن لـكل شىء فى السياسة وجهين : وجه يراه الأنصـار .. ووجه يراه الخصوم ..

— نعم .. والمحايدون هم وحدهم القادرون على التفريق ، بين الصحيح والزائف ، أو بين الأصيل والهجين .؟

* * *

مَرّ هذا « الديالوج » برأسى ، وكأنى شطرت نفسى بنفسى ، فخرج منها شخصان يتحاوران ، وتلك طريقة من طرق التفكير صاحبتنى طوال حياتى ، واتسع لها المجال فى سجنى ، بحكم وضعى وحيداً داخل غرفة مغلقة .

ونحيت الصحيفة جانباً وبدأت أفكر فى أن لكل شىء وجهين حقاً إذا ما وجد لهذا الشىء أنصار وخصوم .

ورأيتنى أتشبث بهذه (اللفتة) .. وأصر على اختبار مدى الصحة فيها باختيار بعض إصلاحات (ناصر) وتطبيقها عليها . والنظر إليها من وجهيها و بدأت أقول لنفسى :

خذ (عينة) من كل إصلاح وانظر .

١) خذ الحديد والصلب ، مثلا للصناعة .

٢) وخذ طريق الكورنيش ، مثلا لإعادة بناء العاصمة .

٣) وخذ الأرض التى وزعت على الفلاحين مثلا لإعادة بناء المجتمع .

٤) وخذ إلغاء الرتب والألقاب ، مثلا لإعادة بناء الإنسان .

وكتبت هذه النقاط بقلمى فوق طرف الصحيفة ، واتكأت على الوسادة ، وبدأت أتحدث إلى الإنسان الآخر الذى تناسخ منى .

الحديد والصلب ؟

— نحن فى السجن يا أخى ، وقد ترامت إلينا عبر القضبان فرحة الخصوم وهم يقولون إن مشروع الحديد والصلب فشل ، وأن فرناً من الفرنين انشرخ وهو يجرب ، وأن أموال المساهمين المساكين ضاعت .

— ولقد رأينا بأعيننا من نوافذ الليمان ، ركب الرئيس وهو يمر إلى جوارنا فى طريقه إلى حلوان لزيارة المصنع ، وسرعان ما ترامت إلينا الأخبار بأن الرئيس رأى

فى مكتب المدير من الأثاث (المترف) والسجاد (الفاخر) ، ما لا يوجد فى مكاتب بعض الملوك ، فذهل ، وأمر بالسجّاد فرفع ، وأمر بالمدير ففصل .

وهذا وجه الخصومة للمصنع .

وقال أخونا يشجب هذا الوجه و يرد على أخيه الذى تناسخ منه :

— لنفرض أن كل ما قيل صحيح ، فهل يعاب على أمة ناشئة ، تثور على التخلف وتُقدم جريئة ومصرة ، على هذا النوع من الصناعات الثقيلة ، فيصاب فرن من الأفران فيها بشرخ ؟ ومكتب المدير ..؟ لو سلمنا جدلا بكل ما قيل ، فما وجه العيب فى أن يسرف موظف مثله و يستترف ، فيجد أمامه رئيس دولة « نابهاً » ، لا يخدعه الرمل الأحمر تفرش به طرقات المصنع تحية لمقدمه ، ولا خطب النفاق تلقى بين يديه تمجيداً لزعامته ، ويدع هـــذا كله لدراسة الوضع ، فيضبط المدير متلبساً بالإسراف ، فيأمر بالسجاد فيطوى و بالمدير فيفصل ، ولماذا يحلو لنا دائماً أن نقول عن « الكوب » و نصفه مملوء بالماء بأن « نصفه فارغ » ونرفض أن نقول إن « نصفه ملآن » وأنت وأمثالك يا أخى أتما جاء بكم إلى السجن ، ذلك « النصف الفارغ » .

وطريق الكورنيش ؟

معجزة البغدادى — أحد الرفاق — يوم كان وزيراً للبلديات .

قال عنه الخصوم إنه تشقق .. وأن المقاولين غشوا .. وأن الرشاوى استخدمت

ولست أدرى لماذا نكذّب العين ونصدق الأذن ؟

و إذا فرضنا جدلا أن بعض ما قيل قد حدث .. فلماذا نحتفل بعشرين متراً أو مائة من الأمتار بانَ عليها التشقق .. ولا نحتفل بكورنيش كامل خلق العاصمة خلقاً .. وأجرى النيل ساحراً وأخاذاً .. وكأنه لأول مرة يجرى .. وكأننا لأول مرة نراه .

لقد ترامت إلىَّ شائعات التشقق قبل أن أسجن .. وجاءنى أحد الأطباء من

الأصدقاء ذات ليلة — الدكتور الطيب ناصر — فدعانى إلى (نزهة) فى عربته على طريق الكورنيش لأراه .. وكان معنا (محمود الكولى ، المحرر بالأهرام) وانتهينا إلى شبرا البلد .. ولم أستطع ليلتها — و برغم الخصومة — إلا أن أقول للصديقين ضاحكا : (ان هذا الكورنيش .. من صنع الذى يجيئك بعرش بلقيس .. من قبل أن تقوم من مقامك) لقد قالوا مرة بشأن كورنيش الإسكندرية ومن قبل عشرين عاماً أو أكثر ، وأعادوا القول أكثر من مرة ، و برغم السرقة الضخمة التى زكمت رائحتها الأنوف فى مصر والخارج ، وعرفها القاصى والدانى عن إسماعيل صدقى والمقاول الإيطالى ، وأحمد صديق مدير البلدية ، وحسين صبرى خال « الملك المعظم » ومحافظ الاسكندرية .. قالوا برغم هذا كله إن إسماعيل صدقى الذى قرر عمل كورنيش الإسكندرية خلق الاسكندرية.. وأن صنيعه هذا يجبُّ كل إساءة له ضد وطنه ..

إذا كان هذا قد قيل عن عدو من أعداء الشعب ، ذهب فى التاريخ ، مثلا لا ينسى على العبقرية الفاجرة فى التقتيل والتخريب ولاء للمستعمر ، أفما كان البغدادى وهو يخلق النيل خلقاً جديداً ، ويجعله هبة من مصر ولا يجعل مصر هبة منه كما قال هيرودوت ، أفما كان البغدادى وهو أحد أبطال الثورة البناءة ، جديراً ببعض ما قيل عن إسماعيل صدقى وهو أعتى أدوات المحتل فى هدم مواطنيه ؟

والأرض الطيبة ؟

والأرض الطيبة التى نزعت من الأقطاعيين ، وأعطيت للمعدمين من الفلاحين ..

لقد مشت الشائعات بيننا تقول عبر السنين الخمس ، أن كثيرين ممن تسلموا الفدادين الخمسة هجروها وأن الباقين لا يحول بينهم وبين الفرار إلا الخوف ، لأن كل فلاح تسلم هذه الفدادين ، وليس فى بيته رغيف ، عجز عن التفرغ لزرعها ، والفلاح الذى زرع .. استولى الإصلاح الزراعى و بنك التسليف ومختلف الجهات الدائنة على كل ما حصد أو جمع ، لقاء ما أعطيه من تقاوى وسماد ، وما قيدوه عليه مما لا يدريه ، وهذا الفلاح الذى يستغيث اليوم ولا مغيث ، كان ناعم البال أيام الإقطاع ، يطعمه سيده ويسقيه ،

ويعالجه ويكسوه ، وإذا أكلت الآفات محصوله أقرضه السيد على محصول جديد ، وكسا من فى « الدار » من « حرمة وعيال » .

ولست أدرى كيف كنا نسمع مثل هذا القول بالارتياح ، ونتلقاه كأخبار تبشر بشيوع التذمر — وإن كنت شخصياً لم أهضم هذا القول يوماً بحكم احترامى لقانون الإصلاح الزراعى ـ ومع ذلك افترضت ـ جدلا ـ أن يكون ما قالوه صحيحاً ـ وأن الفلاح فى «التفاتيش» و « الدوائر » كان يحيا حياة ناعمة ، كالتى يحياها أهل الشمال فى أوربا ، فهل قصد صانع الثورة بالقضاء على الإقطاع إطعام الجياع ؟ قد يكون الطعام والكساء نتيجة محتومة وهدفاً ثانوياً للقانون ، أما الهدف الأساسى لتمليك المعدم ، فقد قال ناصر عنه للنواب ما يأتى بالحرف :

« وكان بيننا وبينكم — أى من العقبات والحوائل — إقطاع استشرى خطره واستفحل ضرره ولم يكتف بأن يملك الأرض ، وإنما أراد أن يضم إلى ملكية الأرض ملكية البشر . . وكان لابد أن ينتهى هذا الإقطاع ويزول حتى نلتقى بكم » .

هذا هو الهدف : زوال هذا « الحاجز » أو «الحائل» ، حتى يتم الاتصال بين القاعدة والقمة ، وتحرير العبيد الذين ضمهم الإقطاع إلى ملكية الأرض ، أو تحرير المستعبدين و « المعذبين فى الأرض» من «سادة الأرض» ، حتى لا يسوقهم «الإقطاع» إلى « صناديق الانتخاب » كما يساق القطيع إلى الحظيرة ، ثم يقال « بحق يراد به باطل » — أن هذا المجلس النيابى وليد انتخابات حرة ، وأنه يمثل أصدق تمثيل إرادة الشعب . .

ولقد توطن هذا «التلفيق» و «أزمن» حتى استنمنا له نحن الكتاب ، واستقمنا على « الطريق » لأنه « مطروق » ، وجرت أقلامنا مؤيدة له ومجمعة عليه ، وأسمته « ديمقراطية » و « حياة نيابيــة » وكان الضمير لا يلبث أن يفيق فنرسلها بين الحين والحين ، صرخــة مدوية ، على صدى حادث — محلى أو دولى — يهز الضمائر ، فتتلقانا السجون لتهذب القلم وتؤدب الضمير ، وتصلح أسلاك الجهاز — والسجن كما لا بد أن تــكون قد علمت — تأديب وتهذيب وإصلاح ، وكان لنا فيه مكان الترفيه :

.. معاملة ممتازة أسموها «حرف ا» تنعم تحت ظلالها بملابسك العادية ، و بالطعام يجنيك من البيت ، وتلقاك ابتسامات مردت على الخديعة والنفاق ، من فئة المتخصصين فيما كان يسمونه « القلم السياسى » فى المحافظة أو « القسم المخصوص» فى « الداخلية » ، ورحم الله كبيرهم « سليم زكى » وما لقيه من مصرع ، وأمام كلية الطب .. كلية « الرحمة » ولم يحمه قصر الدو بارة ولا قصر عابدين ، من قصر العينى ، المفعم بالأنين .

والألقاب والرتب ؟

وخذ « الألقاب والرتب » والقانون الذى ألغاها ..

القانون .. قد يبدو فى ظاهره سطحياً وتافهاً .. ولكنه كان يوم صدوره دفعاً ثورياً يتجه إلى العمق لا إلى السطح .. ويستهدف تحرير المستفيدين روحياً وعلى « مستوى الطبقة » كما حررهم مادياً على « مستوى الأرض » .

ولا يعنينى أن أتحدث عن ثمار القانون الذى سن على مطالع الثورة .

ولا أظن أنه سيؤتى ثماره إلا بعد أن تتم الرسالة .. لأن الرواسب الطبقية ما تزال تعمل عملها .. ولأن ما صنعه بنا آل عثمان .. والاحتلال .. وصدارة الإقطاع ورأس المال .. وسيطرة ما نسميه « النفوذ والجاه والسلطان » .. و بقايا ما انحدر الينا من تقليد المباهاة بالجد السابع أو العاشر .. أو « الدروّار » الرحيب أو « المضْيَفة » التى أوقف الأجداد عليها كذا من الأطيان .. كل هذه الرواسب لايلغيها قانون .. والدليل أننا ما نزال — و بعد أن دلفنا إلى الاشتراكية فى نجاح سريع ومذهل .. ما نزال نتعامل بالرتب فى كل مكان .. ونقيم لها سوقها السوداء برغم القانون .. و يمنح كل منا الآخر رتبة « البكويّة » مجاملة أو تحية .. ونضفيها على « الموظف الصغير » ليهتم بمطلب لنا عنده .. ولا يزال هـذا الموظف يهش لك إذا أنت أضفيتها عليه .. و يطرب لها وقد يقضى حاجتك .

* * *

ولـكن « القانون » كان جزءاً لا يتجزأ من معارك التحرير للنفوس ومعارك التحرير للقلوب ومعارك التثبيت لمعنى الاستقلال .

فمن أى الزوايا — إذن — نظر الخصوم إلى القـانون .. ومن أى الجوانب شنوا عليه الغارة ؟

الجواب :

— من زوايا الأكاذيب .. ومن جانب القصص .

ولم تكن تسمع منهم إلا أن شيخاً مهيباً من سراة القوم وحملة الرتب فى « مصر الجديدة » (عرف بالعطف على الفقير و بالصلاة فى وقتهـا و بالصوم فى تبتل) كان يمشى فى الشارع ومعه خادم صغير لا يجاوز عشر سنين .. يحمل سـلة ، وتلفت الشيخ فلم يجد الصبى فخشى عليه أن يضل الطريق أو تدهمه سيارة ... وكان الصبى قد لحق به فقال له الشيخ فى عطف الوالد : « تعال يا ولد .. انت رحت فين يا كلب ؟ » وقال الصبى ضاحكا : أنا هنا يا سعادة البيه .. ما تُهتش ولا حاجه » .. وكان بائع وكواء يقفان أمام دكانيهما فصاح « الـكواء » فى الصبى : « ما تقولشى يا سعادة البيه .. ما فيش حاجه اسمها بيه دلوأت » وقال البائع للصبى : « وإذا حد قال لك يا كلب .. قل له يا ابن ستين كلب ما بقاش حد أحسن من حد » .

هذه القصة .. ذكرت — وأنا فى زنزانتى — أن أحد الأصدقاء من سكان « مصر الجديدة » كان قد رواها لى قبل أن أسجن .. وكان يرويها بكثير من التأثر

ولا أنكر أنى يومها تأثرت .. ولعنت قانون الرتب كما كان الخصوم يلعنونه .. ورحت أحمل عليه .. وعلى روح التقطيع والتمزيق فيه لـكل ما أمر الله به أن يوصل .. وتعسفت يومها فى تخريج معنى لم يرده الله قط وهو يقول فى كتابه الـكريم : « ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » .

والليـلة وأنا أذكر الحادثة فى سجنى .. وفى السجن الذى ألقى بى ناصر إلى غياهبه .. هل أرى فى القانون نفس الرأى الذى كنتِ أراه وأنا أعيش بين الخصوم ؟

— بكل قوة اليقين .. أقول : « كلا » .

وأضيف إلى هذا « النفى » أن واضع القانون لم يرد أن يتولى «الكوّاء والبائع » تحريض الصبى على شتم الشيخ الصالح . .

هذه أخطاء .. لابد من دفعها .. ثمناً صغيراً للهدف الكبير الذى استهدفه المشرع

بل إن غضبة « الكواء والبائع » على ما ظناه — خطأ — إهانة سددتها طبقة ظالمة إلى طبقة مظلومة . . تكفينا .

ولتصل هذه القضية طريقها .. إلى (التعبير عن ذاتها) ، وليكن (الكواء) أو (البائع) سيء السلوك — أو ما شئت وصفا له ، أو لقلة أدبه — ولكنه بدأ ينسى « أمسه » وما عاناه فيه من مهانة ، و بدأ يذكر (يومه) وما يرجوه فيه من (عزة) ، و بدأ يذكر « غده » وما تكفل القانون به من « حماية » له ، ثم راح يوجه الصبى إلى ذلك الغد المنشود ، راح يشق الطريق إلى الشموخ ، راح يتحدى خصمه حامل الرتبة ، راح يذيب الفوارق ولو بالشتائم ، و إذا كان التهذيب قد تخلى عنه فى التعبير عن ذاته ، فلأن المجتمع لم يُتح له فرصة التهذيب .

☆☆☆

وقلت لنفسى :

— لم تكن الناصرية عابثة — إذن — يوم علقت فى الطرقات حشداً من اللوحات ، تحمل كل لوحة منها كلمة كان قد قالها (ناصر) لهذا (الكواء) ولهذا (البائع) : « إرفع رأسك يا أخى » وكان الخصوم يضحكون منها ، جهالة منهم .

والجيش؟

وأخذت (نفساً) طويلا من (السيجارة) .. أعبر به قارة نفسى .. ثم رأيتنى أهز رأسى فى أسى وأقول لهذه النفس : (فات الوقت .. انك بكشف هــذه الحقائق تضنى ضميرك وترهق أعصــابك .. وكل كلمة تُفلت من شفتيك وأنت داخل الأسوار عن رشاد ناصر .. لا بد أن ترسم على شفاه السامعين ابتسامات لا ترضاها .. أمسك عليك رأيك .. واسكن) .

لم أسكن .. وإن بدا كل شىء حولى سا كناً .

مشت يدى —على غير وعى منى— إلى الصحيفة أو إلى الخطبة .. وبدأت أقرأ .

قرأت ما قاله ناصر عن الاشتبا كات — التى وقعت على خطوط الهدنة بيننا و بين إسرائيل — وعن الغارة الغادرة التى شـنها الاسرائيليون على غزة يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ .

وفى جرأة عجيبة اعترف ناصر بخطأ كبير كان قد تردى فيه .. ولم يتنبه عليه إلا بفضل هذه الغارة .. اعترف أنه قبلها لم يكن يشغل نفسه كثيراً بخطر إسرائيل .. وكان يعتقد (أننا إذا استطعنا أن نبنى فى مصر هذه الأمة الـكبيرة التى نحلم ببنائها فإن خطر إسرائيل يتلاشى وعنادها يلين) .

ولـكن دخان الغــارة على غزة .. انجاب عن حقيقة خطيرة .. (تلك هى أن إسرائيل ليست الحدود المسروقة وراء خطوط الهدنة و إنما إسرائيل فى حقيقة أمرها رأس حربة للاستعمار ومركز تجميع لقوى أخطر من إسرائيل وأخطر من الاستعمار .. وهى الصهيونية العالمية) .

واعترف (ناصر) أن هذه الحقيقة كانت نقطة تحول فى تفــكيره واستبان له أن البناء الداخلى لا يكفى وحده لصيانة أمننا .. ومن هنا كانت معركة السلاح واحتكاره وكسرنا الاحتكار . وتسلحنا .

* * *

وبدأت أرجع بذاكرتي إلى ما كان يقوله الخصـــوم يوم سلحتنا روسيا وتشيكوسلوفاكيا .

كانوا يقولون إن (ناصر) يتخذ إسرائيل ذريعة .. ليقيم جيشاً قوياً .. يحارب به مواطنيه فى الداخل .. ويكتم به أنفاس كل معارض .. ويزحف به إلى البلاد العربية الصغيرة تحت علم (الوحـــدة) .. ليحتلها دولة بعد دولة .. كما دخل محمد على الشام .

وابتسمت ابتسامة باهتة أزجى بهـا العزاء إلى منطق الذى استسلم يومها لذلك الاتهام التافه .. وذكرت العدوان .. وكيف وزعت الحـكومة على الشعب نصف مليون قطعة من السلاح.. وكانت فرصة العمر لو أن الشعب يريد أن يحدث انقلاباً .. ولـكنه لم يفعل .. فهل مثل هـذا الشعب .. هو الذى يسلح عبد الناصر قواته من روسيا ليخمد بها أنفاسه ؟

وتذكرت (العدوان) مرة اخرى..وثبت أن اسرائيل كانت رأس حربة فعلا . ومركز تجمع لقوات الاستعمار ... ومنها—ومن قبرص المحتلة— وثبت انجلترا وفرنسا على القنال وكان العدوان .

وكذب الخصوم — إذن — وصدق ناصر .

وكان (ناصر) ملهما — إذن — عندما جعل بناء الجيش القوى مبدأ من مبادئه الستة من أول يوم فى عمر الثورة وكان (مخطئاً) عند ما ظن فى إحدى الفترات أنه لا خطر علينا من إسرائيل .. وكان حصيفاً عند ما تنبه على الخطأ وسلح الجيش من روسيا .

* * *

بقيت فرية واحدة .. لم تقل الأحداث فيها كلمتها بعد .

تلك هى دعواهم أن (ناصر) إنما يسلح الجيش ليغزو به البلاد العربية .

وها هى ذى «غزوته» الأولى لسوريا .. وقد أعلنت رسمياً بإعلان «الوحدة» .. فما الذى ظهر لنا من خلال هذه «الغزوة» ؟

ظهر لـكل ذى عينين أن الذى أراد غزو سوريا هو المستعمر بل توارت انجلترا وفرنسا خلف أمريكا التى لم تتردد . . وأذاعت بيانها الرسمى تتهم فيه سوريا أنها أمست شيوعية حمراء .. وتحشد على حدودها حشود تركيا وحشود نورى السعيد بوصفهما عضوين فى حلف بغداد .. ولولا إصرار «ناصر» على أن يذود عن سوريا .. ولولا جيش «عامر» الذى انتقلت قواته فعلا إلى سوريا .. لوقعت الواقعة .

فهل كنا نحن الذين نهدد الشقيقة بالغزو ؟

* * *

وثبت أن سوريا هى التى جاءت إلى مصر شقيقة لها .. تمد يد « الوحدة » إليها . وتصر عليها برغم معارضة «ناصر» ..

وثبت أن «ناصر» وضع كل قواته ، وكل سلاحها رهن مشيئة الشعب السورى ، ومن قبل قيام الوحدة ، بينه وبين شعب مصر ، فهل كانت هذه البداية ، طليعة لإخاء عربى عملى .. أم كانت طليعة لأمبراطورية ناصرية تخيلوها ؟

لئن كانت الإمبراطوريات تقوم على هـذا اللون من الحب والإخاء والإيثار .. لدعونا الله للعالم كله أن تقوم فيه أمبراطورية من هذا الصنف .. ناصرية أو أمريكية .. أو روسية .. أو عفريتية يستوى على عرشها صاحب الجلالة ملك الجن .

وأخيراً

أخيراً .. ثقل رأسى

واستقر فيه .. أن التفكير على هـذا النحو — وداخل هذا « الليمان » لاخير فيه .. ولا جدوى منه .. وقد يعرضنى للظن السيء .. وما أغنانى فى المحنة عن سوء الظنون ..

* * *

وطويت الصحيفة ..

ورأيت أن أجمد تفكيرى ، حتى أخرج من سجنى ، إن كان قد قدر لنا ، أن نخرج منه يوماً ، ومن يدريك ، لعله يكون قريباً ..

قريباً ؟؟!!

وبعد أسابيع ؟ أو شهور ؟ أم بعد سبع سنين ؟ لعله يكون قريباً ..

لم لا ؟ وأبناء البلد يقولون دائماً : « ربنا كبير » ..

وهو فعلا كبير .. وأكبر مما تتصور عقولنا ..

ونشرت الصحيفة مرة أخرى .. « مفارش لحاجياتى » ..

* * *

وفى ميزانى ، أن هذا الفصل يشكل المرحلة الرابعة عشرة فى موقفى من **« الرجل الذى تآمرت عليه »** .

الفصل الخامس عشر

سمر .. من الليمان

قلت فى رفرف الفصل الفائت .. أنى طويت على مطلع الفجر صحفى وأوراقى ، وقررت أن أجمد تفكيرى ، حتى أخرج من سجنى إن كان قد قدر لى الخروج ..

وابتسمت عند ما مر بخاطرى أن هذا الخروج (قد يكون قريباً ؟!)

وأحب أن أسمر معك فى هلال هذا الفصل — بعض الوقت — وأن أستأذنك فى وقفة عند ذلك الخاطر ، لترى كيف ينسرب نور الرجاء ، إلى ظلمة السجن ، أو إلى قلب السجين .. حتى يقوى على احتمال المشقة .. حباً فى البقاء ونشداناً للحياة .. وتلك حكمة الله ..

***

والنور فى السجن نوران :

نور ينبثق من أعماق السجين كرد فعل لما يعانيه ..

ونور ينثال عليه ، من المحيط الذى يعيش فيه ..

وهو لا يدرى على التحقيق ، أىّ النورين يسبق أخاه أو يؤثر فى أخيه .

ومن النورين ، ترى السجين يقوّى عزيمة السجين ، بأى أمل مصنوع ، أو بأى خبر مكذوب ، عن عفو مأمول أو إفراج قريب .

والسجين إذ يُقوّى عزيمة زميله بالأمل « المصنوع » ، إنما يرجو أن يعود زميله إليه يوماً بأمل (غير مصنوع) ، يبثه هو الآخر فيه ، وهكذا تتم العدوى وتنتشر ، وتلفق (البشريات) فى سهولة و يسر ، كما لو لقيت صديقاً بادى الهزال يريد من الضعف أن

ينقض» فقلت له جاداً : (صحتك النهار ده ، أحسن من آخر مره ، شفتك فيها) فيرد عليك راضياً وقد شد قامته : (وانت كان ما شاء الله تستاهل الواحد يسمّى .. ويمسك الخشب) .

* * *

وأقوى من هذا التشبيه بالحديث (الصحى) ، ومن هذا التعميم بموضوع (العدوى) أن أنتقل بك إلى التطبيق ، ليكون سمر ، ولتصغى إلى بعض ما جرى معى شخصياً وبوصفى سجيناً سياسياً ، حتى يتجسّد أمامك المعنى الذى أرمى إليه .

والسجين السياسى يمثل ظاهرة التفاؤل أكثر مما يمثلها « السجين العادى » الذى لا أمل له إلا فى عفو عن نصف مدة العقوبة فى عيد كبير كالعيد العاشر للثورة أو فى حادث سعيد كعودة الوحدة بين مصر وسوريا .. وقد يتقرر العفو .. ويتخطاه إذا لم يشهد له « ملفه » أو « دوسيهه » بأنه كان فى سجنه « حسن السير والسلوك » .

أما « السجين السياسى » ، فما يكاد يضع قدميه داخل السجن ويلقى السجناء السابقين ، حتى يخفوا إليه ويلتفوا من حوله ، ليؤكدوا له أن الأمر كله لن يجاوز أسابيع وإن « تبغدد » واتّاقل ، فبضعة شهور .

وعلى الألسنة أو بين الأشداق قائمة معدة بأسماء من سبقوك من الأتراب يتلونها عليك كأنها فى كتاب ، فلا يلبث نور الرجاء أن ينسرب إلى قلبك من قبل أن تقضى بضع ساعات فى سجنك ، أسماء من سبقوك إلى (الليمان) أو إلى (سجن مصر) من السياسيين أمثالك جاءوا وعلى كواهلهم أحكام ترتعد لهولها الفرائص ، وتتأرجح بين الإعدام — ولك البقاء — وبين الأشغال الشاقة المؤبدة ، وقل أن تجد من بينها حكماً خفيف الظل .. مدته خمسة عشر عاماً ، أولئك جميعاً لم يذهب أحد منهم إلى مدافن الإمام !!؟ وإنما عادوا إلى دورهم وكما يعود الكرام ، وبعد بضعة أشهر فى الأعم الأغلب ، وأقلهم حظاً أخلى سبيله بعد عامين أو عام ؛ أسماء لا حصر لها يحفظونها عن ظهر قلب ، كأنها فى قائمة كما قلت .. ويتلونها كما يتلو القراء السوَر : ابراهيم عبد الهادى وفؤاد سراج الدين وإسماعيل الهضيبى وإبراهيم فرج وكريم ثابت والدكتور النقيب ..

وحسين سرى عامر ومحمود عبد المجيد .. إلى آخر القائمة الطويلة التى يختتمونها باسم (الملوم) — وما أبعده عن السياسة والسياسيين .. ثم تبدأ الأحاديث عن المفاجآت التى صاحبت كل إفراج ثم يقولون لنا أخيراً : (واوعوا تنسوا أن قضيتكم نظيفة.. لأن الريس ما يزعلوش إلا القضية اللى فيها اتصال بدولة أجنبية زى قضية المراغى أو فيها جاسوسية زى المصريين اللى فى قضية زارب وسوينبرن) .

وزمالة .. السجن ؟

وعشنا فى هذا الجو الجديد .. وتنفسنا فيه تنفساً عميقاً .. عمق الأمل الذى أرساه فى قلوبنا « الزملاء » الجدد ، وليس أعز على السجين من (زمالة السجن) ولعلها أشد رسوخاً فى العاطفة — وبحكم المحنة — من زمالة المدرسة وإن كانت زمالة المدرسة أبعد جذوراً .

ولا يعيب (زمالة السجن) إلا ضعف المستوى الخلقى بين السجناء باستثناء القلة الكريمة التى رمت بها الأقدار إلى هذه الغياهب ، وقد تخرج من سجنك وكل خلجة فيك تخفق بالحب الحميم لكل سجين ، وقد يلقاك أحدهم بعد الإفراج عنه — وقد تكون قد نسيته فيذكرك بنفسه وتذكره — وتفرح بلقياه ، وقد يكون فى حاجة إلى العطف فتفيض عليه من عطفك كل ما تحمله عاطفتك ، وفجأة تكشف لك التجربة الحية عن معدن خسيس فيه لا سبيل إلى استخراج الدر منه ، أو عن عنصر من عناصر الجريمة لا سبيل إلى أن تطب له ، أو تستبدل به سلوكاً طيباً آخر ، وقد تمتد يده إلى جيبك وهو حزين ونادم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هذه اليد ، لأنها فى الحقيقة ليست يد الرجل الذى عطفت عليه ولا يريد أبداً أن ينسى عطفك ، وإنمـــا هى يد (اللص) الرابض فى أعماقه ، واللص الذى يجرى مع الدم فى عروقه ، واللص الذى يتردد مع الهواء فى أنفاسه .

وأعطيك مثلا طريفاً ما دمت قد انتويت أن أسمر بعض الوقت معك .

كان من بين رفاقى فى السجن ، سجين متخصص فى تزوير الشيكات على الأغنياء

وكان الشاب دمث الأخلاق ، حبيباً إلى كل من عرفه ، وكان يعمل فى ورشة الأحذية فى الليمان فأتقن هذه (الصنعة) ، وكان يمـــدنا بأفخر الأنواع منها ويقبل ما تدفعه ولا يساوم ، وقد سجل أرقاماً قياسية فى العفّة ، عندما كان يقوم بمهمة الوسيط بين السجناء من ناحية و (الأسطوات الملـكيين) فى الورشة من ناحية أخرى ، فكان يتفق مع (الأسطوات) على أن يحملوا رسائل (المساجين) إلى أهلهم ، وردود أهليهم عليهم ، ومع الردود كل المطلوب من بن أو شـاى أو ملابس أو نقود ، لقـاء (جعل معلوم) لحامل الردود .

وكان (مزور الشيكات) يرفض أن يتقاضى أى (أتعاب) من زملائه ، ويرفض أيضاً ـ وهذا هو الأعجب ـ أن يقاسم الأسطوات (أتعابهم) مع أن العرف فى السجون أن يكون الأجر قسمة بين الأسطى والوسيط ، وفقاً لاتفاق يبرم .

وحان حين الإفراج عن زميلنا (مزور الشيكات) ، وخف كل سجين ميسور إليه ، يحمّـله رسالة إلى أهله ، ويثنى فيها على زميله حامل الرسالة .

ولم تمض أيام ، حتى اكتشف أصحـاب الرسائل أن أخانا الوفى العف ، عاوده الداء ، بعد الإفراج ، فنسى العفة ونسى الوفاء ، وافتتح عهده الجديد بالاحتيال على كل من حمل إليهم الرسائل ، وحصل من الأغنياء فيهم على مبالغ طائلة ، وأحذية فاخرة ، وملابس جديدة وبن وشاى ، وحلوى وطعام ، وتوارى فى الزحام .

مثل هذه النماذج المنحلة لا تجدها طبعاً إلا بين صفوف المجرمين أرباب السوابق أوالذين انحلت داخل السجن أخلاقهم ، وكان التيار أقوى منهم ، ومعظمهم من أبنـاء القاهرة والاسكندرية ..

أما القتلة — أخذاً بالثأر — من صعيد مصر وريفها فنذر أن تجد بينهم منحلا من هذا الصنف ، لأن (الأخذ بالثأر) يُلهب فى صاحبه ـ مع الأسف ـ شعوراً غير عادى بعزة الجريمة التى ارتكبها ، ومثله لا تعرف (الخسة) طريقاً إلى مشاعره ، ولا يتصرف إلا على مستوى (الرجولة) التى دفعته إلى الجريمة ، وهونت عليه العقوبة ، بل إن من بينهم من تعقد له الزعامة — داخل السجن — على أهل إقليمه كما كانت

معقودة اللواء له — خارج السجن — على أهل قريته أو أهل قطاعه ، ومثل هؤلاء ، محسوب فى السجون حسابهم .

زعامات .. وتعصب إقليمى

وللزعامات خلف الأسوار عرف يحكم سلوكها ، وحدود لا تتخطاها ، وهى أظهر ما تكون بين أهل الصعيد ، وأهل المنوفية ، فإذا ثار خلاف بين (أسيوطى) و (منوفى) غضب الصعيد كله لابن أسيوط ، وغضبت (المنوفية) وحدها لابن (المنوفية) ، أما إذا ثار الخلاف بين سوهاجى واسيوطى ، غضب أهل محـــافظة سوهاج كلها للسوهاجى وغضب أهل محافظة أسيوط كلها للأسيوطى ، وهكذا يمشى الخط يضيق ويتسع لـكنه لا يلتوى ، والدستور الذى يحكمه « أنا واخويا على ابن عمى .. وانا وابن عمى على الغريب » .

وكان طريفاً أن تدركنى نفحة — و برغمى — من هذه التقاليد .

كانت قضيتنا تحمل طابعها السياسى ولا تنتمى لأى إقليم ... ولـكنى فوجئت يوماً بزوار من العنابر الأخرى ... جاءوا للتسليم على ... بوصفى (صعيدياً) مثلهم ... بل بالغ أحدهم فى التحية — قاتل والد رياض غالى — وهو رجل ظريف ونحيف وله شارب . و بايعنى بالنزعة على أهل الصعيد فى كل العنابر ... وحملت الأمر على محمل المزح ولم أعره اهتماماً ... ولـكن الأحداث نبهتنى على خطورة الوضع فنبهتهم على حقيقة وضعى فخاب أملهم فى ... ومضوا بالرعاية يحيطوننى بها كلما لقيتهم بدرجة « سياسى من الصعيد » .

وزعامة ناصر

وأعلن الآن — و بعد كل هذا السمر الذى طال — أنى لم أكن أتسامر معك لوجه السمر ... وإنما لأقول لك أخيراً ... أن هذا « التعصب الإقليمى » عند أهل الصعيد لم يقف عند حدود الصعيد ... و إنما زحف إلى «قصر القبة» فى القاهرة لا يبالى وضعاً ولا شرعاً ... وزحف جاداً ولم يهزل ... وزحف نحو « جمال عبد الناصر » نفسه .

نعم ... قد تعجب إذا عرفت أن الزعامة الناصرية التى تنضوى الآن تحت لوائها شعوب العروبة من المحيط إلى الخليج ... وتتطلع إليها العيون السود فى كل أرجاء القارة السوداء ... تضيق فى « الليان » وتضيق ... حتى تكون وقفاً على الصعيد ... وأحياناً على إقليم واحد هو أسيوط ... وأحياناً على مركز واحد هو أبنوب ... فإذا حدث أن أفلتت كلمة نابية من فم سجين — سياسى أو غير سياسى من القاهرة أو الوجه البحرى — ضد جمال عبد الناصر ... ثار الصعيد كله وسمعتهم فى القليل وهم يصرخون فى عاثر الحظ الذى « نبـا » : « اخرس يا ولد المحروق ... ده جمال سيدك ... وسيد اللى نفضك » ... فإذا قلت لهم تهدىء ثائرتهم مثلا إن جمال حبيب مصر كلها ردوا غاضبين (أسد الصعيد بس) فإذا كان الذى « نبَا » من أهل سوهاج أو قنا ...رد أبناء أسيوط (ولد أسيوط بس) فإذا كان الذى « نبَـا » من أهل أسيوط المدينة رد أبناء أبنوب (ولد أبنوب بس) .

وكنت أصلح بين المتشادين من (الأسايطة) وأمازحهم وأقول لهم ضاحكا : (أنا كان ماليش زعيم ... غير ولد عامر ... لأنه منياوى) فيرد ماكر منهم (ما تزعلش قوى كديه يا بوى ... ما هو ولد جمال الغالى سميناه لـكم عبد الحـكيم ... اسكت بقى ولمها ... دانت مقامك عندنا كبير) و يصفو الجو و يروق .

عود إلى الدراسة

وأخرج من هذا (السمر) الذى قضينا فيه بعض الوقت ... إلى جو جديد آخر .

ولا أظن أنك نسيت هذه الليلة التى تركتك فيها بعد أن اتخذت قرارى إثر إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ... بعد أن قررت تجميد تفـكيرى حتى أخرج من سجنى .

وحاولت أن أبر بوعدى — أو أنفذ قرارى — وظللت بضع ليال ... أتنقل خلالها بين القرآن وكتب الدين و بين القصص وكتب العصر ... أو المجلات الإنجليزية التى كانت ترد إلى (الاسكتلندى سوينبرن) رأس قضية الجاسوسية ، أو (اليهودى

مابر مايوحاس) أبرز شاب فى قضية الصهيونية ... وقد لاحظت أن (مابر) يتخير لهداياه — فى أغلب الأحيان — المجلات التى تحمل فى صفحاتها أعنف الهجوم على ناصر ... ولا أظنها (الصدفة) .

٭ ٭ ٭

وكان (سوينبرن) و (زارب) و (الصهيونيون الخمسة) يهتمون بنا ... ويعملون على توثيق الصلات بينهم و بيننا وكان الصهيونيون أكثر براعة فى توثيق الصلات ... فكبيرهم (مابر) إذا لاحظ مثلا أنى أستثقل ظل الأربعة الباقين ... أوعز إليهم أن يلقوا بثقلهم على غيرى ... وافتن وحده فى التودد إلى ... حتى أتوهم أن الأمر أمر حب شخصى ... وليس أمر (تكتيك صهيونى) .

وكان الصهيونيون يكثرون من دعوتنا إلى تناول الغداء على (مائدتهم ؟!!) — فى الغرفة الفسيحة التى خصصت لهم والتى افتنوا فى تنسيقها ومن بينهم مهندس بارع فى (الديكور) اسمه (مابر زعفران) جعل من الزنزانة فى ليمان طرة (صالون استقبال فى هيلتون) — كما أسماها المرحوم اسماعيل طلعت مأمور أول الليمان وهو يفتشها ذات مرة ويجهز على كل جمال فيها ويعيدها سيرتها الأولى زنزانة بين الزنازين .

ولم يكن الخمسة يضيقون بأى متاعب تحط عليهم ... وسرعان ما كانوا يعيدون (الزنزانة) إلى (الهيلتونية) من جديد ... غير آسفين على ما صودر أو بدد أو حطم أو مزق ... وسرعان ما كانوا يعودون إلى توجيه دعواتهم لنا ... إلى تناول « الغداء » على « مائدتهم » ولا سيما فى الأعياد والمواسم التى يسمح لهم خلالها — بأمر من وزارة الداخلية — باستيراد ما يشاءون من خارج السجن من أطعمة « توائم تقاليد دينهم وطقوسه » وحلوى غير ما يحمله أهلوهم إليهم فى هذه الأعياد وهذه المواسم ...حتى لا يقال عنا أننا نحارب اليهودية كدين ... فى حين أننا نحاربهم — فقط — كصهيونيين .

٭ ٭ ٭

وفكرت فى هذا الاهتمام بنا ... وضاق صدرى .

ولم ألبث أن رأيتنى — على غير وعى منى أخرج على قرارى — وأفكر من جديد فيما يخص السياسة ... وفيما يمت من قرب أو بعد إلى « الناصرية » و « ناصر » .

وجدتنى ذات ليلة أسأل نفسى :

— هل مما يشرفنى كمصرى .. أن يرى هؤلاء الإنجليز والصهيونيون فى قضيتنا .. خصومة للناصرية تلتقى بخصومتهم لها ؟ وأن يروا فينا هذه « الصلاحية » لقيام هذا « الود » بيننا و بينهم ؟ و إذا كنت قد سمحت لخصوم « ناصر » — قبل أن أسجن — أن يضللوا بى وأن يتخذوا منى صديقاً لهم وعدواً له ... حتى تآمرت عليه ... وحتى أرسلونى إلى هذه الغياهب ... أفأسمح لاسكتلندى كسوينبرن وللمالطى كزارب ... وللصهيونيين كابر مايوحاس ومايز زعفران وروبير وفيليب وخامس نسيت اسمه ... أن يتخذوا منى صديقاً لهم ... لأنى خصم لناصر ؟ ثم هم لا يحملون إلينا من « الأخبار » — نقلا عن كبار زوارهم كالقسيس أو القنصل أو كعضو مجلس العموم الذى كان يزور سوينبرن وزارب ... كلما قدم إلى مصر وقابل عبد الناصر ليتوسط فى الإفراج عن السجينين — إلا مايدل على قرب زوال ناصر... وأنا تآمرت على ناصر ليزول... أليس معنى هذا التوافق أن أمانىّ — كمصرى وعربى — هى نفس أمانىّ سوينبرن وزارب وهى نفس أمانىّ أعضاء شبكة التجسس الصهيونية الخطيرة ... التى أعدم منها واحد... وانتحر آخر ... وقذف بثالثة إلى سجن النساء فى القناطر ... وجىء بالخمسة الباقين إلى الليمان ؟

وشعرت بغثيان نفسى... يلازمه شعور آخر بالمرارة... و بالحقارة معاً... ورأيتنى أسأل نفسى مرة أخرى :

— ألا يكفى زحف هؤلاء الجواسيس السبعة من خصوم « ناصر » إلىّ لكى أدنو أنا من « الناصرية » ؟

وتنبهت ... وابتسمت ...

ذلك — إذن — نبع جديد من ينابيع التحول ... ومَعلم جديد على طريقى ... وعين غزيرة ...وثرّة...بالنور و بالهداية...تتفجر الليلة داخل قلبي ...أتراها من السماء هبة ... أم تُراها من الله هديَّة ؟

وتخايل السؤال أمامى ولم أجب .

وقلت أعنف نفسى : ما أزال أتردد ... حتى حيال هذا الشعور ؟ وحتى أمام هذا المنطق ؟

وهززت رأسى أسفاً على نفسى ... ثم عدت فأبيت أن أستسلم للتردد ... واستأنفت تفكيرى ... ورحت أقول :

— الأمر واضح ... أمامى « وقائع » تعطينى « حقائق » فلماذا أتهيب مواجهة الحقيقة ؟

وخفت أن أضعف فتناولت قلمى — وكنت قد أعددت « كراسات » أقيد فيها ما يعن لى أن أقيده من خطرات نفسى ورأيتنى أكتب ما يأتى :

- كل ما يرضى هؤلاء الأنجاس ... يجب أن يغضبنى .
- كل ما يفرح هؤلاء المناكيد ... يجب أن يحزننى .
- كل ما يرجونه من الشيطان ... يجب أن أرجو من الله نقيضه .
- كل وجه يطالعهم من الأحداث ... يجب أن أطالع من الأحداث الوجه المضاد .

على هذه الطريق أمشى ... إذا أردت ألا أضل طريقى .

وعلى هدى هذى المقياس السليم ... أستطيع أن أحدد مكانى ... وشعرت بالراحة ... وأقلعت عن فكرة التجميد ... ونمت .

***

وفى نومى بدأ جهاز التفكير يعمل .

وخطر لى ... أن وجه القرار مضىء من أحد جانبيه ... وأن لهذا الوجه جانباً آخر لم أحاول أن أضمه إلى جانب أخيه ... لأرى الوجه على الطبيعة يغمره الضوء .

يجب أن أحب « ناصر » لأن « الجواسيس السبعة » يكرهونه ؟

جميل .. ولكن أجمل منه أن أجعل « ناصر » نفسه موضوع بحث مستقل عن عاطفة الحب منى .. مستمدة من عاطفة الكره منهم .. حتى أقتنع أن ناصر — كقائد — أهل لحبى كجندى .

ويكون السؤال الذى يجب أن يوجه الآن هو :

— من هو جمال عبد الناصر ؟ (١)

وذكرت مرة أخرى كتاب « فلسفة الثورة » . ..

وعجبت كيف مررت به كريماً — ذات مرة — ولم أحاول وهو يؤرخ لنفسه فيه وبقلمه ، أن أعكف عليه دراسة وتحليلا . . وأن أقرأ فى أثناء سطوره ما لم يكتبه بالحروف .. وأنا مؤمن — وهوايتى المفضلة دراسة الشخصيات — أن خير مرآة يمكن أن أرى فيها أى شخص . . هى المرآة التى وضع الشخص نفسه فيها وبيده . . ومهما يكن نصيب الوضع الذى تخيره من الصدق أو من الزيف .

وصح عزمى على أن أحصل على نسخة من هذا الكتاب عن طريق طبيب أو ضابط .. أذا لم يكن فى مكتبة الليمان . . وأن أحصل معه على كل ما يمكن الحصول عليه من الكتب التى تضم خطبه وأحاديثه وتصريحاته و بياناته .. ومن خلالها أيضاً .. أستكمل ما عسى أن يعوزنى من حقائق هذا الرجل . . وفرصة السجن وسكونه « قد لا تعوض

---

(١) من عجائب المصادفات أن الأحظ — وأنا أكتب هذا السؤال — نقلا عن أوراق وكنت أقلب ماطبع من ملازم الكتاب بين يدى ... من عجائب المصادفات أن الأحظ أنى وجهت السؤال نفسه إلى نفسى فى صفحة ٨ عندما ثبت لى أن ناصر ليس وفدياً ولا إخوانياً وليس شيوعياً ولا أمريكياً فقلت بالحرف « وهو إذن جمال عبد الناصر فقط .. فمن هو إذن جمال عبد الناصر ؟ » .

كجو . . » و « الليل » فى « زنزانتى » بالنسبة لهذه الدراسة التى استقر رأيى على أن أبدأها . . يشبه فى ميزانى . . « المعمل » الساكن . . بالنسبة « للعالم المتفرغ » .

ولا بأس بازدواج شخصيتى فى هذه الفترة . . فأحاول فى الليل أن أجد نفسى . . وأن أعدها للغد إن كان لها غد . . وأحاول فى النهار أن أرتدى « ثوب قضيتى » وأصغى إلى كل حديث . . وأساير كل تفكير .

نجدة . . ومن الصحافة ؟ !

وكأن حرفتى . لم تشأ أن تتخلى عنى داخل سجنى بعد أن تخلى كل الناس عنى مذ سجنت .. وهبطت عناية الله تحقق لى الأمنية . . وتفرد لى من «مكتبة الليمان» مكاناً أواصل فيه بحثى . . بسبب « مهمة صحفية » طلب إلىّ مدير الليمان أن أقوم بها . . ولاسبيل إليها غير « المكتبة » .

* * *

كان الأميرالاى السيد والى — المدير المهيب لمنطقة الليمان يومئذ — يود لو استطاع « الليمان » — على جلاله ؟ ! ! — أن يصدر مجلة خاصة به تنافس « مجلة السجون » التى كان يصدرها محمود صاحب (مأمور سجن مصر فى ذلك الوقت) ، وكانت المجلة قد أحرزت تقدماً يثير الغيرة فعلا ، وكانت افتتاحيتها تذيل دائماً بتوقيع المدير العام لمصلحة السجون ، وكان « محمود صاحب »قد رقى فى تلك الأيام نائباً للمدير العام للمصلحة وأصبح « لواء » .

ولاحظ « السيد والى » أن أمامه — بل « تحت إمرته » — وزيرين سابقين وكاتباً من الكتاب كان يوماً يصدر صحفاً ، و « شاباً » كان يوماً يعمل فى الصحف ، والفرصة إذن مهيأة لإصدار مجلة لليمان، تصرع « مجلة السجون » .

واتصلوا بنا ، وتباحثوا معنا .

واعتذر عبد الفتاح حسن ، بأن «القانون» صناعته وليس « القلم » ، والحقيقة

أنه اعتذر لأنه يرفض أن يجمع بينه و بين « الشاب » عمل — ورحبنا نحن الثلاثة .. وشرط اثنان منا (صلاح الدين وأنا) أن توقع مقالاتنا بتوقيع مستعار ، وقبلوا الشرط آسفين ، ومضينا — وصلاح صحفى قديم وكاتب — نعد العدة مخلصين أو كالمخلصين ، والحقيقة أن صلاح الدين وحده كان هو (المخلص) للمهمة — كعادته إذا هو أعطى كلمة — أما (الشاب) فأخلص لها لأنها كانت تعفيه من صعود الجبل ، أما أنا فأخلصت لها لأنها كانت تتيح لى قضاء اليوم كله فى مكان مريح أجد فيه مراجعى فى موضوع ناصر ، و ينأى بى عن (متاعب العنبر) ، وتوفر لى قدحاً من الشاى أو القهوة الممنوعين بجيئنا بهما من البوفيه ، الضابط المشرف على المكتبة أو أى مسئول آخر .

* * *

ودع عنك مصير المجلة ، فإنها لم تر النور قط ، وما كاد الضابط المختص يطوف بمطابع القاهرة و يحمل نتائج (المناقصة) حتى فزع المدير من (المبلغ المطلوب) وعدل عن الفكرة ، وتركونا نتردد على (المكتبة) ولم أعلم بهذا العدول ، إلا بعد أن صدر عدد جديد من (مجلة السجون) ورأيت فيه مقالا لى منشوراً فيها كنت قد أعددته لمجلة الليمان التى لم تصدر ، ولم يحل لى هذا الطلسم إلا (محمود صاحب) نفسه عندما جاء الليمان فى صحبة المدير العام فيما يسمونه (التفتيش السنوى) ولقينى محمود فى حديقة القسم الطبى (وهو صديق لى مذ كان طالباً فى مدرسة البوليس أيام عزيز المصرى) وقص على كيف أنه رأى المواد التى كانت قد أعدت للمجلة التى لم تصدر فوجد المقال وعرف أنه لى فنشره فى مجلته ووضع اسمى فى ذيله وعلى غلاف العدد .

دع عنك مصير المجلة إذن ، والذى يهم أن المكتبة عاونتنى على المطالعة فترة من الزمن ، ثم عدت إلى (العنبر) أقضى فيه النهار كما يقضيه كل سجين ، فإذا جاء الليل ، بدأت أقرأ كل ما تصل إليه يداى عن « ناصر » .

والأحلام والطوالع ؟

وحتى تجىء ثمار هذه الدراسة فى الفصول القادمة .. يطيب لى وأنا أختتم هذا الفصل الذى ماج بهذه النماذج من ألوان إنجليزية وصهيونية .. وصحفية .. يطيب لى

أن أرسم جانباً آخر من الصورة أسميه « الأحـــلام والطوالع » بعد أن حدثتك عن الأمل المصنوع الذى يبثه كل ســجين فى قلب زميله .. رجاء أن يعود إليه بأمل غير مصنوع .. فى إفراج قريب أو فى إفراج مأمول ..

و « الأمل المصنوع » قد يكبد صانعه جهداً .. أما الأمل السهل الجميل .. الذى لا ينتظر حادثاً سعيداً .. ولا عيداً .. ولا يكبد جهوداً .. وهو يتجدد تلقائياً كلما حاول صاحبه أن يجدده فهو هذه « الأحلام » وهذه « الطوالع » .

***

وأول قطر من هذا الغيث .. انهمل علينا ذات صــباح .. فتحت فيه أبواب الغرف .. وأقبل الزملاء يلقون علينا تحية ذلك الصبح .. ورأينا عملاقاً ضخم الجثـة ، عريض المنـكبين ، خفيف الظل ، يقبل من بعيد فيما يشبه الغارة والسجناء فى أثره .. كأنهم فى مظاهرة ، وصوته يسبقه إلى آذاننا مجلجلاً فى فناء العنبر وهو يصيح « علىّ الطلاق يا باشوات .. أنتم مروّحين بعد شهر .. شهر واحد .. علىّ الطلاق » .

وفزعنا من الفرحة .. ومن قبل أن نعيها .. ثم سيطرنا عليها لنستعيد رباطة الجأش ولنسأل ياسمين : « إيه الحـكاية يا على » ؟

وكان أخونا هذا هو « على حسنين المتهم بقتل المرحوم عبد القادر طه والمحـكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة من سنة ١٩٥٢ وكنت أعرفه من قبل أن يسجن وكان يخصنى بنصيب أوفر من وده وحبه .. وهو مشهور باندفاعه المشبوب وبالتهور فى كل ما يقول وكل ما يفعل » .

وأسفر الأمر كله عن « حلم » رآه لنا فى نومه .. وعرانا « القرَف » .

ولـكن العجب أن المسجونين اهتموا بالحلم .. وأرسلوا فى طلب إخصائيين من « وكلاء ابن سيرين » فى تفسير الأحلام .. فجىء بهم من العنابر الأخرى وقص عليهم «على حسنين» رؤياه .. وفسروها بما وافق هوانا وهواه .. و بدأوا يذكرون لنا أحلاماً سايرت « الإيمان » عبر تاريخه .. تفقأ عين المسـكين « سيجموند فرويد » وتسفه رأيه

فى نسبتها إلى الرغبات المكبوتة فينا .. وتروى كيف رأى (فلان) للسياسى (علاَّن) حلماً تحقق بعد أن رآه (الحالم) بيوم واحد .. وكيف وكيف ؟

وأدركنا من تلك الساعة أن الأحلام تلعب دورها الخطير فى السجون .

وأشد عجباً أن تنتقل — على الأيام — إلينا .. فإذا رأيت غرفة عبد الفتاح حسن مغلقة من الداخل .. وقيل لك أن فيها عبدالفتاح والسوادى فافهم .. ولا تتحرج .. أنه كان يقص علىَّ (رؤيا) عجيبة رآها .. ويطلب إلىَّ .. أن أطوى صدرى عليها .

و بدأت االعدوى تزحف إلىّ بعنف .. فأحلم .. ومع الصبح أستقبل (الزملاء) الذين (حلموا) لى .. وقد أعددت (كراسة) .. أسجل فيها كلما جاء الليل .. كل ما كنت سمعته فى النهار من أحلام الحالمين .. وكل ما كنت أراه فى الليل من الأحلام . .

أما (الطوالع) — بكل فروعها — من كف ورمل . . وزايرجة وفلك . . فهى فى المكان الثانى بعد (الأحلام) .

وقد ارتج (اللبيان) يوماً (لنبأ خطير) مشى بين طرقاته .. ذلك أن سجيناً كان فى (سجن مصر) تحت المحاكمة بتهمة تزييف النقود وحكم عليه بالأشغال خمس سنين فجىء به (اليوم) إلى اللبيان .

— وماذا فى هذا النبأ أيها الزملاء ؟

قالوا إن أخانا السجين الجديد .. يؤاخى الجن .. وقد صنع فى (سجن مصر) الأعاجيب .. وطالعه لا يخيب .

وأرسلنا فى طلبه .. و بذلنا جهداً غير هين حتى أذن الأطباء فى نقله إلى عنبرنا فى طابق تحت طابقنا يُعد (مستشفى) .

ورأى لنا الزميل طوالعنا ، وحدد أياماً للافراج عنا ، بعد أن حدثنا حديثاً عجيباً عن طوالع رآها للمتهمين فى قضية مدير البنك الصناعى ، وتنبأ بالبراءة لأحدهم —

وهو محمود حنفى صاحب إحدى شركات الملح — و بالسجن للآخرين ولم يكن الحكم قد صدر بعد وطلب أن نعتبره امتحاناً لقدرته .

وانتظرنا الحكم ، وكان قد تحدد موعد النطق به .

وصدر ، وكان أخونا لم يزل مقيما بيننا ، وبرىء محمود حنفى فعلا وحكم على الآخرين ، وارتفعت أسهم «العراف» الجديد حتى هبطت بسببها أسهم كل «العرافين» فى «روايات شكسبير» .

وأعترف أنى عشت أنتظر — باهتمام — اليوم الذى حدده أخونا للافراج عنا لأن الذى حدده له صاحب الجلالة « خربط ملك الجن الأحمر » وهو بعينه الذى قضى لحنفى بالبراءة .

وجاء اليوم ولم يفرج عن أحد منا ، واعتذر أخونا بخطأ غير مقصود وقع ، ثم نقل « عطاءه » على يوم آخر ، وخاب كل يوم حدده ، وكان ظريفاً فى شخصه فلم نضق بأكاذيبه ولم نبخل عليه بعطف .

* * *

هذه صور باسمة ، استخلصتها لك من السجن القاتم ، ومن خلف أسواره الرهيبة قبل أن أستأنف التفكير الجاد فى « ناصر والناصرية »

* * *

وفى ميزانى أن هذا الفصل يشكل المرحلة الخامسة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السادس عشر

الوحدة .. والخيبة .. والعودة

أشعر أنى نثرت زهور التفكير فى فناء الزنزانة الساكنة .. وعبر لياليها الساهرة .. من غير أى تنسيق بينهـا ... ومن غير أن أحاول أن أقدمها لك باقة إثر باقة .. والأفكار كالزهور .. وليس بكسب أن أملأ لك جنبات الغرفة أريجا و إنما الكسب أن تعرف أنواع الزهور حتى تفرق بين الغالى منها والرخيص .. وحتى تشترى ما يرضى ذوقك وترفض ما لا يرضيه .

* * *

ولقد وقفت بك — بعد سمر طال فى الفصل الأخير — عند عزم صح على أن أعرض لناصر نفسه بالدراسة والتحليل . وقبله وقفت بك عند الوحدة التى أعلنت بين مصر وسوريا وحدثتك عن فرحتى الطاغية بالخطاب الذى ألقاه الرئيس عن هذه الوحدة فى مجلس الأمة فجاء دستوراً لاتجاهات الدولة العظيمة التى قامت على كل المستويات ، وحدثتك مشدوداً إلى « ناصر الصعيدى » عن تقاليد الصعيد فى الليمان .. وحدثتك مشدوداً إلى الأمل فى الإفراج القريب عن صور باسمة من « الأحلام والطوالع » .. وحدثتك عن جهود لى فى مكتبة الليمان .. وخدمات قدمها لنا أطباء وضباط .. واجتمع عندى ثماراً لهذه الجهود .. كتب وصحف وخطب وبحوث تخذت منها أدوات لدراستى وتخذت من كتاب « فلسفة الثورة » . قاعدة لهذه الدراسة .

وأرى أن الوقت قد حان .. لأن أنسق .. كل نوع من الزهور فى باقة خاصة به .

* * *

والسير الطبيعى أن أعود إلى موضوع الوحدة .. ثم أثب منه الى « فلسفة الثورة »

ثم أنتهى إلى الصورة الأمينة للرجل الذى استخفى علىّ . . ثم أحدد مكانى من الرجل وأدعو الله ألا تطالعنى من دول العروبة أحداث جديدة تعوق هذه الدراسة التى صح عزمى عليها .

* * *

ولقد عشتُ ليالى الوحدة — من أول فبراير إلى الثانى والعشرين منه — فوق موجة عالية .. من الفرحة الطاغية بهذا الحدث الكبير . . فقد كان لى مع « الوحدة » تاريخ كما كان لى مع « تحديد الملكية » تاريخ .

وأخشى أن أثقل عليك . . إذا أنا نقلت لك . . فقرات كاملة عن كل كتاب من كتبى الثلاثة التى أصدرتها خلال عشرين عاماً تؤيد هذه الحقيقة ..[1] ، وحسبى هذه السطور من كتابى الثانى الذى أصدرته فى سنة ١٩٥٤ « مملكة فى الميزان » وكنت قد تخطيت به حدود مصر إلى صميم العروبة فتساءلت إن كان من حقى أن أعيد سؤالى القديم[2] فى زيه الجديد ثم قلت بالحرف الواحد :

(وجوابى أيها الرفاق . . أنى أرنو من سنين وسنين . . إلى أمنية كانت تبدو للكثيرين بعيدة المنال . . وكنت أراها بعين البصيرة مقبلة فى الطريق .. تحجبها عن العيون طبقة من السحاب غير الطبيعى . . صنعتها يد المستعمر . . ولم تصنعها يد الله . . وعنيت بالأمنية « الوحدة العربية » . . عنيتها مفهومة ومدروسة .. فى ولايات عربية متحدة) .

هذه لمحة قصيرة .. من كتاب واحد .. أتخذ منها «شاهد إثبات» على أن الوحدة العربية كانت هدفاً من أهدافى من عشرين عاماً .. وأن هذه الوحدة كما تمنيتها وعملت لها — ولايات عربية متحدة — كانت الحلم الذى راودنى من أيام شبابى ولا يكون

---

(١) يعرب المؤلف عن استعداده لإهداء نسخة من كل كتاب من هذه الكتب لكل قارىء يطلبها منه بعنوان مكتبه ٣٥ شارع جامع الاسماعيلى بميدان لاظ اوغلى بالقاهرة .

(٢) يشير إلى أن المعنى الذى نقله لك فى سطور عن كتابه الثانى كان قد حمله كتابه الأول « البرلمان فى الميزان » .. بصيغة أخرى .

عجيباً — إذن — وأنا أرى « ناصر » يربح الجولة الأولى فى حلقة الصراع العربى حول الوحدة العربية ... ثم وأنا أرى الجولة تتبدى أمامى « وحدة اندماج » — لا وحدة « ولايات عربية متحدة » كما تمنيتها ... لا يكون عجيباً أبداً ... ولا يكون محل تشكك أبداً ... أن أسبح فوق موجة عالية من الفرحة الطاغية بهذا الحدث الكبير .

***

فرحت بالوحدة إذن بين « مصر وسوريا » ، وأدركت — كما لم أدرك من قبل — أن ساعة انبعث التى تطلع إليها أجدادنا قد حانت — كما قال جمال — وأنه قد كتب لجيلنا بعد ليل طويل أن يشهد مطلع صبحها — كما قال جمال — وأن الذين تخيلوه فى المنى قد أصبح واقعاً — كما قال جمال — وأن الذى نصبت المشانق لتحول دونه قد أصبحت له وحده قوة القانون وقدرته .

وفى إحدى الليالى التى كنت أعيد فيها كل ما قاله « جمال » عن « الوحدة » رأيت يدى تتسلل إلى كراسة بيضاء تحت الوسادة ... وإلى قلم رابض فيها ... ورأيت القلم يجرى — وكأن يداً غير يدى هى التى تجرى به — ويكتب الأسئلة الثلاثة التالية :

١ — ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

٢ — ماذا فعلت بنا الأحلام التى رؤيت لنا خلف أسوار الليمان ؟

٣ — ماذا فعلت لنا الرسائل التى كنا قد تلقيناها من الأهل والإخوان من خارج الليمان ؟

وتنبهت .. فكففت يدى عن الجريان .. وعجبت لهذه الأسئلة النابية تمليها علىّ قوة خفية لا أستطيع لها دفعاً .. وفى الساعة التى هممت بأن أسعد فيها بالتفكير فى الحدث الكبير الذى تم .. فهل تُرى ما يزال شيطانى القديم يطاردنى ؟ وهل تُرَى ما يزال مصراً على أن يعكر صفوى .. كلما رأى لهذا الصفو ظلا يتراءى على قسماتى .. أو قبساً يضىء فى عينى ؟ ثم ما هو سر رغبته فى أن يهبط بى من البحث فى الوحدة

على « مستواها العربى » .. إلى البحث فيها على « المستوى الشخصى » ، فيسألنى « ماذا صنعت لك الوحدة .. بوصفك سجيناً » ؟

وقلت وكأنى أتحدى شخصاً آخر يجلس إلى جوارى :

— نعم أقبل هذا التحدى وأبحث معك موضوع هذا السؤال ولا أروغ من أى حقيقة .

ماذا صنعت لنا الوحدة ؟

وقلت فى صراحة أجيب :

— لم تصنع الوحدة لنا — نحن أبناء « المؤامرة الكبرى » — شيئاً .. وكنت أحب لو أنها صنعت .

وعند هذه الإجابة رأيت الذاكرة وقد عادت بى إلى شائعة جميلة وقديمة — لعلك تذكرها — كانت قد عبرت إلينا قضبان « السجن الحربى » يوم كنا « ضيوفاً » عليه .. وكانت الشائعة تقول إن الرئيس قرر الإفراج عنا وحفظ القضية — وحددت الشائعة فى ذلك الحين يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٧ أو اليوم التالى له موعداً للافراج عنا .

وتحقق الشطر الشكلى من الشائعة فخرجنا من « السجن الحربى » فى ذلك اليوم فعلا ولكن إلى أخ له هو « سجن الاستئناف » لا إلى بيوتنا كما كان الشطر الموضوعى يقول .

وعدت بالذاكرة أيضاً إلى « سجن الاستئناف » وقد أدركتنى فيه ذيول لتلك الشائعة فقد كان لهذا السجن — يوم نُقلنا إليه — مأمور اسمه « بهجت » ظل معنا بضعة أيام نقل بعدها إلى الديوان العام .. بعد أن لعب دوراً يخص « الشاب » لا محل له فى هذا الفصل .

وكان « بهجت » فارع العود .. مبسوط الأسارير .. دمث الأخلاق .. وذات يوم كنت أكتب خطاباً لأسرتى .. فى مكتب ضابط .. فى حجرة خالية .. من

بين غرفات الدور الذى نقيم فيه .. أرشدنى إليها المأمور .. وفجأة رأيته أمامى .. فتسلم الخطاب منى ليتولى « تصديره » .. وبدأ يجاذبنى أطراف الحديث ثم فاجأنى بقوله إنه كبير الرجاء فى براءتنا .. فلما سألته عن أسباب رجائه قال إنه يعلم علم اليقين .. أن الإفراج عنا كان قد تقرر لولا « حادث الإخوان » .. وسألته عن هـذا الحادث فدهش لجهلى وقال : « حادث الليمان .. ألم تقرأ البلاغ الرسمى عنه فى الصحف » ؟ قلت : « لا » قال « إن الإخوان الموجودين فى ليمان طره .. أحدثوا قبيل افتتاح مجلس الأمة شغباً خطيراً وتمردوا على قوة الليمان ووقعت اشتباكات دامية يؤسف لها .. فغضب الرئيس ولم يجد الجو مناسباً للافراج عنكم » .

ذكرت يومها (شائعة السجن الحربى) — بينى وبين نفسى — ولم أحدث المأمور عنها .. واكتفيت بأن أقول له : (والله يا سيدى .. لو كانت النية متجهة لتبرئتنا .. لما قدمنا للمحاكمة) وضحك الرجل وقال وهو يهم بالانصراف (يا أخى .. ربنا كبير ، وما فيش شيء كتير عليه أبداً) .

* * *

وأعود بك إلى الليمان ، ومرة أخرى لا أراك الله إلا مسطوراً فوق الورق .

أعود لأعيد القول : إن الوحدة لم تصنع لنا نحن أبناء المؤامرة شيئاً وكنت أحب لو أنها صنعت ، وحادث الإخوان أمسى (تاريخاً) ، والجو أصبح بالوحدة جميلا ، والمحاكمة تمت ، والعفو فى مثل هـذا الموقف يعلى من شأن صاحبه ، وأنا أزحف الآن بعاطفتى إلى (الناصرية) ، فلماذا لم يفعلها ناصر ؟

ولم أشأ أن تقف مشاعرى فى طريق تحولى فقلت لنفسى :

— إنه — على أى حال — يملك من عناصر الموقف ما لا نملك .. وهو أقدر على وزن الأمر ونتائجه فلعل له عذراً .

ماذا فعلت بنا الأحلام ؟

وعاد شيطانى يضحك منى و يتحدى وكأنما يعابثنى . . و يقول :

— ندع الجد قليلا ، ونهزل ، ودعنى أسأل : والأحلام ماذا فعلت بكم ؟

والحقيقة أن السؤال لم يكن هازلا . . لأن قصة الأحلام التى رآها لنا الحالمون . . بلغت حداً . . جعلها لنا شغلا شاغلا . . حتى أجيز لنفسى أن أتجاسر وأعلن أننا آمنا معها و بسببها — وتفسيراً لها — بأن الإفراج عنا بات وشيكا . . فلما أعلنت الوحدة فى أول فبراير أجمع «المفسرون» فى مختلف «المنابر» على أن يوم الإعلان « الرسمى» للوحدة هو يوم الإفراج الفعلى عنا .

وأعلنت الوحدة « رسمياً » . . وأفرج فعلا عن سجناء عاديين من القتلة الذين أمضوا نصف مدة عقوبتهم . . ولم يفرج عن « الباشوات » ؟ !!

وسخرنا بالأحلام . . وسفهنا « الحالمين » . . وتركت خيبتهم أثراً سيئاً فى نفوسنا .

ولكن « السجين » لابد له من «حلم وحالم» ، ولابد له أن يحلم لنفسه أيضاً .

وعدنا نولى «الأحلام» بعض «احترامنا» بعد أن أكد لنا « العارفون ؟! » أن « الحلم » لا ذنب له .. وأن الذنب ذنب « المفسر » .. فعدنا نبحث عن « مفسرين جدد » .

ولكن « الحقائق » الجديدة كانت قد بدأت .. فرحنا نتطلع إليها .. نتطلع إلى عيد الثورة السادس فى ٢٣ يوليو سنة١٩٥٨ ، وهكذا تظل الأحلام — فى النوم واليقظة على السواء — تنتقل بالسجين من مَعلم إلى مَعلم .. ليقوى على احتمال الحياة .. وتلك حكمة الله .

وماذا فعلت لنا الرسائل؟

أما قصة الرسائل التى كنا نتلقاها من الأهل والإخوان من خارج الليمان فقد تداعت إلى رأسى تلقائياً ولم تكن فى حاجة إلى شيطانى .. لأنها حقائق لا شــأن لها بالمفسرين .. أو الوكلاء المفوضين من « العلامة العارف بالله محمد بن سيرين » .

كنا قد تلقينا من الأهل فى الزيارات ، وعن بعض الأصدقاء فى الرسائل أنباء تؤكد أن الإفراج عنا قد تقرر — وفى بعض الروايات المتزنة « بات مأمولا » — وكانت هذه الأنباء معزوة إلى «مصادر عليمة» ، وكانت تملأ قلوبنا بهجة ، لأنها قائمة على وقائع ومنها على سبيل المثال ، أن ابن أختى الذى سبق أن أشرت إليه كان قد أنهى إلىّ ، أنه كتب باسمى ــ و بخطه هو ــ بعض الخطابات لصحفيين لهم مكانتهم وكان يعتقد أنهم من خلص أصدقائى ، وأن « أحدهم » ــ وله خطره ــ أكد له نبأ الإفراج عنا فى عيد الوحدة أيضاً .

فلما جاء عيد الوحدة ولم تتحقق الأمنية ، جاءت هــذه الخيبة الثالثة ضغثاً على إبالة .. كما يقول العرب :

وهذه هى الإجابات الثلاث على الأسئلة الثلاثة .

اطراد الدراسة

تفهم من هذا كله أنى كنت فرحاً بالوحدة ، ولم يعكر فرحى غير هذه « الخيبات الثلاث » ، ولــكن عزمى كان قد صح على دراسة « ناصر » كماقلت ، ومن يومها لم يهتز هذا «العزم» فى يدى ، وظللت أبداً مصراً على ألا أبرح سجنى إلا كافراً كامل الــكفر .. أو مؤمناً صادق الإيمان .. وأكرر دعائى لله ألا يقع من الأحداث ما يؤجل هذه الدراسة .

عود إلى الوحدة

وعادت إلىّ « قصة الوحدة » من قبل أن أعود إليها .

عادت إلىّ .. عن طريق الصحف التى كانوا قد بدأوا يرخصون لنا بالاشتراك فيها وعن طريق أهلنا وعن طريق (الجهاز الإذاعى) المعلق فى الصالة على مرمى أمتار من غرفاتنا .

ولقد تتبعت باهتمام كل ما كان يكتب .. وكل ما كان يذاع .

واستمعت إلى هتاف الشعب السورى لناصر .. وكان قد سافر إليهم غداة فوزه فى الانتخابات التى جرت فى مصر وسوريا .. وفاز فيها بالرياسة بما يقرب من إجماع الشعبين .

* * *

وكنت أعرف أن الشعب السورى لا يزال ـ كما كان ـ من حيث الحماسة والحرارة .. سليل الفرسان من بنى حمدان ، كلما كتب أو خطب ، وكلما استقبل أو ودع .. وكلما سالم أو حارب ، ولكن الذى لم أكن أعرفه — ولم أكن أتوقعه — أن تبلغ به حماسته الحد الذى نقله المذياع إلى أذنى هتافاً .. ونقلته الصحف إلى عينى صوراً .. حد الجنون الذى لا يكاد يصدق . جنون العجائز والشيوخ والأطفال ، قبل جنون الشابات والشبان والرجال .. حد الجنون الذى يستحيل أن يفتعل ولو استؤجر له الشعب كله .

ولست أدرى لماذا طالعتنى من خلال الماضى ، صورة من أيام الدراسة ، صورة « لقاء » لم يبرح ذهنى حتى اليوم ، لقاء بين شعب مصر الثائر و « سعد زغلول » الزعيم ، وكان يومها عائداً من منفاه تحوطه قلوب الشعب وترعاه ، ولكن (تلك) كانت « ثورة شعبية دامية » تُفرغ كل « طاقاتها » وكل « إرادتها » فى استقبال زعيمها الشيخ ، أما « اللقاء » بين « ناصر » و « الشعب السورى » ، فلقاء الفرحة المسالمة ، ولا يحتاج أمر الفرحة إلى كل هذا الهياج ، فماذا يَعنِى هذا « الهياج » ـ إذن ـ أو ماذا يعنِى هذا « الجنون » ؟ ، يعنى أن سوريا ترفض إلا أن تفرغ « دفعها الثورى » وطاقاتها

وإرادتها هى الأخرى ، فى استقبال زعيمها الشاب وعلى هذا النحو التاريخى المذهل الذى خيل لى والراديو ينقل « أصداءه » إلىَّ ... أن جدران « الايمان » توشك أن تنقض .

وكان «جمال» صادقاً — إذن — عند ما قال لهم فى أول مقطع من أول خطاب ألقاه عليهم بعد وصوله إلى دمشق : « إنى أشعر الآن وأنا بينكم بأسعد لحظة فى حياتى » .

* * *

ومضت الخطب الناصرية .. « شعبية » .. وعلى مستوى « التحية » فى يوميها الأول والثانى ..

وفجأة — وفى السادس والعشرين — وقف « جمال » فى دمشق على « قمة موجة جديدة » تعيد إلى الأذهان ، تلك الموجة التاريخية التى ركب قمتها فى القاهرة يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقف يهاجم بغداد ، ويهاجم أوكار الرجعية فى كل مكان ، ويشنها حرباً لا تعرف الهوادة على كل رأس يحمل ذرة من خيانة ، كما أعلن أنه يساند الشعوب العربية كلها وفى غير خفاء ، ويتحدى الاستعمار وأحلافه وأعوانه ، وأعلن أيضاً أن « حلف بغداد » استعمار جديد تحت شكل جديد .

* * *

وكان وزير خارجية العراق قد هاجم الوحدة ، وكانت العراق قد أقامت مع الأردن (اتحاداً هاشمياً) ، ضحك منه الناس فى كل مكان ، ولكن ناصر لم يضحك بل غضب ، وتحدى هذا الاتحاد أن يبقى ، وأكد أنه بعد أيام سيغدو (هشيما تذروه الرياح) .

وأدركت أن القائد الشاب بدأ يضع خاتمة الخطاب الذى كان قد ألقاه على النواب موضع التنفيذ عندما وصف الجمهورية العربية بأنها دولة (توحد ولا تفرق ، تسالم ولا تفرط ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو) .

نذير

وفى اليوم التالى — أى فى السابع والعشرين من فبراير — سدد رمح الوحدة إلى صدر أعدائها و بالأسماء وفى غير خفاء فقال للسوريين على مسمع من العالم :

« لقد قام سمير الرفاعى فى عمان بالقبض على الأحرار .. ولـكنه لن يفلت من قبضة الأحرار » .

وتحدث عن باش أعيان وزير خارجية العراق فقال :

« هؤلاء الخونة العرب لهم يوم قريب » .

وتحدث عن فاضل جمالى فقال :

« إننـــا لن نرد عليه .. ولـكننا نتركه لشعب العراق ليحاسبه .. ليحاسب الخونة .. فيحاسب أعوان الاستعمار فى كل مكان » .

ولم يعد الأمر — إذن — أمر خطب تلقى أو تحيات تزجى .. إنما هى حرب الشعوب العربية يعلنها « ناصر » على « الخونة من حكام العرب » .

* * *

وفى الثامن والعشرين من فبراير نفسه خطب فى الوفود اللبنانية والأردنية فقال لهم بعد أن حياهم :

« لا طائفية ولا إقليمية .. كلنا رجل واحد .. كلنا عرب » .

والمعروف أن (لبنان) جنة الله فى (الشرق) لا عيب فيها إلا (الطائفية) مصدر كل فتنة بين أهليها .. فصيحة (ناصر) بوصفه (راعى الوحدة الأكبر) بأنه (لا طائفية) و (كلنا عرب) إنما هى دعوة صريحة من الدولة التى (تجمع ولا تفرق) إلى الشقيق الذى (يتمزق ويتفرق) .

تقرر — إذن — وفى الأسبوع الأول من قيام الوحدة — أن يهاجم معاقل الرجعية الأردنية فى شخص (سمير الرفاعى) ورجعية عبد الإله ونورى السعيد العراقيـة فى شخص باش أعيان ومرجان وفاضل جمـالى وأن يدعو (لبنان الطائفية) إلى (لبنان العربية) فى أشخاص وفودها الزائرة .

وفى مارس بدأ القائد الشاب يعمق هذه الاتجاهات كلما زاره عربى وعاد يذكر (لبنان الثائر) بأنه عندما قام ليكافح الاستعمار الفرنسى (كانت سوريا تقف معه فى خط النار وكانت مصر تنبض فيها القلوب) والذى وقف ولم يتردد مرة .. لا يمكن أن يتردد مرة أخرى .

وعاد يتحدث فى صراحة إلى مرجان — رئيس وزراء العراق يومئذ — فقال : « إن ما فعله شعب مصر فى المستعمر ، سيفعله شعب العراق فى حكامه .. » وتحدى (مرجان) أن ينزل إلى شعب العراق فى الشارع .. ليرى (الحقائق) .

وخيل لى أن (ناصر) لا يمكن أن يوجه هـذه التهديدات — وباسم الشعوب العربية — إلى معاقل الرجعية .. وبالأسماء .. وبهذه القوة .. إلا إن كان قد ملأ يده من اتجاهات هذه الشعوب .

بعد العودة

وعاد « ناصر » إلى القاهرة .. أشد إصراراً على مهاجمة الرجعية فى كل بلد عربى .

عاد يحدث شعب مصر عما لقيه من شقيقه الشعب السورى ويقول فى صراحة :

« من دمشق بنظرة عابرة إلى الحـدود .. كان من الواضح أن هناك جيوشاً تتحرك .. وأن هناك تهديداً سافراً .. كما أن هناك تهماً تكال من غير حساب .. كانت هناك عبر الحدود محاولات لتفتيت الجبهة الداخلية ومحـاولات للتفرقة بين الشعب والجيش » .

وألقى بعض الضوء على هذا الذى يجرى عبر تلك الحدود .. فذكر (العدوان)

وما خلّفه من مرارة فى (دول الاستعمار) .. فراحت تبحث عن صغار النفوس فى المنطقة ، فحدث انقلاب فى الأردن بعد أن ظن هذا الشعب أن مليكه بدأ يمشى إلى الأهداف الوطنية معه .

وبان – إذن – أن الرجل يركز بدءاً من الآن .. على بغداد وعمان .. وإن كانت الثورة .. قد بدأت تعمل عملها هى الأخرى فى لبنان .

* * *

فى زنزانتى الساكنة وعيت هذا كله .

وأدركت أن الوحدة .. ليست إلا مركز تجمع .. ونقطة انطلاق .

وتطلعت إلى (الزحف المقدس) – كما أسماه – يتأهب للوثوب .. ويتأهب لتحرير الشعوب ..

وبعض القسمات العربية .. بدأت إذن تبين .. على وجه القائد الشاب .

وتلك آخر طبعة من القائد العربى .. لا (أمركة) ولا (جلنزة) ولا (شيوعية) فيها ولا (إخوانية) .

فهل من الخير أن نعود إليه هو .. ومن بدايته .. لنراه تحت الأضواء وعلى حقيقته .. بدلا من اللف والدوران حول الأحداث ، وهو نفسه صانعها ، كما قررت ، أم أن الأحداث نفسها ، وقد بدأت تتجمع ، وتلقى بخيوطها إلى يده ستصرفنى إلى حين عن دراسته ؟

ولم أستطع أن أجيب وتركت الجواب للأحداث .

* * *

وأعتقد أيضاً أن هذا الحديث عن الوحدة ، يشكل الحلقة السادسة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل السابع عشر

ثورات ونكسات

كنت على الطريق إلى يوليو أو « تموز » .. أهفو فى شوق ولهفة .. إلى يوليو أو إلى « تموز » ، ولم أكن أتوقع أن يقع خلاله ما وقع .

كنت أستبشر بهذا الشهر دائماً، استبشاراً « تاريخياً » بحتاً، لأنه ازدان على طريق التاريخ ، بثورات إنسانية غيرت مجرى التاريخ ، ولكنى فى هذا العام ١٩٥٨ لم أكن أهفو إليه على المستوى الثورى أو الإنسانى ، وإنما كنت أهفو إليه على « المستوى الشخصى » ، على مستوى « إطلاق سراحنا » ومن هنا كررت دعائى ، ألا يشهد هذا الشهر أحداثاً جديدة تصرفنى عن دراسة « جمال » أو تصرف « جمال » عن رغبته القديمة فى إطلاق سراحنا .

وكانت « الأحـــلام » قد نشطت فى (دور السياسيين) نشاطاً فاق كل حد حدثتك عنه . .

وكانت أنباء أهلينا والمتصلين بنا من خارج (الليمان) قد نشطت هى الأخرى حاملة إلينا ما يعمق أحلامنا ، حتى « ألبير مزراحى » — الصحفى اليهودى الذى أبعد عن البلاد من عامين — أرسل إلىّ قبيل يوليو ١٩٥٨ خطاباً عن الطريق الرسمى — أى إلى إدارة السجن — يؤكد فيه أن الإفراج عنا فى ٢٣ يوليو قد تقرر ، وقد عجبت لهذا الخطاب ، لأن « ألبير » خير من يعرف الطريق إلى مراسلة السجين عن غير طريق البريد ، فلماذا وقع اختياره على هذه الوسيلة ؟ وأعفانى القدر من كل قلق ، فأتاح لأحد الأصدقاء التقاط الخطاب من «حامل بريد الليمان» — قبل أن يمر البريد بالمأمور — وجاءنى الصديق بخطاب « ألبير » سليما غير مفوض . وإن كنت لا أشك فى أن ألبير إنما أراد أن يخدمنى .

وكانت الثورة فى لبنان قد اشتد أوزارها .

و بدأ « المراقبون » يركزون اهتمامهم على « لبنان » و يرون أن العراك إنما يقوم فيه ... بين « جمال عبد الناصر » ممثلا فى الثائرين على مستوى العروبة ... و بين « كميل شمعون » ممثلا فى « الطائفية » — على مستوى الدولة .

هذا ما قرأته .

أما أنا فكنت أحس أن « جمال » لم يكن طرفاً فى القتال برغم إصرار الحكومة اللبنانية على أن السلاح يهرب من « الإقليم الشمالى » إلى الثائرين فى شمال لبنان ... وكنت أحس أن انتفاضة لبنان التى تحولت إلى ثورة إنما كانت انتفاضة العروبة فيه ضد الاستعمار والرجعية ... وعندما اندلعت نيران هذه الثورة فى لبنان ... لم تكن « الجمهورية العربية المتحدة » قد قامت — و إنما بدأت انتفاضة لبنان شعبية وعربية ... لتعبر عن غضبها على موقف لبنان الرسمى من مشروع أيزنهاور ... وكان المشروع كما قلنا قبلا قد صدر فى الخامس من يناير ١٩٥٧ وكان « ناصر » قد قاومه وأيدته شعوب العروبة حتى أجهز عليه ، ولكن « لبنان الدولة » خرجت على إجماع العرب وقبلت المشروع ، فاستقالت المعارضة من المجلس النيابى واختل الأمن ...والتحمت قوات حكومة سامى الصلح بالغاضبين من الشعب فى الطرقات ... وجرح الزعماء ... وجرت الانتخابات وأسقطوا هؤلاء الزعماء فيها .. فاتهم الثائرون حكومة سامى الصلح بالتزوير ... وقاد « رشيد كرامى » المعركة فى طرابلس وخضبت أرضها بدماء القتلى والجرحى ... وكانت الثورة ... فإذا كان « المراقبون السياسيون » قد جعلوا « ناصر » طرفاً فى القضية فلأن « ناصر » كان « النجم اللامع » الذى تطلع إليه ثوار لبنان — كما يتطلع إليه الثوار فى كل مكان — وإذا كان المراقبون قد جعلوا من كميل شمعون طرفاً آخر فلأن كميل — المجاهد القديم مع الأنصار أصبح فى نظر الثائرين رمزاً لقوى الرجعية التى كانت توحد بين حلف بغداد ... و بين انجلترا وأمريكا ... و بين عبد الإله ونورى فى العراق ... و بين الملك حسين فى الأردن ... و بين « القوميين السوريين » فى كل مكان .

***

مفاجآت

وجاء يوليو ... أو جاء « تموز » .

وكنت أعد أيامه على أصابع اليد عداً ... فإذا مضى منه يوم ... قلت — على طريقة المراقبين فى لجان الامتحانات : « باقى من الزمن ٢٢ يوماً » ... وإذا مضى منه يومان ... قلت : « باقى من الزمن ٢١ يوماً » .

وكان عبد الناصر يخوض معركة القومية العربية من معاقله فى دمشق والقاهرة وفى حلب والإسكندرية ... ضد الرجعية فى البلاد العربية .

وكان كميل شمعون يقود « الهجوم المضاد » فى مجلس الأمن عن طريق وزير خارجيته شارل مالك .

وكانوا قد ألبوا علينا السودان أيضاً ... فبدا جو العلاقات بيننا وبينه مشحوناً بالتوتر ...

وقرأنا أن حلف بغداد تقرر عقده فى أنقره فى ١٤ يوليو على أعلى المستويات ليشهده من جانب العراق الملك فيصل والأمير عبد الإله ونورى السعيد .

وبرغم اهتزاز خيوط يوليو فى يدى ... فقد ظللت حريصاً على « هدية يوليو » .

وفى اليوم الرابع عشر ... عددت أصابعى وقلت كالعادة — أقصد عيد الثورة السادس الذى أتلهف على مقدمه : « باقى من الزمن تسعة أيام » .

* * *

ولكن الساعة دقت فى الرابع عشر من يوليو ... ومن (تموز) ... ولم تنتظر أيامى التسعة .

دقت الساعة فجأة ..؟!

وتـكهرب جو « الليمان » ... وعلت فيه الجلبة والضوضاء ... وأمسى دور السياسيين خلية من خلايا النحل تطن بالسؤال وتطن بالجواب ... ولا يعف أى سجين مثقف عن الخلوة بأى سجان جاهل ... ليسأله فى لهفة وتواضع : « إيه حكاية العراق » ؟ ! !

وأنباء « العراق » فى ذهنى ... لم تـكن تجاوز وصول عواهل الرجعية فيه إلى « مطار استانبول » فى نفس ذلك اليوم ... تعزف لهم الموسيقى وتطلق لتحيتهم المدافع ويستقبلهم جلال بايار وعدنان مندريس .

وقيل : « ثورة فى العراق » ؟

* * *

ثورة فى العراق ؟ وناصر ؟ أين مكانه ؟

وقيل : مكانه بعيد .. بعيد .. ولعله الآن على الطريق .

كان قد سافر إلى بريونى ... وأنهى محادثاته مع تيتو ... وأذيع أنه يعتزم أن يبحر على ظهر الباخرة « الحرية » غداة ذلك اليوم .

وتوالت الأنباء .

قيل إن المستقبلين فى مطار استانبول قد رجفت قلوبهم خشية أن تكون الطائرة التى تقل أقطاب بغداد قد ضلت طريقها .. أو لقيت حتفها .. لأن الوقت مر .. ولم تصل الطائرة .. وقيل أن نبأ « فاجعاً » قد وصل إليهم بدلا من الطائرة .

وتوالت الأنباء ...

وعرف (الليمان) النبأ كما عرفه العالم كله ــ وأكد الضباط والأطباء ــ فى الليمان ــ أنهم سمعوا صوت عبد السلام عارف من محطة بغداد يقول : « هنا الجمهورية العراقية » .

* * *

عبد الحكيم عامر

وكان لعبد الحكيم فى ذلك اليوم موقف ... لا يقفه إلا عبد الحكيم .

تلقى فجر ذلك اليوم من قيادة الجيش الأول فى دمشق نبأ الثورة فى بغداد وانتظار التعليمات .. وناصر فى يوغوسلافيا أو فى عرض البحر .. والوقت لا يعترف إلا بالتصرف العاجل .. ولا يعرف الضعف ولا التردد ، ولم يضعف « عامر » ولم يتردد .. وأصدر أمره إلى جمال فيصل .. أن يستعد لخوض المعركة إلى جانب الشعب العراقى الثائر .. وأن يقف إلى جانب الثوار .. ريثما يتلقى التعليمات من « ناصر » .

ومفاجآت .. أخرى

واتصل عبد الحكيم بجمال .. فأمر بإعلان التعبئة العامة .. والوقوف على قدم الاستعداد لمعاونة الثوار إذا تطلب الأمر .. وتعلقت الأنفاس ببغداد .

ونسى الناس كل شىء .. حتى الثورة فى لبنان .

ونسيتها أنا أيضاً مع الناس .. وإن كنت لم أنس أبداً .. الإفراج فى يوليو ولكن قصة « الإفراج فى يوليو » .. أمست .. ولها مذاق غير المذاق .

لم أعد أطلب الإفراج للافراج .

أصبحت أطلب الإفراج اليوم لأخوض الغمار .. ولأحمل السلاح .. سلاحى الذى علاه الصدأ .. لأحمل قلمى مشرعاً .. ولأرسل خلف الأحداث صرخاته .. بعد أن فقدت كل قدرة على الصمت .. هكذا تمنيت فى تلك اللحظة .

وخيل لى أن « ناصر » هو الذى فعلها .. وهو الذى أعد لها .. وهو الذى أضرم نارها .

كان قد قالها لنورى ومرجان .. وكان قد قالها لفاضل و باش أعيان .. والدور آت

على عمان . والثورة لا بد أن يشتد ساعدها فى لبنان . وأصداء الأحداث لا بد أن تردد أصداءها أرجاء الشرق العربى فى كل مكان .

الزحف المقدس الذى حدثنا عنه . ها هو ذا يبدأ .

مرت هذه اللفحة العاطفية بى . فعشتها مسحوراً بها يوماً وليلة .

* * *

ولكن عجلة التفكير لا بد أن تدور .

وعاودنى داء السين والجيم . و بدأت الأسئلة تتراقص أمام عينى :

— ما هو موقف انجلترا وأمريكا وشركات النفط من هذا الانقلاب ؟

— وهل تزحف قوى الدولتين تحت حكم (الاتحاد الهاشمى) إلى بغداد وتفشل ثورة الجيش كما فشلت ثورته فى عهد رشيد عالى ؟

— وهل نمد يد العون (العسكرى) إلى الثوار . فنرى أنفسنا فى حرب مع الأردن ومع الاستعمار ؟ ونحن محوطون من ناحية بحكومة شمعون فى لبنان . ومن ناحية بتركيا عضو حلف بغداد ومن ناحية ثالثة بإسرائيل ؟

ثم قلت أخاطب نفسى :

— وأنت؟ ما هذه الصرخات المحمومة التى ترسلها وقد تخطيت الخمسين..وتتحدث عن القلم الذى يشرع . والغمار الذى يخاض .. وتتصور بعقل المراهق — لا بعقل العقد السادس — أنهم إذا أخلوا سبيلك . فسحوا المجال أمامك . ووضعوا جريدتك الملغاة تحت قدميك . وفرشوا لك الأرض بالرمل الأحمر والورد الأبيض ؟

وتوارى « الخيال » يجر معه .. « أمنية » حبيبة لم تسعد بالحياة إلا لحظات .. وقنعت بتتبع الأحداث .

* * *

وعشنا فى ظل العروبة الزاحفة يوماً واحداً وليلة ، استمعنا خلالهما إلى مراسيم عراقية ومراسيم ، كان المذيع يلقيها وكأنه يُغنّيها ، مراسيم بإلغاء الملكية التى سحلوها ، وقيام الجمهورية العراقية ، ومرسوم بتشكيل مجلس السيادة يمثل سلطة الدولة فى (القمة) ، ومشروع بتشكيل الوزارة الجديدة يمثل سلطة الشعب من (القاعدة) .

وتوالت الأنباء ودودة وحميمة .

نبأ يقول : إن أول عمل باشره مجلس السيادة كان برقية إلى ناصر « بمزيد الفخر والاعتزاز نقدم اعترافنا بالجمهورية العربية المتحدة » .

ونبأ آخر يقول : إن الجمهورية العربية المتحدة أبرقت إلى مجلس السيادة تعترف بالجمهورية العراقية الجديدة .

* * *

وقال الغاضبون من السجناء : « مصر وسوريا والعراق ، فى وحدة ؟ تبقى ضاعت لبنان » .

ورد الصهيونى السجين : « تبقى الحرب العالمية » .

وقال سجين مصرى بجد كأنه يمزح : « تبقى ضاعت إسرائيل » .

ورد الصهيونى وكأنه يمزح أيضاً : « دى تبقى من الفرات إلى النيل » .

ورأيتنى لأول مرة أنزل إليهم وأقول (جاداً) للصهيونى الذى يتودد دائماً إلى :

— كان غيرك أشطر .. يا حاييم

ودهش الشاب للهجة الجد فى حديثى وسألنى :

— مين كان أشطر ؟

ولم أتردد فى أن أجيب :

-- بن جوريون و إيدن ومولييه .

وضحك الواقفون .. وخجل (الودود) ولـكنه لم يلبث أن انتشل الموقف من الحروجة فضرب كفاً بـكف وهو يقول : « ده يظهر الأسـتاذ .. بقى من بتوع ناصر خلاص » .

* * *

عشنا فى جو هذه العروبة يوماً وليلة كما قلت .

أما اليوم الذى تلاها ، فجـاء ينقل الفرحة من سامرنا ، إلى سامر سوينبرن وزارب وأبناء صهيون .

جاء يحمل نبأ نزول القوات الأمريكية من أسطولها السادس إلى أرض لبنان ، وهبوط القوات البريطانية على أرض الأردن .

وأعترف أنى وجمت .

وزاد فى وجومى أن الثورة فى لبنان كانت قد أوشكت على إلقاء السلاح بعد أن تراجع شمعون عن محاولة إدخال تعديل على الدستور يجيز له تجديد ترشيح نفسه للرياسة ، ونزل الأمريكيون إلى لبنان وارتفع رأس شمعون ، واشتدت غضبة الأحرار فى كل مكان ، وبدأ الدب الروسى يتلمّظ وهو يرنو إلى العراق ، وتكهرب الجو السياسى فى العالم كله ، إيذاناً بمغرب الشمس ، ومقدم الليل ، أو نذيراً بنشوب حرب عالمية .

* * *

ولـكن أهل «الليمان» لم يشاركوا فى الشعور بمقدم الليل ، أو هذا ما تصورته .

كان السجين الذى يخاصم « الناصرية » ، يتمنى اللحظة التى تندلع النيران فيها وشعاره : « ليس فى الإمكان أسوأ مما هو كائن » ، وأى (دعكة) قد يركب موجتها إلى خارج الأسوار وينجو ..

أما أشباه ظلال اليائسين من القتلة والمجرمين ، فقد بدأوا يفركون أعينهم ويفكرون

فى (غدهم) ، أصبح لهم (غد) يتحدثون عنه ، وراحوا يقصون علينا من ذكريات (أمسهم) ، طرفاً عن (العدوان ، وأيام العدوان) ، وكيف سمح لهم يومها بالمشاركة فى القتال ، وكيف دربوا عليه فعلا . ولولا وقف هـذا القتال لخرجوا إلى أرض القتال وماتوا فوقها أبطالا أو عادوا إلى بيوتهم أحراراً .. ولا غرو ـ إذن ـ إن تطلعوا اليوم إلى موقف مماثل ، أو إلى حرب قادمة .

وأحس المسئولون فى «الايمان» بمشاعر السجناء فاشتدت الرقابة على كل سجين ، وتوالت أوامر (التشديد) من (مصلحة السجون) ، وبعد أن كانوا (يتساهلون) معنا نحن الخمسة ، إذا خرجنا من (العنبر) إلى المستشفى وحدائقها بأى حارس نختاره نحن أو بغير حراس ، لم يعد يسمح لنا بمبارحة (العنبر) إلا تحت الحراسة وبإذن خاص ، ولم أدرك وقتها سر هذا التغيير فى المعاملة .

* * *

وبرغم هذا كله ، ما كاد الليل يجىء ، وما كدت أخلو إلى نفسى حتى بدأت أفكر وعلى النحو التالى :

— وناصر ؟ أين مكانه ؟ يمخر الآن عباب البحر فوق ظهر سفينته (الحرية) كما أذيع ؟ وهل تصل (الحرية) سالمة إلى الشاطىء المصرى ؟ والأسطول السادس .. أليس فى وسعه أن يفعل شيئاً ؟ وغواصات إسرائيل .. ألا تستطيع أن تغرقها وقد تحدد موعد وصولها وعرف خط سيرها ، من ميناء بولا ، إلى ميناء الاسكندرية ؟

* * *

وفجأة ـ وما أحوجنى إلى استخدام هذه الكلمة فى هذه الأيام ـ فجأة .. وعلى حين غفلة منى ومنك ومن كل دولة ومن كل فرد ، وفى اليوم المحدد لوصول (ناصر) إلى (الاسكندرية) ، ومراسم الاستقبال تعد ، وكل العالم يتساءل عن (الغد) ، وكل مواطن يغمغم بكلمة : (وبعد ؟) ، فجـأة هبطت فى مطار (المزه) فى دمشق (طائرة) كالتى تهبط فى كل وقت ، وفتح بابها ، ونزل منها (جمال عبد الناصر) .

واهتزت أسلاك البرق ، إلى مختلف أرجاء الأرض ، تحمل النبأ ، كما لو أنها حملت نبأ هبوط «أول رجل» على «سطح القمر» ، ونسى العالم قصة لبنان والأردن ، وبدأوا يلتفون حول أجهزة الراديو ، تحكى لهم حلقة جديدة من حلقات المارد العربى ، وكيف يزحف ، بل كيف (يتصرف) ..

وحكت لهم هذه الأجهزة أن (ناصر) سمع وهو فى عرض البحر أنبـاء احتلال لبنان والأردن ، فأدرك أن «دالاس» — وهوايته وضع العالم على حافة الحرب — لم يضعه هذه المرة على الحافة بحيث يَشدُّه إلى الوراء أو يرده عنها فى اللحظة المناسبة كما كان دائماً يفعل ، وإنما وضعه ليتردى فيها هذه المرة كما هو واضح ..

أدرك (جمال) هذه الحقيقة المخيفة فأمر بالعودة إلى يوغوسلافيا، واتصل بخروشوف فأرسل إليه طائرة أقلته إلى موسكو وهناك اجتمع به ثم طار سراً إلى دمشق وأذيع البيان الرسمى عن الاجتماع بين القطبين .

* * *

وعرف الشعب السورى نبأ وصول عبد الناصر ..

وزحفت بلاد الشام .. إلى قصر الضيافة فى دمشق فخرج إليهم وخطب فيهم وقال لهم :

« أيها الإخوة .. إن راية الحرية ارتفعت فى دمشق ، وهى اليوم ترتفع فى بغداد ، وسترتفع غداً فى بيروت وعمـان والجزائر » .. وارتجت جنبات دمشق الفيحاء .. وارتجت تبعاً لها جنبات الليان .. وهى تردد أصـداء الهتافات التى ينقلها المذياع عن الفيحاء .

* * *

وفى اليوم التالى ، فاجأ (أنور السادات) الوفود الزاحفة إلى قصر الضيافة بأن وقف فى شرفة القصر تحف به وجوه لا يعرف أهل الشام شيئاً عن أصحابها وقال يقدمهم إلى الجماهير : « هذا هو عبد السلام عارف وأخوانه جاءوا من بغداد إليكم » .

* * *

وفى هـذا اليوم نفسه التاسع عشر من يوليو — أو من تموز — وقعت اتفاقية تعلن أن البـلدين مصران على الوقوف كبلد واحد فى الدفاع ضد أى عدوان يقع على أى منهما .

* * *

وعاد عبد الناصر إلى (القاهرة) ليشهد العيد السادس لثورته .

وطار إلى (القاهرة) ـ أيضاً ـ ثلاثة من وزراء (العراق) يمثلون الثورة العراقية فى الاحتفال بثورة مصر ، ونقلت إلينا الصحف ، صورة (جمال) واقفاً فى عربة مكشوفة وإلى جواره رئيس الوفد العراقى .

* * *

واستمعنا إلى خطاب جمال .

واستمعنا إلى الخطب التى ألقاها وزراء العراق . .

وفهمنا أن (الوحدة) بينهما .. على الطريق . .

* * *

وفى نفس الشهر وصل إلى القـاهرة رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية السوفيتية بدعوة من المشير عامر .. فتنبه الغرب على أن الطريق التى اختارها .. ليست مفروشة بالورود .

واستقبل (على صبرى) .. وزير الخـارجية بالنيابة يومئذ .. السفير الأمريكى فى القاهرة لينبه ـ فى صورة (تبليغ شفوى) ـ إلى أن القوات الأمريكية إنما نزلت إلى لبنان بناء على طلب الحكومة اللبنانية ، ولم يعر السياسى المصرى تبليغ أمريكا أى اهتمام وهو الرجل الذى كان يعمل فى صمت ، مراقباً لمصر فى مؤتمر لندن ، وخاض غمار المناورات الدولية من وراء ستار كعادته.. وشهد مصارع أقطاب الغرب ومعهم (دالاس) و (منزيس) .

* * *

وظل ميزان القوى يتقلب ، هبط الإنجليز والأمريكان على الأردن ولبنان فهبط ترمومتر العروبة ، وربطنا على القلوب بالأيدى ..

وطار جمال إلى موسكو ثم هبط فجأة فى مطار المزة ، فهبط ترمومتر الاستعمار ، وربط الرجعيون على قلوبهم بأيديهم .

وكانت الإذاعة المصرية تتابع هذا التطور بكل إمكانياتها ، وكان (صوت العرب) يملأ أرجاء الوطن الكبير زهواً ودوياً ، وكنت طوال اليوم والليل ، أسمع حشداً من الأناشيد المثيرة ، فبدأت أصغى إليها ، بعد أن كنت أرى فيها مجموعة من اللغو الرخيص يؤلفه مأجور ، ويلحنه مخمور ، ويغنيه تافه من طلاب الظهور .

بدأت أواكب التطور العربى بكل طاقات تفكيرى .

وبدأت أرى الموكب الكبير ، مقبلا على الطريق ، بكل طاقات الخيال فىّ .

وها هى ذى مصر وسوريا والعراق ..

وغداً الأردن ولبنان .

والجزائر لن تهدأ حتى تثأر ، ويومها تجىء إلينا ومن حولها تونس والمغرب وليبيا لتصافح الشرق ، وتعب معها من دم المستعمر .

(ومن الخليج إلى المحيط) لم تُقل — إذن — عبثاً .

(ومن الخليج الثائر ، إلى المحيط الهادر) لم تنشد — إذن — عبثاً .

وأنا المتآمر على (ناصر) ، لم أخرج — إذن — من الدراسة فاشلا ..

لقد دنوت من الناصرية ورددت عنها أكثر من مرة ، وها هو مدها الثورى يرتفع بى إلى مستوى يقرب من الإيمان .. فهل أنا على باب تحول كبير ، وراشد ؟

هذا سؤال ؟

ولكن هناك سؤالا يقابله أراه يزحف إلى نفسى .

وأفضيت به إلى النفس بصوت مسموع ولم أتردد :

— نعم ما سر هـذا الصمت العجيب الذى لف قصة الإفراج عنا بعد كل هـذا التواتر أحلاماً .. وأنباء ، ومن داخل الليمان ومن الأهل فى الخارج ؟ وهل نذهب ضحية الاحتلال الأمريكى والبريطانى ، ولا يؤمن جانبنا فى هذه الآونة ، كما اتضح من مسلك المسئولين فى الليمان وهم يشددون الرقابة علينا ؟ و إلى متى ننتظر ؟ قيام الثورة مثلا على التاج الهاشمى اليتيم الذى تبقى ؟

* * *

إن العلاقات بيننا وبين العراق تمشى وفى ثبات إلى مصيرها الحبيب المحتوم .

وهزيمة الرجعية فى لبنان .. أمست واضحة .. وميزان القوى يميل لمصلحتنا ..

وأنا وحدى الحائر بين «سجنى» الذى أنفر من ظلماته ، و«سجّانى» الذى أنجذب إلى كل انتصاراته ..

لا بأس بهذه الحيرة ، ولا ضير ، والغد كفيل بالإجهاز عليها ، أما اليوم فيحسن أن نقف بهذا الفصل عند هذا الحد .

* * *

وعسى أن أكون قد رسمت به المرحلة السابعة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثامن عشر

ركود سعيد .. ونشاط شق

ومر بنا « أغسطس » فى ركود سعيد .. كركود المحارب قام بغزواته ، واسترخى فى نشوة .. يحصى الغنائم .

ولم تكن التحركات المصرية خلال ذلك الشهر .. إلا لم الشمل.. والتأهب للغد المقبل.. فالجمهورية العراقية تمشى إلى أهدافها مطمئنة إلى أخوة قادرة.. وعبد الحكيم عامر يطير إلى السعودية لتوثيق نفس الأخوة .. والقاهرة تستقبل الأمير البدر ليباحث المسئولين فى قيام «مجلس الدول العربية » .. وهمرشولد يجيء إلينا ليباحثنا فى مشروعات التنمية فى الشرق الأوسط .

كل ذلك كان يجرى فى هدوء ــ عبر أغسطس ــ وعلى المستوى السياسى .

أما على المستوى الداخلى .. فإننا لم ندع شــــبراً فى أرض مصر لم نتحرك داخله لنبنى .. ونبنى .. ولم تلهنا معارك السياسة عن معركة البناء يوماً .

* * *

وحادث رائع تم أيضاً تحت سماء القاهرة .

قامت حكومة مؤقتة للجزائر قوامها تسعة عشر وزيراً واعترفنا بها فوراً .

* * *

شيء واحد كنت أخشاه على مشارف ذلك الجو السعيد ، سرعة دوران العجلة فى الإقليم الشمالى .

كانت لدى فكرة قديمة عن سوريا الشقيقة ، كنت أعرف أن بين شعبها وحكامها تناقضاً يتسع ويضيق ولكنه قائم ودائم ، كنت أعرف أن شعبها صادق الوطنية .. وأن

معظم السياسيين فيها يتجرون بالوطنيه .. كنت أعرف أن كل دولة عربية غنية كانت تتبنى حزباً أو أكثر من الأحزاب السورية ، وحتى حزب « البعث » المتخم بالفلسفة كانت تتصارع داخله المطامع . ما بين « عفلق » شارد .. وحورانى طامع ، وأنصار فى الجيش مخدوعين ، وأنصار من الشباب مندفعين ، وكنت أعرف أن القبلية فى سوريا ما يزال لها شأن كبير ، وأن الدروز لهم تقاليد فى السويداء — أمّ قرامم — وما حولها ، وأن العلويين فى بلادهم لهم تقاليد أخرى ، وأن الزعامة فى دمشق الفيحاء تخاصم الزعامة فى حلب الشهباء ، وكنت أعرف أن الرأسمالية فى سوريا قوية وعاتية ، وأن التجار لا يتداولون غير التهريب عملة لهم ومرتزقاً ..

شيء واحد كنت أخشاه : سرعة دوران العجلة ، فى بلد تتجاذب القله المسيطرة فيه كل هذه الأهواء المتضاربة والمصالح المتناقضة ، والمطامع التى لا تقف عند حد . .

* * *

وومض اسم العراق وأنا أفكر فى سوريا ، تخيل لى — فى حدود معلوماتى — أن العراق من حيث التناقض أشد استعصاء على العلاج من سوريا ، ولم أشأ أن أواصل البحث فى العراق فعدت أبحث الموقف فى سوريا ..

* * *

كنت أتوجس خيفة .. ولكن لم أكن يائساً ..

كانت الوحدة — من فرط إيمانى بها — تلوح لى والداً مهيباً .. تتكسر عند قدميه كل خلافات البنات والبنين وها هو كل شيء يتقدم ..

صدر قانون الإصلاح الزراعى فى سوريا .. وهتف الفلاحون لناصر ، ووجم الإقطاع .. وفرحت ؟؟

وألغى قانون العشائر .. ولم أفرح ، لأنى — فى حدود معرفتى — أتهيب الانتقال العنيف والجرىء والسريع بالعشيرة إلى سلطان القانون .

وعدت فقلت :

— ولكنها ثورة وليست إصلاحاً ، والثورة إنما قامت لتقضى على المتناقضات فى المجتمع ، فكيف تناقض نفسها فى أبرز أعمالها بين إقليم وإقليم ؟

وعدت أسفه هذا الرأى وأقول :

— ولكنى أعرف أن «التخطيط» — إحدى هوايات الدولة — إنما ينسق بين مستويات « متماثلة » أو على الأقل « متقاربة » ، ومصر وسوريا لا تماثل بينهما فى المستوى ولا تقارب ، مصر قطعت أشواطاً ، لم تقطع سوريا منها بعد ، شوطاً ، حتى فى « الأدب » ، شبعت مصر من « الواقعية » ، فى حين أن (الوجبة الكلاسيكية الدسمة) ما تزال هى (الطبق المفضل) عند الأديب السورى ، كأنه لم يزل أديباً (أُمويًا) يرضيه من الحاكم أن يخلع عليه حلته وأن يقول : « يا غلام ، أعطه ألف دينار » ، ولا أقصد طبعاً تلك القلة من الأدباء التقدميين ..

* * *

. وبرغم هذا (الديالوج) — بين الشخصين اللذين يعيشان فى شخصيتى المزدوجة — عادت الوحدة تلوح لى من خلال هذه المخاوف والدا مهيباً ، تتكسر عند قدميه خلافات البنات والبنين .

وذكرت شمائل العروبة وتقاليد القبيلة عبر التاريخ العربى ، وكيف كانت العدالة تستهويها كما كانت شمائل النخوة والنجدة والكرم تستهويها ، فظهر عمر بن عبد العزيز فى نفس الرقعة التى نتحدث اليوم عنها ، فبهرت بعدله واستقامت له فى يسر رائع ، هذه الافئدة تطمئن (ناصر) ، و (ناصر) لم يذهب إليهم ليأخذ منهم ، وإنما ذهب إليهم ليعطيهم وليأخذ بأيديهم ، وليتقدم بهم ولا يتخلف .

رشيد عالى الكيلانى

وأمضيت سبتمبر أقرأ . . وأفكر على هذا النحو .. فإذا اضطرب حبل التفكير فى يدى .. عدت إلى القراءة وكان كل تفكيرى يدور حول أبرز حادث خطير يخص شخصى وقع فى ذلك الشهر .. واستنفد كل طاقات ذهنى .. وأعنى به سفر رشيد عالى الكيلانى إلى بغداد .

. وحقك فى أن تسأل هذه المرة عن الرابطة بين عودة زعيم العراق إلى العراق وبين

شخصى .. حقك هذا لاشك فيه . .

و إجابتى بسيطة ، وهى تماثل أختاً لها سبقت ..

إجابتى : لأن لى مع رشيد عالى .. تاريخاً .

* * *

سافر رشيد عالى الكيلانى .. الزعيم العراقى الحر القديم .. عائداً إلى العراق .. بدعوة من الثوار العراقيين الأحرار الجدد .. ليعتذروا باسم الوطن الحر مما صنع به المستعمرون ونورى والأعوان .. وليردوا إلى رشيد أمواله التى صادرها عبد الإله ثم اغتالها .. و إن كان البشر جميعاً .. يعجزون عن أن يردوا إلى رشيد .. سبعة عشر عاماً من أغلى سنوات العمر .. قضاها مغترباً حزيناً .. ومؤمناً وصبوراً ..ما بين إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية .. والمملكة السعودية .. والقاهرة أخيراً .

* * *

كان النبأ بالنسبة لى ... « ساراً » و « أكثر من سار » .

لقد قلت عنه فى كتابى « عند مشرق العروبة » الذى صدر فى مستهل سنة ١٩٥٧ وقبل اعتقالى بشهور : و إنه ما يزال — وقد جرد من إمكانيات الكفاح ... كبير الرجاء فى أن يعود و يقود[١] .

(١) قلت فى ذلك الكتاب وأنا أعرض لزعماء العروبة نماذج مضيئة ما يأتى بالحرف :
« فإذا انتقلت إلى رشيد عالى الكيلانى فى العراق — وهو اليوم ضيف مصر — فقصته لم تغب عن أذهان الجيل ... ومهما تختلف الآراء على حركته من حيث النتائج ... فإن أقل ما يقال عن الرجل أنه أول رئيس للوزراء فى بلد عربى تحتله بريطانيا — سيدة البر والبحر يومئذ — قاتل بريطانيا — وإذا قيل إن انقلاب رشيد فى سنة ١٩٤١ كان عسكرياً فيجب أن يقال إنه كان أيضاً وطنياً ... فقد رفض أن يأذن لبريطانيا فى إنزال قواتها إلى العراق ومشى بجيشه إلى مطار الحبانية وقاتل ... فإذا كان التوفيق قد تخلى عن رشيد ، وإذا كان الأردن قد خذله ... وإذا كان الألمان لم ينجدوه ... ففر رشيد إلى أوربا ... ولجأ إلى ابن السعود عبد العزيز — فأكرم وفادته ... وجاء إلى مصر من عامين ولا يزال أكرم لاجىء ... إذا كان هذا كله قد حدث فالوجه الذى يعنينا من تاريخه أنه قاتل بجيشه وشعبه أكبر قوى المستعمرين فى ذلك الحين ... وأنه ما يزال — وقد جرد من إمكانيات الكفاح — كبير الرجاء فى أن يعود ويقود ...

وها هو ذا يعود .

والأبصار كلها تتطلع ... وكلها أيضاً تتوقع أن يعهد إليه مجلس السيادة فى رياسة الجمهورية أو فى رياسة الوزارة ... وتشكيله الوزارة يعنى « الوحدة بين مصر والعراق والجمهورية العربية المتحدة ... الحدث الذى ترتعد لمجرد تخيله فرائص الغرب والرجعية العربية... والشيوعية التى لا تعنى هذه الوحدة بالنسبة إليها... إلا أن يتركز عملاؤها فى الشرق الأوسط كله ... فى نقطة تجمع واحدة .. وهى لبنان .. ولبنان اليوم محتلة بالأمريكان خصوم الشيوعية ... وهى غداً متحررة من هؤلاء ومن أولئك ... وحتمية التاريخ التى يتشدق بها الشيوعيون هى التى ستفسح الطريق أمام لبنان الحبيب ... ليمشى غداً إلى الصف وليأخذ مكانه بين الأشقاء تحت الراية ولا يجد الشيوعيون يومئذ مكاناً لهم فيه .

هذا ما كان متوقعاً أن يحدث ... لو أن الركب واصل سيره ... ولكن الركب توقف ... فذرنى أتوقف أنا الآخر قليلا ... لأتحدث عن « تاريخى مع رشيدعالى » لأن لهذا التاريخ صلة بأهداف كتابى — ثم نلتقى مرة أخرى على أرض العراق لنرى ما جرى على الزعيم العائد .

***

حدث ماحدث لرشيد ... وقصته مع السعوديين معروفة ... حسن بداية وسوء نهاية ... قصته معروفة يوم ضاق بتآمر أمين الحسينى المتطلع يومئذ إلى إمبراطورية عربية مركزها القدس يحميها الصليب النازى ... فرأى رشيد أن يترك له ألمانيا ... واستطاع أن يصل إلى السعودية متنكراً — بعد رحلة رهيبة نشرنا جانباً منها فى « السوادى » بقلم رفيق له سورى ... ودخل على عبد العزيز آل سعود فى « مجلسه » وأخذ مكانه بين الجالسين ... وسأله عبد العزيز عند انتهاء المجلس إن كان للضيف مطلب فقال الضيف ما معناه « عربى مستجير يريد أن تجيره ... وأرجو ألا يكون الأمر فوق طاقتك » وظن الملك أن القبيلة التى تطارد الضيف قوية ، وعز على الملك هذا التحدى المهذب فقال للضيف « عبد العزيز فى طاقته دائماً أن يجير ... مهما يكن أعداؤك ... أجرناك يا رجل » فكشف الضيف عن وجهه وقال للملك « أنا رشيد عالى يا صاحب

الجلالة » وتمالك عبد العزيز نفسه — وكان ملكا — وقال (أجرناك يا رشيد) وخاض عبد العزيز بدهائه الفطرى عراكا سياسياً رائعاً ... حتى ترضاهم وغضوا الطرف عن المطالبة برأس رشيد .

وظل الرجل مقيما فى السعودية حتى مات عبد العزيز .

***

تلك قصة نشرت ... وقرأها كثيرون ... وأحسبك منهم ... وأنت إذن تعرفها .

أما الذى لا تعرفه ... فهى قصتى مع رشيد لأنها لم تنشر .

وأنا لا أنشرها اليوم لأضعها فى الكفة المقابلة لكفة القصة الأخرى ... ندا لملك أو رئيس حكومة ... إنما أنشرها ... لأن لها كما قلت صلة بأهداف كتابى ومراحل تطورى إلى (الناصرية) .

ولقد فتنت بسيرة رشيد كبطل من أبطال التاريخ ضحى بكل ملايينه وممتلكاته فى سبيل وطنه .. وعرض حياته وحياة أسرته للخطر .. واحتل فى تاريخ الفداء السياسى المكان الذى احتله تولستوى فى تاريخ الفداء الإنسانى ... كلاهما إقطاعى ورأسمالى ... وكلاهما نزل عن المال والإقطاع ... وتولستوى عرض نفسه بهذه الفعلة لوحشية زوجته واضطهادها له ... ورشيد عرض زوجته وبناته للتشريد والمتاعب والغربة ... وعرض نفسه للموت محارباً ... وللدسائس منفياً ... وللحماية لاجئاً ... والغربة دامت سبعة عشر عاماً ...

فتنت بسيرة رشيد ولم أكن أعرفه ... وفسحت له فى صدر جريدتى « السوادى » وذدت عنه ... وكنت أفتتن دائماً بكل حركة فردية تخاصم الرجعية العاتية ... وتخاصم المستعمر المسلح ... وتخاصم الطغاة من الحاكمين ... وكنت يومها أشد أيضاً أزر الحركة التقدمية التى أعلنها الأمير إبراهيم ... من « عدن » ضد أبيه الإمام يحيى حميد الدين فى « صنعاء » وظللت أؤيد الأمير إبراهيم ... وأنشر فى « السوادى » أهدافه ونداءاته ...

من غير سابق تعارف حتى نجحت الحركة وقتل الإمام ثم حدثت النكسة وقتل الأمير وابن الوزير وعادت الرجعية أشد ضراوة على يد الإمام أحمد « أمير المؤمنين .. ؟!! » الحالى فى « اليمن الخضراء ؟!! المهلهلة » ...

* * *

وأعود ... إلى « رشيد » وافتتانى به ... وكفاحى من أجله .

شاركت بجهدى المتواضع فى جريدتى ... فى بذل المساعى التى شارك فيها الكثيرون من زعماء العروبة ... لدى الأمير عبد الإله ... وقد حسبناه « عربياً » ... وانفردت « السوادى » بنشر الصورة الزنكوغرافية للعريضة التاريخية التى رفعوها لذلك الأمير تحمل توقيعاتهم ... وظللنا نعقد الفصول الضافية عليها ... وثبت أن « عبد الإله » هو عبد الإله ... وعد ... وماطل وسوّف ... وأخيراً رفض ... وكان كل ما أملكه أن أبصق ... ولم تفد بصقتى ولا بصقة جريدتى ... حتى بصق « ناصر » فبصق العراق ... فذبح عبد الإله .

ويبدو أن «رشيد عالى» « العراق » تأثر وهو يقيم فى (الرياض) أو (السعودية) بتطوع صحيفة (مصرية) للدفاع عنه وهو فى محنته ... لا يملك لأحد نفعاً ... وكان الملك عبد العزيز قد يسر لزوجة رشيد وبناته أن يقمن فى القاهرة ... على مقربة من أهل الثوار الأحرار من الضباط أنصاره ممن أعدمهم عبد الإله فهرب النساء والأطفال إلى القاهرة ... ومنهم حرم الشهيد محمود سليمان وطفله :: برعاية شقيقه (محمد سليمان) .

وكتب (رشيد) إلى أهله فى القاهرة ليشكروا لى باسمه ذلك الجهد الذى أبذله .. وجاءنى محمد سليمان ومعه نجم السهروردى المدرس العراقى الشاب « وزوج إحدى بنات رشيد » والياور العسكرى السابق لرشيد — ونسيت اسمه — ومعهم الدكتور الطبيب ناصر ليقدمهم لى . وألح محمد سليمان[1] — واذكر هذا الإسم واقرأ الهامش — فى أن

(١) محمد سليمان ... صديق المهذب ... ظل لاجئاً سياسياً فى القاهرة سنين وسنين... يتحمل شظف العيش ... ولا يستطيع العودة إلى وطنه ... حتى بذلت له المساعى فعين فى الجامعة العربية وظل يترقى حتى أصبح مشرفاً على إدارة البترول فيها وفرحت له فى منصبه الكبير بعد كل ما عناه... وفجأة ولا أدرى كيف... عين وزيراً للبترول فى حكومة عبد الكريم قاسم ... ولا أجد حتى الساعة تفسيراً لهذا العجب .

أزور زوجة أخيه الشهيد لأرى طفله البطل الصغير المعد للثأر .. وفى أن أزور أسرة الرئيس رشيد «لأن معهم رسالة منه و بخطه يحبون أن يسلموها لك» وزرتهم .. وأحسست من يومها أنى غدوت واحداً منهم .

* * *

ومرت السنون ..

وذات يوم أخطرنى الدكتور الطيب أن رشيد عالى وصل من أيام إلى القاهرة .. وأنه زاره فى فندق هليو بوليس .. وأنه يريد أن يرانى وذهبنا معاً .

* * *

واستقبلنى الرجل بالقبلات وظلال الدموع تروح وتجىء فى عينيه .. و بصمات المتاعب .. تبدت على وجهه فى صورة تجاعيد .. وكان يرتدى جلباباً صيفياً أبيض وعباءة خفيفة يسمونها « رفيف » وعقالا أسود .. وأمضينا وقتاً طويلا .. فى جلسة لا تنسى .. وهو يقص علينا .. بعض ما لقيه فى السعودية من كرم عبد العزيز .. و بعض ما قدمه لعبد العزيز من مشورة .. و بعض ما لقيه من مستشارى عبد العزيز من دس غير كريم . واختتم الرجل قصة الإقامة الكريمة .. بقصة مضادة لا تكاد تصدق — لو لم يكن (رشيد) صاحبها وراويها — ويكفى أن أنقل منها آخر عباراتها .. أمراً تلقاه فجأة — ومن غير سبب — بمبارحة السعودية فوراً .. وعلى طائرة معدة .. ولم يسمح له حتى بملابسه .. ولم يسمح له — طبعاً — بسحب أى مبلغ من أمواله المودعة فى المصارف لأنها صودرت — ثم قال يخاطبنى :

— ولكن بارك الله فيهم سمحوا لى بأن أبرق إلى صديقك (نجم السهروردى) فطار المسكين إلى القاهرة ليكون فى استقبالى .. ولولا نقوده .. لما وجدت أجر هذا الفندق الذى ترانى مقيما فيه .

رشيد وناصر ؟

ثم انتقل الحديث إلى عبد الناصر — ولم يكن رشيد يعرف أنى من خصومه فقال فى براءة وحرارة أن هذا الشاب قد عوض الله به شعوب العروبة خيراً .. عن كل ما لقيته من المستعمرين والطغاة والحاكمين .

وسألته إن كان يقول هذا القول مجاملة بوصفه نزيلا على مصر ولاجئاً سياسياً عند ناصر ؟ ونفى رشيد أن يكون هو .. هذا الرجل .. وأن يجرى حديثه مع السوادى هذا المجرى .. وعاد فأكد أن الله عوض به شعوب العروبة خيراً .. وأجزل فى التعويض وأنه يقرر هذه الحقيقة عن يقين بها .. وقد دعى إلى لقائه .. وتحدثا طويلا .. وخرج مقتنعاً بأن الحقيقة تفوقت على كل ما كان يطوى عليه خياله .

وأكد رشيد — وهذا هو الذى يعنينى فى الدرجة القصوى — أن كل بلد عربى سيتحرر بفضل هذا الشاب .. وأن العراق سيكون فى الطليعة ... حراً كريماً ... وأنه هو — أى رشيد — لا بد عائد ... وأنه سيعود ليقود ... وسيكون أول إجراء يتخذه مع مصر على المستوى الفردى ... دعوة توجه منه إلى شخصى الضعيف لأزور العراق ... ولأعرف أن بغداد ترعى الجميل .

* * *

وتلك هى أوجز خلاصة لما حدث بينى و بين رشيد .

وأرجو ألا تكون قد نسيت أن هذا الشريط كله — شريط الذكريات التى سقتها لك مساق القصص — قد مر أمام عينى الليلة — إحدى ليالى أغسطس — وأنا فى غرفتى أقرأ نبأ عودة رشيد عالى إلى بغداد .

لقد عاد ...

ولا أشك فى أنه سيقود .

ويومها... سأكتب إليه ... وسأقول له : « تذكر أن صديقك القديم سجين... فقل لصديقك الكبير ... يأمر بفتح الباب المغلق » .

* * *

وتدرك من ذلك الجو الذى رسمته لك أن سبتمبر جاء وملؤه البشريات والأمل .

طار رشيد إلى وطنه ليسترد ماضيه ... ونحن والعراق ... فى ارتقاب الأمل المنشود ... وعندما أغلقت الأردن الحدود بينها وبين الإقليم الشمالى فتحناها مع العراق الحر ... لنرسل إلى اللاذقية أكداساً رهيبة من الأسلحة والعتاد والذخيرة ... ومن الألغام والقنابل وقاذفات الصواريخ والبنادق والسيارات والرادار والمدافع ... تنتقل من سوريا إلى العراق ... ليتسلح الشقيق الذى تحرر .

وطائرات أكتوبر ؟

وكما ازدان سبتمبر بسفر « رشيد » إلى عاصمة الرشيد .. جاء أكتوبر بحادث جديد سعيد .

حادث هبوط تسع عشرة طائرة من أحدث طائرات « الميج » .. إلى مطار « الحبانية » بين هتافات الجماهير العراقية .. يعزز بها « ناصر » سلاح الجو العراقى .. وكانت الأسراب العربية بعرضها الجوى فى سماء بغداد والنساء يزغردن .. وحناجر الرجال والشباب تكاد تسكت ضجيج « الميج » .

* * *

وفى وسعى أن أقرر أن « أكتوبر » كان شهراً بديعاً . تعطر جو « الزنزانة » خلاله بأريج العروبة الصاعدة .. وخطا بى إلى « الناصرية » خطى واسعة .. لو لم يختتم بنبأ هز أعصابى هزة بالغة .

● فى أكتوبر سافر عبد الحكيم عامر إلى موسكو .. وفوجىء العالم باتفاقه

مع روسيا على تمويل الرحلة الأولى من السد العالى وأسقط فى يد مَن تسحب ، و« بهت الذى كفر » .

● وفى أكتوبر انسحبت القوات الأمريكية من لبنان والقوات البريطانية من الأردن .

● وفى أكتوبر توالى توقيع الاتفاقيات الاقتصادية والثقافية بيننا وبين العراق .

كان كل شيء .. يمشى إلى أهدافه .

ولكن بعض الأطبــاء والضباط نقلوا إلىّ أن أموراً غريبة بدأت « المحطات السرية » تذيعها علينا ، ولا تكاد تصدق ..

وقيل إن مخابرات الاستعمار بدأت تعمل داخل العراق بالاتفــاق مع الشيوعيين الهاربين من سوريا ويذيعون بين الجماهير أن كل ما يقدمه ناصر للعراق من مساعدات إنما يقصد به الاستيلاء على بترول العراق تحت اسم الوحدة ..

وقيل إن انقسامات بانت ملامحها على وجوه الثوار العراقيين وبدأ فريق منهم يطلق اسم « القوميين » على دعاة الوحدة ويصورونهم فى صور العمـــلاء للهتلرية الناصرية الزاحفة .

بدأ الاستعمار يعمل إذن .. ومعه الشيوعيون فى العراق .

وفجأة .. أقدم السودان — بعد مناورات عابرة — على إلغاء اتفاقية النيل من جانب واحد .

وبدأ الاستعمار يعمل — إذن — فى السودان .. وحده على هذا الصعيد .

تفجير فى الجامعة

وعقد مجلس الجامعة العربية فى نفس الشهر جلسة خاصة يستقبل بها وفد تونس الحبيبة بمناسبة انضمامها إلى الجامعة ، وألقيت خطب الترحيب من كل رؤساء الوفود . وكان الجو عربياً خالص العروبة .

ولم يبق إلا أن يقف مندوب تونس ليشكر .

ووقف ولكنه لم يشكر .

وإنما وقف ليتلو بياناً مكتوباً يهاجم فيه الجمهورية العربية المتحدة .

ووقف عبد الحميد غالب رئيس وفدنا — وهو معروف بالاتزان والخبرة — فقال بين ذهول السامعين إن كل ما قيل — إذن — عن خطط تدبر داخل الجامعة ضدنا لم تكن وكالات الأنباء التى أذاعته متجنية فيه كما ظننا .

وانسحب هو ووفده من مجلس الجامعة .

وهكذا وثب الشقاق إلى بيت الأسرة من نافذة جديدة .

وعجبت للأحداث وما تصنع بنفوس الناس ..

ذكرت .. فعجبت .. فغثيت .. فسكت ..

ذكرت الصديق القديم — حبيب بورقيبه — وهو لاجىء سياسى فى القاهرة وكان يتردد على مكتبى فى «السوادى» — مع الصديق الفلسطينى الأقدم محمد على الطاهر وبرغم المتاعب التى كان بورقيبه يلقاها فقد كنت أحب فى عينيه الحياة التى تطل منهما حمراء قانية .. ترسل دائماً وهجاً من النار ، أو لوناً من الدم ..

كيف وقد أجلسته بلاده على كرسى «الباى المعظم» ، لايملأ هذا الكرسى العربى العريق بكل الطاقات الثورية التى كانت فيه ؟ وكيف أجاز لنفسه هذه الفعلة ؟

ونكسةٌ فى العراق

وأعجب من هذا كله ، أن تلق هذه الخطيئة التى ترددت فيها تونس صداها عند دعاة الفرقة فى العراق وعلى مستوى الدولة ، فيصرح وزير خارجيتها — وكان يومها فى نيويورك — أن العراق متضامن مع تونس .

نجح الاستعمار – إذن – فى السودان وفى تونس والعراق .

وبدأ الشقاق يدب كما قالت الأنباء بين الزعماء فى العراق .

وبدأت أضع يدى على خدى وأنا فى زنزانتى وأقول حزيناً : يا خسارة يا عراق .

* * *

ولكن نوفمبر جاء ..

ورفعت يدى عن خدى .. وبدأ أول الغيث .. وغمغمت على استحياء : مرحبا بك يا سودان .

جاءت الأخبار أن جيش السودان .. ثار .. على أحزاب السودان .

* * *

ولم أستطع أن أقول شيئاً إلا أن « ناصر » ما يزال على الطريق رابط الجأش موفور الإيمان .

أما أنا ..؟ أنا .. ما أزال أيضاً على الطريق .. ولكن الوقت لم يحن بعد ..

ولعل الذى حان .. هو رجائى أن أكون قد رسمت بالصدق الممكن هذه المرحلة الثامنة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل التاسع عشر

كفى سجناً

مشيت معى فضلا منك ـ ولا أقول « مشيت بك » ـ نعبر الحياة فى السجن .. واقعةً بعد واقعة فى السمر ، وشهراً بعد شهر فى الزمن ، وهاجسةً بعد هاجسة فى الفكر والقلب معاً .. حتى لقد شعرت أنى خرجت بك — أو كدت — عن موضوع الكتاب .

ولزاماً علىّ ـ إذن ـ أن أعوضك عن هـذا اللون الذى استهوانى من « لزوم ما لا يلزم » بعجلة أطوى بها سنة ١٩٥٩ فى هـذا الفصل القصير ، فأشـير إلى بعض « المعالم » على الطريق ولا أوضح ، وأتمهل عندما له علاقة بأهداف الكتاب .. ولا أفرّع .

ومما له علاقة بهذه الأهداف ـ أو على التحديد بمراحل تحولى ذلك « العطف الكريم» الذى لقيناه من الرئيس ماثلا فى (المعاملة الكريمة) التى يتعذر على أى حاكم من لحم ودم ، أن يرتفع إلى مستواها ليعامل بها خصوماً تآمروا عليه ووقعوا فى قبضته .

نكسات ... ومفاجآت ... وفجائع

ويهمنى أن يكون واضحاً ، أن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن يبشر بأى غزوة جديدة ، أو بأى مناسبة سعيدة ـ على الصعيد العربى أو على الصعيد الدولى ـ يبتهج بها (جمال) ، فيأمر بإخلاء سبيلنا ، بل ـ على النقيض ـ لاح لنا أن خيوط المعارك بدأت تلتوى فى يد القائد وتتشابك ، ورياح الأحداث بدأت تهب على المنطقة ، على غير ما اشتهى وقدّر .

بل تبدت (النكسة) فى (العراق) ، وكأنها مناحة للعروبة كلها ، وفجيعة لكل عربى ومأتم .

كانت نكسة لم تجل أبداً بخاطر .. وهى وحدها التى أستأذنك فى أن أتمهل عندها حزيناً .. وفى أن (أركز عليها) قليلا ..

* * *

و (العراق) فى رأيى بلد تعس ..

وهو أشد تعاسة فى (قبضة قاسم) منه فى أحلك الفترات .. التى حكاها تاريخه المفعم بالمتاعب ..

و إذا كانت (بغداد) قد سقطت فى قبضة المغول ، وظلت وحدها تعانى (التترية) قروناً .. فالمغول كانوا (مغيرين) وكانوا (أغراباً) .. و(البربرية) كانت (صفة) لهم .. تلازمهم .. والعصر كان يحتمل مظالمهم .

* * *

كانت أسرة (محمد على) تحكم مصر .. وثار (الضباط الأحرار) ثورة بيضاء .. وحرروا مصر من حكم هذه الأسرة .. وكانت القيادة فى يد مصرى شاب .. طرد الاستعمار .. وقضى على الإقطاع والاحتكار .. ومضى ببلاده قدماً إلى مكانها .. جزءاً لا يتجزأ .. من الأمة العربية .

* * *

وكانت (الأسرة الهاشمية) .. تحكم العراق .. ونسج (الضباط الأحرار) فى البلد الشقيق على (منوال مصر) وثاروا .. واختلفت الظروف فكانت (ثورتهم حمراء) وعذرناهم .. سحلوا بعض الأحياء من الحاكمين وقطعوا بعض الرقاب فى (القصر الملكى) وعذرناهم .. وتسلم القيادة عراقى شاب .. تخففنا إليه .. وأخذنا بيده ، ووقفنا نذود عنه أقوى دول الأرض .. وعرضنا أنفسنا لعدوان جديد — كان متوقعاً — من أجله .. فما كان منه إلا أن انقلب علينا ، ثم عاد فانقلب على بلاده نفسها ، فأغرق طرقاتها فى بحر لجى من الدم .. وسحل (زملاءه الأحرار) فى الشوارع .. وزج بمن نجا من (السحل) فى السجون .. وفتح الأبواب على مصاريعها .. أمام الشيوعية

والاستعمار ـ معاً ـ يتعاونان فى تفتيت العروبة الصاعدة .. وفى تثبيت قوائمه المتداعية ، وراح ينادى فى الجموع بنفسه (زعيما أوحد) ، وأضحك الناس ولم يضحك ..

وهكذا غشيت العروبة غاشية الهزيمة فى ساعة النصر .. وبان أن كل شىء معرض للضياع إذا لم تمتد يد الله إلى هذه الرقعة العربية بالرحمة الحانية .. لتنقذها من ردة الاحتلال إليها ، أو من سيطرة الشيوعيين عليها ..

وكنت أشعر أن (يد الله) لابد أن تمتد .. وبدأت أرقب ما يجد ، وقلبى يحترق ، وعينى على ناصر ، وما عساه يصنع ، والعراق بعيد ، بعيد ..

***

ومضى (ناصر) سليم الأعصاب ، يعالج (الذبحة) التى أصابت (صدر العراق) بطريق التهوين من شأن قاسم .. ويثير ضحك الجماهير — والليالى سود — ويسميه مرة (قاسم العراق) ومرة (آثم العراق) ويميط اللثام عن شخصيته وعن الجهود التى بذلها ـ أى « ناصر » ـ فى سبيل إعادته إلى حظيرة العروبة .. ويكشف للناس يد المستعمر ، والعميل الأحمر ، ويحذر أى طامع من محاولة (التدخل) على مستوى العدوان ، بعد أن سكت عن (التسلل) على مستوى الإفراد . .

مضى (ناصر) ، سليم الأعصاب ، وعميق الإدراك ، يهدىء ثائرة الثائرين حتى يصفى أنصار قاسم أنفسهم بأنفسهم وتتساقط أوراقهم ورقة بعد ورقة ، وتدفع العروبة ثمناً للنجاة من (شذوذه) عاماً أو عامين يقضيهما حا كماً ويمضى ، يمضى وبأيدى العراقيين أنفسهم ... إلى نفس المصير الذى مضى إليه زعيمه نورى وأميره عبد الإله .

* * *

ومضى (ناصر) يبنى سوريا ومصر فى اتزان وجد .. وكأن كل شىء فى العراق هادىء ..

* * *

ومضى (ناصر) أيضاً يصفى الجيوب مع الدول المعادية ، ويعقد الاتفاقيات مع الدول

المسألة ، حتى خيل للعالم أن النكسات التى أصيبت بها العروبة على أرض العراق لم تعد عاملا من عوامل التعويق للركب العربى .

وهكذا طب للجراح فى مهارة ، وعرف كيف يضحك وفمه مفعم بالمرارة .

***

وأحب أن أقرر أنى خرجت من النكسة العراقية وقد زادتنى احتراماً لشخصية هذا القائد .

ولعلك تدرك الآن — وقد تلبد جو العروبة بالغيوم — ما عنيته عند ما قلت لك إن النصف الأول من سنة ١٩٥٩ لم يكن فيه ما يبشر بقرب الإفراج عنا على الرغم من أن صلاح الدين كان قد نقل إلى قصر العينى .. وعبد الفتاح حسن كان قد نقل إلى مستشفى الدمرداش ..

***

وما كاد يوليو يبدأ — وفيه عيد الثورة السابع — حيث تزدهر الآمال فى كل عام .. حتى كنا على يقين — نحن الثلاثة الذين خُلّفوا — من أن التفكير فى إطلاق سراح السياسيين فى هذا الجو المكفهر ضرب من الخيال لا يجمل أن يتشبث بأطرافه عاقل .

***

وفى الرابع عشر من يوليو أو من تموز ـ عيد الثورة العراقية الأول ـ استيقظت من النوم وتناولت إفطارى ، ومرت ذكرى العراق بمخيلتى ومر معها صدر البيت المعروف : « عيد بأية حال عدت يا عيد » فهززت رأسى فى أسى ، وجاء أحد تمورجية المستشفى يقول لى إن (طبيب أول الليمان) يريد أن يرانى ، وكانت مثل هذه الدعوة عادية .. بالنسبة لى ولزملائى فى القضية ، وبالنسبة للطبيب كلما تلقى من الإدارة الطبية بالديوان العام استفساراً عن الحالة الصحية لأى منا ، فهو فى هذه الحالة يستدعى

المستفسر عنه ليرى وزنه ، وليرد على الديوان رداً (روتينياً) مألوفاً يذكر فيه الوزن ، والأمراض ، ولا شيء .

وارتديت ملابسي وذهبت إلى المستشفى بصحبة التمورجي .

وما كدت أقترب من بابها الحديدي المفتوح حتى سمعت الجاويش .. رئيس التمورجية ، ينادي فيهم : (إنتباه) فأدركت أن المدير لابد أن يكون قادماً ، وتلفت خلفي لأحييه فلم أجد أحداً ، ورأيت الجاويش يتقدم مني ضاحكا ويهجم على عنقي بذراعيه ويقبلني ، ودهشت لهذه المعابثة التي لم يسبق لها نظائر بيني وبينه وقلت له غاضباً : (إنت اتجننت ؟) فلم يبال اعتراضي ومال إلى أذني هامساً : (ألف مبروك ، جه أمر الإفراج عنكم ، بس ما تقولشي إني قلت لك) ..

— صحيح ؟

— والمصحف الشريف ، أمال أنا اجرأت وبستك إزاى ؟

وشكرته طبعاً ، ومشيت معه .. أجاذبه الحديث وأطيل فيه ، حتى أسيطر على أعصابي، فلما استمدت هذه السيطرة اتجهت ثابت الخطى أقرب إلى العبوس إلى مكتب الأطباء فقال طبيب أول وهو يحسب أنه يعد لي مفاجأة لاعلم لي بها :

— بقى يا عمي سوادي ، ما انتش عايز تسمع محاضرتي اللي حالقيها عليكم في المكتبة يوم الاثنين القادم علشان تقول لي ملاحظاتك عليها ؟ كرهتنا خلاص ؟

وقلت وأنا أتظاهر بالدهشة :

— إيه الكلام ده ؟ مين قال لك إني مش حا اسمعها ؟

وقال وهو يقهقه برغم ما عرف به من ميل إلى الجد الصارم :

— والله العظيم مانت سامعها .. مبروك يا أستاذ سوادي .

— على إيه ..

— حل عننا بأه .. الريس ياســيدى اتعطف وأمر بالإفراج عنكم وأنت تستاهل والله .

وقلت فى ثبات :

— وحدى ؟

— كلــكم ..

— الحمد لله .. الريس ييجى منه كده وأحسن من كده .

وتبارى الأطباء فى التهنئة معجبين بثباتى .. وهم لا يعلمون أن المفاجأة استنفدت قوتها من قبل أن ألقاهم .

فى طريقى إلى الحرية

كان ذلك يوم الثلاثاء الرابع عشر من « يوليو » ... وأقول الآن بملء فمى : « ومن تموز » .

وهو — كما تعرف — العيد الأول للثورة العراقية .. احتفل به كل حاكم على طريقته .. خضّبه « قاسم » بالدم .. وعطّره « ناصر » باالورود .. وكان لنا — نحن الثلاثة الذين خلّفوا — وردة منها كبيرة وذات أريج .. هدية منه فى الذكرى الأولى لثورة الرابع عشر من « تموز » .

طرقت الفكرة رأسى .. وانسربت إلى قلبى .. فاذا القلب وثاب إلى « الناصرية » فى سرعة « الذى عنده علم من الكتاب » .. ولو لا حرصى على أن أبدو ساعة النصر « وقوراً » .. لهتفت من أعماق غير مخدوع .. باسم « الرجل الذى تآمرتُ عليه » مخدوعا ..

* * *

كان الخبر .. قد ملأ « عنابر الليمان » .

وكان الزميلان قد لحقا بي ..

وعدنا نحن الثلاثة .. تربط بيننا الفرحة بعد أن فرقت بيننا المحنة .. و بين حشد من المهنئين .. اختل معه « النظام » واختلط فيه السجين والسجان .

وأعود وأقول إن خبر الإفراج جاء يوم الثلاثاء ..

ولكن الإفراج نفسه لم يتم إلا يوم السبت ..

هذه الأيام الأربعة التي استغرقتها « الإجراءات » .. كانت كلها أفراحاً لا أنساها .. ولا أستطيع — وحتى هذه الساعة — أن أعرض لها بالتعليل .

فرح لنا .. كل سجين .. مع أننا عائدون إلى بيوتنا وهم باقون .. فما هو التعليل ؟ لا أدري .

وكل الذي أستطيع أن أدريه .. أن السعادة بمذاقها وحلاوتها — وكل ما يفتن الروائي الوصَّاف في وصفه لها — لم أعرفها طوال عمري إلا في هذه الأيام الأربعة التي بدأت في ١٤ تموز وانتهت في مساء الثامن عشر منه ..

أسعد أيام الحياة وأحلاها .. عشتها في زنزانة .. وخلف أسوار ليمان ؟!!

* * *

وأطوي عنك ما جرى خلال الأيام الأربعة .. إلى كتاب آخر عن حياة الحيارى والمذهولين خلف أسوار السجون إن قدر لهذا الكتاب أن يصدر .. وأطوي أيضاً وصف رحلتنا مع ضباط الحرس إلى وزارة الداخلية .. وأطوي كذلك رقة ضباط المباحث العامة .. وهم يعربون لنا عن أملهم في أن يكون فضل الرئيس في الإفراج عنا مقدوراً منا .

والمهم أني وضعت قدمي في عربة «التاكسي» .. وقلت للسائق الذي لا أعرفه :

« الفجالة يا أسطى » وقال الرجل مجاملا : « من عنيه » .. وإذا بى أرد صادقاً وكأنى أعنى كل حرف : « تسلم عنيك » قلتها .. وأنا أحس .. أن بى فى هـذه اللحظة من لحظات عمرى ، شحنة من الرضى ، تكفى لإدخال السعادة إلى كل قلب ، لو أتيح لى أن أنثرها ، على أهل هذا الـكوكب ، قلتها وأنا أغمغم سعيداً : « كفى سجناً » .

* * *

وحرام أن تسألنى الآن ، عن «مكانى» من «الناصرية» ، ففى مثل هذا الجو ، لا يسلم الجواب من الشطط وسنتحدث ، ونتحدث ، بعد أن تستقر الحياة بالمشاعر . وبعد أن أجمع من « الجو الحر » خيوط الحقائق ، فى يدى ..

وأرجو أن أكون قد رسمت بذلك الوصف مرحلتى التاسعة عشرة فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل العشرون

مع الأحرار .. فى الجو الحر

ونعود الآن معاً إلى « الحياة » .. وأقصد نفسى ولا أقصدك لأنك « حر » .

خرجت من السجن إلى « الحياة » .. أحمل شحنة من « الشوق » إلى « الأحياء » ملهوفاً على أن أضم إلى صدرى كل « شىء حى » .. كنت أحس إحساساً عريضاً وعميقاً بفضل الله على .. فلم أكن أضيق بشىء ..

وعدت إلى « فينكس » « مقهاى القديم » .. فى عماد الدين .. ثم لم ألبث أن عدت إلى «مكتبى» وكان مغلقاً .. فجددنا شبابه وانفتح — و بدأ الصحب يترددون عليه من جديد ..

***

و بعد عودتى إلى الحياة بأيام خمسة .. احتفلت مصر بعيد ثورتها السابع .. وألقى الرئيس خطابه التقليدى .. وفى هدوء البيت الآمن — حيث أنام لأول مرة بملء جفنى — بدأت أسمع الخطاب — بعقل واعٍ .. وقلب متفتح .

أقول (لأول مرة) .. وأعنى كل حرف .. فقبل السجن .. كانت سموم الخصوم — حاملة الجراثيم السود — جراثيم الشكوك والأكاذيب — قد انسربت إلى كل خلية فى المخ .. ثم وثبت إلى القلب فنشرت أشباح الشك على كل كيانه .. وتركته مختل الضربات يخفق خفقة الخوف من كل تصرف تقدمى لناصر .

أما اليوم .. فقد عدت إلى الحياة .. وفى القلب طهر .. وفى النفس سكينة .. والمخ — ولا أعنيه بالمعنى التشريحى — جهاز استقبال وديع وواع .. لكل ما يتلقاه من نبأ .. وجهاز استقبال منصف وهادىء .. لكل ما يتولاه بالبحث .

وكان فى نيتى كما قلت قبلا — وما أزال عند هذه النية — أن أصفى بكل ما أملك من طاقة الإنصاف .. كل اتهام وجهه الخصوم إلى القائد الشاب عبر السنين السبع.

بيد أن الخطاب الذى ألقاه فى العيد السابع .. جاء بالنسبة لأهدافى (ثروة) لا تقدر .. ألقاه وكأنه عنانى به .. وعنى كل أمثالى .. من الذين ضلوا .. صادقين فى الضلة — وجاء الخطاب .. حصيلة فريدة — تغنينى عن كل تحصيل — للثورة وما صنعته عبر السنين السبع .. بكل رشادها وأخطائها — وعلى كل المستويات التى عاشتها .

وسألت نفسى :

— هل الخطاب فريد فى بابه بين الخطب .. أو هو قلبى الذى تفتح .. وعقلى الذى أدرك .. وعينى التى انجابت عنها الغشاوة .. ونفسى التى تخذت من سكون الزنزانة صومعةً تطهرت فيها ... وخلصت من كل غاشية غشيتْها ... فلما خرجت إلى الحياة . وضحت الرؤية أمامها ؟

لعل الاحتمالين صحيحان ...

أسلوب جديد

وحديثى معك من الآن — إذن — يلونه وضعى الجديد ... ولا محل لأن أناقش الخطاب ... وهو فيما أذكر من أطول الخطب التى ألقاها ... لأنى أشعر أنى مقدم على أسلوب غير ذلك الذى تناولت به أقوال الخصوم ... مقدم على أسلوب أقرب ما يكون إلى (البحث أو الدرس)...وأنا أرسم آخر الخطوط لآخر المراحل فى تحولى من الكفر إلى الإيمان ... وعلىَّ إذن أن أخطط لهذه الدراسة فى هدوء ... وكل ما يهمنى الآن من الخطاب الذى ألقاه أن أقبس من (نوره) ما يضىء طريقى ... وأعتقد أن هذا (النور) سيظل يمشى بين يدى حتى يذوب — فى رفرف الكتاب — فى وهج (الميثاق) .

الرجل البناء

وسبيلى ... أن أطبق هذا (الأسلوب) على (جمال عبد الناصر) .

لقد قال لنا وأعاد القول — عبر السنين التى قاد خلالها الركب — أن بناء السدود والمصانع أمر ممكن ... وأن إصدار القرارات والقوانين (أمر هين) ، وأن الصعوبة كل الصعوبة ... فى (الخامة البشرية) ... فى (صنع الإنسان)... فى (بناء المواطن) وأخذ على عاتقه مهمة هذا البناء .

و (ناصر) — إذن — هو الرجل البَنَّـاء :

والمبنى الذى أقامه — ولا يزال يعلو به طابقاً فوق طابق — هو ما نسميه (الناصرية) ... والمذهب الذى التزمه فى إقامة هذا المبنى هو (الناصرية) نفسها .

و (الوعاء) الذى اتسع لها وحدد معالمها ... هو ما أسماه أخيراً (الميثاق) .

***

وعلى مطالع الثورة أصدر كتابه (فلسفة الثورة) .

وهذا (الكتاب) — إذن — كان (مقدمة) و (بداية) ، و (الميثاق) — إذن — كان (نتيجة) و (نهاية) .

ولنعد — إذن — إلى المقدمة من بدايتها .

ولكى يستكمل البحث ملامحه ... وتنتظم الدراسة حلقاتها ... يتحتم أن أربط بين (البداية) و (النهاية) أو بين (فلسفته) و (سياسته) ... وأن أنظر فى البناء الذى أقامه ... هل خالف فيه عن تلك الدعامات التى قامت عليها هذه الفلسفة — وعن تلك الاتجاهات التى مشت فيها هذه السياسة ... أم أن الأمر كله كان (قدراً مقدوراً) لا فضل له فيه ... وكان (حظاً) محضاً ... كما يحلو للخصوم أن يسموه ؟

مؤمن .. وجاد

وأول ما أسارع إلى إثباته فى هذا الفصل أن حصيلة دراساتى المهتزة التى انتهت بخروجى من السجن ... وحصيلتى دراساتى الهادئة ... بالعقل الواعى والقلب المتفتح بعد أن عدت إلى الحياة ... انتهت كلها إلى (حقيقة كبيرة) لعل (الأمر كله) يتركز فيها ... ولعلها تغنينى عن الخوض فى الفلسفة وفى الدراسة وإن كنت أنوى أن أخوض .

هذه (الحقيقة الكبيرة) أرفع اليوم رايتها بقلمى ... فوق سارية كتابى ... وملء قلبى ارتياح وملء عقلى اقتناع وملء ضميرى سكينة ...

هذه (الحقيقة) تقول : إن هذا الرجل (البناء) مؤمن وجاد ... مؤمن بالرسالة وجاد فى البناء ... مؤمن — فى قرارة نفسه بأنه يحمل للأناسى ... رسالة إنسانية ... ومؤمن بأن قوى الأرض جميعاً بما فيها (قنابل الكوبلت) التى لم تصنع بعد — لا تستطيع أن تنتزع هذه الراية من يده ... وهذه العقيدة من قلبه .

وتستبين هذه (الحقيقة) من غير جهد ... إذا نحن ألقينا نظرة شاملة نعبر بها الطريقة التى يخوض بها المعارك ... لنجد دائماً أنها معارك (دفاعية) وإن تبدت فى نظر السطحيين (هجومية) .

إنه يبنى ... ويلتزم الخط مستقيما كما تقضى أصول البناء ... فيدعوه الشعب العربى فى سوريا مثلا إلى (الوحدة) ، و (الوحدة) فى سياسته يحتمها التاريخ — وهو إذ يستجيب لدعوة الشعب السورى إنما يمشى مع تيار التاريخ ولا يقاومه ... فإذا كان الخصوم فى الأردن أو فى العراق يعتبرون وصول قواته إلى سوريا عدواناً وهجوماً ... على (الهلال الخصيب) الذى يحلمون به ولا يعتبرون وصولها دفاعاً عن سوريا التى يتآمر الاستعمار معهم عليها ... فذلك شأنهم ... وإذا جاوزوا نطاق (النقد) أو (الاستياء) إلى نطاق (التخريب) أو (المؤامرات) فقد فرضوا عليه المعركة فرضاً ... وحق عليه أن يخوضها ... وهم أحرار فى أن يضفوا عليه الوصف الذى يطيب لهم .

ونعود إلى النظرة التى نلقيها على طريقته فى المعارك «الدفاعية» التى تفرض عليه فنلاحظ إنه لا يبالى فى هذه الحالة .. أن يكون خصومه « دولا عظمى » تملك أن تمحو بلاده .. عن الخارطة .. أو أن يكونوا .. أفراداً يقفون فى وجه هذه الرسالة .. فإذا أصابته فى إحدى المعارك «نكسة» .. قابلهـا بقلب لا يعرف الفزع ... وبأعصاب لا تهتز ولا تضطرب .. ووقف رابط الجأش يصارح مواطنيه علانية بكل الأخطاء التى وقع فيها .. ويسميها «تجربة» ويرفض أن يسميها (هزيمة) .. ويعلن فى جنان ثابت أن « الذى يعمل . هو وحده الذى لا يخطىء » .. فإذا انتهز الخصوم فرصة هذه الانتكاسة ... ورأوا أن يفرضوا عليه معركة جديدة .. أملا منهم — وهو متعب — فى أن يتراجع ... شد قامته على الفور ، وخاض المعركة الجديدة بأعصاب أشد سلامة وصلابة ... فاذا أحرز النصر ... حذر مواطنيه من (البطر) ... ونبه على (الغد) وعلى ما يحمله من خطر .

وهذه الملاحظة نفسها تستطيع أن تمتحن سلامتها ... فى معارك البناء الداخلى بعيداً عن الحدود والخصوم ... والمؤامرات ... والسلاح ... وخذ مثلا لهذا اللون من المعارك السلمية (الإطار) الذى اختاره لفلسفة الرسالة ... فى البدء ابتدع فكرة (هيئة التحرير) ... وقامت الهيئة ، ومشى بالتجربة ، فلما استبانت الأخطاء فى «تصميم البناء» لم يتردد فى تطويره إلى (الاتحاد القومى) الأول والأخير ، فلما استبانت الأخطاء ، لم يهتز المعول فى يده وهو يحطم المبنى الذى أقامه بالسهر والفكر ، وبالأعصاب والقلب ، وبالجهد والعرق المتصبب ، ليقيم فوقه المبنى الجديد المعدل ، حتى إذا وضحت الرؤية تماماً وعثر على (المعدن) الذى ظل العمر يبحث عنه مؤمناً بالعثور يوماً عليه ، تقدم إلى شعبه فى غير زهو ، ووضع بين يديه خلاصة الأخطاء وحصيلة التجارب ، ودعاه للعمل ، والنهوض بمسئولياته .

* * *

هذه (الظاهرة الخطيرة) فى تكوينه الشخصى وهذه (الحقيقة الكبيرة) فى الرسالة التى يحملها ، كان لهما أكبر الأثر فى تحولى ، نعم ، أصبحت أعتقد ، أن (إيمانى أنا)

بسلامة (إيمانه هو) ، كان نقطة التحول ، في تحولى من (الكراهية) لناصر إلى (حُبٍّ) وليد الدراسة بالعقل الواعى ، والقلب المتفتح .

فلسفة الثورة

هذه الحقيقة الكبيرة التى اهتديت إليها ، لن أدع خيوطها تفلت من يدى كما كانت كل الخيوط تفلت .

هذا الرجل يحمل رسالة .

ولابد — إذن — أن يكون له من (مقومات الشخصية) ما جعله (جاداً) فى أدائها ، وحملها ، وما مكن له ، من هذا الحمل ، ومن هذا الأداء .

ولزاماً — إذن — أن أعبر حياته ، لأعرض لأمرين عبر هذه الحياة : الأمر الأول مولد شعوره الغامض بحاجة بلاده إلى كفاحه كفرد ، ومسايرة هذا الغموض فى الشعور حتى نبلغ مكان الوضوح فيه — والأمر الثانى : مولد شعوره بحاجته إلى الجماعة وتنظيمها كنبع أصيل وقاعدة طبيعية لهذ الكفاح ، وكمصب أخير لتلقى الثمر .

والأمران يتصلان بأهداف أوثق اتصال ، الأول يكشف عن وجه (الأصالة) فى (الرسالة) ، ومدى «الجدّية» فيها وعن جذور (الثورية) فى (شخصه) وعن مدى (الطاقة) فى هذه «الثورية» والثانى : يفصل بين (شعبيته) و فرديته ، أو بين جوهر الديموقراطية التى ينادى بها ، و (الديكتاتورية) التى علقت بأطرافه .

وكتابه (فلسفة الثورة) ، هو فى رأيى — و بعد كل مطالعاتى ودراساتى — (مفتاح) للموقف كله ، ولعله يهدينا إلى ما هو أبعد .

بذور وجذور

وتبدأ مهمتى بالبحث عن « جذور الرسالة » فى « أعماق ناصر » .

وفى « فلسفة الثورة » حاول هو أن يبحث عن « بذور الثورة » فى نفسه . .

فعاد بذاكرته إلى اليوم الأول الذى اكتشف فيه هذه البذور .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من أزمة نادى الضباط فى سنة ١٩٤١ لأن تنظيم الضباط الأحرار كان فى ذلك الوقت قائماً يباشر نشاطه .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من فضيحة الأسلحة الفاسدة . . لأن التنظيم كان « موجوداً قبلها » وكان نشاطه « وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة »[١] .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ بداية الحرب فى فلسطين . . لأن خلايا الضباط الأحرار كانت (تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز)[٢] .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ وإن كانت هذه الطعنة (ردت الروح إلى بعض الأجساد وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها) .

● ورأى أن ذلك اليوم أبعد فى حياته من ذلك (الفوران) الذى عاش فيه طالباً يمشى مع المظاهرات فى سنة ١٩٣٥ .

واتضح له — بعد أن لاحظ أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقه وحده وإنما

---

(١) فضيحة الأسلحة الفاسدة .. كان قد أثارها الزميل « إحسان عبد القدوس » فى مجلة « روز اليوسف » ومع إيمانى بأن إحسان «فنان» فى كل عمل يباشره .. فقد كنت أشد إيماناً بأن وراء ريشة الفنان الذى أحسن رسم الفضيحه قوة تمده بهذه البيانات المثيرة .. ولم أكن أعرف أنها قوة « الضباط الأحرار » إلا من كتاب « فلسفة الثورة » .

(٢) وقال ناصر فى كتابه يعقب على نشاط الخلايا فى فلسطين ما يأتى بالحرف :

«فى فلسطين جاءنى صلاح سالم وزكريا محى الدين واخترقا الحصار إلى الفالوجة وجلسنا فى الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول إنقاذه . وفى فلسطين جلس إلى جوارى كمال الدين حسين فقال لى وهو ساهم الفكر شارد النظرات : هل تعلم ماذا قال لى أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟ قلت : ماذا قال ؟ قال كمال الدين حسين وفى صوته نبرة عميقة وفى عينيه نظرة أعمق : لقد قال لى : اسمع يا كمال ، إن ميدان الجهاد الأكبر هو فى مصر » .

(ولدت فى أعماقنا حين ولدنا . . وأنهـــا كانت أملا مكبوتاً خلفه فى وجداننا جيل سبقنا) .

ويبدو أنه أحس أن قارئه كان ينتظر منه تحديد اليوم فعلا ولم ينتظر الحديث على المستوى الفلسفى الذى ارتفع إليه .. فاعتذر بأنه يعيش وهو يضع الـكتاب فى دوَّامة وأن الذين يعيشون فى أعماق الدوامة قد تختلط عليهم بعض التفاصيل البعيدة لها .

البذرة والنبت

لم يستطع أن يحدد اليوم الذى اكتشف فيه بذور الثورة فى نفسه .

وهو على حق — من حيث البذور — وهى بطبيعتها غير قابلة للبحث عن وقت إيداعها . . لأن البذور إنما تلقيها يد الله فى الصدور . . كما تلقى يد الفلاح فى أرضه بذور زرعه .. فإذا مَرَرْتَ بالأرض بعد إلقاء البذور فيها .. لم ترشيئاً .. أما متى تعرف أن هذه الأرض أودعت بذوراً .. فعند ما يظهر النبت فوق الأرض .. واللحظة التى تقع أعيننا فيها على هذا النبت .. هى التى تحدد يومه وتؤكد أن بذوراً ألقيت فى أرضه .

وسواء أكانت هذه البذور (أملا مكبوتاً خلفه فى وجداننا جيل سبقنا . .) أم كانت أملا مكبوتاً .. رسَّبَتْه فى أعماق عقلنا اللاواعى .. أجيال وأجيال .. وتراث إنسانى ضارب الجذور فى تاريخ الإنسان .. فإن (زملاء جمال) فى النشأة وفى المدرسة . وفى البيئة وفى الطبقة . . وفى الصبا والشباب . . وفى الـكفاح وفى السلاح . . كلهم . . أو جلهم — كان له الحظ نفسه من ذلك (الأمل المـكبوت).... ومنهم من زامله فى كل مراحل النشأة . . وفى كل ألوان الـكفاح . . ومنهم من ثاروا معه . . وأكدوا وما يزالون يؤكدون .. أنهم (رجال غير عاديين) .. وأقول أن (زملاء جمال) .أولئك وهؤلاء — وبرغم التماثل والتزامل — لم يخرج منهم إلا (جمال) واحد فلماذا ؟

هذا هو السؤال .

وهذه هى (البذرة الخاصة) التى تستأهل البحث عنها فى (ذاتها) وفى (خاصياتها)

قبل البحث عن « الفصيلة » التى تنتمى إليها وتشاركها فيها كل « البذور المنتمية » . .
أو قل : هذه هى « البذرة الخاصة » التى نستطيع أن نبحث عن « اليوم » الذى (نبتت) فيه لنتعقب النبت من يومه الأول إذا تعذر البحث عن (البذرة) فى ذاتها . . وعن سر تكوينها . إيماناً منا . . بأن أسرار التكوين ، تظل تضرب فى زمن لا يعرف مداه إلا الله راجعة بنا فى تسلسلها إلى الوراء عبر ملايين السنين . . أو عبر التاريخ الإنسانى الطويل . بل عبر أزل لا ندريه . . إلى خالق الكون وصاحب سره المكنون .

فى المدرسة مثلا ؟

ولقد قرأت كثيراً مما كتب عنه . . وأتيح لى أن يكون من بين صحبى أساتيذ تلقى دروسه على أيديهم وشبان اتصل بتاريخه . . تاريخهم . . ومواطنون يعرف كل منهم شيئاً عنه فى مختلف مراحله ولست فى حاجة إلى أن أسميهم . . أو أنظر إليهم نظرى إلى (المراجع) فى (البحث الأكاديمى) و إنما أنا أعتبرهم (معارف) وقفت عليها . . أستخرج منها ما تدل عليه . . لأرى هذا القائد أخيراً بعين بصيرتى . . أو بعين ريشتى . وفى الصورة التى تثبت سلامة فهمى . . للرسالة التى يحملها . . ولأوجه « الجد » فيها . وللنقطة ، التى انطلق منها ، وللطاقة التى تسلح بها ، وللمواهب التى أهلته لها ، وللأدوات التى ظلت تفجر الطاقات وتلهب المواهب ، وتولد من كل (دفع ثورى) ، قوة (لدفع آخر) فلم يهدأ ، ولم يلهث ، ولم يرهب ، ولم يتردد ، ولم يلق الراية يوماً .

وأمامى الآن (حقائق) نشر جانب منها ، وعرفت أكثره من المصادر التى أشرت إليها فدعنا نمرح ، بين رياضها ، فترة .

● فى سنة ١٩٣٠ وكان تلميذاً صغيراً يبلغ أحد عشر عاماً و يمشى فى عامه الثانى عشر ، لم يُعْنَ بأن يعدو خلف بائع حلوى ليشترى بقرشه شيئاً منها ، كلا . . فى ذلك العام جرى خلف مظاهرة رآها تشتبك مع (البوليس) فى ميدان المنشية فى الاسكندرية ، وهى تهتف بسقوط الإنجليز والطغاة ، ورأى نفسه ينخرط فيها و يضرب مع الضاربين فى رجال البوليس

وايصاب مع المصابين بجرح ، وليعود إلى منزله يحمل أول روسام حمله ، من غير أن يفهم شيئاً فماذا تعنى هذه الحادثة ؟

تعنى — فى رأيى — إن هذا الصبى (ثورى بالفطرة) .

وهذا (المعنى) هو أول مظهر ، للنبت وقد شقت البذرة الأرض من فوقها لتطل على سطحها ، وأنا أرى أن لحظة اندفاعه تلك ، تحدد اليوم الذى يبحث عنه فى (فلسفة الثورة) .

* * *

ولا أشك فى أن أهله .. وصفوه فى ذلك اليوم بأوصاف شتى ، بمفردات وجمل ، « بشقى » و « عفريت » و « جن مصور » و « هوه ماله ومال المظاهرات ؟ » و « الولد ده مش حايجيبها البر » .

ولعل « العبارة الأخيرة » قد قيلت .

فإن كانت هذه العبارة قد قيلت ، فقد كانت « صوت القدر » ، يصب فى آذان الأرض « صورة الغد .. » أو « خبر الغد » .. من غير أن يدرى « مرسل العبارة » ، أى صدق أرسل .

* * *

وهذا كله من ناحية « جمال » وهو يبحث عن يومه فى فلسفة ثورته .

أما من ناحيتى فأنا أبحث عن « بذرة الرسالة » لا عن « بذرة الثورة » ، لأن « الثورية » ، وقود للثورة ، ولأن « الثورة » ، أداة « الرسالة » ، وفى رأيى أن انخراط الصبى وهو فى عامه الثانى عشر فى مظاهرة تهتف لمصر وتضرب « البوليس الظالم » — وصورة البوليس كانت فى تلك الأيام معكوسة على ذهن كل صبى بأبشع صور الظلم فيها — تحديد لا شك فيه لأول نبت ثورى فوق سطح الصبى ، ولأول يوم تواعد فيه مع القدر إن كان لابد من عودة إلى قصة القدر التى وقّعنا على أوتارها أول ألحانها فى تمهيدى للكتاب .

ولو أن «الصبى» رأى المتظاهرين يحطمون الدكاكين وينهبون اللعب أو الفاكهة أو الحلوى أو الساعات أو الأقمشة أو الأحذية ، نخاض غمارها وشرى وباعا — كما يقول إبن شدّاد — لقلنا إن الصبى إنما « تعنتر » لينتفع ، ولقيدنا الحادث فى حسابه المدين « بذرة من بذور النفعية » لا الثورية .

ولو أن « الصبى » وقد جرح .. عرج بجرحه على جريدة « البصير » أو « وادى النيل » ، وطلب أخذ صورة له كبطل صغير ، لقيدنا الحادث فى حسابه المدين « بذرة من بذور طلاب الشهرة » على طريقة الصور التى يراها فوق الشاشة ، ولكنها كانت «نبتاً» ظهر « لبذرة » كمنت .

مصر الفتاه ؟

(٢) وعلى مطلع العام الدراسى فى سنة ١٩٣٤ التحق بمدرسة « النهضة المصرية الثانوية » بالظاهر ، وما كاد يبدأ الدراسة حتى كان محط أنظار الأتراب ، لأنه اندفع فى صمت وجد يُسهم فى جميع أوجه النشاط رياضة وخطابة وتمثيلا — دينامو... لا يعرف الهدوء ولا الراحة — ثم لم يلبث أن اقتحم عليهم فناء المدرسة وهو يحمل شارة (مصر الفتاة) وكانت يومئذ شيئاً (شبابياً) و (تقدمياً) و (مثيراً) ، كان زعيمها أحمد حسين ثورى النزعة ، وكان قد قام وهو فى الجامعة بمشروع القرش سنة ١٩٣٣ فلما فرغ منه أغراه نجاحه فى الاتصال بالجماهير والتأثير فيها بخوض غمار السياسة فأسس جماعة (مصر الفتاة) وتزعمها ، وكان ساعداه فيها ، فتحى رضوان وكمال الدين صلاح ، وكان من بين الشبان البارزين فيها محمد صبيح ، فلم تفت (جمـال) هذه الفرصة لتفجير طاقته الثورية فيها ، فالتحق بها ، وتحمس لها ، ولم يترك اجتماعاً تعقده لم يشهده أو لم يشارك فى النقاش وفى الشجار ، وفى مقارعة الحجة بالحجة حتى إذا عاد إلى مدرسته راح ينشر مبـادىء جماعته ، ويقنع كل شاك ، فإذا انتقل أترابه إلى (المزاح) على المستوى الذى يجرى عادة مع التلاميذ اعتزلهم ، ولاذ بالصمت ووقف بعيداً ، كأنه شيخ وقور يترفع عن النزول إلى تصرف الشباب الطائش[1] .

(١) وأنا أعتمد فى تصرفاته على روايات أنقلها عن اثنين من أساتيذه هما مرسى الحميدى رحمه الله وأحمد حسنين القرنى . وكلاهما كان مدرس لغة عربية وكلاهما كان صديقاً لى .. وأولهما كان أستاذاً لى ذات عام .

فماذا تعنى هذه الوقائع ؟

تعنى — فى رأيى — أن هذا الصبى أوتى من الصبا طاقة نشاطية وكفاحية غير عادية وتعنى أنه صبور على العمل ، جاد فيما يعمل ، وتعنى إذا آمن بالفكرة ، فنى فيها ، وذاد عنها ، وقاتل فى سبيلها ، وتعنى أنه بطبيعته معزول من الصغار والتفاهة ..

والقيادة ؟

(٣) وفى أواخر سنة ١٩٣٥ أذاع صموبل هور — وزير الخارجية البريطانية — تصريحه المشهور يرفض فيه عودة دستور سنة ١٩٢٣ (وكان إسماعيل صدقى قد اعتبره دستوراً فضفاضاً واستبدل به دستوراً عجيباً آخر) فثار الطلاب وخرجوا إلى الطرقات واندفعت الجماهير تشد أزرهم ..

فى تلك الأيام ظهر الجانب الوضاء من هذا الفتى ..

ظهرت شخصيته بكل مقوماتها فنظم من الطلاب مظاهرة ، وقادها إلى ميدان باب الحديد فى نظام عجيب ، ليلتقى بطلاب المدارس الأخرى ، كان قد عيّن فريقاً من الطلاب يتولون (الهتاف) بعد أن حدد لهم (العبارات) ، وعين فريقاً ثانياً لحماية المظاهرة والالتحام بالبوليس (عند اللزوم) ورسم لهم طرائق الالتحام . . والفر ومتى يكون ، والكر وكيف يكون .. وعين فريقاً ثالثاً للدعاية لمدرسته بين طلاب المدارس الأخرى ، وللاتصال بزعماء هذه المدارس والتعرف عليهم أثناء المظاهرات ، ودعوتهم للاجتماع به بعد أن يروا ثمار تنظيمه .

وزادت خطورة المظاهرات ، التى انتهت بإرغام الزعماء على التكتل ، وتأليف الجبهة الوطنية ، وإنما يعنينى من البحث أن فتانا استطاع أن ينظم للمدارس الثانوية تشكيلا رائعاً ، وكانت الانتخابات للجنة التنفيذية العليا للطلبة على الأبواب فانتخب ممثلا للمدارس الثانوية فيها ، وقاد جموعهم قيادة رشيدة لا يبلغها إلا المدربون عليها ، والتقطت له مجلة (المصور) يومئذ صورة نشرت له وكتبوا تحتها اسمه لأول مرة زعيما (صغيراً) بين زعماء الطلاب الثائرين ، وقد طوى هو تلك الفترة المشبوبة — على كل

الروعة فيها بعبارة تناهت فى التواضع وهو يقول فى « فلسفة الثورة » باحثاً عن يوم اكتشاف البذور فى نفسه أنه أبعدَ أيضاً من « الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالباً أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة الدستور » .

فماذا يعنى هذا الذى مَرَّ به كريماً وأسماه « فوراناً » ؟

يعنى — فى رأيى — القدرة الخارقة على التنظيم ، والسيطرة عليه ، وحسن توجيهه له ، بل إن تشكيل التلاميذ الذى أقامه «فتى» وأسماه « فوراناً » ، كان النموذج البدائى أو المصغر ، لنفس «التشكيل» الذى أقامه من الضباط الأحرار ، وهو «شاب» ، وسيطر عليه ، وأحسن توجيهه .

والفارق يا «أخى» ، أن «أخانا الفتى» فى تشكيل التلاميذ سنة ١٩٣٥ ، ضرب وحبس وأصيب برصاصة ، وذهبت جهوده عبثاً ، لأنه كان يطلب الاستقلال والحرية بهتافات ومظاهرات ، أما «أخونا الشاب» فى تشكيل الضباط فى سنة ١٩٥٢ فلم يضرب أحداً ، بل خلع ملكا ، وتوج شعباً ، وصنع تاريخاً ، وحرر شعوباً ، وأمسى قدوة ، بسطت جناحيها بالنور على كل فج من فجاج العالم معتم ، ورفّت بهما على كوبا وأمريكا اللاتينية ، بعد أن أنارت مجاهل آسيا وإفريقيا ، وانتهت بالاستعمار إلى قرار بتصفيته .

والديكتاتورية ؟

وهنا ينهض اعتراض يتصل بأهداف الكتاب وأكاد أتعثر فيه ، لأن الخصوم ما يزالون يلوكونه ويرددونه ، وهو اتهامهم إياه بالنزوع إلى الديكتاتورية — فهل كان نجاح هذا الفتى يومئذ فى السيطرة على مدرسته وفرض زعامته على طلابها إرهاصاً بالتهمة التى توجه إليه الآن وهو زعيم ؟

الجواب (الكبير) على (السؤال الخطير) ينبثق من (حادث صغير) أسوقه إليك فى سطور . .

كان (جمال) عضواً فى (مصر الفتاة) كما قلت .. لأنه كان (ثائراً) ، ولأنها كانت (ثائرة) ..

وكان يوليها كل قلبه الغض .. وكل طاقاته (الثورية) .. ويباهى الآخرين أو يتحداهم بحمل شارتها فوق صدره ..

وذات يوم ظهر الفتى بين أترابه .. وصدره غير مزدان بالشارة ..

وعرف الأتراب أن (جمال) لم يتخل عنها فقط ، بل خلعها وألقى بها فوق الأرض بعد نقاش طويل وحاد .. وداس الشارة بقدميه فى غير تردد ولا رحمة ..

فهل تعرف السبب فى هذا (الانقلاب) غير المتوقع ؟

السبب أن (جمال) رأى — خطأ أو صواباً — أن زعيم الجماعة نزاع إلى (الديكتاتورية) ، وأنه يسخر جهود الجماعة لإعلاء شأنه هو ٠٠قبل شأن مصر ٠٠ ولبناء أمجاده هو ٠٠ قبل أمجاد مصر ، واحتج وناقش ، وخاض غمار الخصومة وناضل ، حتى اقتنع أخيراً — خطأ أو صواباً أيضاً — أن أحمد حسين يريد أن يكون ديكتاتوراً — كموسولينى وهتلر — وجمال لا يكره بكل قطرة فى دمه إلا الديكتاتورية ، ومن أجل هذا ضحى بالجماعة وداس الشارة ، وراح يبحث عن مجال شبابىّ جديد يفجر فيه طاقاته .

☆ ☆ ☆

هذا الفتى الذى فعل هذه الفعلة صغيراً ، هو الذى اتهمه الخصوم بالديكتاتورية زعيماً

ولقد وقعت برغم سنى تحت هذا الوهم ، ورفضت بكل قطرة فى دمى أيضاً أن أنضوى تحت لواء هذا (الديكتاتورى) ، حتى صحوت ..

وكان لى عذرى ..

وكان كل الذين ضلوا .. صادقين فى الضلة مثلى .. لهم عذرهم ٠٠

كان جمال فى مستهل حكمه يجمع كل الخيوط فى يده ٠٠ ويستأثر بكل السلطات وحده ، وكان من حقنا فعلا أن نسميه (هتلر) ٠٠

ولكن الذى فاتنا ، أنه إنما جمع كل السلطات فى يده ، خوفاً عليها من أن تفلت كلها ، وترجع إلى الأحزاب مرة أخرى ، جمعها فأقام بها بناء مشمخراً ، وها هو ذا يعود فى خشوع فيرد الأمانة إلى أهلها ، ويسلم الشعب فى (الميثاق) ، المبنى والمفتاح معاً ، ويقف أمام الباب الكبير ، جندياً ، (ديدباناً) ، وحارساً لا أكثر ..

وتخرج ؟

وتخطى الفتوة وتخرج ..

وفى منقباد التقى بزملاء ، وفى السودان التقى بزملاء ، وفى القاهرة وغير القاهرة التقى بزملاء ..

وعرف كيف يختار الرفاق ..

اختار منهم ، أصدقاء الفكرة ، وأصدقاء العقيدة ، وأصدقاء الاتجاه ، وأصدقاء الأسلوب ، وأصدقاء الهوى ، ومشوا فى الصف إلى التشكيل من غير تشكيل ، وبايعوه بالزعامة تلقائياً من غير أن يدعوهم إلى البيعة ، ووضعوا أيديهم على ميزة القيادة فيه من غير أن ينادى بنفسه قائداً ..

ومن هذا العمق فى هذا التواصى ، ومن مدى الصدق فى هذا التآخى ، تدرك مدى السلامة ومدى الصلابة فى الأساس الذى قام عليه المبنى ، ولا تدهش أبداً للصلة التى ربطت بينه وبين عبد الحكيم عامر مثلا — حتى لقد أسماه بعض الناس يوماً بالرجل الثانى فى الدولة ، والحقيقة أن الدولة ليس فيها رجل ثان ولا رجل ثالث ، وإنما فيها قلوب تواصت بالمثل وتواصت بالقيم ، وتبلورت فى قائد ، وفيها القائد الذى يتزوج وينجب فيسمى ولده (عبد الحكيم) .

ولم يكن المجد رخيصاً إذن ، ولا كان وليد صدفة ، ولا كان (خبطة) من (خبطات الحظ) كما كان الخصوم يقولون .

لقد بدأ كل شىء يتكشف على مهل .

والحقائق قد تستخفى طويلا ، ولـكنها تظهر يوماً .

وها هو ذا .. (مَعلم) على طريق الـكفاح ، رائع ومضىء ، وقد ظهر أخيراً على الطريق وبعد عشرين عاماً ولم يكن أحد قد تسامع به قبلا ، ولا خطر للقائد الشاب أن يشير إليه يوماً ، وهو أكبر دليل على أن (الثورية) فى جمال عريقة فيه عراقة الدم فى العروق .. وكانت تعرضه للخطر من مطالع العمر ولم تكن له مغنما .

عزيز المصرى ؟

وأعنى بهذا « المَعْلم » .. ذلك « اللقاء » الذى تم بين عزيز المصرى وجمال عبد الناصر ومعه بعض صحبه .. والتقطه الشعب أخيراً وعبرا من فم « جمال » وهو يخطب .. ويشير إليه ولا يتوسع .. ليكرم به رجلا يباشر الشيخوخة فى داره ويمشى إلى التسعين ووجب أن يكرم .

نعم من عشرين عاماً .. وفى سنة ١٩٤٢ .. نلمح ثلاثة من الشبان الثائرين .. جمال وبغدادى وكمال الدين حسين .. يبحثون عن الثورية فى عسكرى شيخ .. مجرب ومدرب .. ويطرقون الباب على صاحبها من غير أى تعارف سابق .. ويسألهم عن صفاتهم ويقولون إنهم ضباط صغار فى الجيش .. فى حاجة إلى من يرشدهم إلى طريقة لتحرير بلادهم .. ويصيح الشيخ الشجاع فيهم وفى غير تحوط ولا تحرّج : « الثورة ... ولاشىء غير الثورة .. ولا يهمنى أن تكونوا ضباطاً ثائرين .. أو جواسيس علىّ .. للقلم السياسى » ومن تلك اللحظة أدركوا أن لهم تحت سماء البلد أباً روحياً .. يتخذون من ثوريته منارا[1] .

---

(١) وإذا كنت لا أستطيع تحديد دور عزيز المصرى فى توجيه أولئك الثوار فإنى أستطيع أن أرى بصماته على بعض الفقرات التى جرى بها قلم جمال وهو يقول فى كتابه « وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام وما أكثر الليالى التى سهرتها أعد العدة للأعمال الإيجابية.. كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .. كانت لنا أسرار هائلة .. وكانت لنا رموز .. وكنا نتستر بالظلام .. وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل .. وكانت طلقات الرصاص هى الأمل » .

فماذا تعنى هذه الواقعة ؟

تعنى — وهذا رأيى — أن من أبرز صفات هذا الشاب إحسانه الاختيار . . لمن يرشده رائداً . . ولمن يعاونه أخاً . . وتعنى أن الرابطة بينه وبين صحبه أعضاء القيادة قديمة ، وأن الفكرة تجمع بينهم من مطالع شبابهم ، وأن الأمر كان من بدايته جداً لا شك فيه . . وإقداماً لا جُبن ينتاشه ولا ضعف يعروه . . وحسبك أن تعود إلى زكريا محيي الدين وصلاح سالم اللذين اقتحما حصار الفولوجا زحفاً وتحت طلقات العدو وفى فدائية قلّت نظائرها ليلاقيا « جمال » . . وليتباحث الثلاثة فى أمر مصر . . والحصار مضروب حولهم . . « والغد » . . غُمّ أمره عليهم وأبهم (١) . .

ولم يكن الأمر — إذن — أمر شبان فارغين يتظاهرون أحياناً . . أو أمر هوس يتعجل أمجاداً . . أو أمر جهالة تلد حماقة . .

وأنا . . أعرف « عزيز المصرى » ؟

قد تكون مفاجأة لك ، أن أنتهز هذه الفرصة — وعزيز المصرى على قيد الحياة والشهود باستثناء اثنين أحياء — فأروى لك قصة لم تنشر . . لترى أن عزيز المصرى كان يعد للثورة قبل قيام جمال بها بعشرين عاماً . . ولم يكن عجباً — إذن — أنه يقول لجمال وصحبه « بعد عشرين » ومن غير أن يعرفهم : « الثورة ولا شىء غير الثورة » .

أروى لك هذه القصة — وأرجو أن يتبناها أحد الضباط الأحرار ممن بلغوا فى الثقافة والمنصب شأواً ، يفرض عليه حماية التراث الشعبى ، وأعنى به الأديب الفنان

---

(١) ولقد زار « جمال » إحدى جامعاتنا — بعد نجاح الثورة — وضاق باتجاه الأساتيذ فيها — وكل منهم يريد أن يقدم نفسه بدلا من أن يقدم له أفكاره ، فناشدهم أن يؤدى كل منهم واجبه وهو فى مكانه وقال يعقب على ذلك الموقف فى كتابه : « ولم أشأ أن أقول لهم إن معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل على امتيازهم فى ناحيتهم كجنود محترفين ولذلك لم أشأ أن أقول لهم إن ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة هم عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وكمال الدين حسين رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين » .

العالم ثروت عكاشه ، أرجو أن يتبنى هذه « الحلقة من تاريخنا الثورى » فيتحرّى من عزيز المصرى بيانها وينهض بقلمه — وبكتاب من كتبه — بمهمة تبيانها .

* * *

كان ذلك قبل أن يطرق جمال وصاحباه .. باب عزيز المصرى بسبعة أعوام أو ثمانية .

كان عزيز مديراً لمدرسة البوليس (كلية الشرط الآن) وقد بعث الحياة فى شرايينها وأقام صالة للمحاضرات فيها ، وجاء بأصدقاء الكفاح القدامى — المتعَبين — من أمثال المرحوم الدكتور نصر فريد ليحاضروا الطلاب لقاء مكافآت ، وكان لبلوك الطلبة الضباط حكمدار شاب واسع الأفق والخيلة — هو المرحوم اليوزباشى عبد الحكيم الشربينى (من أسرة الشربينى المعروفة فى بلدة دلجا — أسيوط) وكنت صديقا لعبد الحكيم ، أتردد عليه فى مكتبه — وكنت قدمت استقالتى من جريدة « كوكب الشرق » الوفدية فرأى عبد الحكيم أن يفسح لى مجالا فى المدرسة أ كتب لهم منه ما يحتاجون إليه من بيانات ومحاضرات ومقالات وخطب لقاء مكافأة أيضاً كما كان عزيز المصرى يفعل مع نصر فريد .

وكان عزيز يقيم فى المدرسة مع زوجته الأمريكية التى هربت بعد ذلك بطفلها منه إلى أمريكا ، وكان يولى عبد الحكيم ثقة لا حد لها ، وكان — أى عزيز — يعتقد أن عبد الحكيم خلية ثورية لا شك فيها ، وكان لعبد الحكيم طائفة من الشبان النابهين كلهم يومئذ برتبة ملازم — باستثناء (اليوزباشى) خليل الديب — ومنهم المرحوم محيى الدين أحمد ابن عم زكريا محيى الدين ، وقد توفى من بضعة أعوام وهو كبير المعلمين فى كلية الشرطة (نفس المدرسة) ، ومنهم عبد الحميد خيرت (محافظ سوهاج الآن) ومحمود رياض ، ومحمود الشافعى (مدير الأمن فى محافظة الاسكندرية الآن) والسيد عبد الحفيظ (فى المعاش الآن) .

* * *

ووقع اختيار الملك فؤاد على أحمد حسنين وعزيز المصرى ليرافقا ولى العهد (المحبوب ؟!!) و (أمير الصعيد ؟!!) فاروق إلى لندن .. رائدين و مشرفين على دراسته .. و إعداده للملك .

وقبل أن يسافروا.. أسرّ عزيز المصرى (إلى عبد الحكيم الشربينى) بما ينويه وقال إنه سيعد الأمير الصغير (إعداداً) لا يجول بخاطر أبيه . . وسيخرج منه ملكاً ثورياً غير مسبوق فى تاريخ الملوك .. وسيعود به ليطهر مصر من المستعمرين .. وأن على (عبد الحكيم) أن يعد نفسه لكفاح ثورى قريب .

* * *

وسافر عزيز .. وبدأت خطاباته ترد على عبد الحكيم .. (ولا أشك فى أنها محفوظة عند آل الشربينى .. لأن توفيق شقيق عبد الحكيم كان قد تزوج أرملة أخيه ليربى أولاده) .

وكان (عبد الحكيم) يولينى ثقة لا حد لها أيضاً .. ويدعونى إلى بيته فى مصر الجديدة ويطلعنى على هذه الخطابات ، وفيها يرسل عزيز صرخات نارية من (العهر) الذى يدفع إليه أحمد حسنين ولى عهدنا الصغير .. وأن خطابات عزيز إلى الملك فؤاد بالشكاية والاحتجاج لم تكن تلقى أى رعاية ، وأن (يداً) ذات سلطان فى القصر تحمى حسنين من هذه الاتهامات .

والذى يهمنى أن عزيز المصرى .. كان يلح على (عبد الحكيم) أن يُعد خلاياه الثورية ويتأهب .. حتى يعود عزيز .. وكان عبد الحكيم يضحك ويسألنى : « إيه فكرك ؟ الراجل حا يودينا فى داهيه » وكنت أقول له : « ولا داهيه ولا حاجه .. ما تخيبشى أمله فيك لغاية ما ييجى ونشوف تكتيكه إيه ونحكم » . ويقول عبد الحكيم : «الرجل مندفع يا محمد .. ده يقوم لك وهوه فى الستين من العمر الساعة خمسة الصبح و بينطلون شورت ويجرى زى الجن كذا كيلو لو جريها أى شاب منىا ينقطع قلبه » ويضحك عبد الحكيم ويقول : « طيب يا سيدى مليني إللى إنت عايزه » وأملى .. وهو يكتب بخطه .. ويظل عزيز يكتب . . ويظل عبد الحكيم يرد . .

وأحزن خاتمة للقصة أنى لا أعرف على التحديد .. مصير الثورة التى كان يعد لها عزيز لطرد المحتل و « حكم البلد دى بثلاثة أو أربعة مخلصين » ـ كما كان دائماً يقول ـ لا أعرف مصيرها فى ذلك القلب الذى لا يشيخ .. لأن عبد الحكيم الشريبنى عليه رحمة الله ذهب ضحية حادث وقع لسيارته فى الطريق الصحراوى .. ولا أعرف حتى الآن إلا أن « جمال » مع صاحبيه زاروه فى سنة ١٩٤٢ فقال لهم « الثورة .. ولا شىء غير الثورة » فأعلنوها فى سنة ١٩٥٢ وأستطيع أن أرى بعينى خيالى دموع الفرحة وهى تتساقط يومئذ من عينى عزيز المصرى .

من هو جمال ؟

وأحب فى خاتمة الفصل أن أراجع معك بعض ما وقفنا عليه من جوانب الشخصية الناصرية ومقوماتها ، عبر إثنى عشر عاماً ، من سنة ١٩٣٠ عندما هتف فى ميدان المنشية وضرب ، حتى عام ١٩٤٢ عندما قال لهم عزيز « الثورة .. ولا شىء غير الثورة » .

اكتشفنا فى هذه الشخصية الحقائق التالية :

١ — ثورية فيه كامنة من الطفولة .

٢ — طاقة نشاطية لا حد لها .

٣ — قدرة على السيطرة تضعه دائماً فى مركز القائد .

٤ — قدرة على التنظيم بفكر مرتب .

٥ — قوة على الإقناع إذا هو ناقش أو خطب .

٦ — قوة على التجميع إذا خاض المجتمع .

٧ — حب العمل ، وقدرة على التوجيه ، وحزم فى التنفيذ .

٨ — حسن اختيار للأصدقاء .

٩ — البحث عن التجربة والانتفاع بها .

١٠ — إيمانه برسالته .

هذه المعالم العشرة ـ تبدو واضحة على طول الطريق الذى تبلورت فيه شخصيته بدءاً من عامه الثانى عشر وانتهاء إلى عامه الرابع والعشرين .

* * *

وأرجو أن أكون قد استطعت أن أرسم المرحلة العشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الحادي والعشرون

اغتيالات .. وصرخات

رأيت وأنا أدرس الرجل « البنّاء » من « بدايته » ... وأمضى مع المبنى صعداً إلى ما انتهى إليه من الشموخ ... أن أحاذى أبرز المعالم على طريق الصعود ... حتى لا تضيع من قدمى الطريق[1] .

وأبرز المعالم على مطالع الطريق هو كتابه : « فلسفة الثورة » .

منه ألتقط « العبارة » ... فتذكرنى بالتهمة ... فأعرض لها بالبحث ... فيبين وجه الحق .

ومنه ألتقط «الرأى»...وأنظر فى الذى وقع ...وهل خالف «الواقع» عن«الرأى» أو لم يخالف ؟ وأنظر فى « الخطة » ... وأنظر فى الذى وقع ... وهل ثبت سداد الخطة أو أن الفساد هو الذى ثبت ؟

وقصة « الاغتيالات » فى « فلسفة الثورة » هى إحدى دعامات الدراسة ... وأوثر أن أتخذ منها هلالا لهذا الفصل .

* * *

كان جمال قد استقر رأيه على أن « العمل الإيجابى » يجب أن يكون طريقه .

واعترف أن « الاغتيالات » توجهت فى خياله المشتعل فى تلك الفترة على أنها «العمل الإيجابى» الذى يراه وجلس إلى زملائه ... ووقع اختيارهم على « لواء » معروف كواحد

---

(١) « وتضيع من قدمى الطريق » تعبير تنزل على كامل الشناوى فى سيمفونيته الشعرية الرائعة « لا تكذبى » فجرى التعبير منثوراً على قلمى ... وتنبهت عليه ... فرأيت أن أرد الفضل إلى صاحبه .

من رجال الملك[1] ... يجب أن يزول من الطريق و يعترف « جمال » أنه كان فى حيرة تمتزج فيها عوامل متشابكة « من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الإيمان ومن الشك » ومن العلم ومن الجهل .

وكانت « الخطة » أن يطلقوا الرصاص على الرجل ... وهو عائد إلى بيته فى الليل .

و بقدرة « جمال » على التنظيم ... رتب « فرقة الهجوم » ... و « فرقة الحراسة» التى تحميها ... وفرقة ثالثة لتغطية الانسحاب والإفلات ...وخرج بنفسه مع جماعة التنفيذ وأطلق الرصاص ... ونجحت الخطة .

ومن هنا ... تبدأ مهمتى ...

من هنا أنت مدعوّ ... إلى الإصغاء بكل جارحة فيك ... إلى هذا اللون الساحر من التغريد الإنسانى الحزين: « وفجأة دوت فى سمعى أصوات صراخ وعويل ... وولولة امرأة ... ورعب طفل ... ثم استغاثة متصلة محمومة ... وكنت غارقاً فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ... والسيارة تندفع بى مسرعة ... ثم أدركت شيئاً عجيباً ... كانت الأصوات ما زالت تمزق سمعى ... الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة ... لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ... ومع ذلك بدا ذلك كله كأنه يلاحقنى و يطاردنى ... ووصلت إلى بيتى واستلقيت على فراشى ... وفى عقلى حمى ... وفى قلبى وضميرى غليان متصل ... ولم أنم طول الليل .

وهنا أتمهل...حتى تضع يدك إلى جوار يدى... على جمال «الإنسان» بكل طاقاته الروحية — بعد أن رأيت فى الإعداد والإقدام و إطلاق الرصاص بعض قدراته المادية .

***

(١) لم يشأ « جمال » أن يذكر اسم « اللواء » فى « فلسفة الثورة » ولكن الصحف يوم محاولة اغتيال صاحبه نشرته ... وكلكم تعرفونه ... و « ليمان طرة » عرفه إثر الثورة وهو اللواء حسين سرى عامر .

هذه « الشحنة » من العاطفة هى أكبر « معلم » على « طريق شخصيته » ... تعنو له جباه الدارسين ...

ومثل هذا « الإنسان » لا يمكن أن يكون « الديكتاتور » — الذى حدثنى عنه « الخصوم » — والذى يمشى إلى « أمجاده » فوق الأشلاء والجماجم .

* * *

ويمضى الرجل — وهو مستلق على الفراش — فى « ديالوج » طويل ... بينه وبين نفسه ... يسألها : إن كان على حق فيما فعل ... وإن كانت هذه الوسيلة هى الوسيلة التى لا مفرّ منها ... وإن كان مستقبل بلده يمكن أن يتغير إذا خلصناه من هذا الواحد أو من واحد غيره ؟ وأحس « أن المسألة أعمق » كما أحس أنه ليس مهماً أن يمضى من يجب أن يمضى بل المهم أن يجىء من يجب أن يجىء .

وسمع هاتفاً يقول له : « وإذن ؟ » .

وأجاب هو : « يجب أن تتغير طريقتنا » .

وأحس براحة صافية ... « ولكن الصفاء ... ما يلبث أن تخترقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة » ووجد نفسه يقول فجأة : « ليته لا يموت » .

* * *

وما كان أسعده فى الصباح ... أن يُهرع إلى إحدى الصحف ويجد أن الرجل الذى دبر اغتياله « قد كتبت له النجاه » .

* * *

وأعتقد أنى بطبع هذه « التغريدة الفريدة » على « شريط كتابى » قد وضعت الرجل « فى الصورة » ... وأضفت إلى خطوطها الأساسية ... خطاً جديداً .

عيني على سوريا

وأنحى « فلسفة الثورة » جانباً ... لأعود إلى حيث المراحل ... بعد أن كشف لى كتابه عن جوانب فيه لم أكن أبداً قد تنبهت لها ... والذى سقته لك هو جانب واحد منها .

وكنت قد وقفت بك عند النكسة فى العراق ... وكيف عالجها حتى خدرها ... وسحب الغطاء فوقها ... وانطلق يبنى لمصر وسوريا .

ونحن الآن نواجه عام ١٩٦٠ فما هى انعكاساته يا ترى على شحنة (الإيمان) التى خرجت بها من سجنى وغذيتها بالدراسة عاماً ؟ وعلى أى الصور ... وجدت الخصوم الذين خلفتهم قبل السجن بكل ما برعوا فيه من أحاديث الإفك ؟

***

وجدت خصوماً قدامى ... لم تطور الأحداث تفكيرهم — وإن جمدت شعورهم — وخيل إلى وأنا أنظر إليهم أنهم باتوا تماثيل من الحجر ... أقرأ فوقها نقوشاً باهتة ... تحمل أمانى قديمة ... للعصر الذى عاشوا فيه .

ورأيت خصوماً آخرين لم تطور الأحداث تفكيرهم ولكنهم ليسوا تماثيل ... وما يزالون يتكلمون ... ويرددون — ولكن فى خفوت — نفس الاتهامات العجيبة الرثة وما يزالون يحلمون بأشباح تهبط من السماء أو تنشق عنها الأرض لتتولى هى القضاء على ناصر .

أولئك جميعاً أودعتهم (متحف الفكر) خلفى ... ومضيت أبحث عن غيرهم .

***

وبعد بحثى رأيت فريقاً آخر من الخصوم ... طوروا تفكيرهم ... وطوروا شعورهم ... فتبدوا أكثر رشاداً ... ولكنهم لم يقصدوا بالتطوير أن ينتهى بهم إلى

الإيمان بناصر ... وإنما طوروا تفكيرهم فى الأحداث .. فرأوا أن لا محل لأن ينكروا على الرجل « انتصاراته » ، فاعترفوا بها ، وعللوها بما عللوها به ، وركزوا على « سوريا » وانتظروا « الخير » منها ، و « الخير » فى ميزانهم هو « انفصالها » عنا ، والانفصال فى « تقديرهم » زوال لناصر ، والذى يعجل بهذا الانفصال — فى رأيهم — قيام « الاتحاد القومى » فى إقليمنا الشمالى .

وأعترف أن « الخوف » قد داخلنى ، أو خايلنى ... الخوف على ناصر هذه المرة وليس من ناصر .

وفتحت « عيناً » على سوريا ، و « عيناً » على الاتحاد القومى ، وبدأت أصغى .

وعاون على الخوف ، رأى لى فى سوريا ، سبق لك أن طالعته فى فصل سابق ، رأى فى شعبها المتفتح ، والمتطلع أبداً إلى القائد ، يقود انتفاضته ويجدد أمجاده ، ورأى فى الزعامات والقيادات والرجعية والإقطاع ، والاحتكارية والأحزاب ، وكيف يرتدى الساسة مسوح الاشتراكية للاجهاز عليها ، وكيف يتسربون إلى عضوية الاتحاد القومى للسيطرة عليه . وكيف يأخذون باليمين وبالشمال من كل ملك أو حاكم أو مستعمر .

وكان لى رأى فى (الاتحاد القومى) مذ كنت فى (اللايمان) لم أقله لك ، ولم يغير خروجى من السجن واتجاهى للناصرية من هذا الرأى .

وفكرة الاتحاد ترامت إلينا ونحن فى (اللايمان) ، وكان الذى يبشر بها فى المذياع هو (أنور السادات) .

وبرغم ما بذله أنور من جهد فى الصياغة وروعة فى الأسلوب ورصانة فى الإلقاء ، لم أستطع أن أفهم شيئاً كثيراً .

وخرجت من السجن أسأل الأحرار عما فهموه ، بعد أن فتح باب الترشيح أمام كل مواطن وبغير أى قيد أو أى شرط فقد كان واضحاً لى أن الرجعية بكل معناها ستحط ثقلها على هذا الاتحاد لأن كل ما حدث للاقطاع لم يجرده من قوة المال ، ولأن الرأسماليين ما يزالون يملكون الملايين . ولأن الحزبيين من أولئك وهؤلاء ما يزالون

أقوياء ، والذى لا يريد أن يرشح نفســه منهم لأى اعتبار ، يستطيع أن يدفع أخاه أو ابن أخيه للترشيح وتـكون النتيجة قيام برلمان كبير يضم قدامى الحزبيين أو أبناءهم أو أقرباءهم ، فما الذى نـكون قد صنعناه ؟

وإذا كان هذا هكذا ، بالنسبة إلى مصر المستقرة ، ومصر التى خطت من غير شك أكثر من خطوة إلى قلب الاشتراكية ، فـكيف فـكر الزعيم الراشد فى تصدير هذا النظام إلى سوريا ، وقد حدثناك عن الزعامات فيها ، ليتسلل إلى مقاعد الاتحاد القومى جماعات المهربين وأنصار الشركة الخماسية والرجعية تشد أزرهم ملايين الدولارات والليرات تتدفق إليهم عبر الحدود من لبنان والأردن ؟

وساءنى الموقف ، وتقبض قلبى إشفاقاً ، وتمنيت لو كان فى يدى قلم ، لأرتفع فوق المخاوف وأكاشف الزعيم برأيى وليـكن ما قدر أن يكون .

وهذا الشعور من جانبى هو الذى يعنينى .

أنا — إذن — أمشى إلى الناصرية جاداً .

* * *

ولم أعد أطيق أن أصغى إلى الخصوم .

وكنت أود دائماً أن أصغى إليه هو . . كلما تحدث وكلما خطب .

وها هو ذا يطوف بسوريا ويخطب فى اللاذقية وعكا ودير الزور وحلب وحماه وحمص والسويداء ودرعا ودمشق ... كان يخطب على المستوى العربى .

كان يخوض تجربة رهيبة وجديدة .

ووجه اهتمامى بهذه التجربة يرجع إلى جوانب أخرى من شخصية «البنّاء» كنت أوثر أن أرجىء الحديث عنها إلى أن أعرض للميثاق . . ولـكن يبـدو أن السياق يفرضها الآن على ريشتى .

وفى « فلسفة الثورة » حديث عن الوضع العربى له صلة بما يجرى الآن على المستوى السورى لأن سوريا أتاحت لنــا أن نضع « الوحدة » موضع التنفيذ كتجربة أولى .

وفى « فلسفة الثورة » — فى جزئهـــا الثالث — كلام عن العزلة التى مضى عهدها .

وها نحن أولاء ومن بداية الثورة وهو يهم بوضع كتابه .

* * *

كان يجلس يومئذ فى غرفة مكتبه ويسرح بخواطره و يسأل نفسه :

— ما هو دورنا الإيجابى فى هذا العالم العربى المضطرب ؟ وأين هو المــكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

كنا على مطالع الثورة كما قلنا .. وكان كل عمله داخل حدود مصر . . ولــكن خواطره كانت تعــبُر العالم كله .. وهذا هو جمال عبد الناصر الذى نتريث عنده قبل أن نعود ونعبر السنين إلى الحديث من جديد عن سوريا والاتحاد القومى .

كان يجلس فى غرفة المــكتب ليقول لنفسه : « إن القدر لا يهزل .. وليست هناك أحداث من فعل الصدفة » وراح يتساءل :

(ا) أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا . . وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ؟

(ب) أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة أفريقية شاء لنا القدر أن نــكون فيها .. وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مرير حول مستقبلها وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟

(ج) أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالمــاً إسلامياً تجمعنا و إياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب و إنما تشدها حقائق التاريخ كذلك ؟

دور يبحث عن بطل

ولم تقف الخواطر به عند هذا الحد و إنما شردت به إلى الشاعر الإيطالى پيراندللو وقصته : (ست شخصيات تبحث عن ممثلين) وقال أى جمال :

(ولست أدرى لماذا يخيل إلى دائماً أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به) وأن هذا الدور بعد أن أرهقه التجوال فى المنطقة قد استقر به المطاف على حدودنا (يشير إلينا أن نتحرك)

ونفى أن يكون الدور دور زعامة و (إنما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة) .

* * *

ولم أكن هازلا — إذن — وأنا أنقل إليك فقرات عن كتابه .

لقد بانت الملامح كلها ، و بقلمه ، ومن حيث أراد له قدره .

دور هائم على وجهه يبحث عن بطل ؟

ولم يتصور (جمال) انه هو البطل ، تصور أن الدور تفاعل وتجاوب مع العوامل التى أشار إليها .

وصح ظنه مع (تعديل جذرى) . . كان لابد لهذا التفاعل من وعاء صالح . . وكان هو الوعاء الصالح . . سوته قدرة الله . . فكان قدراً من أقدار الله . .

وضع نفسه فى خدمة (الدور الهائم) فوضع القدر كل (الدور) بين يديه لينهض به فكان البطل .

* * *

ولكى نعود مرة أخرى إلى سوريا .. يحسن أن نطوف معه بتاريخ المنطقة العربية التى تعتبر سوريا (قلباً) لها لنرى معه أنها عانت معنا نفس المحن وعاشت معنا نفس

الأزمات . . محنة الصليبيين ومحنة المغول ومحنة العثمانيين ومحنة الاستعمار ثم امتزجت معنا بالدين فتنقلت مراكز الإشعاع من مكة إلى المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة.

وطلائع الوعى العربى بدأت تتسلل إلى تفكيره تلميذاً يقود المظاهرات و يهتف بسقوط وعد بلفور من غير أن يجد فى نفسه صدى عاطفياً للهتاف ،حتى بدأ يدرس فى كلية أركان الحرب «حملة فلسطين» فلما بدأت (حرب فلسطين) كان مقتنعا فى أعماقه « بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة و إنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس » .

***

وأحسبك الآن تدرك — كما أدرك — أنه لا يحمل رسالة إلا وهو مقتنع بسلامتها (فى أعماقه) وأن الوحدة مع سوريا والبلاد العربية لم تكن حلماً من أحلام الامبراطورية الناصرية التى روج لها الخصوم . . و إنما كانت واجباً (يحتمه الدفاع عن النفس) .

* * *

أتريد دليلا ؟

بين أيدينا الآن حادث . . الشاهد عليه خصم له ولا يستطيع أن ينكره . . إنه أمين الحسينى مفتى فلسطين ..

عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ دعا ناصر إخوانه الضباط الأحرار إلى اجتماع ،وقرروا مساندة المقاومة فى فلسطين وذهب جمال فى اليوم الثانى إلى الحاج أمين فى منزله بالزيتون وقال له : « إنكم فى حاجة إلى ضباط يقودون المعارك و يدربون المتطوعين ، وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع» واستمهله المفتى حتى يستأذن حكومة النقراشى .. ورفضت الحكومة .

وهنا يقول جمال بقلمه :

(ولم نسكت ، و بعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز — الفدائى المصرى الذى

قاد قوات المتطوعين قبل أن تقرر الدول العربية الاشتراك فى المعركة — تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين) .

فأين النفعية هنا . وأين الإمبراطورية الناصرية ؟

* * *

أتريد دليلا آخر ؟

هذه المرة .. حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادى .

نعم سافر (حسن) إلى (دمشق) واتصل ببعض ضباط فوزى القاوقجى ، المجاهد العربى اللبنانى و (وضع حسن إبراهيم وعبد اللطيف البغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير) .

أتدرى ما هى هذه الخطة التى اعتزم الرجلان تنفيذها برغم أنف حكومتها ؟

الجواب يتولاه مطار سلاح الطيران المصرى يومئذ ، وتتولاه الحركة التى بدأت فيه ، (وبرز فيها نشاط واسع لإصلاح طائرات وإعدادها وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ولم يكن هناك إلا قلائل يعرفون السر) .

كانوا ينتظرون أن تجىء الإشارة السرية المتفق عليها ، فيحلق الأبطال من ضباط الجو الأحرار إلى جو فلسطين ليضعوا حداً للمعركة الحاسمة فى الأرض المقدسة ثم يلوذون بمطار دمشق ويترقبون مصائرهم .

ولم تنفذ الخطة لأن الحكومات دخلت حرب فلسطين رسمياً قبل مجىء الإشارة وليتها لم تدخلها .

ذلك هو تشكيل الضباط الأحرار قبل ثورة مصر بسنوات أربع ، فهل كان جمال يريد أن يقيم إمبراطورية ناصرية فى فلسطين ، وهو وإخوانه يقدمون حياتهم رخيصة هكذا وكأفراد لا وزن لهم يومئذ وعلى مذبح فلسطين البلد العربى البعيد ؟ وهل

يقاس هذا الإيمان برسالة الوحدة على مطالع الصبى ، والشباب .. بمن ضاقوا بالرسالة فخرجوا عليها ليكونوا انفصاليين فى سوريا وسفاحين فى العراق ؟

أردت ان أقول إنى اجتليت بهذه الوقائع عبر دراساتى لماضى عبد الناصر وجه الحقائق ، فجاء هذا الوجه وقوداً جديداً لمراحلى ، وأنا أثب إلى (الناصرية) وثباً .

أفريقيا .. ونحن حراسها ؟!

ولا ندع من الآن « ناصر » .

وهل الكتاب شىء ... غير تحولى من الكفر به ... إلى الإيمان ؟

حان للدراسة أن تكمل ... وحان لكل القسمات أن تستبين .

ومرة أخرى ... إليه ... وهو جالس وحده فى غرفة مكتبه يسرح بخواطره وتتجه إلى القارة السوداء التى لا نستطيع أن نقف بمعزل عن الصراع المخيف الذى يدور فى أعماقها ... فيرى أن شعوبها سوف تظل « تتطلع إلينا نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة » وأننا لا نستطيع بحال أن نتخلى عن مسئوليتنا « فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء » والمسألة ليست مسألة عاطفة و إنسانية وحيرة ومسئولية فقط و إنما هناك مسألة أخرى وسبب هام هو أن « النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة » .

ولعل القارىء الآن يدرك سر الوفود السود الذين يترددون على القاهرة ... وسر زعماء إفريقيا المضطهدين أو المكافحين وهم يتخذون من عاصمة مصر الناصرية مراكز لقياداتهم . وسر الطلاب السود الذين نجىء بهم لنملأ رءوسهم نوراً ... ليكونوا الطلائع الثورية فى بلادهم .

* * *

بل إن ابتسامة تعلو شفتى الليلة وأنا أكتب لك هذا الفصل وأذكر أنى كنت

ظهر اليوم أجلس فى المقهى فجاءنى شاب ليبى مبتور أحد الذراعين وقال إنه هو الذى نسف بيوت الضباط البريطانيين فى طبرق أثناء العدوان على مصر ثأراً لها من العدو وأنه رغب فى أن يرانى فأرسله إلىّ المجاهد الليبى الكبير واللاجىء السياسى الكريم صديقنا صالح بويصير وكيل مجلس النواب الليبى الأسبق ...

وكان مع الشاب الليبى شاب آخر فاحم السواد وسيم التقاطيع اسمه (محمد) جمع بينهما فندق واحد ... جاء من قلب القارة السوداء مع إخوان له كثر ... أحبوا ناصر ... فأصروا على أن يروه ... وعلى أن يملأ لهم رءوسهم نوراً ... وعلى أن يعيدهم إلى بلادهم مكافحين مثله ليحرروها .

وسألت الليبى : ولماذا ترغبان فى رؤيتى ؟

وقال الشاب : نحن فى ليبيا نعرفك كاتباً وقد أردت أن أسألك — وقد قرأنا عن المؤامرة — رأيك الآن فى ناصر...والشاب الإفريقى عرف قصتك فأحب أن ينضم إلىّ فى سؤالى... وقلت لهما طبعاً مايسرنى الله لأن أقوله ، وإنما الذى يعنينى... أن رسالة ناصر التى كفر بها خصومه من بنى مصر ... وكفّرونا معهم بضع سنين ... آمن بها شباب القارة السوداء ولم يصدقوا أن كاتباً مصرياً يمكن أن يتآمر على « ناصر » وانضم « محمد » إلى « الليبى الذى نسيت اسمه » ليسألانى الرأى فى « ناصر »..

وقد يكون مفيداً أن أسأل الخصوم الآن بمناسبة الشاب الإفريقى : إن كان عبد الناصر ينوى أن يتخذ من آلاف الطلاب السود الذين يفدون علينا ليملأوا رءوسهم نوراً « طوابير خامسة » تهىء نياسالاند ورواندى أوراندى وزنجبار وموزمبيق لغزو ناصرى ... أم أنها شعوب القارة تتطلع إلينا ولا نستطيع أن نتخلى عن مسئولياتها تجاهها ؟

ولا أجيب .

الدائرة الثالثة

أما الدائرة الإسلامية الثالثة التي سرحت إليها خواطره ... وامتدت عبر قارات ومحيطات ... وضمت مئات الملايين من الإخوان فى العقيدة فيكفى أنه تخذ منها معبراً إلى صداقة البلاد التى يعيشون فيها ... إلى باندونج ومبادئها العشرة التى هزت قوائم الاستعمار وأرست أساس تصفيته ... فى العالم كله و بموافقة هيئة الأمم أخيراً...وأقامت بين للمسكرين قوة إنسانية رهيبة تعتنق الحياد الإيجابى وتدعو إلى التعايش السلمى وتحمل على كتفيها فى وجه الاستعمار ورأس المال والصهيونية والشيوعية نفس الرسالة التى حملها المسيح فى وجه الرومان الذين طغوا واليهود الذين ضلوا .

و إذن فالدائرة الثالثة هى التى فتحت له الباب إلى الدائرتين اللتين لم يرد ذكرهما فى « فلسفة الثورة » وقام لهما كيان ... خارج غلاف الكتاب .

و بعد

فأحسب أنى لم أحاذ الكتاب وأنا أدرس شخصيته وأصفه فقط ... و إنما نهلت من عباراته حتى ارتويت .

وفى ظل هذا الارتواء أرجو أن أكون قد استطعت فى وضوح أن أبرز بعض الجوانب الوضاءة من ذلك المارد الذى شق للرسالة طريقها فوق الشوك و بين عصف الرياح ، وفى جو تألبت عليه فيه أقوى دول الأرض فلم تهتز فى يده الراية ولم يركع ، وحارب وما يزال يحارب .

كما أرجو أن أكون قد استطعت أن أكون أميناً وأنا أرسم المرحلة العشرين من مراحلى فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الثانى والعشرون

آمنت إلا قليلا

بعد ليل معتم طال مداه .. هأنذا أراه ..

أراه بكل عينى المبصرة .. وبكل قلبى المفتوح ..

(ربى اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) .

* * *

عبرت معك عمره — مد الله فى عمره — بدءاً من صباه ..

وتغلغلت فى مقومات شخصيته ، باحثاً « تحتها » عن « البذرة » و « فوقها » عن « النبت » وصاعداً قدماً .. حتى « قمة العود » — وعا كفاً فى سكون السجن على دراسة الأحداث فى هدوء .. ومتحرراً بعد السجن من كل تأثر أو تحيز خلفته رواسب الشائعات أو أكاذيب الخصوم .

وخرجت من كل تلك البحوث بحقيقة أراها ثابتة — ولا أعنى « الحقيقة » بمعناها المطلق — وهى تقول لكل من يبحث عنها ، أن هذا الشاب ، هبة من السماء ، ورسالة من القدر ، فى فترة من فترات التاريخ ، يتغير خلالها وجه التاريخ ..

* * *

وعلى ضوء هذه «الحقيقة» ، لابد أن تكون قد اعتقدت أننى وقد رأيت « ناصر » بكل عينى المبصرة .. وبكل قلبى المفتوح .. لابد أن أكون قد آمنت بسلامة « الناصرية » .

ولكم أود ، أن أقول بملء القلب والفم ، و بملء الضمير والإدراك : « نعم » .

ولـكن يداً — أحسها ولا أراها — تتسلل إلى فمى — من خلاف — لتضع الـكمامة فوقه ، حتى لا أقولها ، وصوتاً من الأعماق ينساب هادئاً ورزيناً إلى أذنى ليقول لى : « تمهل » .

* * *

وأعترف أن كل الاتهامات التى وجهوها إليه ، تهاوت تحت أقدام الدراسات اتهاماً بعد اتهام ، وباستثناء بعض «الجيوب» أنتظر أن «تصفيها» الأحداث والأيام .

لقد درسنا « الشخصية » بكل قدراتها وطاقاتها ، وبكل خاصياتها وميزاتها ، ودرسنا الرسالة بكل أهدافها واتجاهاتها ، ودرسنا البناء الذى لاح فى البداية طفلا يتعثر ، ثم نما ، وواصل النمو حتى أوشك على أن يتكامل ويستقر ، فما الذى يحول دون الإيمان الـكامل إذن ؟

تحول دونه الجيوب التى تنتظر التصفية ، يحول دونه الموقف « المتميع » فى سوريا حتى يعالج ، وتحول دونه الثغرات المفتوحة فى الاتحاد القومى حتى تسد ، ويحول دونه حدث جديد وقع فى هـذا العام ١٩٦٠ ولم أستطع أن أفهمه بعد ، وأعنى به « تأميم الصحافة » أو ما أسموه « تنظيم الصحافة » ، ويحول دونه ذلك النشاط الاستعمارى المقنع الذى بدأ يستخفى خلف الملوك والحاكمين فى المنطقة ، وبدأ ينثر عوامل الإغراء بين الضعفاء وليس أكبرها شأناً ..عامل الذهب الوهاج ينثر فى أسواق السياسة بسخاء ، ويحول دونه شكوى «السوق» فى مصر «سوق الأفراد» ، من الـكساد الذى ساد ..

ولـكن من حسن الحظ أن كل الذى قلته لم يعد — على كثرته — وعلى ضخامة المفردات والعبارات التى اخترتها للتعبير عنه — ثقلا فى ميزان الإيمان ، وإن كان يحول دون درجة (التمـام) أو دون بلوغ (الـكمال) ودون الجهر به أو إعـلانه فى الناس أو إشهاره على الأشهاد ، وهو بعينه ما أسميتـه « جيوباً » أنتظر « تصفيتها » حتى أقول بملء القلب والإدراك والفم : « اشهد اللهم أنى آمنت » .

* * *

تأميم الصحافة

وأخون أمانة الفكر — (كسادن) متواضع فى آخر صف من صفوف (السَّدنة) الساجدين فى (المحراب) — إذا أنا أنكرت أن عملية التأميم لهـذا الجهاز الفكرى هالتنى لأول وهلة ، وألقت على نفسى ظلا قاتما لا يوائم الأضواء الجديدة التى تغمر حناياها .

وسألت نفسى :

— كيف تُملك الدولة ، تنظيما من تنظيماتها — اسمه الاتحاد القومى — أدوات التعبير عن «الرأى الحر» ، وهى تزعم أنها إنما تعمل على (تحرير الرأى ؟) ، وهل سلمت تصرفات (الاتحاد القومى) نفسه من اختلاف الآراء فيها ، حتى يتحكم هذا (الاتحاد) فى آراء الآخرين ؟

ولم يطل الوقت بهذه (الغضبة) إذ دعا (الرئيس) كبار الصحفيين إلى اجتماع (مفتوح) — أو (صريح) — عقده معهم ، وناقشوا معه الوضع كله ، وطلعت علينا الصحف بما أسمته (محضر الاجتماع) ، ومرَّ (بمقهاى) بعض الصحفيين الذين شهدوه وقصوا علىَّ كل ما جرى فيه ، ما نشر منه وما لم ينشر .

وفهمت أن (الرئيس) لم يكن راضياً عن هذا الجهاز الخطير من أجهزة الإعلام ، وأنه لاحظ — وبحق — أن جهاز الصحافة ليس (الجهاز الثورى) الذى كان مرجواً ، وهو لا يؤيد الثورة التى نعيشها عن إيمان بها ، وعن تفاعل معها ، وعن إدراك عميق لرسالتها ، وإنما يؤيدها بالطريقة التقليدية التى جرى عليها فى عهود الملك والأحزاب ، يكيل المدح للحاكم جزافاً ، ويحمل على كل رأى يعارضه أيضاً جزافاً ، ويشتم كل خصومه فى الداخل والخارج بنفس الطريقة ، وأنه — أى الرئيس — إنما أمم هذا الجهاز أو نظمه ، ليحرره من سلطان الإعلان ، وسلطان رأس المال ، ومن الرغبة فى الكسب ومن الرغبة فى الاستغلال ، وأممه ليتيح الحرية لكل الأقلام داخل الإطار الثورى والمبادىء الستة ، وليبصِّر الكتابُ الأحرار فى العهد الجديد — جماعةَ البنائين بأوجه الخطأ أو أوجه الصواب .

وعلمت أن (الرئيس) دلل على سلامة ملاحظاته بما يكتب فى الصحف والمجلات ، فهى تستنفد معظم قواها ، وتبدد كل طاقاتها ، فى نشر الصور العارية ، وأنباء العاطلين بالوراثة ، والأماكن الزاخرة بالمجون والتفاهة ، والقصص المثيرة للغرائز السود ، وكأننا لم نثر ، ولم نتغير ، ولم نهدم ولم نطهر ، ولم نُرس مبادئ . ولم نعلن أهدافاً ، وكأننا ما نزال فى عهد الملكية والإقطاع ورأس المال ، وخطف الزوجات وقتل الأزواج ، وكابرى ونيس ، ومونت كارلو وباريس ، ثم كأن هذه (الأمة) لا وجود لها ، وكأن هذه الصحف لا مكان فيها للقرية والفلاح ولا مكان فيها للمصنع والعامل ، ولامكان فيها للمعامل والبحوث .

* * *

علمت كل ما دار فى الاجتماع — وما أشرت إلى جانب منه — وبدأت الغشاوة تنجاب عن عينى ، وبدأت العتمة تنحسر عن حنايا النفس ، وبدأ هذا (الجيب) يصفى ، وبدأت أرى فى (التأميم) غير الرأى الذى بدا لى لأول وهلة ، مشدوداً إلى مفاهيم تشبثنا بها عمراً ، يوم أن كنا نتحدث عن حرية الرأى ، ونرهن الرأى فى بنك ، وعن حرية الأقلام ، ونبيع الأقلام بالممارسة .

أقول (بدأت) أرى ، ولا أقول : (انتهيت) إلى رأى لأن (الشيطان) إنما يزداد ضغطه ، كلما ازداد (المؤمن) إيماناً ، وقد عاد شيطانى ليسأل :

— وهل تنقى الضمائر ، ويتفتح الوعى على الواجب ، ويتحرر القلم من المطامع ، وتشحن النفس الخاملة بالطاقة الثائرة ... بخطاب يُلقى ، فى اجتماع يُعقد ؟

وتوليت الإجابة :

— طبعاً : لا ، ولكن من بين الصحفيين والكتاب ، من ودوا حتما لو رخص لهم فى النقد البناء ، والانطلاق ، ولكنهم يترددون — ولا أقول يخافون ، وعلمهم اليوم أن (الرئيس) لم (يؤمم الصحف) ، إلا ليرد على الأقلام حريتها ، وليتيح للنقاد انطلاقاتهم ، ويفسح للآراء فى الاختلاف وفى الصراع ، علمهم بهذه الحقيقة — والدقة

بين أيديهم — لابد أن يتجه بالسفينة اتجاهاً جديداً ، وحتى (التافهين) — من حملة « المزمار والدف والطار » — سيحاولون أن يتملقوا الاتجاه الجديد ، رحمة بجيوبهم وقد تنتقل إلى قلوبهم — مع الزمن — عدواه .

* * *

وحتى عام ١٩٦١ لم يكن التأميم قد آتى ثماره .. أو عكس على الأقلام كل آثاره .. أو خلق طائفة من الكتاب الذين كنا نحلم بأن نلتقى بهم على الوضع الثورى الجديد .. إذا استثنينا عدداً منهم كانت طلائع النور تمشى بين أيديهم قبل أن تؤمم الصحافة . . فزادهم التأميم نوراً . . فإذا قلت مثلا أن ناقداً كبيراً مثل « مندور » قد ملأ فجاج الصحف بحثاً ونقداً وأعطى لحركة الفكر . . حياة وجهداً . . ووصل بينها وبين المجتمع الثورى الجديد وما يستهدف .. فإن « مندور » كان كاتباً يموج بالحياة قبل التأميم .. وكان ثائراً على كثير من الأوضاع ومن أبناء جيلنا القديم .. و إن قلنا مثلا أن شاباً مثل أحمد بهاء الدين وثب إلى التفاعل مع الثورة بخطى واسعة فى زمن قصير . . واستوى على سوقه مخضر النبت وارف الظل ناضج الثمر . . فقد كان هكذا يبدو لنا من قبل أن تؤمم الصحف ..

و إذا قلنا إن أديبة كبيرة كالسيدة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » قد عرفت كيف تصل بين تخصصها و بين مجتمعها فأسهمت داخل مصر وخارجها بما يرفع من شأن « القلم » فى يد « المرأة » فإن « بنت الشاطىء » كانت هكذا من قبل أن تؤمم الصحف شأنها شأن مندور وشأن حسين فوزى وشأن كثيرين... أما الذين نضجوا مع الثورة مثل بهاء الدين فهم بضعة يعدون على أصابع اليدين ... وأنا أمثل به ولا أحصر . حتى لا يسقط اسم من أسماء الصحب فيعتب ... وما إلى شىء من الحصر ... أقصد .

ولكن عام ١٩٦١ ما كاد يجىء حتى ظهرت « بعض » أعراض « الطاقة الثورية » على الصحف...وأعاد « الرئيس » كل صاحب دار أممت إلى داره ...فاستقرت النفوس واستقامت الأقلام ... ووضحت المفاهيم ... و بدأ « الركب الثورى » يتحرك ... وأفاد التحرر من سلطان « الإعلان » ومن سلطان « رأس المال » فى الاتجاه بالصحف اتجاهاً « عالمياً » متواضعاً وأصبح من المألوف أن يطوف أى صحفى بأكبر بلاد العالم غير مبال

أى مال ينفق فى رحلته ... بعد أن كانت العيون تفتح وتغمض من فرط الذهول ... يوم كانت « أخبار اليوم » توفد محرراً مع كبير مصوريها إلى الشام ليأتى بأخبار « الإنسان الغزال » ... ولم يعد يدهش قارىء لو طاف « أنيس منصور » باليابان وجزر الهاواى مرة أو مرتين أو ذرع العالم شرقاً وغرباً وشغل الطالبات بأنباء « السلة » ... أو بموسى صبرى ... يطير إلى امريكا اللاتينية ليحمل تحياتنا إلى أخينا كاسترو الثائر فى كوبا ... وإن كنا ما نزال فى أول الطريق .

وفى هذا العام الجديد

وأمام هذه الحقائق ... وعلى مطالع سنة ١٩٦١ شعرت أن بينى و بين الإيمان بالناصرية مسافة قصيرة ... تقوم عليها المعالم التى اعتبرتها « جيوباً » ... ومنها كما قلت « سوريا والاتحاد القومى » .

وكثر العائدون من سوريا .

وكثرت الأحاديث المروية لنا منهم . أو المنقولة إلينا عنهم .

قيل لنا أن أموال الملوك والحاكمين .. بدأت تتدفق عبر حدود لبنان والأردن . وأن المأجورين من المغامرين بدأوا يفجرون بعض المفرقعات فى قلب دمشق . وأن بعض السياسيين ممن نحوا عن المناصب الوزارية وغير الوزارية قد نشطوا نشاطاً ملحوظاً . وأن بعض « الضباط » الذين أحيلوا إلى الاستيداع يحاولون الاتصال ببعض الضباط العاملين ليحدثوا حدثاً . وأن ضباطاً سوريين آخرين من الموثوق بهم إنما يضعون شارات الولاء فوق صدور مفعمة بالعداء . وأن جواسيس الاستعمار زاد تسللهم . وأن الكلام عن الانفصال لم يعد خافتاً . وأن التحريض عليه لم يعد خافياً . وأن عبد الحميد السراج أعرف الناس بأولئك وهؤلاء يحذر منهم . وأن القيادة المصرية تحب أن تحسن الظن فيهم ، وأن القوانين التى تمس نظام النقد والاستيراد والتصدير أفزعت تجار التهريب وأصبحوا يتوقعون المزيد من هذه القوانين . وأن الجبهة المخاصمة لنا فى سوريا — ومن ورائها ذكاء الاستعمار وذكاء الرجعية — أمست جبهة عميقة وعريضة .

وقيل لنا أن (الاتحاد القومى) منى بخيبة كبيرة ، لأن فريقاً كبيراً من أتباع الإقطاع ، والعاملين عند رؤوس الأموال ، قد تسللوا إلى الجهاز وسيطروا عليه ، و بدأوا يشنون الغارة منه .

و بدأت أفكر فى هذه المحنة ، من غير أن أفكر فى الرِّدة ، بعد أن آمنت بناصر ، و بقى القليل لكى أومن بالناصرية .

وكان يعزينى أن هذه القلة المسيطرة والمستغلة لم تكن هى الشعب السورى .

وخرجت من العرض كله بأن هناك أخطاء ، والأمل معقود على أن يدركها الرجل الذى يعترف دائماً بالأخطاء .

ومصر تشكو

والأدهى ، أن مصر بدأت هى الأخرى ، تشكو .

ولا أعنى : (مصر الدولة) التى ملأت كرسيها فى الساحة الدولية بجدارة وشرف وأخذت مكان الصدارة من الجبهة الحيادية بين المعسكرين ، ثقلا يحسب حسابه . وفرضت فلسفتها الناصرية بقوة (القدوة) على شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، اوكل بلد نزاعة إلى التحرر ، ونزلت بأعظم إمبراطورية فى التاريخ إلى دولة مهزوزة فى الصف الثانى .

ولا أعنى (مصر الأمة) التى تخلصت من الملكية والأحزاب والإقطاع ، وأممت القنال ، ومصرت مؤسسات المال ، وأحالت الخراب إلى عمران ، وأقامت المصانع والسدود ، ودخلت عصر الفضاء .

و إنما أعنى (مصر الأفراد) ، الأفراد من بنيها شعروا بأثقال فترة الانتقال ، وكساد التجارة على مستوى الفرد ، و بان عليهم أنهم يعانون (ضيقاً) فى الحياة اليومية أو (ضعفاً) فى القوة الشرائية .

* * *

هذا (الثمن) الذى كان لا بد أن تدفعه (مصر الأفراد) لأمجاد (مصر الدولة) ولبناء (مصر الأمة) ، أتاح للخصوم فرصة ، مشوا فيها بين الناس الذين لا يعنيهم من السياسة غير (الخبز) يقولون لهم إن (الناصرية) ترسل أموالهم إلى (سوزيا) و إلى الصومال والكونغو وإلى (الزنوج) فى (مجاهل إفريقيا) غير ما يرسل طبعاً إلى الجزائر المحاربة .

وزاد (الثمن) المدفوع (فداحة) يأس الأغنياء — من المصريين والأجانب على سواء — وتحايلهم على تهريب أموالهم إلى الخارج مما أتعب الدولة كثيراً ، وصرف جانباً من جهد العاملين فيها إلى مقاومة هذا التهريب ، و إبطال التعامل ببعض أوراق النقد ، الأمر الذى ترك أثراً غير هين فى السوق ،فاضطرت الدولة إلى فتح أبواب الوظائف فيها على مصاريعها لكل من يحمل مؤهلا ، حتى لا يجد المستعمرون والرجعيون فى ضيقه وفى غضبه تربة صالحة لردته .

وأشد سوءاً من كل هذا السوء أن الرجعية فى سوريا — سوريا التى نمدها بكل ما ملك القلب من (حب) ، وبكل ما حمل (الجيب) من (نقد) ، وبكل ما حصلت (الدولة) من (خبرة) — راحت تقول للمواطن السورى ، أن (ناصر) إنما جاء ليحتله ، وينتزع خيرات بلاده ، ويفجر بترولها ليستولى عليه ، ويشق الطرقات ليسهل مهمة جيشه .

هناك أخطاء

ولو أن هذا كله كان قد قيل عبر السنوات التى خلت — بدءاً من الثورة وانتهاء إلى السجن — لكان وقوداً لأحقادى ، ولفكرت من تلقائى فى التآمر على (ناصر) من غير حاجة إلى التشكيل الذى قام ، ومن غير حاجة إلى (الشاب) الذى ضمنى إلى التشكيل .

أما الآن ، أما هذه المرة ، فكل هذه الأقوال لم تنل منى ، ولم تزحزحنى عن المكان الذى أقف فيه ، كنت قد درست الرسالة فكرة وعقيدة ، وكنت قد درست

(ناصر) من البذور والجذور إلى النبت والعود ، و إلى القمة التى تحمل الثمر ، وتخفيه عن العيون تلك الجيوب التى خلقتها الأخطاء ، وخلقتها السرعة فى البناء ، وآمنت بالأسباب التى دعت إلى معونة سوريا والجزائر ، بل إلى معونة الكونغو والصومال .

لم أتزحزح ، ولم أتزعزع .

و إنما رحت أقول لنفسى موجع القلب : إن هناك جيوباً ولا بد أن يعنى (ناصر) بتصفية هذه الجيوب ، وأن هناك ثغرات ، ولا بد أن يسد (ناصر) هذه الثغرات ..

وعسى أن أكون قد رسمت بهذا الفصل القصير هذه المرحلة الثانية والعشرين فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .



الفصل الثالث والعشرون

وزلزلت الأرض زلزالها

وأقبل عيد الثورة التاسع ، أو أقبل يوليو من سنة ١٩٦١

وكنت ـ أنا وحرمى ـ فى مصيف الاسكندرية ، ننتظر مقدم ناصر فى السادس والعشرين ليمر أمامنا على طريق الكورنيش ، ولأملأ عينى (الجديدة المبصرة) منه ، وهو على قيد أشبار أو أمتار منى .

وكنت أتتبع أنباءه وأقول لزوجتى إن قلبى يحدثنى بأن هذا العيد يحمل (مفاجأة) لا أعرفها على التحديد وإنما أحسها مقبلة فى الطريق .

وكانت تقول لى وهى (ناصرية) من قديم :

— دانت قرَّبت خالص ، طيب إيه موضوع المفاجأة دى ؟

وكنت أجيب فى حرارة الواثق :

— مش عارف ، موضوعها شىء لا أعرفه ، يملأ الفراغ ، ويصحح الأخطاء ، ويسد الثغرات .

* * *

ومن اليوم التاسع عشر أو العشرين ، بدأ الغيث ..

وخيل للخصوم أن الأرض بدأت تزلزل زلزالها وتخرج أثقالها ، وقال الخصوم يومئذ : (مالها ؟) وكانت هذه الكلمة ، هى كل الحصيلة التى لديهم ، وهم يرون كيف يتجلى الله عليهم بصفات منه وأسماء نسوها — من أسمائه الحسنى — وفى طليعتها (المنتقم) و (الجبار) و (الحَكم) و (العدْل) .

أما الجماهير فكانت فرحتها طاغية ، كانوا يرفعون وجوههم لله شكراً وعرفاناً وكان سبحانه يتجلى عليهم وكأنه يقول لهم بلسان هذه الملايين التى توالت : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » .

أما أنا فكنت أطوف بالبيت أهنىء مشاعرى التى لم تكذبنى وأردد كالمجنون : (سد الثغرات ، أصلح الأخطاء ، أكمل البناء ، ملأ الفراغ) .

صدرت قرارات يوليو .. قراراً بعد قرار .

لم يكن إذن غافلا عن الحقائق ..

كان يمد لأصحاب رءوس الأموال فى الحبال حتى يشنقوا بها أنفسهم وحتى يشهد العالم عليهم وقد استشرت ضراوتهم .. واستخدموا المال فى التآمر على بلادهم .. وهربوا الجانب الأكبر منه — وهو مال مصر — إلى لبنان وسويسرا وغيرها .

أنزل بهم الضربة .. وتركهم مواطنين أحراراً يمشون فى الأسواق مع الماشين ، بل لقد ترك لهم أكثر مما يكفيهم إذا أرادوا أن يكونوا مواطنين شرفاء .

وماذا قال ؟

وندع القرارات الآن لنصغى إليه وهو يخطب ، والخطاب فى يوليو فى هذا العام غيره فى كل الأعوام « إن مجتمعاً جديداً يستكمل ملامحه الأساسية » هكذا قال جمال فى هلال الخطاب ، وهكذا كان ينبغى أن يقال ..

وجاءت هذه العبارة جواباً على حيرتى وحيرة الملايين ، لم يكن المجتمع الذى قا[م] والممخر .. قد استقر .. وكنا نسأل ، ولا نجد مجيباً ، لأنه لم يكن قد استكمل « ملامح[ه] الأساسية » .

نعم كان قد نادى بالرسالة الاشتراكية .. ومهد لها و بشر بها .. ودعا إليها ، وقضى على الإقطاع ليعبِّد الطريق أمامها ، ولكنه لم يكن قد وضعها موضع التنفيذ بناء متكاملا وإنما خاض بها — ضد رأس المال — المعركة بقوى غير متكافئة ، فكان سلاح

مدججاً بالحق ينادى به ويدعو إليه ، وكان سلاحهم مدججاً «بالملايين» التى اغتصبوها من المواطنين .

وكما زُود الجيش بالأسلحة فى سنة ١٩٥٥ فأصبح جيشاً ، زُودت الاشتراكية بهذه القرارات فأصبحت اشتراكية .

كانت الحرب بين الاشتراكية ورأس المال حرباً ظالمة ، وكان (المواطن) هو الضحية فيها .. المواطن العادى الذى لا يتكلم إلا بلغة (الرغيف) ولا يضيق إلا بأزمة (القرش) وكان على حق فى أن يضيق ، أما اليوم فلا حق له ، لأن (الحق) كله أعيد إليه ، وليس معنى هذا أن الجيوب التى كانت فارغة من المال قد امتلأت به ، أو أن حركة السوق (الفردية) فى ميدان رأس المال (الخاص) المتهافت ، قد راجت بسحر ساحر بعد طول كساد ، وإنما قضت الدولة برد حق المواطن للمواطن ، ولابد أن يحتاج (نفاذ) هذا الحكم إلى بعض الوقت ، وإلى بعض الإجراءات شأن كل حكم يصدره أعلى قضاء مختص به .

إن (على أمين) يقول لك فى إحدى يومياته فى جريدة (الأخبار) ويقول بحق (وكذلك وأنت تشكو من ارتفاع الأسعار تنسى أن سعرك فى السوق قد ارتفع أيضاً) نعم أصبح المواطن (رقماً هائلا) تحسب الدنيا حسابه ولم يعد (صفراً بين الملايين) كما قال الكاتب .

هذا وجه آخر من أوجه قرارات أول يوليو .

أصبح المواطن (رقماً هائلا) لأن أمة جديدة تتحرك .. ولأن (أمة جديدة تتحمل مسئوليتها لتكون قوتها للعرب جميعا) كما قال ناصر فى خطابه .. ولأن (أمة جديدة تعيد كتابة التاريخ وللأحرار جميعاً فى كل مكان لتكون لنضالهم قاعدة ، لتكون لسلامتهم حصناً وقلعة ، لتكون قوتها دعامة للسلام ودعامة لمعارك التحرير »

هكذا قال « ناصر » وهو يترجم قراراته ...

ولا يعنى هذا القول أننا لم نكن قد فعلنا شيئاً قبل هذه القرارات ، كنا فعلنا وفعلنا ،

حتى ذهل العالم كله مما نفعل ، ولـكن هذا البناء الشاهق الذى قام على أساس قوى ، كان يبين على بعض (الطوابق) فيه (خلل) ، كان هناك فى الشرفات (ميل) ينذر بالخطر .. كانت هناك أخطاء ، وجاءت هذه القرارات فاستقام البناء واعتدل ، واستراح البناء واستقر .

إن الجماهير استطاعت فى هذه السنوات التسع أن ترسم خريطة أمنها من جديد وبنفسها كما يقول ناصر ... وبريشته كما أقول وأصر على القول .

لقد تم عمل كبير عبر السنوات التسع ، ولـكنه كان معرضاً للضياع والانهيار لو لم تتداركه تلك القرارات .

● « إن مئات الألوف من الفنيين .. من العلماء ومن المتخصصين يقودون اليوم من مراكز أبحاثهم ومعاملهم .. معركة تطوير شاملة .. تمنح أمتهم حياة جديدة خصبة وخلاقة » .

● « إن مئات الألوف من الضباط والجنود يربضون اليوم بأقوى الأسلحة على حدود وطنهم يحرسون نضاله » .

● « إن ملايين الفلاحين الذين كانوا فى بلادهم بلا حق ولا أمل يبنون اليوم على أنهاره الـكبرى أعظم الأعمال الهندسية فى العالم على نهر الفرات ونهر النيل » ونقول الفرات لأننا نتحدث حتى الساعة عن يوليو ١٩٦١ .

هل هذا شعر يشدو به ناصر ؟

أم هو حقائق لا يستطيع أن ينكرها .. حتى المـكابر ؟

ومع روعة هذه الحقائق .. كانت كلها — ولا أمل التكرار — معرضة للانهيار لو لم تتداركها قرارات يوليو .

الشيء الرهيب

هذه القرارات قد فتحت عيوننا على شيء لم نكن نعلم من أمره شيئاً .

وعلمنا به اليوم .. يضرم بين ضلوعنا ناراً لا تهدأ .. على الرجعية ورأس المال ..

ولولا حكمة القائد وسلامة أعصاب الطبيب .. لجن الجيش ولمات المريض .

ولولا بقية دين أمسكت علينا إيماننا بالله لكفرنا بكل شيء والعياذ بالله .. ولانحرفنا إلى اليسار فى عنف غير مسبوق .. واعتنقنا مبادىء « ماركس ولينين » .. وأخذنا مرغمين بوسائل « ستالين » ..

هذه « الحقيقة » لم نضع يدنا عليها .. إلا بعد أن أذيعت القرارات .. وتولت جريدة « الأهرام » نشر « القوائم » التى كان قد أعدها « البنك المركزى » لأصحاب الأسهم فى بعض الشركات .. وكنا نتابعها فى كل صباح . وكل منا ينظر إلى أخيه ولا يجد كلاماً يقال .

من الذى كان يملك ؟

وخرجنا من القوائم ونحن نتساءل :

— من الذى كان يملك مصر ؟ وهل كانت « دولة » كما كان يقال لنا .. أم كانت « ضيعة » كما تقول لنا الآن هذه القوائم ؟

— ومَن كان صاحب هذه « الضيعة » .. وكيف استطاع أن « يسخر » للعمل فيها — ولقاء الخبز الجاف والثوب الممزق — أربعة وعشرين مليونا يستثنى منهم نصف مليون من الموظفين ومَن فى مستواهم يجدون القوت والكساء بالعرق المتصبب .

— من ؟

وتولت « القوائم » الإجابة فقالت بلغة الأرقام والحقائق :

— كان الذى يملك مصر .. « طائفة » من شذاذ الآفاق .. والقوادين

والبغايا .. ومن لصوص متخصصين .. من اليهود والأرمن ومختلف الجنسيات .. وكل من فتح للسكارى « خمّارة » أو أدار للعابثين « بيتاً للدعارة » أو جلب من « ڤيينـا » الرقيق الأبيض .. ويليهم بعض مصاصى الدماء من بلاد شقيقة ومن الرأسماليين والإقطاعيين ومن أسماء الرئيس العاطلين بالوراثة .. فى مصر

☆☆☆

كان من قرارات يوليو الكبير — على سبيل المثال — القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦١ بتحديد ملكية الفرد فى ١٥٩ شركة حددها القانون ونص على أنه لا يجوز للفرد أن يمتلك من أسهم هذه الشركات ما تزيد قيمته السوقية عن عشرة آلاف جنيه وتؤول للدولة ملكية الأسهم الزائدة وتسدد الحكومة قيمتها بموجب سندات إسمية على الدولة لمدة خمس عشرة سنة و بفائدة ٤ ٪ سنوياً .

ونحن إذن أمام قانون واحد — مثلتُ به — من عشرات القوانين .. يحكم صنفاً واحداً من أصناف الشركات التى أممت أو حددت فيها الملكية . . شركات بعينها ولها عددها . . والمساهم فيها لا تمثل أسهمه كل ثروته . . والدليل أن ما تملكه أسرة « عبود » فيها يقدر بنصف مليون من الجنيهات مع أن ثروته تجاوز ثلاثة وثلاثين مليوناً من الجنيهات .

وأحب أن نلاحظ أن جل هذه الأسهم مملوك ليهود من الجنسين .. ولأجنبيات يعرف المجتمع الراقى منهن « عاهرات » محترفات وهاويات . . ودع عنك القلة من العائلات ذات السمعة الطيبة .

ويقرأ المصريون « القوائم » ويتلفتون فى ذعر وفزع .. ولا يجدون كلاماً يقال .

أهذه ثروة مصر .. وفى هذا الصنف فقط ؟ وما هى البقية إذن ؟ وما الذى كنا نملكه ؟

ويوجد من يقول لعبد الناصر سليل القرية الغارقة فى الذل والفاقة : كيف أممت ولماذا أممت ؟!!!

دعونا نعبر ...

نعم . .لندرك الحقيقة . . ولنرى أنفسنا . . ولنحدد مكاننا . . دعونا نعبر وعلى جناحى طائر إن أمكن .. أى جانب من هذه القوائم . . بمجرد نظرة نلقيها على أية قائمة ولا أكثر . . لأن قوائم هذا الصنف وحده ملأت ٢٥٨ صفحة من القطع الكبير فى كتاب « الثورة الاجتماعية » وكل صفحة حملت خمسة وعشرين اسماً . . ونحن إذن أمام ستة آلاف وخمسمائه اسم تقريباً .

هى نظرة عابرة وخاطفة إذن .

ثمار الجد

وأنا أحنى الرأس احتراماً أمام بعض الأسماء لبعض العلماء أو الأطباء أو التجار الذين عرفوا بالأمانة وجمعوا هذه الثروة بالكفاح و بالصبر . . وكلها تناهت فى التواضع إذا قيست بغيرها ولا اعتراض لى أبداً على أسهم قيمتها ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات يملكها الدكتور « محمد كامل حسين » مثلا .. ولا على مثلها يملكها « الدكتور مورو » مثلا ولا على مبلغ يجاوز الآلاف العشرة بمبلغ تافه يملكه أديب كبير مثل « محمد كامل سليم » أعرف أنه « تحويشة العمر » بدءاً من مطالع شبابه سكرتيراً لسعد وانتهاء إلى معاشه سكرتيراً عاماً لمجلس الوزراء ولمجلس النواب .. فسفيراً .

هذه الأرقام ومثلها لا تستوقف أحداً .

إنما يستوقفنى اسم ردده « نادى السيارات » فى عهد الملك .. ورددته سهرات القمار التى كان « جلالته » يتفضل بالمشاركة فيها .. اسم أعرف أنه جاء من لبنان « فقيراً » .. وقد أحصيت الأسهم المقيدة بأسماء أطفاله وآله فى هذا الصنف الواحد من الشركات فجاوزت خمسة ملايين من الجنيهات . . فما هى إذن ثروة هذا الرجل .. « فرنسوا تاجر » ؟ وكيف جاء بها . . وكيف جاءت إليه . . وعلى هذا النحو ؟ وما هو القدر الذى هربه إلى لبنان نسجاً على منوال صديقه (كافورى) وراقصته (مصابنى) ؟

وهذه واحدة ..

و يستوقفنى اسم رجل مهذب من غير شك.. وقد ولى مرة وكالة الخارجية ولا مطعن على كفايته .. وأسلمناه يوماً الوصاية على الملك لأنه خاله .. ولأنه حفيد سليمان الفرنساوى ولأنه زوج ابنة عدلى يكن ، يستوقفنى اسمه .. لا لنقص فيه شخصياً أو فى خلقه أو فى كفايته . . و إنما .. لأسهم له فى هذا الصنف الواحد من الشركات جاوزت قيمتها أربعمائة ألف من الجنيهات .

وأسكت أدباً ولا أسهب .. لأن الرجل كما قلت مؤدب .

و إنما أقول لخصوم ناصر : تأدبوا أنتم أيضـاً . . ولا تقولوا له ؛ كيف أمم ؟ أو لمـاذا أمم ؟

وهذه ثانية..

و يستوقفنى اسم (سباهى) وقد استغرقت أسماء الأطفال صفحة .. وجاوزت الملايين قيمة .. فما باله هو الآخر .. وكيف بلغ ؟ وهل يدر الحلال كل هذه الملايين يا رب ؟

وهذه ثالثة ..

ويستوقفنى اسم مهم كبير أعرف قدره ووزير سابق لم تعلق به شائبة . . وقد ملك أطفاله ومن هذا الصنف وحده أسهماً جاوزت قيمتها ربع مليون من الجنيهات ؟ أتراه إذن قد اقتنى ثروته من العمل مستشاراً للأمريكان فى شركاتهم .. أم تراها (المحاماة) درت عليه كل هذا الملايين ولم تدرها على (بوانكاريه) الذى ولى رياسة الجمهورية الفرنسية ثم عاد ليعمل محامياً .. ليعيش .. أنا لا أريد أن أقول لهذا الوزير شيئاً لأنى شخصيا أحترمه.. إنما أريد أن أرجو من أمثاله ألا يقولوا لناصر .. كيف أمم ولماذا أمم ؟

وهذه رابعة . .

والأجانب ؟

هذه لمحة عبرت بها بعض من وقعت عيناى على أسمائهم عبراً من المصريين .

أما الأجانب فلا سبيل إلى الخوض فيهم .. ولا أشعر بالرغبة فى أن أخوض فى هذا البحر الزاخر بالزراية والتحلل و بالتفاهة والحقارة ، وحسبهم أنهم جمعوا واغتصبوا وسرقوا .. وحصلنا بعض ما جمعوه .. واستردناه . وغفر الله لهم ما هربوه إلى الخارج وما أنفقوه على السنين .. ومايخفونه حتى الآن عن العيون .. و إن كان يطعن فى تصرفنا (الرحيم) أننا أخذناه منهم (بالثمن) وتركناهم أغنياء ولم (نصادر) . بل دفعنا على أقساط الثمن (فوائد) وهى صورة مفزعة للضمير المصرى .

لكن لعل ضميرك يهدأ ، إذا عبرنا قوائم هؤلاء الأجانب . والتقطنا منها بعض الأسماء ، وثبت أنها أسماء (حبيبة) لنا و (حميمة) ؟ وليست (دخيلة)علينا ولا (غريبة) .

« كوتسيكا » مثلا ، هل تجهله ؟

غاناجه ، وچيوڤانى برهامشا والعزيزة (چوزيت عجورى) ، والغالية (ارليت عجورى) والأغلى (هيلين عجورى) ، أليست كلها أسماء حبيبة وحميمة ؟

واذكر فى التوراة (آل فركوح) ، إنهم كانوا قوما صالحين ، مراد وألبير و إميل و إدوارد فركوح .

واذكر معهم آل (أوڤاديا سالم) وفى العهود البائدة كانت لهم قصة — موريس والبير و إميل سالم وكلهم بالملايين .

أما آل دياب — رضى الله عنهم أو لم يرض — فكل ما ملكوه مائة وسبعون ألفاً .

ثم دع عنك ماتوسيان ومالكونيان ، أولئك ملوك التدخين وتخون العشرة إن أشرنا إلى ملايينهم ولعلها أقل سنوياً من ملايين سواهم ، ولكن لدينا من الأسماء التى تنتهى بـ (آن) وارتينيان أكداس يملكون ملايين وملايين ، ومنها عايده چوچانيان — وارمناك چوچانيان ، وانا هيدتا كفوريان .

ولا تنس الـ « أوس » والـ « آس » من أعزائنا الإغريق وعددهم لا يحصى وعلى سبيل القافية « ديمترى كونوس » و « نيقولا فرنكيسكوس » و «اندروس» و «سوتير يوفا كاناس » و « أرتميس » و « ليلاك لاقودا كيس » .

وإذا لم تكن قد تشرفت بمعرفة الخواجة خارنيكا بولو فاعتذر إليه باسم مصر الناصرية « الظالمة » التى أممته ولم يكن — وحده يملك ، ومن هذا الصنف وحده أيضاً إلا ٥٣٢٢٣٩ جنيهاً فى حين أن الفريق عزيز المصرى بلغت «تحويشة عمره» — ويدخل فيها ثمن بيته الذى باعه فى عين شمس — مبلغ ١٨٩٨٩ جنيهاً .

ودعك من حصبانى وشقال ومارى صوصه ومارسيل ليفى وفيرا نكامولى وهيلين لكح ولنده اسماعلون .. وحزين آزاريان .. فكلها تثير الغثيان .

***

كل هؤلاء كانوا يملكون مصر .

كل هؤلاء كانوا يسيطرون على رأس المال فى مصر .

وكل هؤلاء هم الذين يقولون لناصر : كيف أممت ولماذا أممت ؟

وعن نفسى

هذا عن النظرة العابرة من أجلك وحتى لا تمل ..

أما عن نفسى فلم أعبر .. لقد قرأت .. وتريثت . ووعيت .. وغثيت .

وإذا كنت قد خرجت منها موجع القلب ، مثخناً بالجراح ، فعزائى أنها حملت إلى قلبى «شحنة » من «الحقد المقدس» على كل مال مستغل ، مصرى أو غير مصرى ، و « شحنة » من « الحب الأقدس » .. للذى جرد هؤلاء المستغلين من هذا السلاح المدنس .. فطهره .. ورده إلى أهله كريماً غير مدنس .

***

نعم يوليو الكبير

و يوليو فى عام ١٩٦١ يوليو كبير ، لأن القوانين التى صدرت فيها قوانين كبيرة ، وكلها من النوع الذى لا ينسى .

والكتاب ليس سجلا لها ، و إنما أشير إليها ، لأنها هى « دفعتى » الأخيرة والكبيرة إلى الناصرية ، أجهزت على كل شك وكل تردد ، لأنى استطعت على أضوائها أن أرى صورة واضحة المعالم والقسمات للمجتمع الجديد الذى يبنيه (ناصر) .

وقد حددت قوانين يوليو الملكية الزراعية تحديداً جديداً أيضاً .

وقال الخصوم : « ألم نقل لكم أن ناصر لا وعد له ... وغداً يهبط بالمائة الجديدة إلى خمسين فداناً و إلى خمس إن واتته الظروف ؟ » .

وقلنا : جهالة ... لم تعد المسألة مسألة «وعد» يرجع فيه... أو «ظرف» يواتيه .

المسألة مسألة خلاف جذرى فى المفاهيم .

مفهوم « الثورة » عندكم إنها تغيير فى شكل الحكم .. تحدد شكله .. فوجب وضع حد لما تملكونه ..

والثورة على هذا النحو تصبح « انقلاباً للحصول على السلطة دون أن تتجاوز ذلك الحد لتصبح معنى اجتماعياً بعيد الأثر عميق الجذور » كما قال عبد القادر حاتم وهو يقدم لهذه القوانين .

إن ما تسمونه «وغداً» أو «حداً» إنما يعنى وضع حد للتقدم .. والثورة لا تعرف فى التقدم بمواطنيها أى حد تقف عنده ، إلا توفير الرخاء لهم جميعاً .. وتهيئة الفرص المتكافئة أمامهم جميعاً ... ولن تقول للذى عنده كفاية : « قف » و إنما تقول له : « مزيداً من التقدم » .

لقد أممت الصناعات الثقيلة ... وأممت الشركات المستغلة ، وحولت إلى القطاع

العام ملكية النصف فى الشركات المتوسطة ، وتقرر أن توزع أرباح الشركات على المساهمين والموظفين والعمال معاً ، وأن يكون للموظفين والعمال ممثلوهم فى مجالس إدارتها ، كما أممت البنوك ، وأصبح الاستيراد والتصدير عملية تابعة أو نابعة أو خاضعة للقطاع العام — وحرم أن يزيد مرتب مواطن على خمسة آلاف جنيه فى العام وتقاضت الدولة تسعين فى المائة من أى دخل بعد أن يصل إلى عشرة آلاف من الجنيهات سنوياً .

وبانت على وجه المجتمع الجديد كل قسماته الإشتراكية .

الإشتراكية بدعامتيها اللتين تقوم عليهما : الكفاية والعدل .

والكفاية تقتضى توجيه كل الطاقات إلى الإنتاج ومن هنا كان الإقتصاد موجهاً .

والعدل يقتضى إعادة النظر فى التوزيع ليعود أثر الإنتاج بالخير على الجميع ، كل حسب إنتاجه ، ومن هنا كانت القوانين العمالية الجديدة وإشراك العمال والموظفين فى الأرباح .

وهذا كله يصنع « الوطن » .

وبقى أن نصنع « المواطن » .

* * *

وصنع « المواطن » تكفلت به القوانين الجديدة التى تمنح كل فرد « فرصة طليقة تتحرك فيها مواهبه ليعطى للوطن كل ما يقدر عليه من طاقة الفكر والعمل » .

* * *

ويحسن أن نقف عند هذا الحد ليرى القراء أى أثر تركته هذه القوانين فى عاطفتى وإدراكى ... وأنا أتخطى المنطقة الحرام بين الكفر والإيمان... فى طريقى إلى « قلب هذا الإيمان » كما رأيت فى تطور مراحلى عبر الفصول السابقة .

لم يكن يحول بينى وبين الوثوب على «قلب النور» غير تلك الأخطاء التى استغلتها

الرجعية فى سوريا ، وقوضت بها « الاتحاد القومى » هناك ، كما أوشكت الرجعية فى مصر على أن تقوّض أخاه فوق هذه الأرض الطيبة و « كان لا بد لنا من أن نجرد الطبقة التى تحكمت فينا فى الماضى من أسلحتنا بطريقتنا ، بطريقة سلمية ، بطريقة مافيهاش دماء ، بطريقة تتمشى مع طبيعتنا ، بطريقة تتمشى مع تقاليدنا العربية » .

بهذه العبارة اعتذر القائد من تأخير الضربة كل هذى السنين لتجىء فى حينها ، بيضاء كما كانت الثورة نفسها بيضاء .

وأنا من أشد أنصار هذا « البياض » .

والعروبة لا تؤمن أبداً بالضربة « الحمراء » .

وقد مشى القائد العربى على مهل ، ولم يسحل ، ولم يقتل ، ولم يلغ فى الدم ، ولم يثأر ولم ينتقم .

ولكن يبدو أننا تأخرنا بعض الشىء ، ودخل القطار محطته الجميلة الآمنة .. بعد الموعد بدقائق ...

وانتهز الخصم فرصة الدقائق وتسلل .

ولكن .. لا بأس .

المهمة أجل ... من الدقائق ومن التسلل .

إنها رسالة تبنى على أسس .

وإنها أهداف .. تتحقق هدفاً بعد هدف .

وإنه تناقض طبقى يزول بالحكمة ومع الزمن .

وإنها إشتراكية ناصرية وعربية لا يستمدها صاحبها من ماركس ولينين ، وإنها رأسمالية نظيفة غير مستغلة لا يستمدها صاحبها من الاحتكارية الأمريكية أو الانجليزية.

إشتراكية لا تتحدى مبادىء الإسلام ... ولو أنها فعلت لرجعت عنها القهقرى، إلى التآمر عليها جاداً هذه المرة ... لا مصغياً إلى حديث شاب من الشبان عنها، ولهذا قلت فى فصل سابق: كل شىء أقبل التهاون فيه إلا دينى وربى.

* * *

قال ناصر وهو يخطب عن قرارات يوليو.

« فى أيام عمر أمموا الأرض ووزعوا الأرض على الفلاحين ».

وأقول أيضاً نقلا عن قراءاتى إن ابن الخطاب كان يرى أنه ما من أحد إلا وله فى مال الدولة حق يتقاضاه « فالرجل وبلاؤه ... والرجل وقدمه ... والرجل وغناؤه (أى كفايته) ... والرجل وحاجته » وبهذا سبق « عمر » جميع فلاسفة اليسارية من ماركس وإنجلز ولينين وستالين ... بقرون وقرون.

بل كان « عمر » مصراً لو امتد به الأجل على أن يصادر كل فائض على حاجة أى غنى وقال فى أخريات أيامه ما معناه:

« والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لأخذت فضول الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين » ...

وبرغم هذا الدستور الخطابى يقال لناصر: لماذا أممت؟

* * *

يا أخى العربى ..

أرجو ألا تسألنى بعد هذه القرارات إن كنت آمنت أو لم أؤمن والخير أن تسألنى:

— متى تشهر إيمانك؟

* * *

وأرجىء الإجابة، إلى فصل مقبل، وكل مرجوى أن أكون قد رسمت بأمانة هذه المرحلة الثالثة والعشرين، فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه ».

الفصل الرابع والعشرون

من يوليو «الكبير» إلى الميثاق الأكبر

استكمل المجتمع بقوانين « يوليو الكبير » ملامحه الأساسية .

وتبدى المجتمع المنشود ، واضح المعالم وضاء السمات .

ولكن القوانين شملت — باستثناء قانون واحد — إقليمنا السورى — فما عسى أن يكون وقع هذا التفجير الثورى الرهيب على الإقطاع ورأس المال والحزبيين الغاضبين فى هذا الإقليم ؟ وأى فرصة تتيحها هذه القوانين ، لتوثيق الصلات من جديد بينهم و بين الاستعمار والصهيونية بل ما عسى أن يكون وقع هذا « التفجير » على « الرجعية الحاكمة » فى كل (بلد عربى) ، وهى ترى أن (الاشتراكية الناصرية) لم تعد تزحف على مهل — كما كانت عبر السنوات العشر تفعل — وإنما (انطلقت) ، وانطلقت (تركض) إلى (أهدافها) ، تدمر كل من يحاول أن يعوق ركضها ، وتهز بيديها الإثنتين معاً ، و بكل قوة (الحق والعدل) فيهما ، كل فلاح وعامل ، وكل غافل منهما أو نائم ، فى هذه الرقعة العربية الحساسة ، التى يقع الحدث فيها على شاطىء الخليج ، فيتردد صداه خلال ساعات على شاطىء المحيط ؟ رقعة عربية حساسة تموج إقطاعا — ولا بقاء للاقطاع فى يد الإقطاعيين إلا بغفلة الفلاح — ورقعة عربية حساسة تعيش فوق بحيرة من البترول ، ولا بقاء لعائد البترول فى يد الحاكمين ، إلا بغفلة العامل ...

وقوانين (يوليو الكبير) توقظ الإثنين معاً — الفلاح والعامل — وتجهز على الإثنين معاً ، الإقطاعى والحاكم ... ودع عنك من تجهز عليهم بعنف تلقائى وفورى من أصحاب الشركات ورءوس الأموال والمصانع ؟

* * *

إن « الكراسى » كلها تهتز تحت أولئك جميعاً بدءاً من قرارات « يوليو الكبير » ...

و « كرسى البقاء » يهتز بدوره تحت « الجامعة العربية نفسها » بعد أن ظلت تجمع تحت سقفها « المسلح بالنفاق » بين « الأعداء » فى صور « الأصدقاء » رمزاً « شكلياً » لفكرة « القومية » أو لفكرة « الوحدة » ...

لم يعد هذا الكرسى قادراً على أن يَثبت .. بعد قرارات يوليو ...

إن كل عضو فيها تحكم بلاده .. حكماً رجعياً موروثاً له جهازه الفكرى الذى لا يمكن إصلاحه .

و (الناصرية) تمزق بقوة ذلك الحجاب الذى كان يسدل فوق كل وجه رجعى .

وكل (عامل) من (المحيط إلى الخليج) يسأل اليوم أخاه : (أين حقوقى ؟ ألست إنساناً ؟ ألست عربياً ؟ أليس لى مثل ما لأخى المصرى — ومثل ما لأخى السورى ؟).

إن عمال البترول فى الظهران وليبيا .. وقطر .. وغيرها .. كلهم يلتفون فى هذه الأيام حول (أجهزة الراديو) يصغون إلى صوت (الرائد) و (القائد) وهو يؤمم الشركات والمصانع والمصارف ويعطى العمال المصريين والسوريين ربع أرباحها .. ويشركهم فى مجالس إداراتها .. ويشرع لهم من « الحقوق » الجديدة .. مايرد عليهم بعض ما سلب من هذه الحقوق (قديماً) .

وهو يأخذ من المالك الغنى .. ليعطى الفلاح المعدم .. ويحدد دخل الفرد .. حتى يبدأ أبناء (القاعدة) .. يأخذون طريقهم إلى (القمة) .. وحتى يتصافح أبناء العروبة جميعاً .. فى منتصف الطريق .. أخوة متحابين ، ومتكافئين فى الفرص . على (سرر) — أو على (حصر) — متقابلين ..

أى (أصداء) لهذه القرارات ... ترددها جنبات كل بلد عربى ... فى قبضة كل حاكم رجعى ؟

وأى رعب دب فى أوصال المستعمر وهو يرى (ناصر) ، يرفع هذه المشاعل ، أمام الفلاح والعامل ، فى هذه الرقعة الكبيرة التى تملك أكثر من نصف بترول العالم؟

* * *

والمستعمر كان يحس أن عبد الناصر لابد أن يتابع وثباته .

وقد رأى الاستعمار أن ينتزع زمام المبادأة من يده ولو دفع ثمناً له ، دماً مسفوحاً ، ومعارك مفتوحة ...

وبدأ فعلا ..

بدأت (فرنسا) تعتدى على صديقتها (تونس) ، وجرت (الدماء) فى (بنزرت) .

وانتهزت (انجلترا) فرصة حماقة غير مسبوقة فى تاريخ الرعونة انطلقت من فم (المريض الأوحد) — وأنا أصف ولا أشتم — يهدد بها (الكويت) الحبيبة ، أن تتقبل الوضع على (مرارته) إنقاذاً لنفسها ، من ذلك (الوباء الوافد) ومن ذلك (المؤرخ الأحمق) الذى اكتشف فجأة ، وفى زاوية متخيلة من (كتاب تاريخ) مزعوم ، أن (الكويت) جزء لا يتجزأ من (العراق) ، وكأن (الكويت) ، إيريانا عربية ، وكأن الذين يصر (المريض الأوحد) على تحرير أرض العروبة منهم (شيوخ هولنديون) أو (أمراء من الأراضى المنخفضة) .

ظنت « انجلترا » — وكانت منطقية مع سياستها — أن الوقت قد حان لاستغلال « الحماقة القاسمية » فى تفتيت (الجبهة العربية) ، لأن أى بلد عربى يعاون (الكويت) لابد أن يخاصم (العراق) والعكس صحيح ، وتحركت القوات من (كينيا) ، وتبخترت أساطيل الملكة تحدثنا عن نظرية جديدة ابتكرتها قواتها الضاربة وأسمتها (القوات العائمة) ...

* * *

وهكذا لاح أن (الوحدة العربية) بعد أن وضعت موضع التنفيذ بقيام الجمهورية

العربيــة المتحدة .. باتت (أى الوحدة) فى مهب الريح .. خرقاً ممزقة .. وأشلاء متناثرة .

* * *

وكان (ناصر) قد تساءل فى (فلسفة الثورة) .

— أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا وأن هـذه الدائرة منا ونحن منها ؟

وقال عن هذه « الدائرة العربية » أنها امتزجت معنا بالتاريخ « وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك » وها هى « الـكويت » تقع تحت سنابك خيل المحتل من جديد — وبرضائها هذه المرة — لتصد عنها غزواً عربياً يندى له جبين العروبة .. وها هى تونس تـكاد تركع .. وإذا عاد الاحتلال الفرنسى إلى كل أراضيها ، أصيبت ثورة الجزائر فى مقتل .

فماذا فعل ناصر ؟

إذا تحرك لنجدة تونس والـكويت .. فإسرائيل واقفة بالمرصاد لتستغل الفرصة .

وإن هاجمته إسرائيل .. فليس بمستبعد أن يتصل الأردن بالرجعية السورية ليحقق حلمه ويضرب « الوحدة » فى قلبها النابض .. أو يضرب « جمال » فى « سوريا »

كان الموقف يحمل أى « شجاع » على التردد .. وكان « التردد » يسمى فى قاموس الرجعية « حكمة » وكانت « الحـكمة » تقضى على « ناصر » بأن يتريث .. فى إصـدار « قرارات يوليو »

ولـكن « ناصر » لا يحب أحياناً أن يكون « حكيما » لأنه ليس « سـياسياً محترفاً » كما قال ذات خطبة . .

وقد رأى أن هذه « الحـكمة » تصيب من « الرسالة » مقتلاً

ولم يخالف ناصر عن « الرســالة » ولم تهتز « الراية » أبداً فى « يده » . . ولا اهتزت « العقيدة » أبداً فى قلبه .. ولا اهتزت « الكلمة » أبداً فى « فمه » .

وأعلنها مدوية على العالم كله .. أنه سيخوض المعركة إلى جانب خصمه « بورقيبه » وسيضع تحت طلبه كل إمكانيات الجمهورية العربية المتحدة . . وسارع فأرسل الأموال والسلاح والأطباء والمرضـين والأدوية .. ووقف فى الأمم المتحدة يثير الضـمير العالمى ويؤلب الدول الحرة على فرنسا الباغية .

وأعلنها مدوية أيضاً ضـد قاسم .. قال له إنه يبارك وحـدة العراق والـكويت إذا أجمع عليها الشعبان .. ولـكنه ينكر سياسـة الضم بالقوة ويقف بكل ما يملك إلى جانب « الـكويت » واتجه « ناصر » إلى خصـومه فى السعودية والأردن وإلى كل بلد عربى يهيب بهم أن يتضامنوا معه فى إرسال قوات عربية لتخليص « الـكويت » من قوات المستعمر . . واتجه إلى مجلس الأمن يطالب انجلـترا بسحب قواتها من « الـكويت » .

وبلغ أهدافه فى تحرير « الـكويت » وحمـايتها .. وفى رد العدوان الفرنسى عن تونس .. وعن تعويق الثورة الجزائرية فى كفاحها[1] .

* * *

وكل هـذا الذى فعله « ناصر » — وعلى خطورته — ليس بذى بال إذا قيس بما هو أخطر .. أو بالأدهى والأمَرّ . . وبالجرأة التى لا تخطر ببال ببشر ٠٠ بقرارات يوليو يعلنها فى هذا الجو العكر ٠٠ ولا يبالى أن تثير عليه ثائرة الحاكمين الذين يعاونونه فى « الـكويت » ضـد قاسم ٠٠ ولم يعارضوه فى موقفـه من تونس لا لشىء إلا لأن « الرسالة » التى يحملها فرضت عليه أن يذيع قراراته

وقلت لنفسى :

— هـذا هو ناصر ٠٠ أراه رأى العين بالعين ٠٠ وأراه أيضاً بملء وعيى ٠٠ وملء قلبى ٠٠ وملء وجدانى .

---

(١) وقيل الـكثير عن « السياسة التحتية » بين فرنسا وتونس . . و « السياسة التحتية » بين انجلترا والعراق .. وذلك مبحث لا يتصل بأهداف الـكتاب .

ودار رأس الرجعيــة تحت ضربات (يوليو الـكبير) كما لم تدر تحت ضربات السنين التسع الحـافلة بالخطى المستأنية ·· وبالخصومة يليها صلح ·· وبالصلح تليـه الخصومة ·· وبضمير الملك الهاشمى الحسين بن طلال ·· يتحرك مرة فى شهر الصوم ·· ويذيع رسالة بأسلوب عبد الحميـد أو ابن المقفع ·· ويرسلها إلى أخيه (جمـال) ·· يستعيد بها أخوّته فى العروبة وأخوّته فى الإسلام .

* * *

دار رأس (الرجعية) الحـاكمة بعد ضربات (يوليو الـكبير) كما لم تدُر من قبل ·· وتضامت رءوسهم مع الرجعية غير الحاكمة فى دمشق ·· ومع المستعمر (يستتر خلفه اليهود) ووقع الاختيار على (سوريا) .

وتمّ الاتفاق

وكان التمهيد آخذاً سبيله من قبل ذلك بوقت غير قصير ، كما حدثتك فى فصل سابق ، كان الجو ملبداً ومهيأ ...

وبدأ المال يتدفق ، جارفاً هذه المرة ··

وبدأ العملاء يتسللون تحت أستار الظلام إلى بيروت وعمان وإلى جنيف ولوزان .

وقيل إن (عبد الحميد السراج) صرخ واستغاث ··

ولـكن (القيادة المصرية) رأت أن تظل ماضية فى طريق البناء ، وتطبيق القوانين والقرارات ، وألا تضن بالثقة على أى (ضابط سورى يتعاون معها) ، ولم يدر بخلدها مثلا أن الذى يدير مكتب (المشير) فى دمشق على رأس المتآمرين .

انصرفنا عن كلّ الذى يجرى ضد قرارات يوليو فى السراديب لنطبق قرارات يوليو فى المدائن والقرى ، ولنأخذ بيد الفلاح السورى والعامل السورى إلى مكانه ، الذى أعد له .

وعلى غفلة منا ، سددت الرجعية ضربتها ··

وكانت الضربة أليمة ، وموجعة بالنسبة لنا ، وكارثة وفجيعة بالنسبة للشعب السورى ..

وكلنا نذكر كل ما جرى ..

البيان الناصرى

كلنا نذكر .. ذلك البيان الذى أذاعه « ناصر »

وكلنا نذكر .. ذلك « الغدر » وكيف وقع .

وكان فى وسعه أن يجهز على حركة الانفصاليين فى ساعات ، لو أنه جرى على عشر معشار ما يجرى عليه « قاسم » فى « العراق » .

ولكن « ناصر » .. لا يسحل أحداً .. ولا يقطع رقاباً ..

و « ناصر » الذى لم يغمض له جفن يوم حاول أن يغتال رجلا من رجال الملك وظلت الأصوات تطن فى أذنيه وتطارد النوم عن عينيه .. ولولة امرأة .. وصراخ طفل .. ليس هو الذى يتصور أن جندياً مصرياً يقتل جندياً سورياً .. ولو كان فى قتل هذا الجندى الواحد إنقاذ لسوريا .

وعادت الفلسفة الناصرية تأخذ مكانها من كرسى الأستاذية حزينة هذه المرة وملتاعة .. ثم لم تلبث أن ارتفعت إلى مستوى الموقف بكل جلال فيها وبكل عمق فى الإدراك ... ارتفعت فوق كل الآلام وفوق كل الجراح .

* * *

وأشهد .. وقد سمعت كل خطباء عصرى باستثناء زملائه الثوار الذين استمعت إليهم عن طريق المذياع ولم أر منهم حتى هذه الساعة أحداً .

وأشهد وقد استمعت بكل شبابى طالباً إلى سعد زغلول سيد خطباء هذا الشرق غير منازع .

بل أشهد وقد استمعت إلى ناصر نفسه يوم أمم القنـاة ويوم الجلاء ويوم العـدوان .. ويوم قرارات يوليو .. وفى كل مناسبة خطب فيهـا .. منتصراً أو مهزوماً ..

أشهد بعد هذا كله أنى ما استمعت فى حياتى بكل أنفاسى اللاهثة .. وبكل قدسية الشعور العميق فى حزنى .. وبكل جلال الدمع العربى المهين فى عينى .. وبكل خلجات الخجل للعروبة فى مشاعرى .. أشهد أنى ما استمعت عبر عمرى إلى مثل ذلك البيان الدامى .. ولا إلى مثـل ذلك الصوت العميق الأجش .. ولا إلى مثل ذلك الإلقاء الطبيعى الهادىء .. ولا إلى مثل ذلك الترفع الباكى .. أو البكاء المترفع .

بيتى — وكان ليلتها يموج بالضيوف — كان كله يبكى .

ولم يكن بكاء ضعف أبداً .

والدليل أنهم تسابقوا عبر السهرة — وبعـد الصحوة — فى الرهان لا على « عودة الوحدة » بل على « موعد العودة » .

راهن أحدهم على شهر .. وخسر

وراهن ثان على ثلاثة .. وخسر

وراهنت ثالثة على ستة .. وكادت فى أواخر آذار تكسب

و « الوحدة » حتى الساعة لم تعد ..

وعسى ألا يجاوز بها القدر هذا العام الذى نعيشه .

ووددت لو أراهن أنا الآخر .. بقلبى .. وهو كل ما أملك .. على هذا الموعد الذى أناشد القدر ألا يتأخر بعودة الوحدة عنه .. حتى يتحدث أبناؤنا فى الغد .. عن « عام القدر » ويؤرخوا له .. ويؤرخوا به .. ويقول أحدهم « ولدت وا أسفاه

على مطالع عام الغدر » ويقول أخوه « بعد عام الغدر بيوم » ويقول الأخير « بعد عام الغدر .. بعام » .

وزارة .. وبيان .. وبناء

وأتريث عند ذلك « النصر » الذى أحرزته الرجعية على أرض سوريا .

أتريث لأرى وأفكر — فى الصلة بين الدرس القاسى الذى تلقيناه ، والخطى الرشيدة التى خطوناها بعد ذلك البيان المؤثر ، لأتساءل إن كانت هذه الخطى العجيبة ثمرة لذلك الدرس القاسى ، أم هى خطى مدروسة ومرسومة ، ألقى (الدرس) أضواءه على الطريق أمامها ، فلم تضل بعد ذلك طريقها .

* * *

نعم حدث بعد خمسة أسابيع من حادث « التفريق » المؤقت — ولا أسميه « الانفصال » أبداً — أن عدلت هيئة الوزارة لنعفى من عضويتها الوزراء السوريين الذين كانوا فى « القاهرة » من مهام قد يحرجهم القيام بها أو هكذا خيل إلينا .

وحدث أن توالت اجتماعات الوزارة الجديدة برياسة عبد الناصر حتى إذا انتهى اجتماعها الثامن أذاع هو بيانه التاريخى الثانى فى الرابع من نوفمبر ، عن خطى جديدة لتنظيم العمل الشعبى .

* * *

وأنا إذن كنت محقاً عند ما فكرت فى الصلة بين أحداث سوريا وهذا البيان .

وصحيح أن قرارات « يوليو الكبير » كانت تستتبع حتما ، تنظيما شاملا داخل إطار محكم ، يمكن لها من أن توضع موضع التنفيذ الحكيم ، بعد أن سدت كل ثغرة فى البناء ، وبانت كل القسمات على وجه المجتمع الجديد .

ولكن أكثر صحة أن بيان الرئيس الذى قدم به للتنظيم الجديد أشار إلى وجوب

استمرار العمل الثورى وإقامة تنظيم « يوفر له الحماية ضد المؤامرات التى تستهدف تعويقه » وأكد دور « الجمهورية العربية المتحدة » كقاعدة لحركة الطليعة الهادفة إلى تحرير الأرض العربية وإلى تحرير الإنسان العربى ...

وهذا التعبير الأخير يجاوز الحدود السورية ويتخطاها إلى كل بلد عربى غير متحرر فهو تعبير « نمسح » به المنطقة ، ولا نقف به عند سوريا ، لأن سوريا فى رأينا لم تنفصل ، وأقوى دليل احتفاظنا باسم « الجمهورية العربية المتحدة » .

* * *

وأحداث سوريا — إذن — كان لها الفضل فى أن يجىء « التنظيم الجديد » بالشمول الذى جاءنا به ، وبالدقة التى قام عليها ..

لقد قال البيان التاريخى الرائع ما يأتى بالحرف :

« إن المسئوليات الضخمة الملقاة على شعب الجمهورية العربية المتحدة ، تجاه واجبه التاريخى كقاعدة لحركة الطليعة العربية ، الهادفة إلى تحرير الأرض وإلى تحرير الإنسان العربى من كل سيطرة أجنبية ، ومن كل استغلال خارجى أو داخلى ، استعمارى أو رجعى ، أصبحت تحتم تعبئة القوى الشعبية فى الجمهورية العربية المتحدة وتنظيمها ديموقراطياً على نحو يكفل استمرار العمل الثورى ، ويضمن تجدده ، ويوفر له الحماية أمام كل المؤامرات التى تستهدف تعويقه . وكذلك يؤكد للأمة العربية دورها فى دفع التقدم الإنسانى وتطور الحياة بالكفاية والعدل وهما أساس الاشتراكية وجوهرها » ...

* * *

واضح إذن .. أن الرسالة لم تلتو خيوطها فى يد حاملها قط .

وواضح — كما ترى — أن ما يعلنه « ناصر » فى أواخر سنة ١٩٦١ ليوضع موضع التنفيذ فى سنة ١٩٦٢ هو عين ما جاء فى « فلسفة الثورة » وعلى مطالعها ..

والجديد أن قرارات يوليو ... حققت الاشتراكية ، وأن التنظيم الجديد ، يحقق الديمقراطية ... وأن أحداث سوريا ، حملتنا على أن نمد أيدينا إلى الأقنعة فوق وجوه الرجعية الحاكمة وغير الحاكمة فى المنطقة العربية فنمزقها جهرة ... ونعلن العالم أن الجمهورية العربية بدأت تحمل مسئولياتها الضخمة تجاه واجبها التاريخى ، وأنها كقاعدة لطليعة ، مصرة على أن تحرر الأرض العربية كلها ، والإنسان العربى فى أى شبر فيها ، من أية عبودية يفرضها عليه مستعمر من الخارج أو عميل من الداخل ، أو رجعى حاكم .

وهكذا كشف الغطاء و برح الخفاء ، وكان ذلك كله بفضل الضربة التى سددتها الرجعية إلى قلب العروبة فى سوريا .

* * *

ورأى البيان أنه قد حان ، أن توضع حصيلة التجارب الثورية التى عاشها شعبنا ، وأن توضع مع هذه الحصيلة آماله البعيدة وأن يضم هذا كله إطار شامل يصنع منها منهاجاً واضحاً للعمل الثورى الوطنى .

* * *

وذكر البيان ، أن الشعب وحده هو الذى يتحتم عليه الآن ، أن يقود التطهير بنفسه وأن يشق طريقه إلى غده الذى يتطلع إليه ، ويناضل بشرف لكى يشرق فجره .

* * *

وتقرر أن يصدر قرار جمهورى بتشكيل لجنة تسمى « اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» لدراسة الطريقة التى يتم بها تجميع ممثلين للقوى الحقيقية الأصيلة للشعب لكى تجتمع فى « مؤتمر وطنى » عن « طريق الانتخاب الحر » على أن ينعقد هذا المؤتمر فى سنة ١٩٦٢ ليستمع إلى تقرير يقدم فيه الرئيس مشروع ميثاق للعمل الوطنى ثم تجرى مناقشة التقرير بواسطة المؤتمر ولجانه ، ثم تكون الحصيلة النهائية بمثابة البلورة العملية لميثاق النضال الوطنى الشامل لأساليب العمل الشعبى وأهدافه ، ويكون هذا

الميثاق أساس الانتخابات العامة لانتخاب اللجان التأسيسية للاتحاد القومى فى كل قرية ومدينة لتكون قاعدة للمؤتمر العام للاتحاد الذى يقرر وضع الدستور الدائم .

* * *

والبيان لافت ... فى بعض فقراته ... إلى « جديد » لم يعرفه أى تنظيم سابق ...

نعم لفتنى البيان إلى جديد فيه ... هو « تجميع ممثلين للقوى الحقيقية الأصيلة للشعب » ... وإلى « دعوة الشعب إلى تسلم زمامه وقيادة التطهير وشق طريقه بنفسه إلى غده » ...

وإذن فأحداث سوريا أدخلت على المعجم كلمة « التطهير » .

وإذن فالسوس الذى كان ينخر فى عظام الاتحاد القومى ... اكتشف ...

والخطأ — إذن — سيصحح ...

وبحكم قرارات يوليو ... وعلى هذا التنبيه على الأخطاء ... سنفرغ من « كل البناء » ...

قرارات « يوليو الكبير » استكمل بها البناء الاجتماعى ملامحه الأساسية ...

والتنظيم الشعبى ... آت على الطريق ليقوم عليه البناء السياسى ...

ومن الحصيلتين يقوم كيان الدولة الجديدة فى إطار محكم اسمه « الميثاق » مبرأ من كل عابٍ .

هذا ما لفتنى البيان إليه .

* * *

أما الذى لم يلفتنى ذلك البيان التاريخى إليه ، فهو هذا « الميثاق » ..

كنت أتصور أن يكون « الميثاق » أى شىء .. إلا الشىء الذى كأنه ..

* * *

ومع هذا .. فيم العجلة ؟

يحسن أن أقف بهذا الفصل القصير عند هذا الحد .. ولا تسألنى : متى موعد الإيمان .. يُشهر ؟

إننى أجتاز فترة يحسن فيها ألا أَسأل أو أُسأل ..

يحسن أن أعيش هذه الفترة .. بكل عينى مبصرة وبكل عقلى واعياً .. وبكل قلبى مفتوحاً ..

* * *

وأرجو أن أكون — على قصر الفصل — قد استطعت أن أرسم المرحلة الرابعة والعشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .

الفصل الخامس والعشرون

من قبل إلى ما بعد الميثاق

أجل يا أخى العربى الصاعد ..

ها نحن أولاء نكاد نلتقى فى « رفرف » هـذا الـكتاب .. و « الحلم الـكبير » الذى افتتحناه به فى « التمهيد » .. قد تحول فعـلا « فى عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرءوس » .. «والمجتمع الجديد» . الذى كان موضوع « الحلم الـكبير » فى التمهيد.. ها نحن أولاء « نراه اليوم رأى العين وهو يقوم » . .

* * *

ولقد قلت لك فى صدر كتابى إن «الميثاق» لم يكن أبداً بداية التحول فى موقفى « من الرجل الذى تآمرت عليه .. وإنما كان ذروة هذا التحول .. ولم يكن أبداً «بداية» الطريق .. و إنما جاء «نهاية» للطريق .

وكان «إيمانى» بالناصرية .. قد استوفى كل مراحله .. وبلغ «تمـامه» كما رأيت فى الفصول السابقة — ولم يكن قد بقى إلا أن يجىء حدث مثير .. أركب أنا الآخر قمة موجته .. وأشهر « إيمـانى بناصر » .. فى « إنسياق انفعالى » له كل مبرراته .. حاطما معه كل « كبرياء المخطىء » — وما أشد العتو فيها — وشاقاً بين جموع الحيارى وصفوف المترددين .. طريقى إلى (محراب الحق) . . فى شجاعة وشرف .. وفى غير حيرة . . وفى غير تردد .

* * *

وجاء « الحديث المثير » .

جاء « الميثاق » الـكبير .

وها هو ذا يذاع على الناس (بياناً للناس) .. ليناقشه الناس .. وليقروه .

ثم ها هو ذا .. يقره مؤتمر من الشعب ، فيذاع على الشعب (بلاغاً للشعب) ليحمل عبثه كل الشعب .

وهأنذا أقرر فى غير تردد أن (أشهر) إيمانى ..

وهأنذا أبحث عن طريقة تحقق لى هـذا (الإشهار) ، وتحقق له كل أركان (العلنية) فيه .

* * *

ولـكن هناك مرحلة أخيرة تبدأ من قبل الميثاق ، وتنتهى بعد الميثاق .

بدءاً من هذا الفصل نرسم هذه المرحلة ..

اللجنة التحضيرية

ولعلك تذكر البيان السياسى الذى لا ينسى — بيان الرابع من نوفمبر ١٩٦١ — الذى عرض بالتحديد لمعالم التنظيم الشعبي الجـديد .. وكانت الخطوة الأولى فى ذلك (التنظيم) تشكيل (اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) لترسم اللجنة طريقة قيام المؤتمر ، وليناقش المؤتمر الشعبى ، ميثاق الشعب .

* * *

وشكلت (اللجنة) ونهضت بواجبها ، ورسمت الطريق ..

وأخون أمانة المراحل ، إذا أنا أهدرت هذه المرحلة ، ولم أقل لك إن هذه اللجنة كانت (تجربة مثيرة) ، على طريق (الديموقراطية) ، وكانت التجربة الأولى التى (نمارس) فيها (الحرية) إلى غير حد ، أو إلى الحد الذى ينحنى لنا عنده ، (مجلس العموم) فى بريطانيا بكل ما حمل تاريخه من حق فى المباهاة بحرية الرأى ، تلك الحرية التى تنظمها داخل المجلس (كرابيج المجلس) وترسمها خارج المجلس ، الهيئة التنفيذية

للحزب الذى ينتمى إليه العضو ، كلما تعلق النقاش الذين يزمعون أن يجروه ، باتجـاه سياسى للحزب (رأى) فيه ..

* * *

أحب أن أقرر — بوصفى (ناقداً برلمانياً) سابقاً عاصرت (الشيوخ والنواب) السابقين قرابة العشر من السنين فى كل برلماناتهم ... وكنت أنفرد فى نقدى بطريقة تركت على تلك الجلسات بصماتها ... أحب أن أقرر فى هذا الفصل — وبهذه الصفة — أن اللجنة التحضيرية (وثيقة شرف) لاشك فيه ... لأول تجربة مثيرة .. مارس الشعب فيها (حرية الرأى) على (مستوى البرلمان) . . بكل ما تعنيه (الديموقراطية السياسية) من المعنى الواسع لكلمة (برلمان) ...

بيان الرئيس

وإذا كنت أضيف إلى هذه «الحقيقة» أن البيان الطويل الملىء ... الذى افتتح به الرئيس أعمـال هذه « اللجنة » وما اتسم به من صراحة جاوزت كل « الحـدود التقليدية » التى يلتزمها رؤساء الدول فى العادة — كان « النور » الذى غمر القاعة ... وبهر الأعضاء ... فاندفعوا فى إثره — وعلى أضوائه — يمارسون الحرية على أرفع مستوياتها ... فهذا القول ... « واقع » تقتضينى أمانة المراحل التى هيـأتنى لإشهار « الإيمان » عند إعلان « الميثاق » أن أسجله فى هذا المكان ... لا أن أزجيه لوناً من ألوان « الثناء » الذى جرى بعض الكاتبين على أن يزجوه إلى الرئيس كلما كتبوا ... اتصل «الثناء» بموضوع الكتابة أم لم يتصل .

لقد كان ذلك البيان .. (سمراً موضوعياً) أخاذاً إن صح التعبير . . « سمراً موضوعياً » بين (قوم) إجتمعوا بكبيرهم .. ليشاوروه فى أمورهم .. فجاء (السمر) ... وثيقة شرف أخرى ... لأقداس الشورى ... ولوناً مشرقاً من ألوان (الرأى الحر) و (الرأى الجرىء) .

* * *

لقد صارح « إخوته » بكل كبيرة وصغيرة .

قال لهم إن مهمتهم كبيرة فى خدمة أمتهم التى أخذت على عاتقها بشرف وبسالة أن تطور حياتها فى جميع المجالات ، والتى أخذت على عاتقها « أن تكون قاعدة لتحرير الأمة العربية كلها سياسياً واجتماعياً » ...

لم يخف عليهم هذه الحقيقة الخطيرة برغم (التفريق) الذى كان قد حدث بيننا وبين إقليمنا الشمالى ... لأن الأمر لم يعد أمر تحرير هذا الإقليم من براثن الرجعية وإنما هو أمر تحرير (الأمة العربية كلها) لا (سياسياً) ومن (الخارج) فقط ... بل (اجتماعياً) و (من داخلها) أيضاً ...

ولم يكن الخطاب خطاب افتتاح كما كان مفهوماً ... وإنما كان وصفاً لتجربة العمل الثورى كما بدت له طوال الفترة التى عاشها (مع نضال هذا الشعب العظيم خلال سنوات حافلة ومليئة بالأعمال الكبرى ومليئة بالمعارك الكبرى) ... معارك مع الاستعمار ... (تبدأ بإطلاق الأكاذيب وتنتهى بإطلاق القنابل) ومعارك مع الرجعية (تبدأ بمظاهر المحبة ... وتنتهى بطعنات فى الظهر والظلام) ومعارك مع التخلف الطويل (الذى أرغمنا عليه والذى ورثنا منه ما يعانيه شعبنا من المشاكل الهائلة) ومعارك مع أنفسنا (مع نقط الضعف فينا ... حتى لا ننسى على الطريق أهدافنا) .

هذه الألمامة تحدد ذلك الموضوع ... الذى جرى فى خطابه مجرى السمر .. وهو يحدثهم عن (المرحلة القادمة .. مرحلة الثورة الاجتماعية) .. ولها كما قال جذورها ولها خط سيرها وهى نتيجة كفاح طويل ونتيجة وعى وتصميم .

وحدثهم بدءاً من الثورة عن كل المراحل ..

وثبت أن الرجعية كانت هى التى تعوق الركب فى كل مرحلة .. فى موضوع الأحزاب ، فى قصة الأرض والإقطاع ، فى مشكلة رءوس الأموال ، فى كفاحنا مع الاستعمار « فى أزمة مارس — يقصد ١٩٥٤ — الأزمة اللى حصلت فى مجلس الثورة واللى وقف فيها محمد نجيب فى جانب والثورة فى جانب كانت أساساً بفعل الرجعية » التى

« استطاعت أن تقنعه بأنه يستطيع أن يحكم البلد لوحده » ... فى التصنيع و (رأس المال الجبان) ... فى العدوان ، فى الحصار الاقتصادى الذى هزمناه ، فى (الاتحاد القومى) أقلمت الرجعية نفسها وتسللت إليه (وانضحك علينا) .

أرأيت إلى أى حد ، جاوز الرئيس كل الحدود التى يرسمونها لرؤساء الدول ؟

بملء فيه يقول لأعضاء اللجنة ، وجلهم كانوا أعضاء فى لجان الاتحاد القومى (انضحك علينا) علينا ، يعنى (أنا وانتم) ..

أرأيت إلى أى حد ؟ الرجعية (شاطرة جداً) ، و (طالما الاشتراكية يفط بس ، هم مبسوطين ، طالما الاشتراكية شعارات بس ، هم زعلانين ليه ؟ ده هم عايزين كده ، ومستعدين يحطوا شعارات فى الاشتراكية أد اللى بنقولها عشرين مرة بس مانحطش الاشتراكية موضع التنفيذ وما نطبقهاش) ..

• • •

وبدأ الأعضاء يؤمنون بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثورى الجاد لا إلى « اتحاد قومى » تسيطر عليه الرجعية .. ولا إلى « اشتراكية ديموقراطية تعاونية » تقوم على الشعارات الزائفة و «اليفط» تسد منافذ الطرقات ..

* * *

آمن الأعضاء بأنهم مدعوون هذه المرة إلى العمل الثورى الجاد .

وكيف لا يؤمنون وهو يتحدث إليهم على مسمع من العالم كله عن حوادث الرشوة ، التى كشفت والفساد الذى يحاول أن يبسط ظله وكل ما كان الخصوم يتجرون به ، ويحسنون استغلاله ، ويملأون به الصدور أحقاداً ..

وعذراً إذا أنا توقفت عند صراحة الرئيس سطوراً لأقول هنا ومن ناحيتى وهذا القول هو جوهر كتابى :

« وكل ما ملأ الخصوم به صدرى فضللت الطريق معـــذوراً ، وضللتها صادق الضلة » .

وأعود إلى خطاب الرئيس ، إلى السمر الموضوعى العجيب .

إن الأعضـــاء يصغون الآن مبهورين إلى ذلك « الرجل الذى تآمرت عليه » يقول لهم على مسمع العالم كله وفى بساطة الذى لا يحسب لغير الله أى حساب :

« يعنى تقريباً أنا فى يوم من الأيام قلت إن الرجعية والرأسمـالية المستغلة بدأت تخبط الثورة ، والثورة التى قامت سنة ٥٢ ضاعت » .

أتريد مزيداً من الصراحة ؟

* * *

« البلد يملـكها ٥ ٪ وفيه ناس كتير النهارده بعد القوائم التى نشرت فى الجرائد بيقولوا .. الله .. أمال كانوا ساكتين ليه من سنة ١٩٥٢ » .

هكذا ناب « جمال » عن أى عضو يخطر له هذا السؤال فأعلنه بنفسه وبدأ يعدد العقبات التى كانت أمامه .. وظل يتخطاها عقبة بعد عقبة .. متأسـياً بدستور الله وقرآنه الـكريم الذى أنزله فى ثلاثة وعشرين عاماً وكان فى وسعه وهو القادر أن ينزله دفعة واحدة لـكن « ليه ربنا عمل كده ؟ حتى يعطينا الفرصة والدليل أو الوسيلة اللى نقدر نعمل بيها فى حياتنا وفى دنيانا » .

وكان لابد بعد التغلب على الصعاب من دليل يفتح عيوننا على الأخطاء نتيجة لتجاربنا المريرة ، ومن هنا دعيت اللجنة لتقيم مؤتمراً يقدم إليه مشروع ميثاق يصبح « دليلنا للعمل » لأنه « نتيجة لدراسة مشاكل المجتمع » ، المجتمع الذى حرم بنوه من تكافؤ الفرص ، و « ابن الخولى بيطلع فلاح وابن الإقطاعى وابن الباشا بيطلع سعادة البيه » .

هل يشك الأعضاء بعد هـذا كله فى أنهم مدعوون إلى تجريد الرجعية من كل

سلاح فى يدها ؟ ومن عزلها بعيداً عن البناء الثورى الجديد ؟ « الحرية كل الحرية للشعب » هذا هو مفتاح النجاح الأوحد ، و إذن فيجب أن يعزل عن «المؤتمر الشعبى» كل أعداء الشعب ليستطيع المؤتمر أن يناقش الميثاق ، وأن يتلقى باسم الشعب هـذه المسئولية التاريخية من غير أن تتكرر مأساة الاتحاد القومى أو شعارات الإشتراكية الـكلامية .

* * *

تحددت مهمة الأعضاء وآمنوا بسلامة المهمة وخطورة المسئولية ، وأرسيت أسس « الصدق الرهيب » بيد الرئيس ، وتوخاه فى كل كلمة قالها ، لم يحسب حساباً لغير الحق ..

تحددت مهمة الأعضـاء « كل الحرية وكل الديموقراطية للشعب ولا حرية ولا ديموقراطية لأعداء الشعب » .

ولـكن عملية التحديد تلقى ظلا قاتماً على الرأى الحر الذى دعاهم إلى ممارسته فى أوسع نطاق بشرى ممكن ، فما وجه الحق فى هذه الملاحظة ؟

وجه الحق أن الذى قاله كان رأياً له .

وهو يدعوهم إلى إبداء آرائهم بنفس الصراحة التى التزمها فى حديثه .

وهنا تجىء « وثيقة الشرف » التى تحدثت عنها .

هنا يجىء دورى لأسأل :

— هل نـكص الأعضاء على أعقابهم وتهيبوا الدعوة ؟

والجواب :

— ابداً .. لم يتهيبوها . . بل شمروا عن سواعدهم وخاضوا غمارها أشداء طلقاء بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان ، ولم يخطر ببال عضو أن هذه الدعوة إنما وجهت إليهم

أثراً من آثار الانفعال الذى أصاب «جمال» بعد الانقلاب السورى .. أبداً ..

« فيه ناس قالوا إن الإنقلاب الرجعى فى سوريا هوّه اللى فجر الثورة الاجتماعية هنا فى مصر ، ده كلام لا نصيب له من الصحة لأن إحنا بننادى بالثورة الإجتماعية من أول يوم » ..

إذن ما هى الحقيقة ؟ أجاب :

« اللى أقدر أقوله : إن الإنقلاب الرجعى فى سوريا كان رد فعل رجعى للثورة الإجتماعية التى أعلنت فى يوليو من أجل مصالح الشعب ومن أجل مصالح الجماهير .. الإنقلاب الرجعى فى سوريا بيدينا يمكن أمثلة خدنا منه دروس وخدنا منه عظة ، خدنا منها دروس كيف تسللت الرجعية وكيف شكلت نفسها .. إزاى مأمون الكزبرى كان مثلا رئيس لجنة اتحاد قومى » .

عفا الله عما سلف

ونقطة أرانى مشدوداً إليها وأنا أدلل على أن اللجنة التحضيرية كانت (وثيقة شرف) — لا شك فيه — لأول تجربة مثيرة مارس الشعب فيها (حرية الرأى) على (مستوى البرلمان) .

قال لهم جمال :

« بعد الوحدة ما جاءت ، فيه قضايا كانت موجودة . . فترددت .. هل حانبتدى بعد الوحدة نفتح تانى هذه المحاكم ونفتح هذه الصفحات ؟ فقلت عفا الله عما سلف) .

وقص عليهم قضية كانت قائمة هى قضية الدندشى ، وكان المتهم الأول فيها مأمون الكزبرى .. وبعد قيام الحكومة المركزية طالب بعض الوزراء السوريين بمحاكمة المتهمين فى هذه القضية ، وكان الدندشى قد اعترف على مأمون الكزبرى وصبرى العسلى بالرشوة التى كانوا قد أخذوها ، ورفض (جمال) واكتفى أن يطلب إلى صبرى العسلى أن يستقيل بعد أن ثبت عليه ما ثبت ولا سيما فى محاكمات بغداد ..

وكان مأمون الكزبرى الذى عفا عنه هو أول رئيس وزارة فى الانقلاب السورى الغادر ...

• • •

وفهم الأعضاء إذن أن سياسة العفو عما سلف من الرجعية هى التى جرت علينا كل المتاعب التى عانينا منها ما عانينا ، فهل قال الأعضاء : (آمين) ـ و (آمين) هنا لا غبار عليها وتلوح كأنها كلمة الحق بعد أن أيدها (الواقع) الذى (وقع) — كلا .. بل وجد من بين الأعضاء من طالب باستمرار سياسة العفو . والمزيد من العفو . . واشتد فى المطالبة ولج فيها وأصر عليها ، حتى لاحظ الأمين العام والأعضاء أن كلاماً كثيراً مما قاله هذا المعارض ينبغى حذفه من محاضر الجلسة ، فكان جمال عبد الناصر هو الذى حمى حرية هذا العضو ، وأصر جمال على ألا يحذف من المضبطة أية كلمة تقال فى اللجنة ، لأن أعمالها جزء من التاريخ ، ولأن حرية الرأى مكفولة للجميع ، ولأن هذه (الحرية) إذا لم تمارس هنا فلا مكان آخر لها تمارس فيه ، و إذا لم تنهض بمسئولياتنا كاملة إزاء هذه الحرية فلا جدوى من أى مبنى نبنيه ..

وقصدت بالمعارض (خالد محمد خالد) بل خيف أن تتردد الصحف فى نشر كلمته كاملة فهبطت التعليمات ليلا على الجريدة الناطقة باسم الحكومة (الجمهورية) أن تنشر كلمة (خالد) كما قالها .

الرئيس والمعارضة

وعند « خالد محمد خالد » أطيل الوقوف .

لقد طرح « قضية » وثيقة الصلة بأهدافى ... وليس بالهين أن تطرح مثل هذه « القضية » ولا أتمهل عندها .

و « خالد محمد خالد » من حيث هو « خالد » لا يعنى أهدافى ... فى قليل أو كثير — برغم إعجابى به ككاتب ومفكر — أما « القضية » التى أثارها ... فقضية تناهت فى الخطورة ... ولعل الرئيس كان مشدوداً إلى خوض النقاش بهذه الخطورة فيها .

كان خالد يعارض مبدأ « العزل » .

وله الحق فى أن يعارض أى مبدأ ... وأن يقاوم أى اتجاه .

لقد قال فى شجاعة تحمد له :

« صدقونى أيها السادة ... ليس من صالح أحد أبداً ... أن يسلح الشعب فى فترته الانتقالية هذه بشعارات عنيفة.. أبداً ... يجب أن نسلحه بطبيعته — طبيعته الطيبة واليقظة والوفاء والحب — فلنسلحه بطبيعته هذه ، وهو شعب ذكى وقوى ، هذا ما أريد أن أقوله ، وسأظل أقوله ، وسأظل أنادى به لأنى أومن بشعبى » .

وذكر أنه لا مصلحة له فيما يدعو إليه ... لأنه ليس غنياً ... وذكر قصة محضر رآه وهو طفل يحجز على ماشيتهم لحساب التفتيش الذى كان أبوه يقاومه ... ورأى الجند ينتزعون أباه وهو بملابس النوم وفى منتصف الليل ... وأعلن أنه كان مخطئاً حين طلب للمعزولين « الرحمة » وأنه إنما يطلب لهم « العدل » ... لأنه لا ينبغى أن يؤخذوا أبداً بجريرة لم يرتكبوها فى المجتمع الاشتراكى الديمقراطى التعاونى .

ولست أشك فى أن كثيرين — من الخصوم والأنصار — أعجبوا بشجاعة هذا « العضو » ... ولعلنى أنا أيضاً لم أفلت من شعور الإعجاب به ... رواسب من ماضينا ليس من السهل أن نتخلص منها ... رواسب إعجابنا بالضعيف الأعزل إذا هو عارض الحاكم القادر (بالحق أو بالباطل) رواسب من ماضينا الذى رسب فينا الكراهية للحاكم ... واعية أو غير واعية ...عمياء أو مبصرة ... محقة أو مبطلة .

* * *

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد ... لما استكملت « القضية » ملامحها ... ولما اتصلت بأهداف كتابى ... وتكون — أكثر ما تكون — رأياً يبديه ... ويطلب من الرئيس فيه ... مزيداً من التسامح ... بل لعل لى مصلحة فى أن أناصر « خالد » ... لأن أول طائفة تقرر عزلها ... هى طائفة المحكوم عليهم ... وأنا تآمرت

وحكم على ... فاندرج اسمى تحت بند العزل الأول ... بالحق أو بالباطل ... ويعنينى إذن فى الدرجة القصوى أن أناصر « خالد » .

لكن الأمر كما قلت كان أكبر وأخطر .

الأمر أن « خالد » كان يرى أن « التسامح » الذى يدعو إليه ... هو الحرية التى عناها فى كتبه ... وهو يطالب بالمزيد منها إن أردنا أن ندعمها ... والحرية التى عناها هى الديمقراطية بشكلها الأوروبى والأمريكى ... أو بمفهوم الغربيين لها ... وبالمنظمات التى تحرسها .

وكل معنى من هذه المعانى يستأهل أن يناقش ... وأن يناقش فى عمق ووعى .

وقد رد الرئيس على العضو فأكد له أن العملية ليست أن نطلب لهم الرحمة أو أن نطلب لهم العدل ... إنما العملية عملية معركة نخوضها ويجب « أن أطمئن على أن الجيش الذى معى ويقاتل معى فى المعركة ... قياداته قيادات مؤمنة بهذه المعركة ... فإذا لم تكن القيادات مؤمنة ... فإن كل العساكر الذين سآخذهم معى سيكونون ضحايا لعدم حسن اختيارى لهذه القيادات » .

والعملية إذن — وأحداث سوريا لم تكن بعدت — عملية تأمين لهذه الثورة الاجتماعية ويجب « أن أوفر لها سبل الأمن ... ولا أقول سبل الإرهاب ... ولا أقول سبل الخوف ... ولا أقول سبل الظلم ... ولكنى أقول سبل الأمن ... ولو كنت أقول الظلم .. كنت تقدر ترد وتقول العدل ولكنى أقول الأمن » و « الجماعة الذين دخلوا عليكم فى بيتكم وضربوكم وجروكم بالليل موجودون ... والله إذا وجدوا الفرصة لدخلوا علينا فى بيوتنا وضربونا أيضاً وجرونا بالليل ولن يتركونا» .

* * *

كان الأمر واضحاً .

لم يكن « العزل » إذن محاكمة لأحد ... أو عقوبة لأحد ... أو سجناً لأحد ..

و إنما كان تأميناً للثورة ... بعد أن تسلل الرجعيون إلى الاتحاد (القومى) فأفسدوه و إلى (الاشتراكية) نفسها فأصبحت لافتات وشعارات ... وَ (كل ما نريد أن نعمله هو ألا يتولى هؤلاء الناس القيادة السياسية لا أن تعمل لهم محاكمة عسكرية) .

وقد يقع فى (العزل) ظلم لقوم لا ينبغى أن يعزلوا .

وقد يكون بين أعضاء اللجنة نفسها من يستحق (العزل) .

ذلك كله مرده للتجربة ... والعين المفتوحة ... والعقل الواعى .

والباب مفتوح ... على مصراعيه ... للتجربة ... يخرج منه من دخل ... و يدخل إليه من خرج على ضوء هذه التجربة (وأنا قلت أمس أنه ممكن بعد ستة شهور أن نسأل ثانية ما هو الوضع؟)

* * *

ولكن خالد وصل بين (العدل) و (الحرية) ... و بين (الحرية) و (الديمقراطية) ووضح أنه يطالب بالديمقراطية بمفاهيمها الغربية .

وجاءت (وصلة خالد) بعد أن قال الرئيس (إنه لو فرض أن أتينا نحن بأناس ليضعوا دستوراً وقالوا فيه الإقطاع والرجعية فسوف أذهب وأرتدى البدلة الكاكى وأعمل ثورة عليهم من أول وجديد ... ومهما تكلفنا فلا عودة إلى الوراء بأى حال من الأحوال) .

وقف خالد يرد و يثنى على الرئيس والثناء دائماً ميسور ... ميسور له وميسور لى وميسور لكل من يحسن الكلام منقولا ... والكلمة مكتوبة ... وهذه حقيقة طاب لى أن أكررها و إن كانت لا تطعن أبداً فى صدق خالد وهو يزجى ذلك الثناء ... إنما أردت أن أقول إن الثناء لم يكن هو المهم فى كلمته إنما أهمنا منه قوله :

(وأنا بصفة خاصة كمواطن أتمنى أن تظل تحكمنى عشرين سنة أو أكثر ولكن الحكم الديمقراطى الذى أومن به وأرجوه) .

ولم تكن العبارة قد استكملت ملامحها وإن ألقت ظلال الريبة على الحكم الذى يدعو إليه النظام القائم ... فعاد خالد يوضح الديمقراطية التى يؤمن بها ويقول :

• (وأعرف لك فى هذا — يقصد (العدل السياسى) — مواقف جليلة كحاكم نزيه عادل ، ولكن الشيء الذى يحز فى كبدى ونفسى ، أن خصومك وخصومنا . لا يجدون ما يقولونه سوى حجة واحدة ... هى قولهم أين البرلمان ؟! أين الدستور ؟! أين المعارضة ؟)

و «خصومك وخصومنا يقولون؟!!» ... هكذا يقول خالد ... وهكذا كنت أقول.

و (خالد) إذن ما زال يضرب فى الضلال — صادق الضلة وهو عضو فى اللجنة التى تعزل .

و (أنا) أضع هذا الكتاب لأخرج من هذه الضلة وأدعو إلى الرشد أمثاله ... واسمى مدرج تحت أول بند ... وضمن أول طائفة ... قضت هذه اللجنة بعزلها .

و (أنا) و (هو) ... ضحية (خصومك وخصومنا) وما قالوا وما يقولون .

وهو ما يزال واقعاً تحت تأثيرهم ... يحز فى كبده ونفسه معاً ... قول الخصوم أين البرلمان وأين الدستور وأين المعارضة ؟

وقصة (الخصوم) هى التى قام عليها كتابى .

ومن هنا قلت أن (خالد) أثار قضية خطيرة تتصل بأهداف الكتاب .

* * *

ولقد قال لى الرئيس فى رده أن هناك ديمقراطية بالمعنى الذى يعنيه وأن هناك اشتراكية بالمعنى الغربى أيضاً ، هناك اشتراكية (موليه) فى فرنسا ... وهناك ديمقراطية الأردن ..

أليس فى الأردن دستور و برلمان وأحزاب ومعارضون ؟

أو لم يكن لدينا دستور قاتلنا فى سبيله و برلمان وأحزاب ومعارضون ؟

فـكيف كانت تحكم مصر إلى سنة ١٩٥٢ وكيف تُحكم الأردن حتى الآن ؟
أيقال إن الأمر مع الفارق لأننا هنا ثوار ؟

لقد تولى أتاتورك — أو مصطفى كمال — الرد على هذا التساؤل ...

ثار وحارب ... وحرر تركيا من جيوش الاحتلال ... وحكم ونجح ... وكان حكمه قوياً ... واستجاب للذى يؤمن به خالد.. فوضع دستوراً وأقام برلماناً وأنشأ حزبين أحدهما يحكم ... والآخر يعارض ... ليتخلص من الحز فى الـكبد وفى النفس — ومن أقوال الخصوم : أين البرلمان وأين الدستور وأين المعارضة ... وإذا بالبلد تنقسم ... والبلد يكاد يضيع ... فعاد إلى نظرية حزبه الواحد ... وهو حزب إينونو حزب الشعب ولم يحول ثورته من السياسة إلى المجتمع — فما كاد يموت حتى ضاعت الثورة — وبقى الإقطاع ورأس المال والتحكم والأمريكان .

ونحن لا نخاصم الدستور ولا البرلمان ولا المعارضة .

وسنضع دستوراً ونقيم برلماناً ... وترتفع فيه أصوات المعارضين .

أما أن نقيم أحزاباً فى مجتمع إقطاعى ورأسمالى فلا ... يجب أن نذيب الفوارق بين الطبقات أولا ... ومتى تطهر المجتمع ... أقام الشكل الذى يريده بلا خوف عليه ، أما أن نسلم المجتمع الآن إلى الحزب الشيوعى المصرى الذى يتلقى تعليماته من صوفيا أو إلى حزب آخر يتلقى تعليماته من انجلترا أو أمريكا ... لا لشىء إلا لأن الخصوم يقولون أين وأين ... فـكلام لا ينبغى أن يقال أو لا ينبغى أن يسمع ..

هذه هى القضية التى أثارها خالد محمد خالد .

وهى من زاوية أخرى .. تدعم رأيى فى أن اللجنة (التحضيرية) وثيقة شرف لحرية الرأى إلى غير حد ... لأن هذا الـكاتب عضو فى هذه اللجنة ... ولأنه من المؤمنين — كما يقرر — بالثورة ... ومن المؤمنين بناصر ... وقد قبل العضوية على أساس العمل داخل الإطار الثورى . وبرغم هذه الحقيقة تساءل عن مُنظمات الديمقراطية بمفهومها الغربى لا بمفهومها الناصرى ... ولم ينكر عليه (ناصر) هذا الخروج عن

(الإطار) وإنما ساجله فى سعة أفق وسعة صدر ... وذكره بكتب له ومقالات ... وذكره بالسطر و (بصفحة ٣) وعلى الفور ومن الذاكرة .

وقد يكون مما يكمل الصورة — وعلى هامش هذا النقاش — أن نثبت هنا ما أعلنه خالد محمد خالد . عند ما قال للرئيس :

« ولعلك تذكر يا سيادة الرئيس ، حينما أسعدتنى ودعوتنى إلى بيتك ومكثنا معاً فى نقاش ساعتين أو أكثر » .

هذه الكلمة لها خطرها .

رئيس دولة ، يواصل ليله بنهاره ، مقاتلا ، وأعداؤه لا حصر لهم من الغرب والشرق ، ومن الداخل ومن الخارج ، ورسالته تقوض عروشاً وتهدم نظما ، وتحرر عبيداً ، وتبيد إقطاعاً ، ثم هو يقرأ كل كتاب جدير بالقراءة ، ثم يستدعى كاتباً كخالد ، ويناقشه فى آرائه مناقشة الند للند ، أكثر من ساعتين ، رجاء أن يقتنع ، كأنما هو (ثقل دولى) فى معركة حاسمة ، ثم يقال بعدها أن (ناصر ديكتاتور ؟!!!)

ومرة أخرى...

ومرة أخرى ، أعود إلى اللجنة .

أعود لأقول إنها أبرزت لنا من الرأى وجوها لم تدر بخلدنا ، وأبرزت لنا من الأعضاء مواهب كانت خافية علينا ، وأبرزت لنا من الشجاعة ألواناً ، لم يستمتع بمثلها أعضاء البرلمانات فى أعرق الدول ، وأبرزت لنا من (النصف الآخر) مستوى من الوعى لم يكن أحد يصدق أن (المرأة) بلغته ، وأبرزت لنا طبعاً — وهذا بديهى — ألواناً من « النفاق » لا يمكن أن تبرأ منه لجنة قوامها مائتان وخمسون عضواً ، ولو دعا إليها عمر ابن الخطاب أو عمر بن عبد العزيز .

وقد لا أوافق اللجنة على كل قرار انتهت إليه .

وقرارات اللجان ليست قرآناً ، وليست معصومة من الخطأ .

إنما الذى يعنينا أن كل شىء قيل فيها ، وأن (ناصر) تجلى بكل مواهبه وهو يوجه نقاشها ، و يبسط الحقائق ، و يعترف بالأخطاء ، و يرسى الأسس ، و يحدد المعالم ، و يضع الرسالة فى مكانها الصحيح .

كانت اللجنة إذن مبدأ للمؤتمر ، وكانت (هيئة استقبال) رشيدة وواعية لمقدم (الميثاق) ، وعرفت كيف تجىء للمؤتمر بدفعه الثورى من صميم الشعب لا من حواشيه ، ومن عماله وفلاحيه وأصحاب المصلحة فيه ، لا من مترفيه الكسالى ولا من عاطليه التافهين .

ولعل من حقى — ولا تزال الحرفة تلاحقنى — أن نجوماً فى سمائها ، قد التمعت فى سماء هذه اللجنة ، وطمأنتنا على الجيل الصاعد ، من الكتاب المؤمنين بالناصرية ، وأرانى مشدوداً بزهوى المهنى ، إلى أن أذكر اسم كمال الدين الحناوى ، واسم أحمد بهاء الدين ، واسم الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، واسم الدكتور زكى نجيب محمود (وهو محسوب على القلم و إن حسبوه على الجامعة) ، واسم الشيخ الشرباصى (إن أعجبه أن يكون محسوباً على دولة القلم) .

أما أساتذة الجامعة الذين لمعوا فى سماء القائمة ، وأما السيدات ، وأما العمال ، وأما الفلاحون ، وأما نقيب المحامين والمحامون ، فأرانى مشدوداً أيضاً إلى إعلان أسماء العشرات منهم — وجُلُّهم فى غير حاجة إلى الإعلان — لولا كثرتهم وخوفى من أن أنسى إسماً له قدره وأخجل .

* * *

الذى يعنينى أن (المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية) إنما جاء على الصورة التى جاء عليها بفضل هذه اللجنة التحضيرية

وجاء المؤتمر

نعم ، جاء ، وتقدم إليه (ناصر) (بمشروع الميثاق) .

ووقفة أخرى لا بد منها وأنا أستقبل (الميثاق) ليسترد القلم أنفاسه :

* * *

وعسى أن أكون قد استطعت أن أرسم هذه الحلقة الخامسة والعشرين فى موقفى من (الرجل الذى تآمرت عليه) .

الفصل السادس والعشرون

آخر الأحاديث ... من « ناصر » ومن « الأحداث »

قلت .. إن « الميثاق » قد جاء ...

وجاءت معه وقفتى الأخيرة .. أعلن الناس فيها .. على وقع خطواته المنغومة .. أنشودة إيمانى .

وعدت فرأيت .. أن أجعل من هذه الأنشودة .. آخر فصل فى كتابى .. لأن هناك بعض « الجيوب » لابد أن تصفى قبل الفصل الأخير .

وعلى ضوء هذا الرأى .. أنسحب الآن من التحدث عن الميثاق إلى أحاديث أخرى .. هى آخر الأحاديث .. أتلقاها هذه المرة من « فم ناصر » و « عن نفس ناصر » .. ثم أتلقاها بعدئذ .. من فم الأحداث .. عن ماض لها .. خلفنا فيه جيوباً .. وعن معارك قائمة وقادمة .. تحاول أن تعوق الركب الذى زحف .

من « ناصر » ومن « فمه » ؟!

ولقد وضعت لك « ناصر » داخل « الإطار » الذى أعده له قلمى . وكما فهمته بعقلى ومشاعرى .. وكما قاله لى تاريخه عن أساتيذ علموه .. وعن تلاميذ زاملوه .. وعن كتب حاولت على قدر جهد واضعيها أن تجمع بعض البيانات عن نشأته .

ولقد ذكرت عند هذه (النهـاية) من كتابى أن جريدة (الصنداى تيمس) — كبرى صحف الأحد فى بريطانيا — كانت قد عهدت إلى (دافيد وين مورجان) فى الحصول على (قصة ناصر) من (فم ناصر) لتنشر فصولها على مطالع العيد العاشر للثورة . ونهض كاتبها بالمهمة .. واستقبله (ناصر) وأفضى إليه بقصته ونقلت (الأهرام) بعض فصولها ..

وعدت إلى هـذه الفصول . . فرأيت فى إجابات (ناصر) ما يربطها ربطاً . . ببعض ما عرضت له فى فصولى السابقة وما يصوب بعض البيانات التى نقلتها عن بعض الكتب التى لم تلتزم الدقة فى الرواية . . أو أغرتها الرغبة فى مدح (ناصر) . . بأرقام أو أحداث لا تطابق الواقع .. ورأيت أخيراً أن من الأمانة للتاريخ أن أثبت هنا ماجاء فى فصول (دافيد وين مورجان) .

(١)

ذكرنا فى فصل سابق أن التلميذ جمال عبد الناصر كان متجهاً إلى ميدان المنشية بالاسكندرية فى سنة ١٩٣٠ ولم تكن سنّه تجاوز إثنى عشر عاما ورأى اشتباكا بين البوليس والأهلين فانضم إلى الأهلين وشارك فى ضرب البوليس وجرح .

ولكن (ناصر) يقول للكاتب الإنجليزى (وين مورجان) رداً على سؤال له ما يأتى بالحرف :

« — كثيراً ما سئلت هذا السؤال : متى أصبحت ثورياً لأول مرة . . ؟ وهو سؤال تستحيل الإجابة عليه ، فهذا الشعور أملته ظروف تكوينى وتنشئتى وغذاه شعور عام بالسخط والتحدى اجتاح كل أبناء جيلى فى المدارس والجامعات ، ثم انتقل إلى القوات المسلحة .

«وما زلت أذكر بوضوح أول صدام لى مع السلطة . . كان ذلك فى سنة ١٩٣٣ وكنت يومئذ تلميذاً فى الإسكندرية لم أبلغ بعد الخامسة عشرة من عمرى وكنت أعبر ميدان المنشية فى الإسكندرية حين وجدت اشتباكا بين مظاهرة لبعض التلاميذ وبين قوات من البوليس ، ولم أتردد فى تقرير موقفى ، فلقد انضممت على الفور إلى المتظاهرين دون أن أعرف أى شىء عن السبب الذى كانوا يتظاهرون من أجله ، ولقد شعرت أننى فى غير حاجة إلى سؤال ، لقد رأيت أفراداً من الجماهير فى صدام مع السلطة ، واتخذت موقفى دون تردد فى الجانب المعادى للسلطة .

ومرت لحظات سيطرت فيها المظاهرة على الموقف ، لكن سرعان ما جاءت

إلى المكان الإمدادات حمولة لوريين من رجال البوليس لتعزيز القوة وهجمت علينا جماعتهم . . وإنى لأذكر أنى — فى محاولة يائسة — ألقيت حجراً لكنهم أدركونا فى مثل لمح البصر ، وحاولت أن أهرب لكنى حين التفت هوت على رأسى عصا من عصى البوليس تلتها ضربة ثانية حين سقطت .. ثم شحنت إلى الحجز والدم يسيل من رأسى مع عدد من الطلبة الذين لم يستطيعوا الإفلات بالسرعة الكافية .

ولما كنت فى قسم البوليس وأخذوا يعالجون جراح رأسى سألت عن سبب المظاهرة ، فعرفت أنها مظاهرة نظمتها جماعة مصر الفتاة فى ذلك الوقت ، للاحتجاج على سياسة الحكومة .

وقد دخلت السجن تلميذاً متحمساً وخرجت منه مشحوناً بطاقة من الغضب ، وقد مضى بعد ذلك زمن طويل قبل أن تتبلور أفكارى ومعتقداتى وخططى ولكن حتى فى هذه المرحلة الباكرة كنت أعلم أن وطنى يخوض صراعاً متصلا من أجل حريته » .

* * *

ونستبين من هذه الإجابة أن الحادث كان فى سنة ١٩٣٣ وأن سنه كانت قرابة خمس عشرة سنة .. وأن اسم « مصر الفتاة » عرفه فى ذلك اليوم ... ولم يكن عجيباً إذن أن يجىء إلى القاهرة فى العام التالى يحمل جراحه ... وهو عضو فى الجماعة التى قاتل فى صفوفها من قبل أن يعرف شيئاً عنها .

كذلك استبنا من إجابة له أخرى عن سؤال آخر .. أنه بعد تلك الحادثة اندفع بكل جوارحه إلى « المظاهرات الساخطة » مع التلاميذ الآخرين يجوبون شوارع الإسكندرية وأصبح « عضواً فى لجنة تنظيم المقاومة » لاسيما السيطرة الأجنبية .. فضاق به المسئولون فى المدرسة وضاق به أبوه فأرسله إلى القاهرة ليعيش مع عمه والتحق بمدرسة أخرى (مدرسة النهضة طبعاً) .

وإذن فقد مارس المقاومة فى الإسكندرية وبرز فيها واختير عضواً فى لجنتها ..

وجاء إلى القاهرة « طريد السياسة » وكل هذه الحقائق تفسر لنا اقتحامه مدرسة « النهضة » محمولا فوق ماضيه .. مزداناً بجراحه .. مدرباً على المقـاومة .. متمرساً بالمظاهرات ..

(٢)

ولـكم يسعدنى أن تسد فصول « وين‌مورجان » فراغاً كنت أحس به وأنا أتحدث إليك عن البذور والجذور والنبت والعود فى « ثورية ناصر.. »ولا أجد غير « سر التـكوين » أو غير « سر غامض » لا أدريه .. دافعاً له وهو صغير .. إلى تلك المغامرات التى خاضها وكانت كبيرة .

لقد سأله «دافيد وين مورجان » عن الصدمة النفسية التى قيل إنها وقعت له فى تلك الفترة من الصبا أو الفتوة ؟ وقال « ناصر » إن ذلك الذى قيل صحيح ، وإن أباه كان مصراً على معارضة مشاعره وأعماله الثورية وإن أمه كانت تنظر إلى السياسة نظرها إلى شىء لا يعنيها وكانت العلاقة بينهما هى علاقة الحب الخالص الذى يربط ما بين الأم وولدها ثم قال جمال :

« ولم أكن أفرط فى رحلاتى لزيارة أسرتى .. لـكن حين انقطعت أنباء أمى فترة من الزمن سافرت لزيارة الأسرة ولما بلغت البيت لم أجد لها أثراً .. وعلمت أنها قد ماتت قبل ذلك بأسابيع ، ولم يجد أحد الشجاعة الـكافية لإبلاغى بموتها .. ولـكنى اكتشفت موتها بنفسى بطريقة هزت كيانى .. وعدت لفورى إلى القاهرة حيث كرست نفسى لنشاطى السياسى ولـكن بصورة أعنف من ذى قبل.. وخفف الزمن صدمتى ولـكنى ظللت مبتعداً عن أسرتى لعدة سنوات — فقد كان فقد أمى فى حـد ذاته أمراً محزناً للغـاية أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فىَّ شعوراً لا يمحـوه الزمن .. وقد جعلتنى آلامى وأحزانى الخاصة فى تلك الفترة أجـد مضضاً بالغاً فى إنزال الآلام والأحزان بالغير فى مستقبل السنين »

* * *

تلك حقيقة يعرفها رفاق « ناصر » على التحقيق .

ولست أشك فى أنها تسربت إلى كثيرين وذاعت بينهم ولم يعد إعلانها فى هذا الكتاب مثيراً بالنسبة إليهم .

والإثارة على أى حال لا تعنينى .

إنما يعنينى أن الحادثة تحل لى « عقدة العقد » فى ثورية ناصر . . ولم أكن قد عرفت هذه الصدمة قبل اليوم وقبل أن أراجع فصول « وين مورجان » لأكتب لك هذا الفصل . . ولو أنى قرأت تلك الفصول يوم نشرت . . لكانت الحادثة ركيزة لبحوث عريضة وعميقة . . فى الكتاب .

أما اليوم وأنا أستودعك آخر فصولى فحسبى أن أسجل ملاحظاتى العابرة فيمايلى :

* كان جمال « ثورياً » وكان أبوه يعارض الثورية فيه . . وكان يقابل هذا الموقف حب خالص يربط بين الصبى وأمه كتعويض لابد منه عن المعارضة الأبوية . . وكوقود لابد منه للثورية .

* كان جمال يطوى ضلوعه على هذه الشحنة من الحب لأمه . . ولا يزور الأسرة حتى لا يخوض فى معركة أبيه . . وحتى يتحرك حراً فى جو الكفاح الوطنى بعيداً عن جو المعارضة . . ومثل هذا البعد عن الأسرة . . يزيد حتما فى حبه لأمه . . وقد بانت أعراض هذا الحب فى سفره إلى الأسرة برغم قيام « الجفوة » بينهما عندما انقطعت عنه أنباء أمه . . وهناك — فى البيت الذى أحب ربته . . لم يجد لربة البيت أثراً ولم يجرؤ أحد على أن يقول له أن أمه ماتت . .

* وهناك اكتشف الأمر بنفسه وعلم أنها ماتت قبل ذلك بستة أسابيع . . ولم يقل لنا « كيف علم؟ » لابد أنه علم « بطريقة فاجعة ومؤثرة ومثيرة » . لأنه يقول لنا إن فقد أمه فى ذاته كان أمراً محزناً للغاية « أما فقدها بهذه الطريقة فقد كان صدمة تركت فىّ شعوراً لا يمحوه الزمن » ، شعوراً لا يعرفه إلا من فجع فى الأمومة على هذا

النحو ، وندر أن يفجع صبى فى أمه على هذه الصورة التى أشار إليها حزيناً واتقى مجرد الخوض فيها وهو فى الرابعة والأربعين من العمر .

* وكان طبيعياً أن يعود إلى القاهرة لفوره .. وكل قطرة دم فيه .. تريد أن تشق لها الطريق خارج العروق .. وأعجز بدورى — وعلى ضوء هذه الحقيقة — أن أتصوره « الآن » ، وهو عائد « يومها » . وكيف كان ؟ وما مدى الغليان ؟ وفى أى المجالات يتحرك ، ويصرخ ، ويدمر ، ويحطم ، ويكتسح ..؟!!

عاد ليفعل هذا كله ، ولكن القدر كان يدخره ، و « المخزن الثورى » كان يعوزه « الشىء » الذى « يفجره » ، وقد جاء هذا « الشىء » وجاء « عنيفاً » ، فاتجه به إلى الكفاح السياسى فى سبيل بلاده يكرس له كل نفسه ، ويفرغ فيه كل عنفه ، وكان « جمال » .

* وثمة جانب آخر من جوانب الحادث يحسن أن نستوعبه قبل أن نطويه ، بعد أن امتد أثره إلى كل كفاح الرجل ، وإلى كل زعامته ، وإلى كل بناء شخصيته ، ذلك هو قول « ناصر » فى بساطة :

— « وقد جعلتنى آلامى وأحزانى الخاصة فى تلك الفترة أجد مضضاً بالغاً فى إنزال الآلام والأحزان بالغير فى مستقبل السنين » .

هذه « حقيقة كبيرة » يا رفاقى ..

* حقيقة تقول : إن حامل هذا الشعور لا يمكن أن يكون « الديكتاتور » الذى يمشى إلى أمجاده الشخصية فوق الأشـــلاء والجماجم .. يسحل .. ويدمر .. ويقطع الرقاب ..

* حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور هو الذى دوى فى سمعه أصوات صراخ وعويل .. ولولة امرأة .. ورعب طفل .. ثم استغاثة متصلة مجموعة .. أصوات ظلت تطارده وتمزق سمعه وهو عائد إلى بيته بعد أن أطلق الرصاص على حسين سرى عامر ولم ينم ليلتها وقام وصلى لله — والصلاة هنا منقولة عن « وين مورجان » لا عن

« فلسفة الثورة » — ودعا الله أن يحفظ حياة الرجل . ولم يطمئن إلا بعد أن صدرت الصحف وعرف أن الرجل لم يمت .

* حقيقة تقول إن حامل هذا الشعور .. إنما يستجيب له .. وهو يفتح أبواب السجون بعد شهور .. أمام الذين تآمروا عليه وحكم عليهم القضاء بعشرات السنين .. إنه ما يزال يجد مضضاً بالغاً فى إنزال الآلام والأحزان بالغير .. ولو كانوا انفصاليين فى سوريا ، ولو كانوا .. الذين يتمنون أن يتخلصوا منه .

***

تلك النقاط فى تاريخه .. كم أسعدنى أن أدركها — قبل أن أنفض قلمى من آخر فصولى — وأقف عندها فى خشوع وإكبار وتأمل — وإن كان الوقت قد فات ، ولم يعد ميسوراً أن أطيل الوقوف حيث كان ينبغى أن يطول .. ويطول .

(٣)

وأحسبك تذكر ذلك الجهد الذى بذلته — وأنا أتساءل عن شيوعية « جمال » وإخوانيته ووفديته وأمريكيته — حتى استطعت أن أستخلص من الأحداث أنه لم يكن شيوعياً ولا إخوانياً .. ولم يكن وفدياً ولا أمريكياً وإنما كان : « جمال عبد الناصر » .

وفى حديثه مع « دافيد وين مورجان » سئل « جمال » عما يقال عن محاولة له واسعة لاستكشاف الأحزاب السياسية فى مصر فوافق على أن الأحزاب السياسية شغلته طويلا فى «سنوات التكوين» وأنه انضم لمدة عامين — بعد مظاهرة الاسكندرية — إلى جماعة « مصر الفتاة » و « لكنى تركتها بعد أن اكتشفت أنها رغم دعاواها العالية لا تحقق شيئاً واضحاً » ..

وقرر « جمال » إنه فوتح فى عدة مناسبات فى أمر انضمامه إلى الحزب الشيوعى : « لكنى رغم دراستى للمذهب الماركسى ولكتابات لينين وجدت أمامى عقبتين أساسيتين ، عقبتين كنت أعلم أنه لا سبيل إلى التغلب عليهما » العقبة الأولى هى أن الشيوعية فى جوهرها ملحدة وكان هو دائماً مسلماً صادقاً ومؤمناً بالله ، ويستحيل على

أى إنسان (أن يكون مبدأ صادقاً وشيوعياً صادقاً) ، فأما العقبة الثانية فهى أن الشيوعية (سيطرة) من (نوع ما) من الأحزاب الشيوعية العالمية وهو يرفض هذه السيطرة ولا يرى فرقاً بينها وبين السيطرات التى يقاومها من المحتل ومن الإقطاع .

واعترف «جمال» بأنه كانت له اتصالات بالإخوان المسلمين رغم أنه لم يكن عضواً فى هذه الجماعة ، وإنما أحس بقوة زعيمهم حسن البنا ، ولكن عيبهم كان (التعصب) وهو يرى أن (التسامح) يجب أن يكون ركناً من أركان المجتمع الذى يحلم به .

واعترف «جمال» أن الحكومة الوفدية نفعته هو وزكريا محيى الدين ومحمد أنور السادات من أبناء دفعته وأبناء ثورته عندما أصدرت بعد معاهدة ١٩٣٦ مرسوماً يقضى بفتح الكلية الحربية للشبان بصرف النظر عن طبقتهم الاجتماعية وثروتهم فكان الثلاثة مع نفر من الآخرين الذين ظلوا فيما بعد رفاقاً حميمين ضمن من استطاعوا الانتفاع بهذا الوضع وتخرج الثلاثة فى سنة ١٩٣٨ وعينوا فى منقباد ثم نقل فى سنة ١٩٣٩ إلى الاسكندرية فالتقى بعبد الحكيم عامر وكان يشاركه الاعتقاد فى ضرورة الثورة والتغيير ، وسارت الأمور .

* * *

هذه النقطة من الحديث تثير أموراً ..

تثير ذكرى أكاذيب الخصوم ، وترسم صورة لبراعتهم .

كانوا يعرفون أن «جمال» درس الماركسية ، وفوتح فى الانضمام للشيوعية ، وكانوا يعرفون أنه كان على اتصال بالوفديين عن طريق لجان الطلبة ، وكانوا يعرفون أن أمريكا حاولت أن تطويه بدءاً من الثورة ، وعبر السنين التى توالت حتى ظهرت خصومته لهم ، فعرف الخصوم كيف يسذدون إليه تهمة الشيوعية ، وتهمة الإخوانية ، وتهمة الوفدية ، وتهمة الأمريكية ، كل فى حينها ، لم يخلقوها من الفراغ ولم يخلقوها من العدم ، وإنما كانوا يبحثون فى تاريخه عن (حقائق) ليستخلصوا منها الأكاذيب ، وكأنها فعلا (مصانع) لها آلاتها ولها رجالها ، وللخبرة أكبر نصيب .

* * *

وتثير هذه النقطة أيضاً ما أفاده جمال من قراءاته للمذاهب ، ومن اتصالاته بأصحابها ، فى الانتفاع بكل ما فيها من ثمار الفكر المبدع — والشيطان نفسه خلاّق ومبدع — ليخرج علينا بالناصرية مصرية الجذور عربية الفروع — لا شرقية فتلحد بالله والأخلاق والقيم — وتؤمن بالعنف والإرهاب وحمامات الدم ، وتسوِّد طبقة واحدة ثم تسيطر ، ولا غربية تؤمن برأس المال والاحتكار وتفرق بين الطبقات وتتخم مواطناً واحداً ، ليجوع بسببه مائة من المواطنين .

(٤)

وفى سياق البحث عن كل ما أستكمل به بحوثى أذكر كشفاً لصحفى مصرى أكبر من كشف (وين مورجان) لأن الكاتب الانجليزى إنما سأل وأجيب ، أما الكاتب المصرى فقد بحث وأصاب .

نعم ذكرت مصطفى أمين وكشفاً له وُفق إليه ، ولا أرانى فى غنى عنه ، وهو ركن فى الشخصية ضارب الجذور فى ماضيه وضاء الجبين فى الليلة المعتمة .

* * *

فى السابع من يوليو نشر مصطفى مقاله وسرد علينا القصة كاملة ، قصة (أخبار اليوم) وكيف كانت أول جريدة فى العالم تكتب عن جمال عبد الناصر ، ويفاجأ مصطفى بهذا الشىء الغريب الذى نشرته جريدته ، وهو يقلب صفحاتها (بحثاً) عن دور الصحافة فى التمهيد للثورة ..

والقصة أن ضباط الفالوجا المحاصرين ، كانوا يصدرون مجلة من نسخة واحدة بخط اليد وكان اسمها « مجلة الفالوجا » وفى أحد أعدادها وجه « محررها ؟! » عشرة أسئلة إلى عشرة من أفراد القوة من مختلف الرتب وكان السؤال :

— ما هى أمنيتك فى الحياة إن عشت ؟

وقال السيد طه قائد الفالوجا « وضبعها المشهور » :

— « فيلاً ملك فى الإسكندرية .. والصحه والستر » .

وقال القائمقام مفيد رزق الله :

— « آكل واعيش متهنى » .

وقال البكباشى يس حمزاوى :

— « أنعم بالحياة بين زوجتى وأولادى » .

وقال الصاغ جمال عبد الناصر :

— « أحقق مبادئى وأرى مصر بلغت ما أرجوه لها » .

وقال اليوزباشى أمين أحمد :

— « أشوف إبنى فى مركز كويس » .

وقال الملازم أول أمين فريد :

— « الستر » .

وقال الملازم ثان مدحت شعيب :

« أقصر شويه » .

وقال العسكرى السوهاجى :

— « أبقى رفاعى » .

ولا أحب أن أعلق .. إنما أحب أن تردوا هذا الكشف العجيب إلى بحثى عن شخصية هذا القائد من مطالع الصبا .. بدءاً من البذور والجذور .. وانتهاء إلى قمة العود .

ومرة أخرى لا أحب أن أعلق . .

وأكتفى بقول مصطفى وهو يعقب على الخبر :

— « إنك لو قرأت هذه الصفحة من أخبار اليوم قبل قيام الثورة بثلاثة أعوام وخمسة أشهر .. ودققت فى الإجابات لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل » .

وأضيف من ناحيتى وصفاً فقط لهذا « البطل » .

— لأمكنك أن تضع أصبعك على البطل ، وعلى دوره أيضاً ، ذلك الدور الذى ظل يهيم على وجهه فى منطقة الشرق الأوسط باحثـاً عن البطل كما قال (ناصر) فى (فلسفة الثورة) .

ومن الأحداث ؟

و إذ انتهت مهمتى فى الجانب الأول من هذه الأحاديث .. (من ناصر .. ومن ثمه) بقى أن نقف قليلا عند أحاديث لم نمسسها (من فم الأحداث) نفسها ، وكل حدث منها يستأهل كتاباً ، ومن يدريك ، لعل القدر يأذن لى .. وأحدثك عنها فى كُتُب ، أما الساعة فهى ليست من مهامى إلا من حيث اتصالها بالرجل ، ولـكن أى رجل ؟ هل هو الذى تآمرت عليه ؟ أم هو الذى آمنت به ؟

هناك أحداث تتصل بالرجل الأول ؟ ومراحل التحول ، ولـكنى أرجأتها إلى هذا المـكان من الـكتاب لأنها هى أيضاً ما تزال تتحول ، ولم يكن سهلا أن نحكم عليها فى مطالع تحولها ، كأجهزة الدولة ، وهناك أحداث تتصل بالرجل الثانى ، رجلى الذى آمنت به لأنها وقعت بعد أن آمنت فما زادتنى إلا إيماناً ، كأحداث سوريا ، وتعاون حكومتها مع إبليس والشيطان ، والعفريت والجان ، ضد عبد الناصر ، وتقدمها بالشكاية إلى مجلس الجامعة العربية ، وانسحاب ناصر من عضوية هذه الجامعة ..

مثل هذه الأحداث وقعت كلها بعد إيمانى ، فزادتنى إيمانا ومن حقها على الريشة التى فى يدى وهى تستودعك الفصول الأخيرة أن تجرى بكلمة حق عنها .

* * *

التوعية والميثاق

* « إن فلسفة العمل الوطنى يجب أن تصل إلى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات بل ويجب أن تصل إليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لكل منهم » .

* « إن الوضوح الفكرى أكبر ما يساعد على نجاح التجربة » .

(حقيقتان) كبيرتان موجودتان فى (الميثاق) .

ولا سبيل إلى الربط بين كافة المجالات فى الوضوح الفكرى بغير التوعية .

و (التوعية) إذن هى إحدى الدعامات التى يقوم عليها بناء المجتمع الجديد .

ويبدو أن (الدولة) سبقت (الميثاق) بالبدء فى التوعية ، فى كثير من المجالات ولا نقول (فى كافة المجالات) .

ولكن (الميثاق) معنى بالربط بين هذه المجالات عنايته بالربط بين أجزاء البناء .

ومن هنا أحب أن ألاحظ — كمؤمن هذه المرة غير مهزوز ولا متردد — أن وسائل التوعية تعددت ، بتعدد المجالات والمستويات ، ولكن شيئاً ما ينقصها حتى يربط بينها وحتى تغدو كلها مشدودة إلى البناء ، شيئاً لابد أن تمليه يوماً (روح الميثاق) .

* * *

ووسائل الإعلام هى أخطر جانب من جوانب هذه التوعية ..

وقد سجلت هذه الوسائل فى جوانب منها نتائج مذهلة — دعا إليها (الميثاق) ، من قبل أن يصدر الميثاق .

* ولم يعد فى شرقنا العربى — وفى كل أرجاء الدنيا المعنية بوسائل الإعلام — مَن لم يبهره التقدم الإذاعى والتليفزيونى فى الفترة القصيرة الأخيرة .

* وليس من شأننا أن نزجى الثناء لعبد القادر حاتم أو لأعوانه ، فالثناء مكانه فى الصحف ، أما الكتب فتشمل الحقائق .

* إن التليفزيون العربى — مثلا — أثبت (ثوريته) بصورة مذهلة وغير مسبوقة .

* إن الإذاعة — بجناحيها — أخذت بين إذاعات العالم مكانة لم تتطاول إليها إذاعات الدول العظمى إذا قيس هذا التطاول بالزمن الذى استغرقه التقدم .

* إن مصلحة الاستعلامات — والمطبوعات التى تغرق بها جماهير العروبة — سجلت هى الأخرى رقماً قياسياً يثير الدهشة ، وأصبحت سوق الفكر تستقبل كتاباً مطبوعاً فى كل ست ساعات .

● إن التأثير الذى أمست وسائل الإعلام فى القاهرة تحدثه فى كل مواطن عربى خارج الحدود المصرية ، بات خطيراً ورهيباً ، وأسهم بنصيب خطير ورهيب أيضاً فى دك معاقل الرجعية وهز الكراسى تحت الحاكمين المعتصمين بهذه المعاقل ، فانطلقوا شرقاً وغرباً يستأجرون كل مصرى فار ، وكل أفاق وضال ، وكل من يحسن الإلقاء أو التمثيل أو التأليف ليواجهوا تيار العروبة وهو يزحف فوق الموجة العارمة ، موجة الأثير إذاعة ، وموجة الكلمة .. كتباً ..

● إن (السياحة) هى الأخرى بدأت تلعب دورها فى توعية السائحين بنهضتنا وجذب العدد الكبير منهم الى بلادنا ، بوسائل دعائية بارعة ..

● إن الملصقات فى كل حارة وشارع وفوق كل لوحة وجدار وواجهة ، وعلى كل أداة نقل تدب فوق أرض الوطن بدأت هى الأخرى تدير الرءوس .

● إن المكاتب التى ينشئها يحيى أبو بكر باسم (الاستعلامات) فى عواصم المحافظات والمدن الكبرى آخذة طريقها مع الزمن إلى قلب القرى لترسل على ظلامها أنوار الفكر الثورى .. وهاجة .

كل هذه حقائق ..

وكلها قامت قبل أن يصدر (الميثاق) ..

ولكن (الميثاق) صدر ..

وصدر (كلاً) متناسق الأجزاء ، ودعا كل قطعة أن تأخذ مكانها الصحيح ، فى الآلة الضخمة ، حتى نضغط الزر وتدور الآلة ..

* * *

و (التوعية) ، بكل شعبة فيها — لابد أن تستهدى بالميثاق ، فى التنسيق بين (الشُعَب) ..

واذا قيل إن المشرف على السياحة والإذاعة والتليفزيون والاستعلامات كاد يجاوز الطاقة البشرية فيما يبذل من جهد ولا يستطيع أن يرى شباك نشاطه الى أبعد من هذا المدى .. من (الميثاق) — إذا قيل . نستطيع أن نرد على هذا القول ، بوجود (ناصر) وأن (ناصر) لم ينتخب ليكون رئيساً (موظفاً) للدولة ، وانما انتخب لأنه (ناصر) وهو مشرف على التطبيق ، ومؤمن بالتنسيق ، فلا خوف على وسائل التوعية ، مهما تتعدد لأنها مشدودة بالميثاق ، إلى أهداف لا تتناقض .

والتوعية — كما يريدها (الميثاق) — تكاد تقتضى وزارة خاصة بها ، تشرف من بعيد على كل قطعة فى الآلة .

و (الصحف) — مثلا — كوسيلة خطيرة من وسائل الإعلام يملكها (الاتحاد القومى) ، و (ثمار الفكر) وأجهزة (الكلمة).. كلها موزعة بين (الاستعلامات) و (وزارة الإرشاد) ، و (وزارة الأوقاف) ، و (إدارة التعبئة) وجهات لا حصر لها ، ولا يربط بينها غير الاستهداء بهدى (الميثاق) ، و (الإدارة المحلية) فى المحافظات تسهم فى التوعية كل حسب حاجتها وبيئتها ، ولكن النجم الهادى المضىء الذى يجب أن يستهدى به الجميع وهو (الميثاق) نجم بعيد ، مكانه فى السماء ، وأنا من الساجدين فى المحراب ، وكل أملى أن يدنو هذا (النجم) منا ويتدلى ، حتى يبلغ القرية على مستوى إدراك القرية ، ويصعد إلى المدينة على مستوى إدراك المدينة وهو ما طالب به (الميثاق) .

و يسعدنى أخيراً ، وأنا أتحدث عن «التوعية» التى أنا دائماً مشدود إليها ومفتون بها أن أهدى إلى كل مسئول عن توعية الجماهير فى منطقة الشرق العربى كله هذه الكلمات المنتقاة من صميم « الميثاق » .

● « إن جهوداً عظيمة وواعية يجب أن تتجه أيضاً الى فتح الطريق أمام التيارات الفكرية الجديدة حتى تستطيع أن تحدث أثرها فى محاولات التمزيق وتتغلب على بقايا التشتت الفكرى الذى أحدثه ضغط ظروف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين » .

● « والجمهورية العربية المتحدة وهى تؤمن بأنها جزء من الأمة العربية لابد لها أن تنقل دعوتها والمبادىء التى تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربى ولا ينبغى الوقوف لحظة أمام الحجة البالية القديمة التى قد تعتبر ذلك تدخلا منها فى شؤون غيرها » ...

والعلم ؟

و « العلم » طالب به « الميثاق » لأن الثورة إذا تخلت عنه كانت « مجرد انفجار عصبى تنفس به الأمة عن كبتها الطويل ولكنها لا تغير من واقعها شيئاً » .

و « الميثاق » يرى أن مسئولية الجامعات ومعاهد البحث العلمى فى صنع المستقبل لا تقل عن مسئولية السلطات الشعبية المختلفة ... وأنها طلائع متقدمة تستكشف للشعب طريق الحياة .

* * *

وفى ٢٦ يوليو وفى «استاد الإسكندرية» خطب الرئيس وفى بساطته المألوفة أرسل العبارات الخطيرة التالية :

— « النهارده بعد مرور عشر سنوات من الثورة ... أستطيع أن أعلن أننا منذ

العام الدراسى القادم ... سنجعل التعليم كله مجاناً فى المدارس والجامعـــات والمعاهد العليا » .

أى عبارة أرسل ؟

يا أخى جمال ... يا ابن شعبى العريق .

أملك أنا الآخر عبارة لا تقل خطورة عن عبارتك ... أملك أن أقول لك — وقد فعلتها — أن ابن أخى الفلاح ... سيخرج من قلب « سواده » الفقيرة عما قريب ليدخل الباب الذى فتحته أمامه ... بغير مقابل ... وسأقدمه إليك بقلمى المتواضع بعد سنوات قلائل — إن مد الله لنا فى الحياة — سأقدمه لك باسمه الجديد يومذاك « بو بوفيتش الصعيد الأوسط ... يقدم للقائد تحياته » .

والصاروخ ؟

وفى عيد الثورة العاشر وقف جمال يخطب الجماهير و يقول لهم :

« كنت تملى باقولكم أن هذا الجيل من شعب مصر على موعد مع القدر » و « النهارده بعد عشر سنوات من الثورة أقدر أقول أن هذا الجيل جاء فى موعده مع القدر » .

ثم قال لهم وهو يحدثهم عن الصناعة ... وفى بساطة مرة أخرى :

« كنا سنة ٥٢ بنستورد إبرة الخياطة و بنستورد المسمار ... و بنستورد ماكينة الخياطة و بنستورد العربية بنستورد كل حاجة — النهارده بنستطيع أن نفخر بأننا نصنع كل شىء من إبرة الخياطة إلى الصواريخ » .

وانطلقت الصواريخ ..؟!!

يا أخى جمال ... يا ابن شعبى العريق .

صدقنى أن هذا الفتح العلمى الذى ألقى الرعب فى قلوب الملوك واليهود ... لم يدهشنى .. إنها صواريخ متواضعة ... وهم يعرفون مدى تواضعها ... إذا قيست بالصاروخ المرعب .

إن الذى يخيفهم صاروخ آخر ... بعيد المدى ... عابر القارات بدءاً من آسيا وانتهاء إلى أمريكا اللاتينية ... أنت ذلك الصاروخ عابر القارات يا أخى ... يا ابن شعبى ... ذرنى وقد دخلت مصر عصر الفضاء ... ذرنى أحنى الرأس إكباراً ... وزدنى اللهم إيماناً .

رفضنا إنذارهم ؟

وما دمنا قد عرضنا محمولين على هذا الصاروخ لخطاب « جمال » فى عيد الثورة العاشر ... فيسعدنى — وقد صفيت الجيوب إلا جيباً ، أن أصفى على مطالع العيد ذلك الجيب الأخير ... وقد صفاه هو ولم يحوجنى إلى أى تصفية ... وثبت من خطابه أن الإنجليز كانوا قد أرسلوا يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ إلى مقر القيادة فى الإسكندرية إنذاراً من السفير البريطانى أو القائم بأعماله وتسلمه أنور السادات يحملون فيه الثوار مسئولية ما يحدث للأجانب ويطلبون حظر التجول و بقاء الملكية ... ورفض جمال الإنذار ولم يمنع التجول وتراجع الإنجليز .

ولم أكن أعرف قصة هذا الإنذار يوم شككت فى الثورة على مطالعها وتساءلت عن القوات البريطانية فى القنال إن كانت تنوى أن تتحرك وتضرب (أم أن المحتلين راضون عن التغيير ؟)

وها نحن أولاء نرى ... أنهم لم يرضوا ... وأنهم وجهوا إنذاراً ... وأن صانع الثورة رفض الإنذار . وأن التجول لم يحظر ... وأن الملكية طوى بساطها ... وانفض سامرها .

* * *

والوحدة أخيراً

وأبقيت لرفرف الفصل أغلى الأحداث ... وأعذب الأحاديث . . الحديث عن الجزائر والحديث عن إقليمنا الشمالى ...عن سوريا الحبيبة ... عن جناح من جناحينا .. بل عن المعركة الحقيقية بين الاستعمار والرجعية و بين الوحدة العربية تجرى فوق أرض سوريا . وتجرى فوق أرض الجزائر .

والأمر لا يعوزه وضوح .

وفى الميثاق باب بذاته من أبوابه العشرة . موضوعه (الوحدة العربية) .

وأول سطر فى هذا الباب :

— إن مسئولية الجمهورية العربية المتحدة فى صنع التقدم وفى تدعيمه وحمايته . تمتد لتشمل الأمة العربية كلها .

* إن الأمة العربية لم تعد فى حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

* لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته .

* ولا يمكن أن تدل أساليب الانقلاب العسكرى ولا أساليب الاتهازية الفردية ولا أساليب الرجعية المتحكمة ، على شىء إلا على دلالتها على أن النظام القديم فى العالم العربى يعانى جنون اليأس وأنه يفقد أعصابه تدريجياً وهو يسمع من بعيد فى قصوره المعزولة وقع أقدام الجماهير الزاحفة إلى أهدافها .

* إن الاستعمار الآن غير مكانه ولم يعد قادراً على مواجهة الشعوب مباشرة وكان مخبؤه الطبيعى بحكم الظروف داخل قصور الرجعية .

* إن الشعوب تريد أملها كاملا ، والجامعة العربية بحكم كونها جامعة للحكومات لا تقدر أن تصل إلى أبعد من الممكن .

* إن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربى فى المرحلة الحاضرة لـكنها فى نفس الوقت وتحت أى ستار وفى مواجهة أى ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به .

* * *

وكأن الميثاق كان يقرأ (الغيب) وهو يسجل هذه (الحقائق) .

والمعركة التى قامت فى (شتورا) بين الحكومة السورية (غير الشرعية) والجمهورية العربية المتحدة .. أرادت أن تتخذ من الجامعة (وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به) تأميناً لنفسها ، وللحاكمين الخائفين الذين يساندونها والاستعمار المختبىء داخل قصورهم .

وقصة الوحدة معروفة .

وقصة التفريق بين الإقليمين معروفة .

* * *

وفى عيد الثورة العاشر خطب الرئيس فقال :

— « أنا لما أبص للخلف ما با اشعر شى أبداً بأى نوع من الندم ، ولو عادت سنة ٥٨ مرة أخرى لقبلنا الوحدة مع الشعب السورى » .

وقال يخاطب الشعب السورى من القاهرة :

— « أيها الإخوة نحن معكم على طول الخط . أيها الإخوة إننا لم نكفر بكم أبداً » .

* * *

و بقية القصة معروفة أيضاً .

جاء الوفد السورى ليعرض شكواه على مجلس الجامعة العربية المعقود فى «شتورا» اللبنانية .

وسافر الوفد العربى إلى « شتورا » ليرد على هذه الشكوى .

وبهت الوفد السورى . وهو يرى أن رياسة الوفد العربى معقودة اللواء إلى « أكرم ديرى » السورى وأن الوفد مكون من سوريين آخرين ومن سفيرنا فى بيروت . وهذا معناه أننا لا نعترف بشرعية (الحكومة الانفصالية) ولا بشرعية (الانفصال) الذى ركب الرجعيون السوريون قمة موجته .

وفرغ الوفد السورىَ من عرض شكواه . ومن الإدلاء بكل ما حملته حكومته من سباب ... وفرغ الوفد العربى من الرد عليهم فى حدود الموضوعية و بأسلوبها .

***

وفى الثامن والعشرين — الثلاثاء — من أغسطس (آب) قدم أكرم ديرى إلى مجلس الجامعة فى بداية جلسته التاسعة بياناً رسمياً انسحب بعده إلى خارج القاعة .

وفى هذا البيان يعلن وفد الجمهورية العربية « أنه ما لم يقل مجلس الجامعة العربية فى هذه الدورة كلمة صريحة واضحة فى كل مهزلة السباب والشتم التى جرت من فوق منبرها فإن الجمهورية العربية المتحدة تقرر أن تنسحب من جامعة الدول العربية » .

***

وليس من مهمتى فى هذا الكتاب أن أتعقب إصرار الجمهورية العربية على الانسحاب من الجامعة العربية برغم الوساطات التى بذلت من الرئيس اللبنانى ومن أمين عام الجامعة وغيرهما .

وليس من مهمتى أن أتعقب الحلف العسكرى الذى قام بين السعودية والأردن درءاً لأخطار (ناصر) .

ولكنى أحب أن أعلن صادقاً — وداخل إطار أهدافى ومراحل تطورى عبر كتابى — أن الوزير السورى المحترم — وأستغفر الحقائق — خليل الكلاس . لو أنه

فعل فعلته . يوم قررت الانضمام إلى التشكيل العسكرى المجهول منى . لنخلص (مصر) من (عبد الناصر) فيما بين عامى ٥٦ ، ٥٧ لما ترددت يومها لحظة فى أن أستغفر (عبد الناصر) عن خطيئتى . ولما ترددت لحظة فى التآمر على الكلاس وعصابته — فرض كفاية عن العرب جميعاً — وتطهيراً لشرف العروبة الذى يمرغ فى الوحل على مسمع من (رجال) يمثلون (دولا ؟!) .

ويعيبنى أن تظن أنى أمر فى لحظة انفعال .

والكتاب ليس مجلة أو جريدة . حتى أنفعل فيه بالأحداث التى تتغير .

وليس أبعد عن الحقيقة من أن تظن أنى أقصد إهانة «الكلاس» بسباب مضاد .

ذمة وضميراً . ما قصدت إلا أن أقرر حقيقة أزنها بالإدراك قبل المشاعر . ولا محل أبداً لأن نعيش فوق هذه الرقعة العربية من هذا الكوكب الأرضى . ونسمى أنفسنا (دولا) إذا سمح (لرجل عربى) يمثل (دولة عربية) أن يقول عن عبد الناصر أنه (جاسوس صهيونى !!!) . »

و « أن الجمهورية العربية لم تصنع أى شىء للكفاح العربى !!! » و « أن الجيش المصرى بصواريخه جيش للزينة والاستعراض !!! ».

و « إن الجمهورية العربية نفذت فى سوريا سياسة رجعية استعمارية مجرمة !!! » .

قوانين يوليو الكبير ، سياسة رجعية ؟؟!! ماذا تكون التقدمية إذن ؟

إغلاق المصارف الفرنسية والإنجليزية وتعريبها سياسة استعمارية مجرمة ؟ ماذا تكون الوطنية إذن ؟

جيش مصر الذى تصرخ من صواريخه إسرائيل فى نفس اليوم الذى خطب فيه الكلاس جيش للعرض والزينة ؟ ، ما الذى — إذن — يحول بين إسرائيل ، و بين أغنيتها المحمومة « من الفرات إلى النيل » ؟

جمال عبد الناصر (جاسوس صهيونى ؟!!) ماذا أقول ؟

وهل يقال عنى بعد هذا كله .. أنى أقصد إلى الشتم وأنا أقرر العقوبة التى أراها عادلة ؟

وأنا لا أعنى بالعقوبة شخص هذا (الكلاس) ، لأنى لا أعرفه .. إنما اتخذته رمزاً وبحثت فى شخصه عن الطريقة التى يمكن أن ترد على العروبة شرفها الذى ديس ، وعزتها التى مزقت ، وبلسان عربى ، وفى منظمة عربية لحكومات أو لدول ، وعلى مسمع من مندوبيها الأماثل ؟!!

* * *

وقد لا يكون من حقى أن أترك حرفة (الكاتب) الى حرفة (العرّاف) .

ومع ذلك أرانى مشدوداً إلى شرف (العرافة) لأقول لك فى رفرف هذا الفصل شيئاً ، لك أن تسميه (نبوءة) ولك أن تسميه (طالعاً) .

* * *

أريد أن أقول أن هاتفاً يطارد أذنى فى كل ليلة وأنا أميل برأسى إلى الوسادة أراود النوم ، هاتفاً هامساً يصب فى أذنى العبارة التالية :

— « كما فعل شعب العراق بفيصل ونورى وعبد الإله ، سيفعل شعب سوريا بنظمى والعظم والحورانى والكلاس ، وكل حورانى وكل كلاس ، وعما قريب » .

سجل عبارة هذا الهاتف فى حافظتك أو فى ذاكرتك ، هاتنى قلّ أن يكذبنى .

وسنلتقى يوماً ... وتذكّرنى .

وقد نلتقى قريباً ... ونتذكر معاً فوق أرض سوريا الحبيبة وفى دمشق قلب العروبة .

* * *

والجزائر ؟

وودت — وقد أرجأت (الجزائر) إلى آخر فصولى ... أن أحييها .

ولكنى أرد قلبى حزيناً عن هذه المحاولة ... وأطوى قلبى إلى حين على هذه التحية .

إنى أكتب هذا الفصل فى لحظة حاسمة من لحظات التاريخ العربى .

إنى أكتب لك هذا الفصل والخلاف بين زعماء الجزائر على أشده .

والزعماء دائماً يختلفون ... متى وجد فى البلاد جندى واحد من جنود المستعمر .

إن الاستعمار يزاول (لعبته القديمة) ... إلى آخر لحظاته ... ويزاولها حتى وهو يلفظ آخر أنفاسه .

إن تاريخ النضال فى الجزائر تناهى فى الغرابة .

إن كفاح بن بيلا وشعب الجزائر ... فاق كفاح دى ڤاليرا فى إيرلنده وماوتسى تونج فى الصين .

إن التاريخ لم يَتشرَّف عبر كتابه الكبير بصفحة أشد إشراقاً من الصفحة التى كتبها شعب الجزائر وهو يقاتل — أعزل من السلاح أو كالأعزل — قوات باغية جاوزت نصف المليون عداً ... وعلى مدى سبع سنوات بغير توقف ... وعلى هذا المدى دمرت قرى بأكملها ... وتوارت عن الحياة أسر بكل أفرادها ... ولم ينج بيت من الباقين ... لم يقدم على مذبح الجهاد ضحايا .

وبعد سبع سنين فى الحرب .

وبعد ١٣٢ عاماً فى ظلام العبودية والاحتلال ... جاء النصر .

وفى ساعة النصر وقع الخلاف .

• • •

إنى أكتب لك هذا الفصل ، وقوات بن بيللا تتجه إلى مدينة الجزائر باسم (المكتب السياسى) لتقر الأمن فيها . وقوات الولاية الرابعة التى تحتل المدينة ، تقيم المتاريس فى الطرقات وتنصب المدافع فى أوكارها على مداخل المدينة استعداداً لرد جيش التحرير عنها . والجيش الفرنسى يجوب بدباباته بعض الأحياء لحماية المستوطنين الأجانب.

موقف تناهى فى الغرابة .

ولكنى مؤمن برغم هذا كله أن الجزائر العظيمة لا ترجع بشعبها المقاتل خطوة إلى الوراء بل إن شعبها المقاتل ، بدأ يتدخل فعلا ، وعلى صورة لا يرتفع إليها ، إلا شعب الجزائر .

تدخل الشعب الجزائرى ، وجاءت الأخبار بأنه خرج بشيبه وشبانه ، ورجاله ونسائه . ورقدوا فى الشوارع ليمنعوا تقدم أى جندى جزائرى نحو جندى جزائرى آخر . فعلوا فى الجزائر ما يفعله برتراند راسل فى لندن ، ومن غير حاجة إلى فلسفة أو إلى فيلسوف .

خرج الشعب الجزائرى يحمل اللافتات ، وقد كتب عليها : (سبع سنوات تكفى) .

إنهم يقيمون (متاريس بشرية) منهم ومن أطفالهم ، ولا يبالون أن تمر السيارات المصفحة فوق أجسامهم ، وقد أثر المشهد فى جنود الطرفين المرابطين حول مدينة (المدية) فتآخوا وتناول الكثيرون منهم طعام العشاء معاً .

مثل هذا الشعب لا يتفرق أبداً ، مهما يتفرق الساسة بفعل الاستعمار أو بفعل المطامع .

ناصر .. والجزائر

وإذا كانت (العاطفة) قد حملتنى على مدها ، إلى ذلك الحديث الحزين الذى خضته على مسمع منك ، فالخير أن أعود إلى (الجزائر) ، من حيث اتصالها بأهدافى .

كنت أحب أن أرخص لنفسى فى فصل طويل كامل ، أتناول فيه أخطر ناحية

فى حرب الجزائر، ناحية الصلات بينها و بين (ناصر) .

ولـكن الموقف لا يحتمل الساعة مثل هذا الحديث .

ولا أشك فى أن (ناصر) ، على اتصال فى هذه اللحظة بالجزائر ، ولا محل إذن لأن أتحدث عما صنع لها ، أو قدم .

هى نقطة واحدة أريد أن ألمح إليها على استحياء وأطوى أوراق .

* إن الذى ثار فى الجزائر ، هو شعب الجزائر .

* و إن الذى قاد الثورة فى الجزائر ، هم الطليعة الثائرة ، الذين يماثلون طلائع ناصر .

* و إن قائد هذه الطليعة هو أحمد بن بيللا .

* و إن أحمد بن بيللا كان يعد للثورة من معقله فى القاهرة .

* وقد اتفق جمال بن عبد الناصر ، مع أحمد بن بيللا على إشعال الثورة فى الجزائر .

* وتعهد « جمال » بأن يمد الثوار بالسلاح .

* وعندما وصلت الأسلحة الناصرية إلى ثوار الجزائر أعان بن بيللا ثورة الجزائر .

* وكان الوزير الفرنسى على حق يوم قال إنه إنما شارك فى العدوان على القنال لأنه إنما جاء ليحارب الجزائر على أرض القنال .

* وثورة الجزائر إذن — لها قائد ووالد ، قائدها العسكرى بن بيللا ، ووالدها الروحى وراعيها ومتبنيها هو ناصر ، و «الحورانى» و «السكلاس» و «العظمة» يعرفون هذه الحقيقة الرهيبة الرائعة .

* وهذا السر لم تعرفه الجماهير — وعبراً — إلا بعد أن دقت ساعة النصر فى الجزائر .

* وحتى اليوم لم يشأ « ناصر » أن يتحدث عن دوره فى الجزائر وأسلحته الجديدة حملتها السفن العربية ووصلت بها إلى وهران وأنا أكتب هذا الفصل . بل جاءت الساعة أنباء باستيلاء بن بيللا على مدينة الجزائر بغير قتال .

ولسوف نتحدث جميعاً وقريباً ، والمهم أن يعود السلام إلى أرض الجزائر . وهو لابد عائد .

وبعـــــد !

أرجو أن أكون قد استطعت أن أنقل إليك هذه الأحاديث من « فم ناصر » ومن فم « الأحداث » وعلى مستوى المرحلة السادسة والعشرين — على مستوى الفصل قبل الأخير من كتابى — فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » .. أستغفر الحق وأبدأ من الآن أقول : فى موقفى من « الرجل الذى آمنت به » .



الفصل السابع والعشرون

الميثاق

ليس أبعد عن الحقيقة من الظن أنى سأتناول « الميثاق » بالتعليق أو بالتعقيب أو بالحمد أو بالنقد .

ليس أبعد عن الحقيقة من هذا الظن .

والكتاب أصلا لا يستهدف « الميثاق » .. إلا من حيث كونه « الحدث المثير » الذى اخترته لأشهر — عنده — إيمانى بناصر و بالناصرية ... لأشهر إيمانى لحناً نابعاً من صميم الروح والوجدان .. ومن أعماق الضمير والإدراك .. أوقعه بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا (الحدث المثير) .. سعيداً .. سعادة من اهتدى إلى الحق وآمن . .

أما (الإيمان) فى ذاته .. فقد خاض إلى كاله طريقاً طويلة .. مليئة بالإقدام و بالتردد .. ومليئة بالتخلف و بالتقدم .. ومليئة بالدراسة و بالترصد . . وأنت على هذه المراحل شاهد .. ولم يستكمل ملامحه إلا على قرارات (يوليو الكبير) عندما ملأت كل فراغ ، وسدت كل ثغرة ، وصفت كل الجيوب .

ولقد قلت لك أنى كنت يومها أنتظر (حدثاً مثيراً) أعلن الناس فيه — و بدافع انفعال بالغ العنف ، أنى آمنت

وجاء الحدث المثير .. ميثاقاً .

ولم يحوجنى (الميثاق) إلى أى انفعال .. أو أى انسياق .

ولم يكن (اليد القوية التى أمسكت بيدى .. وظلت تضغط وتضغط . . فى حزم المربى ، وفى حنان الوالد) ، كما توقعت فى (التمهيد) .

و إنما جاء (الميثاق) فألفانى قد جثوت على ركبتى فى محراب (يوليو الكبير

ولما جاء ، ملأ المحراب نور ، وكل ما فعله الميثاق أنه صاح فيَّ : (أسجد واقترب) فجئت أصبح فيك : « آمنت ، بالرجل الذى تآمرت عليه » .

* * *

ثم أى جدوى تعود عليك من حديثى عن « الميثاق » ؟

لقد قرأته أنت كما قرأته أنا وكما قرأه كل عربى ، وكل مَعْنى بشئون هـذه المنطقة العربية .

ولا أعرف — على كثرة ما قرأت — حدثاً مقروءاً تناوله الناس بمثل ما تناولوا به هذا الحدث ، خطابة وكتابة ، وتعقيباً وتعليقاً ، ونقاشاً ماؤه الجد والحدة والحرارة...

و (الميثاق) أصلا ، كان (مشروع ميثاق) ، وقد طرح على بساط البحث ووضع موضع النقاش ، أمام مؤتمر شعبى غير مسبوق فى تاريخ الشعوب ، مؤتمر ضم ألفاً وسبعمائة وخمسين عضواً من الرجال والنساء ، أوفدتهم إليه (القاعدة) من صميم القرية ، وعلى كل مستوى ، ومن كل بيئة ، حتى الريفية التى تعصب رأسها بالمنديل ، جاء بها الانتخاب إلى هذا المؤتمر ، وناقشت الميثاق .

ورأى (السيد يوسف) وزير التربية والتعليم أن من حق (التلاميذ) بوصفهم رجال الغد أن يبدوا رأيهم فى (ميثاق الغد) فأمر أن يوزع عليهم ، وأن يكون موضع نقاشهم قبل أن يكون درساً لهم ، حتى يجىء النقاش فى الميثاق بين التلاميذ على مستوى كل المراحل بدءاً من العام الدراسى .

ورأى محافظ العاصمة ، أن من حق كل مواطن أن يناقش ميثـاقه ، فأقيمت (الندوات) فى كل قطاع من قطاعات القاهرة ، وشارك المحافظ فى النقاش ، وأصغى أساتذة الجامعات وأصحاب النظريات إلى آراء الباعة المتجولين أصحاب المشكلات ، وشهدت (حرية الرأى) أكبر مهرجان أقامته أمة تحية لهذه الحرية وممارسة لها .

ونهج الحكم المحلى كله وفى مختلف المحافظات نهج القاهرة .

وأعرف شخصياً أن عبد الفتاح فؤاد محافظ المنيا — بلدى — دعا كل قرية إلى ذلك النقاش فعرف أهل القرى لأول مرة أن من حقهم أن يمارسوا هذا اللون من الحرية على مستوى البرلمان الذى كان مجرد ذكره أو مجرد اسمه يملأ بالرهبة قلوبهم ويرسل الرعشة إلى أوصالهم .

أما الصحف والمجلات فلم تفرغ من مناقشة الميثاق إلا من عهد قريب — بل ما يزال « الميثاق » يراود الأقلام فيها بين الحين والحين .

أما الكتب التى صدرت فى هذه الفترة لتناقشه ، فيكفى أن تزور مكتبة كبيرة من مكتبات القاهرة حتى تدرك أن القادرين على التأليف نهضوا بمسئولياتهم .. بل لعل آخر كتاب صـدر من أسابيع واعتقدت من عنوانه (عملاق بنى مر) أن واضـعه — الزميل سليمان مظهر — قصد به إلى الحديث عن (ناصر) ، لعل هذا الكتاب كان يحسن أن يسمى (ميثاق العملاق) بعد أن استنفد الكاتب كل طاقاته — وهى كبيرة ومقدورة — فى إبراز كل اتجاه فى هـذا الميثاق ، بعـد أن أحسنت ريشته رسم العملاق .

أى جدوى بعد هذا كله فى أن أناقش (الميثاق) ؟

وكتابى — إلى جانب انعدام الجدوى — لا يستهدفه — كما قلت — إلا من حيث كونه (الحدث المثير) الذى اخترته لأشهر عنده إيمانى « بالرجل الذى تآمرت عليه ».

***

وليس معنى تحللى من مناقشة « الميثاق » ، إخراجه من دائرة قلمى، أو من دائرة تفكيرى ، بل إن أى كاتب يحاول عبثاً أن يتجنب « الميثاق » إذا أراد أن يكتب عن معارك العروبة التى تجرى اليوم فوق المنطقة العربية ، أو عن أى عمل يقوم اليوم على أرض هذه الجمهورية التى يحكمها هذا « الميثاق » ، أو عن أى تصرف ينهض به أى حاكم عربى تجاه أى اتجاه فى السياسة الدولية دون أن نحدد موقفنا منه على أضواء هـذا « الميثاق » ..

***

لقد أصبح هذا «الميثاق» بالنسبة لنا ، دستور الدساتير..

وعلى كل النقاش الذى دار حوله ، ودار عليه ، ما أزال أعتقد أنه لم يناقش كما كان يجب أن يناقش ، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا الحد ، وأعتقد أن خير لغة ، تشرح الميثاق ، هو تطبيق الميثاق ، وأن خير شرّاح للميثاق ، هم الذين يضعون الميثاق موضع التنفيذ ، و يومها يكشف لنا الميثاق — بلغة لا تعرف المداراة ولا النفاق ، عن أسراره وخوافيه ، وعما يعنيه كل سطر فيه ..

* * *

وفى رأيى أن « الميثاق » معجزة « ناصر » ، إن رخص لنا «المجاز» فى استخدام هذه العبارة ، بنية طاهرة ، ومن غير أى تأويل خبيث ..

« ناصر» بَلْوَرَ تاريخ أمته ، بكل أمجاده وبكل فجائعه وبكل تجاربه ، وبَلْوَرَ حاضر أمته بكل انتصاراته وبكل نكساته و بكل معاركه ، وبلور مستقبل أمته ، بكل آماله التى لا تقف عند حد .. والتى يرجو أن تتحول بين يديه فى الغد.. بناء شاهقاً يقوم فوق أرضه فى عزة وشموخ ..

« ناصر » بلور تاريخ أمة ، فى أمسها و يومها وغدها ، وبلور شخصه معها ، بكل قدراته وطاقاته وآلامه وآماله ، وبكل ثورية فيه وموهبة ، و بكل حكمة أوتيها ، وبكل معركة خاضها ، وبكل تجربة اجتازها ، وبكل مرارة لقيها ، وبكل تآمر يتوقعه ، بلور هذا كله مزيجاً منه ومن أمته ومن عروبته ومن شرقيته ومن إسلامه ومن إنسانيته ، فكان هذا « الميثاق » .

* * *

وخير (مقياس) أقيس به هذا الميثاق ، هو ما كتبه عنه الكاتبون ، وما تحدث به المتحدثون .

وحصيلة الكتابة والحديث ، تثبت أن الباب سيظل مفتوحاً أمام المزيد من الكتابة وأمام المزيد من الحديث .

وأعتقد — وأرجو ألا أكون ظالماً — أن واضع (الميثاق) نفسه لم يدر بخلده الكثير مما دار بخلد الكاتبين والمتحدثين — وهو يضع الميثاق .

ويعرف كل من مارس الفن والأدب ، أن عباقرة الفكر فى كل عصر ، أرسلوا أنوارهم عبر الحياة نتاجاً ، من غير أن يخطر لهم أن الشراح والنقاد عبر القرون التى تتوالى سيذهبون فى استخراج ألوان من الدر كامنة فى أعماق النتاج ، مذاهب لم تجل بخاطر العبقرى الذى أنتج .

ذلك شأن الرسالة التى تتنزل على الفكر إلهاماً من غير أن يرى الملهم كل أبعادها .

و (ناصر) يحمل رسالة ، ما يزال يؤديها ، وما يزال يقاتل فى طريق أدائها ، وليس لديه الوقت الكافى لأن يدير رأسه إلى الخلف ليرى أى المحن اجتاز ، وأى العقبات ذلل ، وأى الجهد بذل ، وأى الليالى سهر ، وأى التجارب حصل ، ليس لديه الوقت لأنه لا يزال يخوض المعركة ، ولا يزال يمشى بالراية إلى أهدافها .

وكل الذى حدث أن مراحل على الطريق طواها ، وبلغ حداً تحتم الوقوف عنده ليبدأ مرحلة جديدة ، فكان لزاماً أن يكون للمرحلة الجديدة والأخيرة دستور يحميها ، ويغذيها ، ويحدوها ، ويجدد لها شبابها كلما حاولت الشيخوخة أن تطل عليها . .

***

والذى حدث أنه قاد الطلائع الثائرة — باسم أمته — عشر سنين . .

وحان أن تتلقى أمته الأمانة وتنهض بالعبء ، بعد أن عبّد لها الطريق ، وحرر لها الأرض والفرد ، ومكن لها من أن تكشف نفسها ، فكان عليه أن يقدم لها حساباً عما حققه وحصله ووعاه ، وعن «رصيده» المتبقى «للغد» فى « مصارف الأمل » جاء يرده إلى صاحبه ليقوم عليه ، ولتتولى القاعدة الشعبية زمام القيادة بنفسها ، بكل طاقاتها المدخرة ، بجهد أصغر طفل فيها وأكبر شيخ ، بكل الأفكار الخلاقة فى القرية والمدينة وبكل السواعد المفتولة فى كل شاب وشابة . .

آن للقاعدة — بفضل هذا القائد — أن تتقدم القيادة ولا تتخلف عنها لأن الطاقات الخلاقة فى الشعوب هى وحدها التى تستطيع أن تصنع الغد، و(الميثاق) يحمل لها تجارب أمسها ومعارك يومها ، وعليها هى أن تمشى إلى غدها ، والفجر أوشك على أن يرسل خيوطه فضية وضاءة ، برغم كل ما يلوح فى أفق المنطقة من عتامة عابرة ..

* * *

الكل الآن يعمل ، أو يتأهب للعمل ، أو يفكر فى أن يعمل .

إن (الميثاق) افتتاح لهذا العمل ..

و (القائد) عندما ألقاه نصوصاً ، إنما قص شريطه ، وضغط زره ، وبدأت العجلة تدور ، والعمال يتدفقون .

و «لويس عوض» يراه فلسفة متكاملة ومن هذه الزاوية يناقشه ..

وعلماء الإسلام فى « نور على نور » يرون فيه تحقيقاً لأوامر الإسلام ونواهيه .. ومن هذه الناحية يناقشونه ..

والدكتور عيسى من أساتذة كلية التجارة يرى فيه بناء اقتصادياً متكاملا .. نبع منا .. وماشى شريعتنا ، ووافق طبيعتنا . .

وأحمد حمروش يرى فيه — وخدمته العسكرية تطارده — أنه يحدد للناس «خطوات السير» .

وكامل الشناوى ، يرى فيه مصدر وحى له ، يتحول بين يديه أنشودة تغنى ، وهو فى يد السباعى و إحسان ومحفوظ و بدوى وغراب قصة تروى ..

وعبد الرحمن الخميسى ، يرى فيه السلام الذى يحبه ، غير مجلوب ، من أى مؤتمر فى ڤيينا أو موسكو ، وغير مصنوع فى أى بلد .

وعبد الرحمن الشرقاوى ، يستمد من أضوائه ، مسرحية تمثل ..

ونعمان عاشور .. « ينحت » منه « الميثاقية » التى لا تقهر .

وسعد وهبه .. يرى فيه بناء دراميا يحكى الواقع .. ويمر بيد المحو على تاريخ المرحوم ارسطو .

والنشاشيبى ، يرى فيه صورة العائدين إلى الوطن الحبيب .

وبنت الشاطىء ترى أنه رد الكرامة إلى الأرض الطيبة التى ألّهت إيزيس وتوّجت حتشبسوت وكليوباتره وشجرة الدر قبل أن تسمع الدنيا بحقوق النساء .

والفلاح يرى فيه أنه إنما وضع ليرد إليه أرضه .

والعامل يرى فيه أنه إنما قام ليملّكه المصنع .

وناديه الحكيم .. رئيسة قسم التجميل بمحلات عمر افندى وعضو المؤتمر ، ترى فيه أنه إنما جاء لينفض عن المرأة أكفانها ، وينطلق بها إلى محلات عمر افندى أيضاً .

والشعوب العربية ترى فيه أنه إنما فصّل على قدّها ، ثوبا لوحدتها .

واليهود قد يرون فى أبوابه العشرة ، نقلا لما جاء فى ألواح موسى التى حطموها ، إلى العروبة الصاعدة ، التى تحترم «الوصايا العشر » وتحتقر التلمود العدوانى الزائف .

أما المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فله رأى شامل فى الميثاق ، بعد أن مارس أعضاؤه حرية النقاش على أوسع نطاق .. وخاضوا الغمار أحراراً ، بكل سذاجة الريفى منهم ، وبكل أمية الأمىّ فيهم ، وبكل علم العالم وفن الفنان ، ورأى الباحث ، وانتهوا أخيراً إلى ملاحظات لهم ، ثم لم يجدوا بينها وبين الميثاق تناقضاً ، فسجلوها على هامشه وتحرجوا من أن يمسوا نصوصه وكان هذا هو رأيهم.. على الرغم من أن واضعه إنما طرحه عليهم ليدخلوا ما شاءوا من التعديلات عليه ، وأكد لهم أن زمناً سيجىء يغدو هذا «الميثاق» فيه ثوبا ضيقاً ، أو باليا — ويومها لابد لهم من أن يصنعوا بأنفسهم ميثاقاً غيره .

* * *

بقى بين هذا الزحام رأيى المتواضع فى الميثاق — كمواطن تآمر على واضع الميثاق .

ولقد حزمت أمرى كما علمت .. ورأيت ..

رأيت تحية له ..أن أقف عنده و«أن أشهر إيمانى بواضعه» وهذا هو «كل رأيى» ..

* * *

وحتى لا يبقى بين جنبى سر لم أفضه أو لم أنفضه عنى ، أصارحك القول ، أن هذا الكتاب لم يكن فى ذهنى يوم قررت إشهار إيمانى .

وكان أول ما خطر لى — والحزفة دائماً تدركنى — أن أصدر جريدة ، أتخذ من أول أعدادها ، «منبراً» أشهر من فوقه إيمانى ، ولكن اللجنة التحضيرية سددت إلى هذه النية أولى ضرباتها فقررت عزل كل من حكم عليه فى القضايا السياسية .

وقابلت الضربة بابتسامة راضية ...

ولم أشأ أن ألتمس «إحلالى» من هذه «العقوبة» كما فعل «غيرى» ، بل لم أشأ أن ألتهم ، حتى إلى هدفى ، فاستصدرت من « الاتحاد القومى » ترخيصاً بمجلة أسبوعية ثقافية [1] باسم حرمى ... وهى شاعرة ناصرية على مستوى العقيدة ... واستجمعت كل قوتى لمفاجأة القراء بالعدد الأول منها ... و بإيمانى مشهراً على صفحتها الأولى ...

ولكنى عدت فذكرت أن إشهار الإيمان فى مقال لا يكفى ، وأن القارىء فى حاجة لأن يسألنى : «لماذا كفرت بالرجل ، ولججت فى الكفر حتى تآمرت عليه » ثم « لماذا تجىء الآن لتعلن إيمانك به ... وكيف نصدق أنك صادق فى هذا الإيمان ؟ » ...

ونحيت « المجلة » — أو على التحديد أصدرت عدداً منها احتفاظاً بالترخيص أو احتراماً للقانون — و برزت فكرة هذا الكتاب .

* * *

(١) اسم المجلة « رسالة الفكر » لصاحبة امتيازها السيدة جليله رضا .

وعسى أن أكون بهذا الفصل القصير ، قد استطعت أن أشهر إيمانى فى وهج الميثاق لحناً نابعاً من صميم الروح والوجدان ، ومن أعماق الضمير والإدراك ، أوقّعه بكل أصابع القلم .. على أوتار هذا « الحدث المثير » .

* * *

ومن غير أن أعرض بأى نقاش للميثاق ، أرجو أن أكون قد رسمت بأمانة هذه المرحلة السابعة والعشرين فى موقفى من « الرجل الذى تآمرت عليه » وأستغفر الحق مرة أخرى وأقول : « من الرجل الذى آمنت به » .



كلمة ختامية

حديث ... فى الرسالة والرسول

أرانى فى «خاتمة كتابى» .. مشدود الريشة والمشاعر إلى نفس الحديث المشبوب الذى شدتنى إليه بداية الكتاب .. وفى أول فصل من فصوله .. بل فى كلمة « الإهداء » أيضاً .. حديث الرسالة والرسول .. حديث الذين ضلوا طريقهم إلى « الناصرية » كرسالة .. وكانوا صادقين فى الضلة .

بل أكاد أقرر أنى مشدود إلى الحديث عن « الرسالة والرسول » .. أى رسالة وأى رسول ..

* * *

يا أخى العربى الصاعد

لا تصدق شيطانك إذا هو وسوس فى صدرك بأن حديثى عن كفرى وإيمانى بالناصرية أو بناصر ، وعبر كتاب كبير ومثير ، تطاول إلى أربعمائة من الصفحات ، إنما يعنى فى ميزانى ، أن « كفرى » — كمواطن من المواطنين — ثقل فى الميزان السياسى ، أو أن « إيمانى » — ككاتب من الكتاب — أمر يشغل ناصر ، وأنت تعرف مكانه اليوم بين الأقطاب ..

ولو أن الأمر كان أمر نفع شخصى ، لما بددت عشر سنوات من عمرى ، هى بين العشرات أغلاها وأحلاها كما قلت قبلا ، ولأشهرت إيمانى من البداية ، ولمشيت فى الصف رافع الرأس ، رافع الراية ، وما كان أشد حاجة الدعوة يومها إلى الدعاة ..

* * *

وأنا إذن ، حين أتحدث عن شخصى ، إنما أمثل فريقاً من الشعب — كثرة كان

أو قلة ، ضل الطريق إلى الأهداف ، صادق الضلة ، ولم يجد من بين الأقلام التى انصرفت إلى مناصرة الثوار ، من رفع الغطاء عن هذا الفريق ..

* * *

وفى البلد غير هذا الفريق فريقان آخران « سافران » أو فى القليل « مفهومان » — ولا يتطلبان منى أقلاماً أو أوراقا ، وأعنى بهما فريق «الأنصار» وفريق «الخصوم» .

فأما فريق الأنصار ، فهم الذين أيدوا الثورة من أول يوم لها ، وعُرِف عنهم عبر السنين العشر أنهم من خلص أنصارها ، ومن بينهم فعلا مخلصون لا ترقى الشكوك إليهم ولا تلقى الشبهة عليهم ، ومن بينهم آخرون مردوا على النفاق ، وارتدوا أزهى أثواب الولاء ، فلا تستطيع الكشف عن نواياهم ، إلا إذا كشفت الأحداث عنهم ، لأننا كما قال بحق كمال الدين حسين : «لا نملك ترمومتراً نقيس به صدق النوايا أو حرارة القلوب» وحسبك ذلك الضابط الشاب الذى أغرته الرجعية السورية بالانضمام إليها ، وعبر الحدود بين لبنان وسوريا خفية ، وأغلقت سوريا الحدود بينها و بين لبنان ليلتها لتغطى رحلته ، أو لأغراض أخرى ليس من مهمة الكتب أن تعرض لها ، حسبك ذلك الضابط الشاب الذى عاش العمر ناصرياً على مستوى العقيدة أو هكذا قال كل عارفيه ، واهتزت «القيم» أخيراً بين يديه — ولا أدرى كيف تهتز القيم؟! — فتخلى عن واجبه وعن شرفه العسكرى ، وخان بلاده ، وزعيمه ، وعقيدته ، وماضيه ، وأفكاره ، وكفاحه ، ومضى بليل — مع الخفافيش — يعبر الحدود ، ليقف فى مؤتمر صحفى فى دمشق وليهاجم نظام الحكم فى القاهرة ، وكان كلما سئل سؤالا صريحاً عن شخص « ناصر » أغضى حياء وأفلت من الإجابة .

أى (ترمومتر) كان من الممكن أن نقيس به نية هذا الشاب ، أو حرارة إيمانه ، أو مستوى (القيمة) فى (تفكيره) ، أو معنى (العقيدة) فى (ضميره) ؟

* * *

و« الأنصار » — إذن — أنصار .. والحديث عن نواياهم ، لا طائل تحته ..

* * *

و (الخصوم) — إذن — خصوم ، ووصفهم واضح ، ووضعهم مفهوم ، جردتهم (الثورة) من أسلحتهم ، ونزعت عنهم كل ما فى حوزتهم ، من أدوات النفوذ والسلطان ، ومن قوة العقار والمال ، ونزلت بهم من (سمائهم) إلى (أرضنا) ، فمن حقهم كبشر ، أن يخاصموا الثورة ، وأن يأتمروا بها إذا استطاعوا ، وما دمنا قد جردناهم من كل وسائل الاستطاعة ، فلا أقل من أن يتنفسوا بقولة سوء يجهرون بها ، أو بنية سوء يضمرونها ، أو بخصومة خرساء يطوون عليها الصدور ..

* * *

وإنى لحريص على عفة القلم وأنا أذكرهم ، وحريص على تجنب الهجوم كلما ذُكرت الأحزاب ، أو ذُكر الإقطاع ، أو ذكر رأس المال ، أو ذكر النفوذ والسلطان ، لأن التهجم على أبناء هذه الجبهات لا يتصل أصلا بأهداف ذلك الكتاب ، ولأنى أؤمن — وهذا هو الأهم — بأن الأمر بالنسبة إليهم قد انتهى أو كاد ، وشب (جيل جديد) ندر أن يعرف شيئاً عنهم : « تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يعملون » .

الفريق الضال

أما الفريق الذى أمثله — وهو الذى ضل طريقه وكان ينبغى أن يكون (مهدياً) لو أن (للهداية) فرعاً من فروع (حاتم) — فذلك هو الفريق الذى يستأهل شيئاً من (التقدير) ولعل من بينهم كثيرين لهم أثقالهم فى الموازين .. وأعنى بهم أولئك الذين ضلوا صادقين .. ضلوا وهم يحسبون أنهم يحسنون بهذه الضلة إلى الحق أو إلى الخير أو إلى الخلق .

* * *

بل لعل من بينهم من طوردت فيهم « أفكار لها قيمتها » أو « أفراد لهم دورهم » .. ولعل من بينهم من عناهم « محرر الأهرام » فى فصل له ممتع .. وهو يطالب بإعادة التفكير « فى أحكام كثيرة أصدرناها قبل مرحلة الوضوح الفكرى التى يبلورها الميثاق ، كان بيننا من يسمى أى داعية إلى تغيير الأوضاع شيوعياً .. وكان بيننا من يسمى أى مالك لقطعة أرض أو لمصنع أو لعقار .. إقطاعياً » ثم قال — وقال بحرارة وقال بحق — إن هذه الأحكام المطلقة « مسألة تحتاج إلى مراجعة » .

وفى وهج هذه الدعوة أعلن أن الذين أمثلهم — ولا أعرف بالطبع أحداً منهم — وإنما أعرف أن لهم وجوداً هنا .. ووجوداً فى كل بلد عربى .. يحتاج كل أمرهم إلى « مراجعة » و « مراجعة نابهة وعادلة وسريعة » .

وبكل ما يحمله « قلبى » من « صدق » .. وبكل ما يحمله « قلبى » من « حرارة الرغبة فى التعبير عن هذا الصدق » أقول مع الكاتب « نحن فى حاجة إلى أفكار كثيرة .. وإلى ناس بغير عدد » .

* * *

وقد لا تكون المسافة بعيدة بين الذين أعنيهم .. وبين الذين عناهم « الميثاق » وهو يتحدث عن « النقد البناء » .. ويدعو إلى ممارسة الحرية .. ويرى فيها « الطريق الفعال لتجنيد عناصر كثيرة قد تتردد قبل المشاركة فى العمل الوطنى ، والحرية هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على سلبيتها وتجنيدها اختيارياً لأهداف النضال » .

* * *

وقد لا تكون المسافة بعيدة بين الذين أعنيهم « على مستوى القوة » .. وبين الذين عناهم كمال الدين حسين « على مستوى الضعف » .. وهو يقدم لـ « فلسفة الثورة » ويتحدث عن بعض « الضعاف » الذين يحسون بالقلق حين يرون اختلاف القيم وتغير الموازين فى الحياة العامة التى يحيونها ويقعون فى حيرة من أنفسهم ويرى أن « من حقهم أن نلتمس لهم العذر وأن نصفح عن بعض ما يقعون فيه من زلات بغير قصد » :

ثم يقول : « وقد يكون من واجبنا ... أن نحاول توجيه هؤلاء الحائرين القلقين وتقودهم بلطف إلى حيث يستطيعون أن يروا بوضوح وأن يحكموا بدقة وأن يوازنوا بأمانة وتجرد » .

أقول قد لا تكون المسافة بعيدة أيضاً بين الذين أعنيهم والذين عناهم ... وإن كان الخلاف جذرياً فى (الصنف) لأنى إنما عنيت رجالا أشداء لا ضعافاً ... وأفكاراً لها قيمتها ... وأفراداً لهم دورهم ... ضلوا صادقين فى الضلة ... وعرفوا وجه الحق فعلا ... ويودون لو أقدموا ... ولكنهم يترددون .

* * *

وعند هذا الوصف ... ينتهى حديثى إلى مكانه من موضوع «الرسالة والرسول» ليبدأ هذا الحديث عن « الرسالة » وعن « الرسول » .

وأياً كانت (الرسالة) نازلة من السماء أو نابعة من الأرض ... وأياً كان (الرسول) موحى إليه من الله ... أو مسوقاً إلى الخير بالإلهام ... لا بد أن يوجد خلق كثيرون يخالفون عن (أهداف الرسالة) ... ويخالفون عن (أساليب الرسول) .

وإذا كنا ننحى عن هذا الحديث موضوع (الإيمان بالله) بعد أن ثبت من كتاب الله أن (أكثر الناس) هم الذين لا يؤمنون — لأن (الإيمان بالله) يتطلب (الإيمان بالغيب) — فما الذى نقوله فى سيد الخلق ورسول الله — محمد بن عبد الله — ولم يكن الأمر معه يتطلب (إيماناً غبياً) — كما يقولون — أو (إيماناً غيبياً) — كما نقول ... لأن محمداً — صلوات الله عليه — كان سيداً وابن سيد ... ومن ذؤابة قريش ... وعرفوه ممتازاً من طفولته بالصدق وبالأمانة ... فأجمعوا على أنه (الصادق الأمين) ... فى كل أطواره — من الطفولة إلى الرجولة — وحكموه فى أخطر أمورهم وكان يومها شاباً ... وتزوج من (خديجة) قبل (الرسالة) فأصبح من ذوى اليسار فيهم ... وعلى مستواهم ... ما بال هذا الإنسان السوى ... ما بال هذا الرجل النموذجى .. ما يكاد يتلقى (الرسالة) ويدعو إليها .. حتى يكذب به فيها من كانوا يدعونه (الصادق الأمين) قبلها ؟ ثم ما بالهم وقد عرفوه (عفاً) و (أميناً) و (رضياً) (زاهداً) ... ما بالهم

يظنون به الظنون ... ويحسبون أنه من طلاب الأمجاد والملك والمال ... ويذهبون إليه ليعرضوا عليه ما يشاء منها... على أن يدع «قصة الرسالة» وينسى «موضوع الرسول» ؟

أو ما يدل هذا على أن البشر مفطورون على حب التملك ... وعلى الاستمساك بكل ما ورثوه من مال وعقيدة وتقاليد ... وعلى أن أى رسالة جديدة لا بد أن تساء بها الظنون ؟

* * *

أيكون كثيراً — إذن — لو نحينا (الدين) المؤيد بالقوة الخفية جانباً ... وحططنا الثقل على (الدنيا) التى تتشعب فيها مذاهب التفكير... أن نقول إن الخصومة للثورة كانت (أمراً بديهياً) من فريق (الخصوم) الذين أضرت بهم مبادئها ... وكانت (أمراً منطقياً) من فريق الشرفاء الذين أضلهم الخصوم فساء ظنهم بالثورة ولم يجدوا من الثوار من يعنى بهديهم .

* * *

وإذا عدنا إلى (الدين) ... لنستعين من أحكام الشريعة السمحاء بما نسميه (القياس) ... أفلم يكن عمر بن الخطاب ... يتبختر فى شعاب مكة... شاهراً سيفه يهدد به محمداً ... وكل من يؤمن بمحمد ... ولم يكن عمر يصدر فيما يفعل إلا عن (إيمان) بأن محمداً إنما يريد بأم القرى والأشراف وباللات والعزى ... وبقية الآلهة ... شراً وشراً أكيداً ؟

وحين انتهى إليه أن أخته هى الأخرى قد (ضلت ؟!!) و (أسلمت ؟!!) هى وزوجها ، وسل عمر سيفه ومضى إليهما فى دارهما لينزل تأديبه بهما ، وكانت ساعة الهدى قد حانت ، وأصغى إلى شىء من كتاب الله يتلى ، ألم يندفع بكل طاقاته ليعلن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والرسول يكبر ، ترحيباً بابن الخطاب سيفاً من سيوف الله ؟

عمر ، الذى ولغ فى الضلالة سنين ، إلى أين انتهى مكانه بعد أن آمن ؟

انتهى مكانه — بعد الرسول والرسالة — إلى مقام الخلافة ، إلى (سوبرمان) من (صنع الله) لا من صنع (نيتشه) ، (سوبرمان) لا تعرف البشرية له نداً ، عبر عمرها الطويل وبإجماع الفاقهين فى كل علم ودين ... ولم يؤخذ على (عمر) أنه كان يخاصم محمداً ويهاجم أصحاب محمد ... بل التمسوا له عذراً ... فقد كان يعيش بين خصوم الرسول من أقطاب قريش وعيونها ، ومن شباب قريش وشيوخها ، وكان يصغى إليهم وهم ينشرون الأكاذيب عن الرسول فصدقهم ، وخاصم الرسول صادق الخصومة ، حتى واجه الحق يوماً وآمن .

ولم يقل أحد أن (عمر) كان أقل شأناً من (على) بحجة أن (علياً) كان أول من أسلم من الفتيان ، وأن عمر ظل وقتاً غير قصير يحارب الرسالة ويخاصم الرسول ، وإنما قيل أن عمر كان يعيش فى معسكرات الخصوم فهو معذور ، وأما (على) فابن عم رسول الله وصفيه وحبيبه وأعرف الناس به فلا عجب أن يكون أول من يؤمن برسالته .

* * *

بل إن (عمرو بن العاص) و (خالد بن الوليد) ومكانهما فى الإسلام هو مكانهما .. لم يسلما إلا بعد الهجرة بثمانى سنين .

* * *

هذا الفريق الضال ، والذى أسميه (صادق الضلة) ، هو الذى فكر مثل تفكيرى ، فضل كما ضللت ، عن إيمان منه بأنه على الجادة ، والفارق بينى وبينهم أنى ظهرت على (الشاشة) لأنى (تآمرت) ، ولم يظهروا لأنهم (لم يتآمروا) ، والفارق أيضاً أن الدراسة أتيحت لى ، وقد لا تكون متاحة لكل فرد منهم ، ومن واجبى إذن أن ألقاهم فرداً فرداً ، وأن أفتح أمامهم الطريق إلى الرؤية الواضحة .

ولكن أين هم ، وما هى أسماؤهم ، وكيف السبيل إلى لقائهم ؟

لا سبيل غير « الجريدة » أو الكتاب ، وصح عزمى على الكتاب .

وبقى فكرة تخايلنى ، وتتوارى ، حتى أعلن « الميثاق » .

وتغير الموقف كله .

لم يعد الأمر إذن أمر ذلك الفريق ، أبصّره بالطريق ، وإنما أمسى الأمر ، أمر موقفى كله إزاء العرب والعروبة ، وإزاء المترددين فى كل بلد عربى ، وإزاء (المتآمرين) الذين يجدون فى بعض (المترددين) صيداً غير متعذر .

ومرة أخرى صح عزمى ، على التعجيل بوضع الكتاب .

وبدأ القلم يجرى على الورق ، ومعالم الزينة احتفالا بالعيد العاشر تقام .

وها هو ذا كتابى .

* * *

يا أخى العربى الصاعد .

يا مشدود العاطفة والمشاعر إلى حلمك الكبير الذى تحول فى عزة وشموخ إلى حقائق تدير الرءوس .

أُتراني — بكل ما قصصته عليك من الأحداث والوقائع ، وبكل ما نقلته إليك من وساوس ، وهواجس ، ونبضات وضربات ، وأوهام ومخاوف ، عن النفس والضمير وعن العقل والقلب والوجدان ، أتراني بعد هذا كله قد بلغت الغاية عندك أو غدوت مفهوماً منك ؟ أم ترانى اهتديت إلى نفسى وضللت الطريق إليك ؟

* * *

وإن أنت كنت من (القلة) ، إن كنت قد ضللت الطريق صادق الضلة .. أتراني قد استطعت أن أفتح الطريق أمامك ، وأن أفسح لك فى « المكان الشاغر » للشوق إليك ، وأن ألقى النور على الطريق ساطعاً يمشى بين يديك ؟ وغداً أراك على الطريق

رافع الرأس موصول الضمير بالبناء الـكبير الذى تراه اليوم رأى العين وهو يقوم ؟ أم ترانى قد خرجت من « الضلة » وحدى ، كاسف البال أسفاً ؟

* * *

وأنت يا أخى جمال .. يا ابن شعبى العريق .

أنا لا أرفع كتابى إلى « مقام السيد الرئيس.. صاحب الفخامة .. جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة » لأتلقى من السيد « رئيس ديوانك » أو السيد « كبير التشريفاتية فى مكتبـك » خطاباً يزف إلىّ فيه أن الـكتاب عرض على « المسامع الـكريمة » و « نال حسن القبول » ؟ !

أبداً .. يا أخى فى الـكفاح و إن كنت رائداً .

وأبداً .. يا أخى فى السلاح و إن كنت قائداً .

وأبداً .. يا أخى فى العروبة و إن كنت زعيماً .

أبداً . . لم يحدث أن وزناك بميزان الرياسة .. والدنيا مليئة بالرياسات وما أهونها على الحقائق وما أخفها فى الموازين .

ولم يحدث أبداً .. أن نظرنا إليك .. نظرة الشعوب إلى أبهة الملوك .. أو فخامة الحاكمين .. وأنت أعرف الناس بالعمالقة والأقزام من الملوك والحـكام .. و بالرءوس التى تحمل التيجان وتزدان بالذهب و بالماس .. و بين أيديهم تمثل الخلائق .. بعضهم يخرون سجداً .. و يزحفون ركعاً .. و يلثمون أطراف الثوب وأنامل اليد .. وفى قلوبهم ما فيها .. من النار التى تتأجج .. ومن الحقد الذى لا يهدأ .

* * *

لم يحدث أبداً أن وزنّاك بمثل هذه الموازين ..

ولم يحدث أن تحدث عنك مواطن ، ولم يقل : (جمال) ولا أكثر ، كما كانوا

يقولون فى صدر الإسلام (عمر) على جلاله الذى لا يطاول .

ولو أنى أردت أن أضع (كتاباً) أترضى به (رئيس دولة) — ولا أقول : (أنافق) — لوفرت على نفسى الضنى والأسى والمتاعب ، ولدخلت إليك من البداية ومن (الباب السلطانى) الذى دخل منه أناسى كثيرون ، عبر عشر سنين .

***

يا أخى .. ويا ابن شعبى

أنا لم أضع هذا الكتاب لأستغفرك وأتوب إليك — فأنت لست رباً وأنا لست عبداً .

وإنما أنت شاب من (بنى مر) ، حملت (رسالة) تطهير وتحرير ، وحملت رسالة عروبة ووحدة ، وحملت رسالة النور لقارة مظلمة ، وحملت رسالة (القدوة) لكل أمة مكافحة ، وحملت رسالة المساواة والإخاء ، وحملت رسالة الهدم والبناء ، وحملت أخيراً رسالة السلام والحب ، لكل فقير ومظلوم ، ومتعب ..

وإنما أنا كاتب من الكتّاب ، أضلونى على علم ، وكان ينبغى أن أعلم ، بخاصمتك بغير حق وما كان ينبغى لى أن أخاصم ، وهالنى أن أراك تمشى إلى أهداف العروبة مرفوع الرأس ثابت الخطى ، وأن يضعوا أمامى مرآة أراك فيها تمشى على يديك مقلوب الوضع ، وعلى صورة لا تكاد تصدق ..

ودرستك ، وعرفتك ، وأحببتك ، وآمنت بك ، وانتظرتك ..

انتظرتك على الطريق طويلا .. حتى تجىء ..

وقد جئت..

جئتنى وجئت مواطنيك ، وجئت العروبة كلها ، بالإطار كاملا ، والبناء متكاملا ، والخطوط واضحة ، والقسمات مرسومة ، والملامح مستكملة ، و (الميثاق

فى يدك) والأمانة تردها إلى شعبك ... يومها لم يكن مفر من إعلان (إيمانى) ... ولـكن كان يعوزنى أنا الآخر أن أجىء ...

وجئت ، جئتك ولا أملك غير قلمى ، وقلبى ..

قلبى المفعم إيماناً بك ، وبرسالتك ، ويريد أن يشهر هذا الإيمان على رءوس الملأ .

و (قلمى) الذى تخيلته قادراً على التقاط صورة لهذا القلب بكل ما فيه ، فعهدت إليه بالأمانة ..

وقد أداها ، والتقطها ، وعلى ورق ، وكما تلتقط الصور .

وقد لا تـكون الصورة جميلة .. لنقص فى فن المصور .

ولـكن المهم فيها .. أنها أمينة .. لا تـكذب .

هذه الصورة ، هى هذا الـكتاب يا أخى ..

هذه الصورة هدية منى إليك ، فتقبلها يا أخا كل عربى ..

وعليها بخطى وتوقيعى كلمة الإهداء المتواضع : « آمنت بك » .

محمد السوادى





١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة
تليفون ٢٩٣١٧



م
٢٥